
تراث أئمة الإسلام
البداية والنهاية
لشيخ الإسلام
الإمام الحافظ المفسر المؤرخ
عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي، الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ
حققه وراجعه وعلق عليه
محمد عبد العزيز النجار
الناشر
دار الغد العربي
٣ شارع دانش . العباسية
ت ٨٢٤٣٢٩١ القاهرة

البداية والنهاية

لشيخ الإسلام

الإمام الحافظ المفسّر المؤرخ

عماد الدين أبى الفدا إسماعيل

ابن عمر بن كثير القرشى، الدّمشقى

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

طبعة جديدة مُحققة ومُصحّحة

الطبعة الأولى



الطبعة الأولى

١٩٩٠ م - ١٤١١ هـ

الناشر :  

الإدارة : ٣ شارع دانش باشا - العباسية (عبده باشا) القاهرة ج.م.ع
تليفون : ٨٢٤٣٢٩

المؤلف والكتـــاب

بقلـــم : الدكتور يوسف حســن نوفل

رئيس قســم اللغة العربيــة

بكليـة البنـات ـ جامعة عين شــمس

هو إسماعيل بن عمر القرشى ابن كثير البصرى ثم الدمشقى ، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعى ، مؤلف كتاب [**البدايـة والنهـــاية**] .

ولد سنة ٧٠٥ هـ وتوفى سنة ٧٧٤ هـ بعد أن عاش حياة علمية خصبة ، أمد فيها المكتبة العربية بعلمه وفكره على تنوعهما وغزارتهما ، فقد كان حافظا وفقيها ، ومحدِّثا ، ومؤرخا ، ومقرئاً ، ومفسرا حتى قال عنه الحافظ ابن حجـر :

« إنه كان من محدِّثى الفقهـــاء » .

كما قال عنـــه :

« سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتُفع بها بعد وفاته » وهو أحد العلماء البارزين فى عصره ، وهو العصر الذى شهد ظهور عدد من الموسوعات .

والمؤلف ابن كثير كما قدمنـا ، متعـدد الأنشـطة له إسهامات متنوعة ما بين الفقه ، والحديث الشريف ، والتاريخ ، والتفسير ، وكل مجال من هذه المجالات يشهد له بإسهام وافر وحظ كبير .

* * *

من تصانيفـــــــه :

الكتاب الذى بين أيدينا : [**البداية والنهـاية فى التاريخ**] ، وقد اعتبره المؤرخـون من أهم كتب التـاريخ ، وعنـه انتخب واختـار ما كون به كتـابه [**الكواكب الدرارى فى التـاريخ**] .

ومن تصانيفـــــه أيضا :

تفسير القرآن العظيم ، والاجتهاد فى طلب الجهاد ، وجامع المسانيد ، والسنن الهادى لأقوم سنن ، والواضح النفيس فى مناقب الإمام محمد بن إدريس .

البدايـــــة والنهايـــــة :

أما كتابه الذى بين أيدينا ، وهو البداية والنهاية ، فهو موسوعة من موسوعات حضارتنا العربية ، وتاريخنا الإسلامى .

ونراه فى كتابه هذا يجعله فى ثلاثة أقسام . وفى تأملها ما يشرح لنا سرّ تسميته : **[البدايـــة و النهايـــة]** .

ما البـــــداية ؟ . .

وما النهـــــاية ؟ . .

أما البداية فيقصد بها ، كما أوضح فى القسم الأول ، بداية الخلق والخليقة ، وتاريخ تلك المرحلة الموغلة فى القدم فيما قبل ظهور الإسلام ، ثم انتشار نوره فى الآفاق ، ورفرفة أعلامه فى كل مكان ، حيث قام الرسول الكريم ، محمـد صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ربـه ، واستقبلت البشرية عهـداً جديداً نقلهـا من الـظلام إلى النـور ، ومن السفه إلى الحكمة ، ومن الضلال إلى الهدايـة .

ومنهج ابن كثير فى تأليفه ـ فى هذه المرحلة ـ واضح بيِّن ، إذ يرجع إلى النصوص من الكتاب والسنة الشريفة مع بصر بما يرجع إليـه .

كما أنه يمضى على طريقة القدماء فى تسجيل جانب من السيرة النبوية فى فصول متتابعة .

وفيما بين [**البدايـــة**] كما يعبر المؤلف ابن كثير ـ و[**النهـــاية**] نجد قسما ثانيا عن تاريخ الإسلام مما بعد هجرة الرسول [ﷺ] من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة إلى ما قبيل وفاة ابن كثير سنة ٧٧٤ هـ .

ومنهجـه فى ذلـك ـ أيضـا ـ واضـح بيِّن ، إذ رتبـه على السنـين ، وسجل الحوادث والتواريخ ، واهتم بوفيات الأعلام ، وتتابعت فصول هذا القسم حتى أوفت هذا الجانب حقــه .

أما [النهـــــاية] . . . .

فيقصد بها ابن كثير ما ضمّنه القسم الثالث من كتابه ، حيث تحدث عن الملاحم والفتن والبعث والنشـور ، وبـذلك فإن قصده بالنهاية ـ حسبما يتضح من منهجه ـ هو ما ينتظر الإنسان فى نهاية مطافه من بعث ونشـــور .

والكتـاب مصدر من مصادر التاريخ الإسلامى ، واتخذه الدارسون مرجعهم فى هذه الحقب التاريخية ، وهو بذلك ـ أيضا ـ يُعدّ من كتب الثقافة العربية العامة ، أى أنه كتاب المتخصص وغير المتخصص .

وهو يذكر فى مقدمته موقفه من « الإسرائيليات » أنه لايذكر منها إلا ما أذن الشارع فى نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله [ﷺ] ، يقـول :

« فنـذكره على سبيل التحلّى به ، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه ، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله [ﷺ] ماصح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نُبيّنه » .

من المصـــادر والمراجع للتعريف بالمؤلـف

١ ــ *ابن تغرى ـ جمال الدين : المنهل الصـافى .*

٢ ــ *حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .*

٣ ــ *الحافظ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنـة .*

٤ ــ *الحافظ أبو المحاسن الحسينى : ذيل التذكرة .*

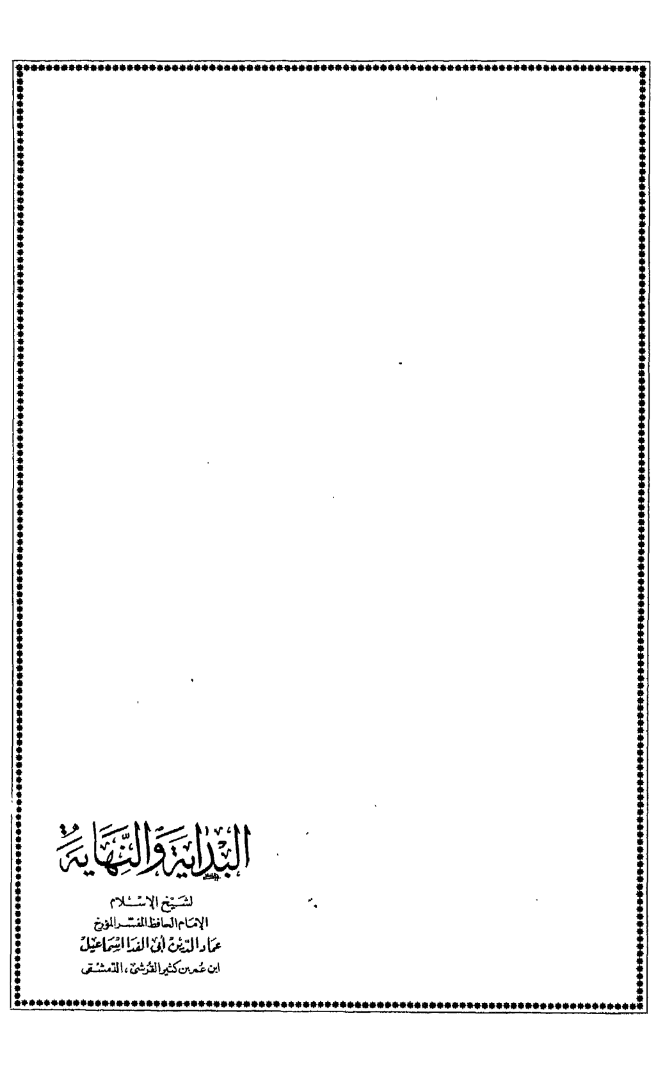
٥ ــ *الزركلـى : الأعلام .*

٦ ــ *صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، دار العلم للملايين بيروت ط ٦ / ١٩٨٥ .*

٧ ــ *عبد الحى بن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .*

٨ ــ *مناع قطان : مباحث فى علوم القرآن ، مكتبة وهبة ط ٥ / ١٩٨١ .*

٩ ــ *ابن ناصر الدين الدمشـقى : الرد الوافر .*


البداية والنهاية
لشيخ الإسلام
الإمام الحافظ المفسر المؤرخ
عماد الدين أبي الفدا إسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي، الدمشقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول والآخر، الباطن الظاهر، الذى هو بكل شىء عليم، الأول فليس قبله شىء الآخر فليس بعده شىء، الظاهر فليس فوقه شىء، الباطن فليس دونه شىء، الأزلى القديم الذى لم يزل موجوداً بصفات الكمال، ولا يزال دائما مستمراً باقيا سرمديا بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلى الكبير المتعال، العلى العظيم الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

رفع السموات بغير عمد ، وزينها بالكواكب الزاهرات ، وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا . وسوى فوقهن سريرا ، شرجعا [1] عاليا منيفا متسعا مقبيا مستديرا . وهو العرش العظيم . له قوائم عظام . تحمله الملائكة الكرام ، وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم . وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ، ويفد منهم فى كل يوم سبعون ألفا إلى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون إليه آخر ما عليهم فى تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم .

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام قبل خلق السماء ، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للألباء من جميع مايحتاج العباد إليه فى شتائهم وصيفهم ، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فى قرار مكين . فجعله سميعا بصيرا، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً. وشرفه بالعلم والتعليم. وخلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فأنّس بها وحدته ، وأسكنها جنته. وأسبغ عليها نعمته. ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق فى ذلك من حكمة الحكيم. وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، وقسمهم

---

(١) الشرجع هو العالى المنيف الشريف .

بقدره العظيم ملوكا ورعاة، وفقراء وأغنياء، وأحراراً وعبيداً وإماء . وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعرض، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض، إلى يوم الحساب والعرض، على العليم الحكيم . وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار، تشق الأقاليم إلى الأمصار، ما بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار، وأنبع لهم العيون والآبار، وأرسل عليهم السحائب بالأمطار: فأنبتت لهم سائر صنوف الزرع والثمار . وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقالهم: «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار»: فسبحان الكريم العظيم الحليم .

وكان من أعظم نعمه عليهم . وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهم، ويسر لهم السبيل وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم: مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء فى المبدإ والمعاد إلى يوم القيامة .

فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم ، والأوامر بالانقياد والنواهى بالتعظيم ففاز بالنعيم المقيم ، وزحزح عن مقام المكذبين فى الجحيم ، ذات الزقوم والحميم ، والعذاب الأليم .

أحمده حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، يملأ أرجاء السموات والأرضين، دائما أبد الآبدين ودهر الداهرين، إلى يوم الدين، فى كل ساعة وآن ووقت وحين، كما ينبغى لجلاله العظيم، وسلطانه القديم، ووجهه الكريم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا وزير له، ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم خاتم الأنبياء ، وصاحب الحوض الأكبر الرواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وحامل اللواء ، الذى يبعثه الله المقام المحمود الذى يرغب إليه فيه الخلق كلهم ، حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم ، وأعلى تشريف وتكريم . ورضى الله عن جميع أصحابه الغرّ الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الأنبياء . ما اختلط الظلام بالضياء ، وأعلن الداعى بالنداء ؛ وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم .

﴿ أما بعد﴾ فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه مايسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، والأرضين ومافيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين

وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بنى إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهى النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فنذكر سيرته كما ينبغى فتشفى الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل .

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك وما فى ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الأمور الهائلة ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع فى نقله ، مما لايخالف كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ . وهو القسم الذى لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لافائدة فى تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلى به ، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه . وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف نبينه . وبالله المستعان وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلى العظيم .

فقد قال الله تعالى فى كتابه ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ وقد قص الله على نبيه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات ، وذكر الأمم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحل بأعدائه . وبين ذلك رسول الله ﷺ لأمته بيانا شافيا ، سنورد عند كل فصل ماوصل إلينا عنه ، صلوات الله وسلامه عليه . ومن ذلك تلو الآيات الواردات [1] فى ذلك فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك ، وترك مالا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ، ويتراجم فى فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب ، مما لافائدة فيه لكثير من الناس إليه وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ، ولا ننحو نحوهم ، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار : ونبين مافيه حق مما وافق ماعندنا ، وما خالفه فوقع فيه الإنكار .

فأما الحديث الذى رواه البخارى رحمه الله فى صحيحه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بلغوا عنى : ولو آية ، وحدثوا : عن بنى إسرائيل ولا

---

(١) أى يذكر الأحاديث الشريفة عقب آيات الله البينات .

حرج ، وحدثوا عنى ولا تكذبوا على ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا . فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها ، فيجوز روايتها للاعتبار . وهذا هو الذى نستعمله فى كتابنا هذا . فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه ، استغناء بما عندنا . وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لايجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال .

فإذا كان الله ، سبحانه وله الحمد ، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضع ، وتحريف وتبديل ، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير .

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا ، وشرحه وأوضحه . عرفه من عرفه ، وجهله من جهله . كما قال على بن أبى طالب « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » وقال أبو ذر ، رضى الله عنه : « لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا أذكرنا منه علما » وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق ، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال « سمعت عمر بن الخطاب يقول : « قام فينا رسول الله ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم . وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » قال أبو مسعود الدمشقى فى أطرافه هكذا قال البخارى ، وإنما رواه عيسى غنجار عن أبى حمزة عن رقبة ، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده : حدثنا أبو عاصم حدثنا عروة بن ثابت حدثنا علباء بن أحمر اليشكرى : حدثنا أبو زيد الأنصارى ، قال قال : صلى بنا رسول الله ﷺ « صلاة الصبح ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى الظهر . ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا » انفرد بإخراجه مسلم فرواه فى كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى وحجاج بن الشاعر جميعا عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبى زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الأنصارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ بنحوه .

فصــــل

قال الله تعالى فى كتابه العزيز « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل » فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب مدبّر . مكوَّن بعد أن لم يكن ، محدث بعد عدمه . فالعرش الذى هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه وملكه وعبيده ، وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته « خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام . ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » .

وقد أجمع العلماء قاطبة لايشك فى ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم . فاختلفوا فى هذه الأيام أهى كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ على قولين كما بينا ذلك فى التفسير ، وسنتعرض لإيراده فى موضعه واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شىء مخلوق قبلهما . فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شىء ، وأنهما خلقتا من العدم المحض . وقال آخرون بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » الآية . وفى حديث عمران بن حصين كما سيأتى « كان الله ولم يكن قبله شىء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حُدس عن عمه أبى رزين لقيط بن عامر العقيلى أنه قال « يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء » ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به . ولفظه : « أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ » وباقيه سواء ، وأخرجه الترمذى عن أحمد ابن منيع وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذى حسن . واختلف هؤلاء فى أيها خلق أولا ؟ فقال قائلون خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها ، وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزى ، وغيرهما ، قال ابن جرير ، وبعد القلم السحاب الرقيق . واحتجوا بالحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه : قال قال رسول الله ﷺ « إن أول ما خلق الله القلم . ثم قال له اكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » لفظ أحمد . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب . والذى

عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانى وغيره (أن العرش مخلوق قبل ذلك) وهذا هو الذى رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه حيث قال : حدثنى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب وأخبرنى أبو هانىء الخولانى عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء » قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير .

وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذى كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن عمران بن حصين : قال قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ « جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ، فقال كان الله ولم يكن شىء قبله» . وفى رواية معه ، وفى رواية غيره «وكان عرشه على الماء . وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض » وفى لفظ : ثم خلق السموات والأرض . فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض . ولهذا قالوا جئناك نسأل عن أول هذا الأمر ، فأجابهم عما سألوا فقط . ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به فى حديث ابن رزين المتقدم .

قال ابن جرير وقال آخرون « بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش » رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : قالوا « إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء » وحكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال « أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما ، وجعل النور نهاراً مضيئا مبصراً » قال ابن جرير وقد قيل « إن الذى خلق ربنا بعد القلم الكرسى . ثم خلق بعد الكرسى العرش . ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة . ثم خلق الماء . فوضع عرشه على الماء » والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصـــــــل

فيما ورد فى صفة خلق العرش والكرسى . قال الله تعالى « رفيع الدرجات ذو العرش » وقال تعالى « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » وقال الله « لا إله إلا هو رب العرش العظيم » وقال « وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد » وقال تعالى

« الرحمن على العرش استوى » وقال « ثم استوى على العرش » فى غير ما آية من القرآن ، وقال تعالى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » وقال تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال تعالى « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » وفى الدعاء المروى فى الصحيح فى دعاء الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش الكريم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش العظيم (١) » . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثنى سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله ﷺ « أتدرون ما هذا ؟ قال قلنا السحاب قال والمزن قال قلنا والمزن والعنان ، قال فسكتنا فقال هل تدرون كم بين السماء والأرض قال قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكشف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شىء » . هذا لفظ الإمام أحمد . ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سماك بإسناده نحوه . وقال الترمذى هذا حديث حسن ، وروى شريك : بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبى داود « وهل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا لا ندرى » قال « بعد ما بيّنهما إما واحدة أو اثنتين أو ثلاث وسبعون سنة » والباقى نحوه .

وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطى قالوا حدثنا وهب بن جرير قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه قال حدثنا أبى قال سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عقبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال أتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال يارسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال

---

(١) راجع مفاتيح القارى فهارس فتح البارى .

ونهكت الأموال وهلكت الأنعام . فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك أتدرى ما تقول » وسبح رسول الله ﷺ فمازال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك إنه لايستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدرى ما الله إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب . قال ابن بشار فى حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث .

وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده ، قال أبو داود والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلى بن المدينى ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار فى نسخة واحدة فيما بلغنى . تفرد بإخراجها أبو داود .

وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى جزءاً فى الرد على هذا الحديث سماه (ببيان الوهم والتخليط الواقع فى حديث الأطيط) واستفرغ وسعه فى الطعن على محمد بن إسحاق بن يسار راويه . وذكر كلام الناس فيه .

ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق ، فرواه عبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما ، وابن أبى عاصم والطبرانى فى كتابى السنة لهما ، والبزار فى مسنده والحافظ الضياء المقدسى فى مختاراته من طريق أبى إسحاق السبيعى عن عبد الله ابن خليفة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد من ثقله » .

عبد الله بن خليفة هذا ليس بذلك المشهور . وفى سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه موقوفا ومرسلا ، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم .

وثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » يروى وفوقه بالفتح على الظرفية ، وبالضم . قال شيخنا الحافظ المزى وهو أحسن ، أى وأعلاها عرش الرحمن . وقد جاء فى بعض الآثار (أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وتسبيحه وتعظيمه) وما ذاك إلا لقربهم منه . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ . . وذكر الحافظ ابن الحافظ : محمد بن عثمان بن

أبى شيبة فى كتاب صفة العرش عن بعض السلف (أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة) وذكرنا عند قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) [١] أنه بعد مابين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة) واتساعه خمسون ألف سنة . وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهـذا ليس بجيد لأنه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لايكون له قوائم ولا يُحمل ، وأيضا فإنه فوق الجنة والجنة فوق السموات والأرض وفيها مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذى بينه وبين الكرسى ليس هو نسبة فلك إلى فلك . وأيضا فإن العرش . فى اللغة عبارة عن السرير الذى للملك ، كما قال الله تعالى (ولها عرش عظيم) . وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك . والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العـالم وهو سقف المخلوقات قال الله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وقد تقدم فى حديث الأوعال أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش ، وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقال شهر ابن حوشب (حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك) وأربعة يقولون (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) .

فأمـا الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صدق أمية يعنى ابن أبى الصلت فى بيتين من شعره فقال :

رجـل وثـور تحت رجل يمينه ... والـنسر للأخـرى ولـيث مرصـد

فقال رسول الله ﷺ صدق . فقال :

والشمس تطلع كل آخـر ليلة ... حمراء مطلع لونها متـورد

تأبى فلا تبـدو لنا فى رسلهـا ... إلا معـذبـة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ (صدق) فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات . وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال . اللهم إلا أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لاينفى ماعداهم . والله أعلم . ومن شعر أمية بن الصلت فى العرش قوله :

---

(١) أى فى تفسيره المشهور تفسير القرآن العظيم .

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالى الذى بهر النا س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لاينالـه بصر العيـ ـن ترى حوله الملائك صورا

صور جمع أصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو[1] والشرجع هو العالى المنيف . والسرير هو العرش فى اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه الذى عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته .

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ملائكة الإله مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة وقال أبو داود حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر ابن عبد الله أن النبى ﷺ قال « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام . ورواه ابن أبى عاصم » ولفظه مخفق الطير مسيرة سبعمائة عام .

وأما الكرسى

فروى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف عن الحسن البصرى أنه كان يقول الكرسى هو العرش وهذا لايصح عن الحسن ، بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا فى قوله تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) أى علمه والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم فى مستدركه . وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثورى عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر قدره إلا الله عز وجل ، وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس فى تفسيره عن أبى عاصم النبيل عن الثورى فجعله مرفوعا والصواب أنه موقوف على ابن عباس ، وحكاه ابن جرير عن أبى موسى

---

(١) قوله لنظره إلى العلو هكذا بالأصول . وفى الصحاح واللسان لثقل حمله .

الأشعرى والضحاك بن مزاحم وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ومسلم البطين وقال السدى عن أبى مالك « الكرسى تحت العرش » . وقال السدى السموات والأرض فى جوف الكرسى ، والكرسى بين يدى العرش ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال « لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ماكن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة » وقال ابن جرير حدثنى يونس حدثنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثنى أبى قال : رسول الله ﷺ « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » قال وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض » أول الحديث مرسل . وعن أبى ذر منقطع . وقد روى عنه من طريق أخرى موصولا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره أخبرنا سليمان بن أحمد الطبرانى أنبأنا عبد الله بن وهيب المغربى أنبأنا محمد بن أبى سرى العسقلانى أنبأنا محمد بن عبد الله التميمى عن القاسم بن محمد الثقفى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة . وقال ابن جرير فى تاريخه حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس عن قوله عز وجل « وكان عرشه على الماء » على أى شىء كان الماء قال على متن الريح قال والسموات والأرضون وكل ما فيهن من شىء تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسى . وروى [1] عن وهب بن منبه ونحوه . وفسر وهب الهيكل فقال شىء من أطراف السموات يحدث بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط . وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أن الكرسى عبارة عن الفلك الثامن الذى يسمونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشىء كثير ، ورد الحديث المتقدم بأن نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة وهذا ليس نسبة فلك إلى تلك . فإن قال قائلهم فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكا ، فنقول الكرسى ليس فى اللغة : عبارة عن : الفلك ، وإنما هو ، كما قال غير

---

(١) قوله ، وروى : هو ابن جرير المذكور آنفا .

واحد من السلف بين يدى العرش كالمرقاة إليه . ومثل هذا لايكون فلكا . وزعم آن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لادليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم فى ذلك أيضا كما هو مقرر فى كتبهم والله أعلم .

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب ابن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال « إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور لله فى كل يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » وقال إسحاق بن بشر أخبرنى مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال « إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة » قال « واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء . طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب . وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك » وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف « اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيل » وقال مقاتل هو عن يمين العرش .

باب ماورد فى خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى (خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) في غير ما آية من القرآن وقد اختلف المفسرون فى مقدار هذه الستة الأيام على قولين . فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . وعن ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وكعب الأحبار : إن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهن ابن جرير ، وابن أبى حاتم . واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه الذى رد فيه على الجهمية ، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم . وسيأتى مايدل على هذا القول . وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره أن أسماء الأيام الستة « أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت » وحكى ابن جرير

فى أول الأيام ثلاثة أقوال ، فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال « يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الإنجيل : ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى عن رسول الله ﷺ ابتدأ الله الخلق يوم السبت » وهذا القول الذى رواه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم . وسيأتى فيه حديث أبى هريرة (خلق الله التربة يوم السبت) والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدى عن أبى مالك ، وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصحابة ورواه أيضا عن عبد الله بن سلام ، واختاره ابن جرير . وهو نص التوراة ، ومال إليه طائفة أخرى من الفقهاء . وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا أكمل الخلق فى ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم فى الأسبوع وهو اليوم الذى أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتى بيانه إن شاء الله . وقال تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) وقال تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وقال تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) إلى أن قال (وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) وقال (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون) أى فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون ، والأنهار وانتعش الحيوان . ثم قال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) أى عما خلق فيها من الكواكب الثوابت ، والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات ، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فأما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء . بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم) فقد تمسك

بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض . فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فإن مقتضى هذه الآية أن دَحْيَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدراً فيها بالقوة كما قال تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) أى هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلى والعلوى دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعا فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار ، ونبت الزرع والثمار ولهذا فسر الدَّحْى بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها) وقوله (والجبال أرساها) أى قررها فى أماكنها التى وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها وقوله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كان شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) بأيد أى قوة . وإنا لموسعون ، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التى تحتها فهى أوسع منها . ولهذا كان الكرسى أعلى من السموات . وهو أوسع منهن كلهن ، والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا (والأرض فرشناها) أى بطناها وجعلناها مهدا أى قارّة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم . ولهذا قال (فنعم الماهدون) والواو لا تقتضى الترتيب فى الوقوع . وإنما تقتضى الإخبار المطلق فى اللغة ـ والله أعلم .

وقال البخارى [1] : حدثنا عمر بن جعفر بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا جامع ابن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال « دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب فأتاه ناس من بنى تميم فقال اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا قد بشرتنا فأعطنا « مرتين » ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم » قالوا قد قبلنا يا رسول الله قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال « كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض » فناد منادٍ ذهبت ناقتك يا ابن حصين فانطلقت فإذا هى تقطع دونها السراب فوالله وددت أنى كنت تركتها » هكذا رواه ها هنا وقد رواه فى كتاب المغازى وكتاب التوحيد وفي بعض ألفاظه « ثم خلق السموات والأرض » وهو لفظ النسائى أيضا . وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا حجاج حدثنى ابن جريج أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال « أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ،

(١) راجع مفاتيح القارى .

وبث الدواب يوم الخميس وخلق ادم بعد العصر يوم الجمعة اخر خلق خلق فى اخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهرون بن عبد الله والنسائى عن هرون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصى الأعور عن ابن جريج به مثله سواء . وقد رواه النسائى فى التفسير عن إبراهيم ابن يعقوب الجوزجانى عن محمد بن الصباح عن أبى عبيدة الحداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة « أن رسول الله ﷺ أخذ بيدى فقال يا أبا هريرة : إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع ، وخلق التربة يوم السبت » وذكر تمامه بنحوه قد اختلف فيه على ابن جريج وقد تكلم فى هذا الحديث على ابن المدينى والبخارى والبيهقى وغيرهم من الحفاظ قال البخارى فى التاريخ : وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعنى أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يحدثه عن صحفه وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبى ﷺ ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا إلى النبى ﷺ ، وأكد رفعه بقوله « أخذ رسول الله ﷺ بيدى » ثم فى متنه غرابة شديدة . فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها فى سبعة أيام . وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت فى أربعة أيام ثم خلقت السموات فى يومين من دخان . وهو بخار الماء الذى ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذى خلق من ربذة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ « وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » قال إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسماه سماء . ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين (الأحد والاثنين) وخلق الأرض على حوت وهو النون الذى قال الله تعالى « نون والقلم وما يسطرون » والحوت فى الماء والماء على صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح . وهى الصخرة التى ذكرها لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت . وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن ، والعمران والخراب ، وفتق السماء وكانت رتقا ؛ فجعلها

سبع سموات فى يومين (الخميس والجمعة) . وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى فى كل سماء أمرها . ثم قال خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرَد وما لا يعلمه غيره . ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظا يحفظ من الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش . هذا الإسناد يذكر به السدى أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات . فإن كعب الأحبار لما أسلم فى زمن عمر كان يتحدث بين يدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفا له ، وتعجبا مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذى ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ، ولِمَا جاء من الإذن فى التحديث عن بنى إسرائيل لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير .

وقد روى البخارى فى صحيحه [١] عن معاوية أنه كان يقول فى كعب الأحبار (وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب) أى فيما ينقله ، لا أنه يتعمد ذلك ، والله أعلم .

ونحن نورد ما نورده من الذى يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم . ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ، ويبقى الباقى مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان ، وعليه التكلان .

قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش أن رحمتى غلبت غضبى » وكذا رواه مسلم والنسائى عن قتيبة به . ثم قال البخارى :

بـاب مـا جـاء فـى سـبع أرضـين

وقوله تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ ثم قال : حدثنا على بن عبد الله

---

(١) من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب انتهى راجع فهارس فتح البارى المسماة مفاتيح القارى لأبواب فتح البارى والتى كتبها طه عبد الرءوف سعد طه / طبعة / القاهرة / بيـروت .

أخبرنا ابن عُلية عن على بن المبارك حدثنا يحيى بن أبى كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومة فى أرض فدخل على عائشة فذكر لها ذلك . فقالت يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول الله ﷺ قال « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ورواه أيضا فى كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به . ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة به ، ورواه أيضا عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عائشة بمثله . ثم قال البخارى حدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال قال النبى ﷺ « من أخذ شيئا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين » ورواه فى المظالم أيضا عن مسلم بن إبراهيم عن عبد الله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من أفراده ، وذكر البخارى ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً » الحديث ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى فى العدد كما أن عدة الشهور الآن إثنا عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله فى كتابه الأول فهذه مطابقة فى الزمان كما أن تلك مطابقة فى المكان ، ثم قال البخارى حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خاصمته أَرْوَى [١] فى حق زعمت أنه انتقصه لها إلى مروان فقال سعيد رضى الله عنه أنا أنتقص من حقها شيئا ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول « من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » ورواه [٢] .

وقال الإمام أحمد [٣] حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن لهيعة حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبى عبد الرحمن عن ابن مسعود قال « قلت يا رسول الله أى الظلم أعظم ؟ قال : ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من

---

(١) أروى بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الواو وهى بنت أبى أوس .

(٢) (قوله ورواه) بياض بالأصول وفى البخارى بعد ما تقدم . قال ابن أبى الزناد عن هشام عن أبيه قال قال لى سعيد بن زيد (دخلت على النبى ﷺ انتهى) راجع الفتح وفهارسه ط مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة .

(٣) راجع مسند الإمام أحمد .

الأرض يأخذها إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها » تفرد به أحمد ، وهذا إسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أخذ شبرا من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثنى أبى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من اقتطع شبرا من الأرض بغير حقه طوقه إلى سبع أرضين » تفرد به وهو على شرط مسلم . وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به أيضا وقد رواه الطبرانى من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعا مثله .

فهذه الأحاديث كالمتواترة فى إثبات سبع أرضين والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتى تحتها فى وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهى الأمر إلى السابعة وهى صماء لا جوف لها وفى وسطها المركز وهى نقطة مقدرة متوهمة . وهو محط الأثقال ، إليه ينتهى ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع .

واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتى تليها خلاء على قولين . وهذا الخلاف جار فى الأفلاك أيضا . والظاهر أن بين كل واحدة والتى تليها مسافة لظاهر قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) الآية .

وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة قال « بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال « أتدرون ما هذه ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال العنان وزوايا الأرض تسوقه إلى من لا يشكرونه من عباده ولا يدعونه أتدرون ما هذه فوقكم : قلنا الله ورسوله أعلم قال الرقيع موج مكفوف وسقف محفوظ أتدرون كم بينكم وبينها ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال أتدرون ما الذى فوقها قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سموات ، ثم قال أتدرون ما فوق ذلك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال العرش قال أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام . ثم قال أتدرون ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله أعلم قال أرض ، أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله أعلم قال أرض أخرى ، أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله وأعلم . قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال وايم الله لو دليتم أحدكم إلى الأرض السفلى السابعة لهبط . ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن

وهو بكل شيء عليم ورواه الترمذى عن عبد الله بن حميد ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، قال حدث الحسن عن أبى هريرة وذكره إلا أنه ذكر أن بُعد ما بين كل أرضين خمسمائة عام وذكر فى آخره كلمة [1] ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد ثم قال الترمذى هذا حديث غريب من هذا الوجه قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبى هريرة . ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى جعفر الرازى عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة فذكر مثل لفظ الترمذى سواء بدون زيادة فى آخره ورواه ابن جرير فى تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة مرسلا . وقد يكون هذا أشبه والله أعلم . ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى من حديث أبى ذر الغفارى عن النبى ﷺ ، ولكن لا يصح إسناده والله أعلم .

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال ما يخالف هذا فى ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له . وفيه وبُعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام ، وكثفها أى سمكها خمسمائة عام * وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث (طوقه من سبع أرضين) إنها سبعة أقاليم . فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذى أوردناه من طريق الحسن عن أبى هريرة . ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم . وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتى تحتها حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله . وهكذا الأثر المروى عن ابن عباس أنه قال فى كل أرض من الخلق مثل ما فى هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهقى فى الأسماء والصفات وهو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضى الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال

---

(١) (قوله كلمة) ونصها (والذى نفسى بيده لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الأرض ، ثم قرأ هو الأول والآخر الخ) راجع طبعتنا من تفسير القرآن العظيم .

فألقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال قال نعم الحديد . قالت يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار . قالت يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الريح . قالت يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله تفرد به أحمد .

وقد ذكر أصحاب الهيئة أعداد جبال الأرض فى سائر بقاعها شرقا وغربا ، وذكروا طولها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول فى ذلك بما يطول شرحه هنا . وقد قال الله تعالى « ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » قال ابن عباس وغير واحد الجدد الطرائق وقال عكرمة وغيره الغرابيب الجبال الطوال السود . وهذا هو الشاهد من الجبال فى سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها . وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الجودى على التعيين وهو جبل عظيم شرقى جزيرة ابن عمر إلى جانب . . دجلة عند الموصل . . امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا فى السفينة مع نوح عليه السلام فى موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين والله أعلم .

فصـــل فـــى البحـــار والأنهـــار

قال الله تعـالى « وهـو الـذى سخـر لكـم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسـونها وتـرى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفـلا تذكـرون وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » وقال تعالى « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخـرجـون حلية تلبسـونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكـرون » وقـال تعالى « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا أملح أجـاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » وقال تعالى « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » فالمـراد بالبحرين الملح المر وهو الأجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار الـســارحــة بين أقـطار الأمـصــار لمصــالــح الـعـبــاد قاله: ابـن جريج وغـير واحـد من الأئـمـة . وقــال تعــالى « ومــن آياتــه الجـوار فى الـبـحـر

كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير * وقال « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » وقال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » فامتن تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه فى جوانبها الجميع مالح الطعم مر وفى هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلوا لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إلى تفانى بنى آدم ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك . وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى فى أرض ويسوقها إلى أخرى رزقا للعباد . ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة . وقد تكلم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهى سيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى ، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة ـ وقوله تعالى « والبحر المسجور » فيه قولان أحدهما أن المراد به البحر الذى تحت العرش المذكور فى حديث الأوعال . وأنه فوق السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، وهو الذى ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس . والثانى أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التى فى الأرض وهو قول الجمهور .

واختلفوا فى معنى البحر المسجور فقيل المملوء وقيل يصير يوم القيامة نارا تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه فى التفسير عن على وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم وقيل المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الأرض ومن عليها فيغرقوا . رواه الوالبى عن ابن عباس وهو قول السدى وغيره ويؤيده الحديث الذى رواه الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال « لقيت أبا صالح مولى

عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل » ورواه إسحاق بن راهويه عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب حدثنى شيخ مرابط قال « خرجت ليلة لمحرس لم يخرج أحد من المحرس غيرى فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلىّ أن البحر يشرف يحاذى برءوس الجبال فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن يتفصح عليهم فيكفه الله عز وجل » فى إسناده رجل مبهم [1] والله أعلم .

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلق فى السماء والأرض من النجوم والجبال التى جعلها لهم علامات يهتدون بها فى سيرهم وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التى لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى « أحل لكم صيد البحر وطعامه » وقال النبى ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وفى الحديث الآخر « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » رواه أحمد وابن ماجه وفى إسناده نظر .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده « وجدت فى كتاب عن محمد بن معاوية البغدادى حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه قال : « كلم الله هذا البحر الغربى وكلم البحر الشرقى فقال للغربى إنى حامل فيك عبادا من عبادى فكيف أنت صانع بهم ؟ قال أغرقهم . قال بأسك فى نواحيك ، وحرمه الحلية والصيد ، وكلم هذا البحر الشرقى فقال : إنى حامل فيك عبادا من عبادى فما أنت صانع بهم ؟ قال أحملهم على يدى ، وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد . ثم قال : لا تعلم أحداً . ما رواه عن سهيل إلا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر ، وهو منكر الحديث . قال وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفا . قلت الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتبا من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور

(١) قوله مبهم وفى بعض المخطوطات متهم .

والمنكور والمردود . فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدنى قاضيها . قال فيه الإمام أحمد ليس بشىء وقد سمعته منه ثم مزقت حديثه كان كذابا وأحاديثه مناكير * وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجانى والبخارى وأبو داود والنسائى وقال ابن عدى عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر .

قال علماء التفسير[1] المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما فى الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية فى اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما فى البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد فى كل قطر من صنوف المعادن والتجارات قالوا الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى « والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا المعمور من هذا البادى منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلا . وهو خمس وتسعون درجة . قالوا فالبحر المحيط الغربى ويقال له أوقيانوس وهو الذى يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درجات مسافة شهر تقريبا وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شىء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ فى ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القُمْر[1] ويقال جبال القَمَر التى منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء * ثم يمتد شرقا ويصير جنوبى الأرض . وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير * ثم يمتد شرقا وشمالا حتى يتصل ببحر الصين والهند . ثم يمتد شرقا حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة . وهناك بلاد الصين . ثم ينعطف فى شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت سد يأجوج ومأجوج . ثم ينعطف ويستدير على أراضٍ غير معلومة الأحوال . ثم يمتد مغربا فى شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغربا وجنوبا ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربى إلى متن الأرض الزقاق الذى ينتهى

(١) راجع تفسير الطبرى .

أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب ، ثم يأخذ فى بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم .

وينبعث من المحيط الشرقى بحار أُخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال إن فى بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم .

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالا فاصلة بينهما وفيها فجاج يسلك الراكب بينها يسيرها لهم الذى خلقها كما جعل مثلها فى البر أيضا قال الله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) * وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند فى كتابه المسمى بالمجسطى الذى عرّب فى زمان المأمون ، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربى والشرقى والجنوبى والشمالى كثيرة جداً . فمنها ما هو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له . فمن ذلك بحر القلزم . والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة . .وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق . مدينة على ساحله وهو بحر القرم أيضا ، ويتضايق حتى يصب فى بحر الروم عند جنوبى القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية ، ولهذا تسرع المراكب فى سيرها من القرم إلى بحر الروم وتبطىء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب فى الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلوا فراتا على ما أخبر به المسافرون عنه .

قال أهل الهيئة : وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو ، وقيل إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلا بشىء من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل أكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذى يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفى بلاد المغرب نظيره أيضا يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال فى زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشرة منه وهو المد ، ثم يشرع فى النقص وهو الجَزْر إلى آخر الشهر * وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها ، وذكروا ما فى الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول ، وهى البطائح .

وذكروا ما فى الأرض من الأنهار المشهورة الكبار ، وذكروا بيداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها فى الحديث وقد قال الله تعالى « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » ففى الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ لما ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات . وفى لفظ فى البخارى وعنصرهما أى مادتها أو شكلها وعلى صفتها ونعتهما وليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا سماوية [1] وفى صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » .

وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « فجرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

وكأن المراد والله أعلم من هذا أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة فى صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك فى هذه الصفات ونحوها كما قال فى الحديث الآخر الذى رواه الترمذى وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السمّ » أى تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة ، فإن الحس يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وكذا قوله « إذا اشتدت الحمى فأبردوها بالماء . فإن شدة الحر من فيح جهنم » * وهكذا هذه الأنهار أصل نبعها مشاهد من الأرض .

أما النيل . وهو النهر الذى ليس فى أنهار الدنيا له نظير فى خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القمر أى البيض ، ومنهم من يقول جبال القمر بالإضافة إلى الكوكب وهى فى غربى الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبى .

---

(١) هكــــذا بالأصول .

ويقال إنها حمر ينبع من بينها عيون * ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة . ثم يجتمع كل خمسة منها فى بحر . ثم يخرج منها أنهار ستة . ثم تجتمع كلها فى بحيرة أخرى . ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان والحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة [1] ثم على أسوان ثم يفد على ديار مصر . وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها واجترف من ترابها وهى محتاجة إليهما معا لأن مطرها قليل لا يكفى زروعها وأشجارها . وتربتها رمال لا تنبت شيئا حتى يجىء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهى من أحق الأراضى بدخولها فى قوله تعالى « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ثم يجاوز النيل مصر قليلا فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربى على رشيد ويصب فى البحر المالح * وأما الشرقى فيفترق أيضا عند جرجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب فى البحر والشرقية منهما تمر على أشمون طناح فيصب هناك فى بحيرة شرقى دمياط . يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط وهذا بعد عظيم فيما مبتداه إلى منتهاه . ولهذا كان ألطف المياه قال ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض . فمنها أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه . ومنها أنه يجرى على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ومنها أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته . ومنها أن زيادته فى أيام نقصان سائر الأنهار ونقصانه فى أيام زيادتها وكثرتها ، وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولا عظيما وجوارى حسانا وأشياء غريبة وأن الذى اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا ، فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين .

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال « لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بئونة (من أشهر العجم القبطية) فقالوا (أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم وما ذاك ؟ قالوا إذا كان لثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بئونة والنيل لا يجرى لا قليلا ولا كثيرا . وفى

---

(١) وهى المعروفة الآن بدنقلة .

رواية فأقاموا بئونة وأبيب ومسرة وهو لا يجرى حتى هموا بالجلاء . فكتب عمرو إلى عمر ابن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذى فعلت وإنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا فألقها فى النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر (أما بعد) فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجْر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك فألقى عمرو البطاقة فى النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا ليلة واحدة وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم .

وأما الفرات فأصلها من شمالى أرزن الروم فتمر إلى قرب ملطية ثم تمر على شميشاط ثم على البيرة قبليها ثم تشرق إلى بالس [1] وقلعة جعبر ثم الرقة ثم إلى الرحبة شماليها ثم إلى عانة ثم إلى هيت ثم إلى الكوفة ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب فى بطائح كبار أى بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة .

وأما سيحان ويقال له سيحون أيضا فأوله من بلاد الروم ويجرى من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربى مجرى جيحان ودونه فى القدر وهو ببلاد الأرض التى تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت فى أول الدولة الإسلامية فى أيدى المسلمين .

فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب نقفور الأرمنى على هذه البلاد أعنى بلاد سيس فى حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا . والله المسئول عودها إلينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أذنة فيصيران نهرا واحدا ، ثم يصبان فى بحر الروم بين أياس وطرسوس .

وأما جيحان ويقال له جيحون أيضا وتسميه العامة جاهان . وأصله فى بلاد الروم ويسير فى بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب وهو يقارب الفرات فى القدر ، ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً . ثم يصبان فى البحر عند إياس وطرسوس ، والله أعلم .

فصـــــل

قال الله تعـالى « الله الـذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر

---

(١) بلدة بين حلب والرقة لها وقائع تاريخية مذكورة انظر معجم البلدان .

الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وقال تعالى « أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » . وقال تعالى « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فذكر تعالى ما خلق فى الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات فى البرارى والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذى هى محتاجة إليه فى ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول خلق الله ألف أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر . وأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه .

(عبيد بن واقد) أبو عباد البصرى ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدى عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه . قال الفلاس والبخارى : منكر الحديث ، وقال أبو زرعة لا ينبغى أن يحدث عنه . وضعفه ابن حبان والدارقطنى وأنكر عليه ابن عدى هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم .

وقال تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون » .

باب ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا أن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » وقال تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » وقال تعالى « أأنتم أشد خلقا أم السماء . بناها رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها » فإن الدَّحْى غير الخلق وهو بعد خلق السماء . وقال تعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » وقال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا » وقال تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » وقال تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » وقال تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يَذَّكر أو أراد شكوراً » وقال تعالى « إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » وقال تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » وقال تعالى « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » وقال تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون » وقال تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون

القـديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » وقال تعالى « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» وقال تعالى «إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك لله رب العالمين » والآيات فى هذا كثيرة جدا وقد تكلمنا على كل منها فى التفسير .

والمقصـود أنـه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها فى غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى « والسماء ذات الحبك » أى الخلق الحسن وقال تعالى « فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» أى خاسئا عن أن يرى فيها نقصا أو خللا وهو حسير أى كليل ضعيف ولو نظر حتى يعى ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال « والسماء ذات البروج » أى النجوم . وقيل : محال الحرس التى يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ، ولا منافاة بين القولين ، وقال تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم » . فذكر أنه زين منـظرهـا بالكواكب الثوابت والسيارات (الشمس والقمر والنجوم الزاهرات) وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا معنى زينة . فقال (وحفظناها من كل شيطان رجيم) كما قال (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) .

قال البخـارى فى كتـاب بدء الخلق وقـال قتادة (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) خلق هذه النجـوم لثـلاث جعلهـا زينـة للسـماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول بغـير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به * وهذا الذى قاله قتـادة مصرح به فى قولـه تعـالى (ولقـد زينـا السـماء الـدنيا بمصـابيح وجعلنـاهـا رجـومـا للشياطـين) وقـال تعـالى « وهـو الـذى جعـل لكم النجـوم لتهتـدوا بها فى ظلمات الـبر والبحـر » فمن تكلف غير هذا الثـلاث أى من علم أحكـام ما تدل عليه حركـاتهـا ومقـارنتهـا فى سيرهـا وأن ذلـك يدل على حوادث أرضية فقـد أخطأ . وذلك أن أكثـر كلامهم فى هذا البـاب ليس فيه إلا حدس وظنـون كاذبـة ودعـاوى باطلة . وذكـر تعـالى أنـه خلق سبـع سموات طباقا أى واحدة فوق واحدة * واختلف أصحاب الهيئـة هل هن متراكـمات أو متفـاصـلات بينهن خلاء على قولين . والصحيح الثانى لما

قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف عن العباس فى حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال أتدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة عام ، ومن كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمائة سنة . الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه . وفى الصحيحين من حديث أنس فى حديث الإسراء قال فيه (ووجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك فسلم عليه فرد عليه السلام . وقال مرحبا وأهلا بابنى نعم الابن أنت إلى أن قال ثم عرج إلى السماء الثانية . وكذا ذكر فى الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) فدل على التفاصيل بينها لقوله ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا (الحديث) وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم .

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزى وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة . واستدل على ذلك بقوله كل فى فلك يسبحون قال الحسن يدورون ، وقال ابن عباس فى فلكة مثل فلكة المغزل . قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع فى آخرها من المشرق كما قال أمية بن أبى الصلت :

والشمس تطلع آخر كل ليلة ... حمراء مطلع لونها متورد
تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها ... إلا معذبة وإلا تجلد

فأما الحديث الذى رواه البخارى حيث قال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس تدرى أين تذهب ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها . ويقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) .

هذا لفظه فى بدء الخلق ورواه فى التفسير ، وفى التوحيد من حديث الأعمش أيضا ورواه مسلم فى الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبى ذر به ونحوه . وقال الترمذى حسن صحيح .. إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التى هى السموات على أشهر القولين ولا يدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون . قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هى تغرب عن أعيننا وهى مستمرة فى فلكنا الذى هى فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء

التفسير . وليس فى الشرع ما ينفيه بل فى الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلا فى اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبى والشمالى فإنها تكون أبعد ما تكون من العرش لأنه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فإذا كانت فى محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله فى طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهى مع ذلك كارهة لعصاة بنى آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية :

تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

فإذا كان الوقت الذى يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن فى الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا فى التفسير ، فتقول يارب إن الفجر قد اقترب وإن المدى بعيد فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا جميعا وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، وفسروا بذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) قيل لوقتها الذى تؤمر فيه تطلع من مغربها ، وقيل مستقرها موضعها الذى تسجد فيه تحت العرش ، وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا . وعن ابن عباس أنه قرأ والشمس تجرى لا مستقر لها ، أى ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهى سائرة . ولهذا قال تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) أى لاتدرك الشمس القمر فتطلع فى سلطانه ودولته ولا هو أيضا ولا الليل سابق النهار أى ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب النهار جاء الليل فى اثره متعقبا له كما فى الآية الأخرى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

وقال تعالى : (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) أى يختلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله ﷺ « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما * ولهذا قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) فيولج من هذا فى هذا ، أى يأخذ من طول هذا فى قصر هذا فيتعادلان كما فى أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلا والنهار قصيراً فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع * ثم يشرع النهار

يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضا فى أول فصل الخريف ، ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف ، ثم يترجح النهار قليلا قليلا ويتناقص الليل شيئا فشيئا حتى يعتدلا فى أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا فى كل عام ، ولهذا قال تعالى « وله اختلاف الليل والنهار » أى هو المتصرف فى ذلك كله الحاكم الذى لا يُخالف ولا يمانع ولهذا يقول فى ثلاث آيات عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار « ذلك تقدير العزيز العليم » أى العزيز الذى قد قهر كل شىء ودان له كل شىء فلا يمانع ولا يغالب العليم بكل شىء فقدر كل شىء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « قال الله يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » وفى رواية « فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره » .

قال العلماء كالشافعى وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهما يسب الدهر أى يقول فعل بنا الدهر كذا يا خَيْبَةَ الدهر ، أيتم الأولاد ، أرمل النساء . قال الله تعالى (وأنا الدهر) أى أنا الدهر الذى يعنيه فإنه ذلك الذى أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق ، وإنما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر . والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شىء المتصرف فى كل شىء كما قال وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب ليله ونهاره وكما قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) وقال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) أى فاوت بين الشمس والقمر فى نورهما وفى شكلهما وفى وقتهما وفى سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء القمر نورا أضعف من برهان الشمس وجعله مستفادا من ضوئها وقدره منازل أى يطلع أول ليلة من الشهر صغيرا ضئيلا قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهـذا فى الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان فى الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة ، ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر ، ثم يشرع فى النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر ، فيستتر حتى يعود كما بدا فى أول

الشهـر الثـانى فبه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالى والأيام وبذلك تعرف السنون والأعوام ولهذا قال تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقال تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا » وقال تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » .

وقد بسطنا القول على كل هذا فى التفسير : فالكواكب التى فى السماء منها سيارات وهى المتحيرة فى اصطلاح علماء التفسير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى ما لا دليل عليه وهى سبعة : القمر فى سماء الدنيا وعطارد فى الثانية والزُّهرة فى الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشترى فى السادسة وزحل فى السابعة . وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهى عندهم فى الفلك الثامن وهو الكرسى فى اصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون بل الكواكب كلها فى السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض . وقد يستدل على هذا بقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ، (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم .

وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى الشرق . فالقمر يقطع فلكه فى شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع فى سنة . فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتى عشرة مرة ، وزحل يقطع فلكه وهو السابع فى ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة .

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا فى هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم فى هذا كلام كثير يطول بسطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلا على صفة الكواكب السبعة . يعبدون كل واحد فى هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم . وذكره صاحب « السر المكتوم - فى مخاطبة الشمس والقمر والنجوم » ، وغيره من علماء

الحرنانين [1] (فلاسفة حران فى قديم الزمان) وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين * ولهذا قال الله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وقال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبرا عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ فى اليمن وما والاها « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . أن لا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » وقال تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » وقال تعالى « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » وقال تعالى « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » وقال تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » والآيات فى هذا كثيرة جدا .

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة فى السموات والأرض هى الكواكب وأشرفهن منظرا وأشرفهن معتبرا الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان إلهية شىء منهن . وذلك فى قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » أى الغائبين « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » فبين بطريق البرهان القطعى : أن هذه الأجرام المشاهدات : من الكواكب والقمر

---

(١) (حران) بتشديد الراء وآخره نون يجوز أن يكون (فعالا) من حرن الفرس إذا لم ينقد ويجوز أن يكون (فَعْلان) من الحر . يقال رجل حران أى عطشان وأصله من الحر وامرأة حرى وهو حران يران . والنسبة إليها حرنانى على غير قياس كما قالوا متاتى فى النسبة إلى ماتى والقياس ماتوى وحرانى والعامة عليها ـ راجع معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

والشمس لا يصلح شيء منها للالهية لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة فى سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف ، وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وثبت فى الصحيحين فى صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ « إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

وقال البخارى فى بدء الخلق حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناج حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « الشمس والقمر مكوران يوم القيامة » انفرد به البخارى . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق ، فقال حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادى حدثنا يونس بن محمد بن عبد العزيز بن المختار عن عبد الله ابن الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسرى فى هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن الشمس والقمر ثوران فى النار يوم القيامة » فقال الحسن وما دينهما فقال أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول وما دينهما ثم البزار لا يروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن أبى سلمة سوى هذا الحديث . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى من طريق يزيد الرقاشى وهو ضعيف عن أنس قال قال رسول الله ﷺ الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الأزدى حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) . قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحا دبورا فتضرمها نارا . قدمت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد . ثم يفعل فيها ما يشاء ، وله الحجة الدامغة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب . وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل فى خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك . قال ابن هشام هى لأمية بن أبى الصلت :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولا رضا لا ينى الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إلـه ولا رب يكـون مدانـيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنـك لا تخفـى من الله خافـيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبـيل الـرشـد أصبـح باديا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنـت إلهـى ربـنـا ورجـائـيا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلهـا غيرك الله ثانـيا
وأنت الذى من فضل منٍّ ورحمة ... بعـثـت إلى موسى رسـولا منـاديا
فقلت له اذهب وهرون فادعوا ... إلى الله فرعـون الـذى كان طاغـيا
وقـولا له آأنـت سويت هذه ... بلا وتـد حتـى اطـمـأنت كما هيا
وقـولا له آأنت رفعت هذه ... بلا عمـد ارفـق إذا بك بانـيا
وقـولا له آأنت سويت وسطها ... منـيرا إذا ماجـنـه الـليل هاديا
وقـولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقـولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبـح منـه البـقـل يهتـز رابيا
ويخـرج منـه حبه فى رؤوسـه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعـيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا ... وقـد بات فى أضعـاف حوت لياليا
وإنى لو سبحت باسمك ربنا ... لأكـثـر إلا ما غفـرت خطائـيا [1]
فرب العبـاد ألق سيبا ورحمـة ... على وبـارك فى بَنِىَّ ومـالـيا

فإذا علم هذا فالكواكب التى فى السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال (وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وأما ما يذكره كثير من المفسرين فى قصة هاروت وماروت من أن الزُّهرة كانت امرأة فراودها على نفسها فأبت الا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكبا إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بنى إسرائيل . وقد روى الإمام

---

(١) قوله وإنى لو سبحت الخ معنى البيت إنى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا إلا ما غفرت الخ . وما بعد إلا زائدا . وإن سبحت اعتراض بين اسم إن وخبرها كما تقول إنى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا إلا والله يغفر لى فعل كذا والتسبيح هنا بمعنى الصلاة أى لا اعتمد وإن صليت إلا على دعائك واستغفارك من خطاياى . راجع الروض الأنف للإمام السهيلى تحقيق / طه عبد الرءوف سعد . أيضا السيرة النبوية لابن هشام .

أحمد وابن حبان فى صحيحه فى ذلك حديثا رواه أحمد عن يحيى بن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ وذكر القصة بطولها وفيه فمثلت لهما الزُّهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها وذكر القصة . وقد رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب الأحبار به . وهذا أصح وأثبت . وقد روى الحاكم فى مستدركه وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس فذكره وقال فيه وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وذكر تمامه * وهذا أحسن لفظ روى فى هذه القصة والله أعلم .

وهكذا الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطى حدثنا يزيد بن هرون مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ . وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سهيلا فقال (كان عَشَّارا ظلوما فمسخه الله شهابا) ثم قال لم يروه عن زيد بن أسلم إلا مبشر بن عبيد وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث . وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنا لم نحفظه إلا من هذين الوجهين (قلت) أما مبشر بن عبيد القرشى فهو أبو حفص الحمسى وأصله فى الكوفة . فقد ضعفه الجميع وقال فيه الإمام أحمد والدارقطنى كان يضع الحديث ويكذب وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزى وهو ضعيف باتفاقهم . وقال فيه أحمد والنسائى : متروك . وقال ابن معين : ليس بثقة وليس بشىء . وقال البخارى سكتوا عنه . وقال أبو حاتم وأبو زرعة منكر الحديث ضعيف الحديث . ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شىء بالكلية .

وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بنى إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار . ويكون من خرافاتهم التى لا يعول عليها والله أعلم .

الكلام عن المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرقل كتب إلى معاوية وقال إن كان بقى فيهم شىء من النبوة فسيخبرنى عما أسألهم عنه . قال فكتب إليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة . قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول

قال إن هذا الشيء ما كنت آبه له أن أسأل عنه إلى يومى هذا من لهذا ؟ قيل ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه « إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق . والمجرة باب السماء الذى تنشق منه الأرض . وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنه .

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا إبراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفى عن ابن أبى يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « يا معاذ إنى مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التى في السماء فقل هى لعاب حية تحت العرش » فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصرى ، ثم انتقل إلى مصر ، قال فيه أبو حاتم الرازى وهو مجهول حدث بالأباطيل . وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى منكر الحديث جدا . وقال ابن عدى لا يتابع على أحاديثه لا متنا ولا إسنادا . وقال الله تعالى « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » وقال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وروى الإمام أحمد عن يزيد بن هرون عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بنى غفار قال سمعت رسول الله ﷺ « يقول : إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » وروى موسى بن عبيد بن سعد بن إبراهيم أنه قال إن نطقه الرعد وضحكه البرق . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام عن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه وجه إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد فإذا مصع بذنبه فذاك البرق .

وقد روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطأة حدثنى ابن مطر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال (اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك) وروى ابن جرير من حديث ليث ، عن رجل ، عن أبى هريرة رفعه . كان إذا سمع الرعد قال

---

(١) قوله ابن أبى يحيى المعروف من شيوخه أنه يحيى بن يحيى . راجع فهارس صحيح مسلم بشرح النووى من إصداراتنا .

(سبحان من يسبح الرعد بحمده) وعن على أنه كان يقول (سبحان من سبحت له) وكذا عن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم .

وروى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (قال ربكم لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكرا) . وكل هذا مبسوط فى التفسير ولله الحمد والمنة .

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم عليهم السلام

قال الله تعالى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » وقال تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم » وقال تعالى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم » وقال تعالى « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون » وقال « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » وقال تعالى « وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » وقال تعالى « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا » وقال تعالى « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » وقال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقال تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » وقال تعالى « يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على

الكافرين عسيراً » وقال تعالى « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا » وقال تعالى « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً . وقودها الناس والحجارة . عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والآيات فى ذكر الملائكة كثيرة جدا يصفهم تعالى بالقوة فى العبادة وفى الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل فى الصور المتعددة كما قال تعالى « ولما جاءت رسلنا لوطاسىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات » الآيات فذكرنا فى التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدو لهم فى صورة شباب حسان امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك كان جبريل يأتى إلى النبى ﷺ فى صفات متعددة فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى وتارة فى صورة أعرابى وتارة فى صورته التى خلق عليها . له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين : مرة منهبطا من السماء إلى الأرض وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . وهو قوله تعالى « علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى » أى جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة : منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة « فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » أى إلى عبد الله محمد ﷺ ثم قال (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى) وقد ذكرنا فى أحاديث الإسراء فى سورة سبحان أن سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، وفى رواية فى السادسة أى أصلها وفروعها فى السابعة فلما غشيها عن أمر الله ما غشيها ، قيل غشيها نور الرب جل جلاله وقيل غشيها فراش من ذهب ، وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة ، وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان ، وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها ، أى من حسنها وبهائها . ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله فى حال واحدة ، وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال : ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها كالقلال وفى رواية كقلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذ يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وتقدم الكلام على هذا فى ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار والأنهار . وفيه ثم رفع لى البيت وإذا هو

يدخله فى كل يوم سبعـون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمود . وذكرنا وجه المناسبة فى هذا أن البيت المعمور هو فى السماء السابعة بمنزلة الكعبة فى الأرض ، وقد روى سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكواء سأل على بن أبى طالب عن البيت المعمـور فقال هو مسجد فى السماء يقال له الضراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها . حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا يعودون إليه أبدا . وهكذا روى عن على بن ربيعة وأبو طفيل عن على مثله .

وقال الطبرانى أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ البيت المعمور فى السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرونه قط فإن له فى السماء حرمة على قدر حرمة مكة . يعنى فى الأرض وهكذا قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدى وغير واحد .

وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه هل تدرون ما البيت المعمور قالوا الله ورسوله أعلم قال مسجد فى السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم . وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس لعنه الله كان يقول سدنته وخدامه منهم والله أعلم .

وقال آخرون : فى كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمـر أهـل الأرض البيت العتيق بالحج فى كل عام والاعتمار فى كل وقت والطواف والصلاة فى كل آن * قال سعيد بن يحيى الأموى فى أوائل كتابه المغازى . حدثنا أبو عبيد من حديث مجاهد « أن الحرم حرم مناه (يعنى قدره) من السموات السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتا فى كل سماء بيت وفى كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض » ثم روى مجاهد قال مناه أى مقابله وهو حرف مقصور . ثم قال حدثنا أبو معاوية حدثنـا الأعمش عن أبى سليمان مؤذن الحجـاج سمعت من يقـول « إن الحـرم محرم فى السموات السبع مقداره من الأرض ـ وإن بيت المقدس مقدس فى السموات السبع مقداره من الأرض كما قال بعض الشعراء :

إن الذى سمك السماء بنى لنـا   بيتا دعائمـه أعـز وأطـول

واسم البيت الذى فى السماء بيت العزة : واسم الملك الذى هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل فعلى هكذا يكون السبعون ألفا من الملائكة الذين يدخلون فى كل يوم البيت المعمور ثم لا يعودون إليه . آخر ما عليهم (أى لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر) يكون من سكان السماء السابعة وحدها . ولهذا قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » فقال أبو ذر (والله لوددت أنى شجرة تعضد) ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث إسرائيل فقال الترمذى حسن غريب ويروى عن أبى ذر موقوفا .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين بن عرفة المصرى حدثنا عروة بن عمران الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر ابن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ (ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا ما عبدناك إلا أنا لا نشرك بك شيئا) فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع فى السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم فى صنوف من العبادة . منهم من هو قائم أبدا : ومنهم من هو راكع أبدا ومنهم من هو ساجد أبدا ومنهم من هو صنوف أخر والله أعلم بها . وهم دائمون فى عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التى أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) . وقال ﷺ (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها . قالوا وكيف يصفون عند ربهم قال يكملون الصف الأول ويتراصون فى الصف) . وقال (فضلنا على الناس بثلاث . جعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها لنا طهورا وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدى الرب جل جلاله صفوفا كما قال تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا) ويقفون صفوفا بين يدى ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) والمراد بالروح ههنا بنو آدم فى الشكل . قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش . وقيل جبريل . قال الشعبى وسعيد بن جبير والضحاك . وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (يوم يقوم الروح) قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقا ، وقال ابن جرير

حدثنى محمد بن خلف العسقلانى حدثنا داود بن الجراح عن أبى حمزة عن الشعبى عن علقمة عن ابن مسعود قال الروح فى السماء الرابعة هو أعظم السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحه يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجىء يوم القيامة صفا وحده * وهذا غريب جدا .

وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصرى حدثنا ابن وهب بن رزق أبـو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعى حدثنى عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن لله ملكا لو قيل له التقم السموات والأرضين بلقمة واحدة لفعـل . تسبيحـه سبحـانك حيث كنت » وهذا أيضا حديث غريب جدا . وقد يكون موقوفا . وذكرنا فى صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو دود وابن أبى حاتم ولفظه مخفق الطير سبعمائة عام .

وقد ورد فى جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى « عَلَّمه شديد القوى » قال : كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعا بمن فيهن من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضى والمعتملات والعمارات وغير ذلك . رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى .

وقوله (ذو مرة) أى خلق حسن وبهاء وسناء كما قال فى الآية الأخرى « إنه لقول رسول كريم » أى جبريل رسول الله كريم أى حسن المنظر ذى قوة أى له قوة وبأس شديد عند ذى العرش مكين أى له مكانه ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذى العرش المجيد مطاع ثم أمين أى مطاع فى الملأ الأعلى أمين أى ذى أمانة عظيمة ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذى ينزل عليهم بالوحى فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة . وقد كان يأتى إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه فى صفات متعددة كما قدمنا . وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين . له ستمائة جناح كما روى البخارى عن طلق بن غنام عن زائدة الشيبانى قال سألت ذرا عن قوله (فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى) . قال حدثنا عبد الله يعنى ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبى وائل

عن عبد الله قال رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل [١] ومن الدر والياقوت ما الله به عليم .

وقال أحمد أيضا حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى هذه الآية « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى » قال قال رسول الله ﷺ : (رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت) . وقال حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين [٢] حدثنى عاصم بن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ رأيت جبريل فسألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرنى قال فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب . وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد .

وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين حدثنى حصين حدثنى شقيق سمعت ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ أتانى جبريل فى خضر تعلق به الذر . إسناده صحيح .

وقال ابن جرير حدثنا ابن بزيع البغدادى قال حدثنا إسحاق بن منصور قال حدثنا إسرائيل عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض . إسناد جيد قوى .

وفى الصحيحين من حديث عامر الشعبى عن مسروق قال كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول « ولقد رآه بالآفاق المبين ـ ولقد رآه نزلة أخرى » فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال إنما ذاك جبريل لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين رآه منهبطا من السماء إلى الأرض سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض .

وقال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر (ح) [٣] وحدثنى يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لجبريل ألا تزورنا أكثر مما تزورنا قال فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا » الآية . وروى البخارى من حديث الزهرى ، عن عبيد الله بن

---

(١) قوله التهاويل أى الأشياء المختلفة الألوان .

(٢) قوله الحسين هو ابن واقد مولى عبد الله بن عامر بن كريز أبو عبد الله المروزى . راجع فهارس صحيح مسلم من إصداراتنا .

(٣) علامة التحويل من سند إلى سند آخر .

عبد الله عن ابن عباس قال « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » . وقال البخارى [1] حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئا فقال له عروة أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ فقال عمر أعلم ما تقول يا عروة قال سمعت بشير بن أبى مسعود يقول سمعت أبا مسعود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : نزل جبريل فأمنى فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس صلوات .

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذى ينفخ فى الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة . أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتى بيانه فى موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه . والصور قرن ينفخ فيه . كل دارة منه كما بين السماء والأرض . وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى البدن الذى كانت تعمره فى الدنيا فتدخل على الأجساد فى قبورها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، فتحيا الأجساد وتنشق عنهم الأجداث فيخرجون منها سراعا إلى مقام المحشر كما سيأتى تفصيله فى موضعه .

ولهذا قال رسول الله ﷺ « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له . قالوا كيف نقول يا رسول الله قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا . رواه أحمد والترمذى من حديث عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائى عن عطية العوفى عن أبى سعيد قال ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عمر أن ابن أبى ليلى حدثنى عن أبى ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس . قال بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذا انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل فإذا ملك قد مثل بين يدى النبى ﷺ فقال يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبى عبد أو ملك نبى قال فأشار جبريل إلى بيده (أن تواضع) فعرفت أنه لى ناصح ، فقلت عبد نبى ، فعرج ذلك الملك إلى السماء ، فقلت يا جبريل :

---

(١) فى كتاب بدء الخلق . راجع مفاتيح القارى من وضع طه عبد الرءوف سعد .

قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلنى عن المسألة فمن هذا يا جبريل فقال هذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لا يرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق بين يديه لوح فإذا أذن الله فى شىء من السماء أو فى الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فإن كان من عملى أمرنى به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به . قلت يا جبريل وعلى أى شىء أنت قال على الريح والجنود . قلت وعلى أى شىء ميكائيل قال على النبات والقطر قلت وعلى أى شىء ملك الموت قال على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة وما الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وفى صحيح مسلم عن عائشة « أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » . وفى حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ فى الصور . وذكر محمد بن الحسن النقاش إن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزى بولاية اللوح المحفوظ . حكاه أبو القاسم السهيلى فى كتابه (التعريف والإعلام . بما أبهم فى القرآن من الأعلام) . وقال تعالى « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره . وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكة المقربين .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عباس عن عمارة بن غزنة الأنصارى أنه سمع حميد بن عبيد مولى بنى المعلى يقول سمعت ثابتا البنانى يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فى القرآن وفى الصحاح هم المذكورون فى الدعاء النبوى « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق فى هذه الدار . وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه . يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى موضعها من الأرض ، وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور ، للقيام من القبور . والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور . ويجازى الكفور . فذاك ذنبه مغفور وسعيه مشكور . وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور . وهو يدعو بالويل والثبور ، فجبريل عليه

السلام يحصل بها ينزل به الهدى ، وميكائيل يحصل بها هو موكل به الرزق ، وإسرافيل يحصل بها هو موكل به النصر والجزاء ، وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحاح . وقد جاء تسميته فى بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم .

وقد قال الله تعالى « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلفوها فى أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا أغلقت دونها وألقى بها إلى الأرض ، قال الله تعالى « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا إن الأرض بين يدى ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح وإن كان كافراً فبالضد من ذلك . عياذا بالله العظيم من ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن يحيى المقرىء حدثنا عمرو بن شمر قال سمعت جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى ﷺ يا ملك الموت ارفق بصاحبى فإنه مؤمن فقال ملك الموت يا محمد طب نفسا وقر عينا فإنى بكل مؤمن رفيق .

واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يامحمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها قال جعفر بن محمد أبى هو الصادق بلغنى أنه يتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فى تلك الحال العظيمة . هذا حديث مرسل وفيه نظر .

وذكرنا فى حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المدنى القاص عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ (الحديث) بطوله . وفيه يأمر الله إسرافيل

بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله وهو أعلم بمن بقى (فمن بقى) فيقول بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقى جبريل وميكائيل * فيقول ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول ياالله يموت جبريل وميكائيل فيقول اسكت فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى فيموتان « ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يارب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقى (فمن بقى) ؟ فيقول بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول لتمت حملة عرشى . فتموت . ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتى ملك الموت فيقول يارب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقى (فمن بقى) فيقول بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقى خلقتك لما أردت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . كان آخرا كما كان أولا . وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبرانى وابن جرير والبيهقى ورواه الحافظ أبو مرسى المدينى فى كتاب (الطوالات) [1] وعنده زيادة غريبة وهى قوله فيقول الله له أنت خلق من خلقى خلقتك لما أردت فمت موتا لا تحيا بعده أبدا .

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم فى القرآن هاروت وماروت فى قول جماعة كثيرة من السلف . وقد ورد فى قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات .

وروى الامام أحمد حديثا مرفوعا عن ابن عمر وصححه ابن حبان فى تقاسيمه . وفى صحتـه عنـدى نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتى بيانه والله أعلم . وفيه أنه تمثلت لهما الزُّهرة امرأة من أحسن البشر .

وعن على وابن عباس وابن عمر أيضا أن الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكبا وروى الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وهذا اللفظ أحسن ما ورد فى شأن الزهرة ، ثم قيل كان أمرهما وقصتهما فى زمان إدريس . وقيل فى زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك فى التفسير .

---

(١) الطوالات للحافظ الكبير أبى موسى بن أبى بكر بن عمر المدينى المتوفى سنة ٥٨١ . راجع كشف الظنون .

وبالجملة فهو خبر إسرائيلى مرجعه إلى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة . وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالا والله أعلم .

ثم قد قيل إن المراد بقوله « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » قبيلان من الجان قاله ابن حزم وهذا غريب وبعيد من اللفظ . ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين من أهل فارس . قاله الضحاك . ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق فى قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتى تقريره .

ومن الملائكة المسمين فى الحديث منكر ونكير عليهما السلام . وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت فى قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين . وقال البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثنى يونس عن ابن شهاب حدثنى عروة عن عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أنها قالت للنبى ﷺ (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد . قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال يا محمد فقال ذلك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا . ورواه مسلم من حديث ابن وهب به .

فصــــل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام . فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشراف الملائكة مع حملة العرش ، وهم

الملائكة المقربون كما قال تعالى « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام . وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى « ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم » .

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت فى الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال « إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل .

ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا صباحا ومساء كما قال « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » . فمنهم الراكع دائما والقائم دائما والساجد دائما ، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم . ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحا به فى بعض الأحاديث ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة . وهم المذكورون فى قوله تعالى (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) الآية . وقال تعالى « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » وقال تعالى « عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة الذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء . وما يعلم جنود ربك إلا هو» .

وهم الموكلون بحفظ بنى آدم كما قال تعالى «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من

أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وماله من دونه من وال » .

قال الوالبى عن ابن عباس (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وهى الملائكة وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه وقال مجاهد ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام . وليس شىء يأتيه يريده إلا قال وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه . وقال أبو أسامة [1] : ما من آدمى إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذى قدر له . وقال أبو مجلز جاء رجل إلى على فقال إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقَدَّر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه أن الأجل جُنة حصينة .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال تعالى « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى فى تفسيره حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال قال رسول الله ﷺ أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الجنابة والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو بعيره أو يستره أخوه ، هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار فى مسنده من طريق جعفر بن سليمان ، وفيه كلام عن علقمة ومجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ إن الله ينهاكم عن التعرى فاستحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو بعيره ، ومعنى إكرامهم أن يستحى منهم فلا يملى عليهم الأعمال القبيحة التى يكتبونها فإن الله خلقهم كراما فى خلقهم وأخلاقهم . ومن كرمهم أنه قد ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب ، وفى رواية عن عاصم بن ضمرة عن على (ولا بول) وفى رواية رافع عن أبى سعيد مرفوعا : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال ، وفى رواية مجاهد عن أبى هريرة مرفوعا : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال : وفى رواية ذكوان عن أبى صالح السمان ، عن أبى هريرة قال :

---

(١) وفى نسخة أبو أمامة

قال رسول الله ﷺ لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس . ورواه زرارة بن أوفى عنه : لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس .

وقال البزار حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادى المعروف بالقلوس . حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن ملائكة الله يعرفون بنى آدم (وأحسبه قال) ويعرفون أعمالهم فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا أفلح الليلة نجا فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه . وقالوا هلك فلان الليلة . ثم قال سلام أحسبه سلام المدائنى وهو لين الحديث .

وقد قال البخارى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم وهم يصلون . وأتيناهم وهم يصلون . هذا اللفظ فى كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الواجه . وقد أخرجاه فى الصحيحين فى البدء من حديث مالك عن أبى الزناد به . وقال البزار حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبى حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعنى البصرى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا فى يوم فيرى فى أو الصحيفة وفى آخرها استغفارا إلا قال الله غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة . ثم قال تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث . قلت وقد وثقه ابن معين وضعفه البخارى وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائى وابن عدى ورماه ابن حبان بالوضع وقال الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره .

والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل . وملكان كاتبان عن يمينه وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر . حدثنا سفيان . حدثنا منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ . ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير . انفرد بإخراجه مسلم من حديث منصور به ، فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة ، غير القرين بحفظ

الانسان وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً فى الخبال والإضلال . والمعصوم من عصمه الله عز وجل ، والله المستعان .

وقال البخارى حدثنا أحمد بن يونس حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن والأغر عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يسمعون الذكر ، وهكذا رواه منفردا به من هذا الوجه وهو فى الصحيحين من وجه آخر . وقد قال الله تعالى « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » .

وقال الإمام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ وحدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار : ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أسباط : وقال الترمذى حسن صحيح : قلت وهو منقطع :

وقال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . قال فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة : ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر : يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » .

وقال البخارى حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى حازم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح : تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش : وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه : وفى صحيح البخارى حدثنا إسماعيل بلفظ : إذا قال الإمام آمين فإن الملائكة تقول فى السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى صحيح البخارى حدثنا إسماعيل حدثنى مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا (اللهم ربنا ولك الحمد) فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه : ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك : وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى

صالح عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد ، هو شك (يعنى الأعمش) قال قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا أقواما يذكرون الله فنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون بهم إلى السماء الدنيا فيقول الله أى شىء تركتم عبادى يصنعون ، فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول وهل رأونى فيقولون لا فيقول كيف لو رأونى فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تحميدا وتمجيدا وذكرا قال فيقول أى شىء يطلبون فيقولون يطلبون الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول وكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا قال فيقول من أى شىء يتعوذون فيقولون من النار فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها كانوا أشد منها خوفا . قال فيقول أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال فيقولون إن فيهم فلانا الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

وهكذا رواه البخارى عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به . وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه كما ذكره البخارى معلقا عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به . وقد رواه الإمام أحمد أيضا عن غندر عن شعبة عن سليمان (وهو الأعمش) عن أبى صالح عن أبى هريرة كما أشار إليه البخارى رحمه الله .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية . حدثنا الأعمش وابن نمير ، أخبرنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » . وكذا رواه مسلم من حديث أبى معاوية .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبى إسحاق عن الأغر (أبى مسلم) عن أبى هريرة وأبى سعيد عن رسول الله ﷺ . قال ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده . وكذا رواه أيضا من حديث إسرائيل وسفيان الثورى وشعبة عن أبى إسحاق به نحوه . ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذى من حديث الثورى

وقال حسن صحيح . ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبى إسحاق بإسناد نحوه . وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة . وفى مسند الإمام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) تتواضع له كما قال تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ليبلغونى عن أمتى السلام . وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به .

وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور والجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم . وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبدة بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به .

والأحاديث فى ذكر الملائكة كثيرة جدا . وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد .

فصـــــــل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الملائكة على البشر فى أقوال . فأكثر ما توجد هذه المسئلة فى كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم وأقدم كلام رأيته فى هذه المسئلة ما ذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر ما أحد أكرم على الله من كريم بنى آدم واستدل بقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » ووافقه على ذلك أمية بن عمرو بن سعيد فقال عراك بن مالك ما أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة دارية ورسله إلى أنبيائه : واستدل بقوله تعالى « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى ما تقول أنت يا أبا حمزة : فقال قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة : فوافق عمر بن عبد العزيز فى الحكم واستدل بغير دليله : وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر : فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان فى قولـه : « ويؤمنـون به » وكـذلـك الجـان . « وأنـا لما سمعنـا الهـدى

آمنا به » وأنا منا المسلمون » قلت وأحسن ما يستدل به فى هذه المسئلة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمى عن عبد الله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال : لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب ، فإنك خلقت الدنيا لبنى آدم ، فقال الله لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدىَّ كمن قلت له كن فكان .

باب ذكر خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان » وقال تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد (من مارج من نار) قالوا من طرف اللهب وفى رواية من خالصه وأحسنه . وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم . قال كثير من علماء التفسير خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم فى الأرض الحن والبن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم . وذكر السدى فى تفسيره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة . وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره إنما أعطانى الله هذا لمزية لى على الملائكة . وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور .

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل . وكان من سكان الأرض ومن أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما وكان من حى يقال لهم الجن . وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عنه كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة . وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة . وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا . وكان له سلطان الأرض . وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس كان يسوس ما بين السماء والأرض رواه ابن جرير وقال قتادة عن سعيد بن

المسيب كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال الحسن البصرى لم يكن من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر . وقال شهر بن حوشب وغيره كان إبليس من الجن الذين طردهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء . رواه ابن جرير . قالوا فلما أراد الله خلق آدم ليكون فى الأرض هو وذريته من بعده وصورَ جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك وقال أما لئن سُلطت عليك لأهلكنك ولئن سُلطت على لأعصينك فلما نفخ الله فى آدم من روحه كما سيأتى وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ فى قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التى كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه فى أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النارى « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » وقال تعالى « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » .

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيرا ذليلا مذؤما مدحورا متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بنى آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال « أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا » .

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام . والمقصود أن الجان خلقوا من نار ، وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون . ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الأحقاف فى قوله تعالى « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس

بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » وقال تعالى « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا . وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصة فى آخر سورة الأحقاف [1] . وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفى بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلى بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته . ثم اجتمع بهم النبى ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم (كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما وكل روثة علف لدوابكم) ونهى النبى ﷺ أن يستنجى بهما وقال (إنهما زاد إخوانكم الجن) ونهى عن البول فى السراب لأنها مساكن الجن . وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . وقد أثنى عليهم النبى ﷺ فى ذلك لما قرأ هذه السورة على الناس فسكتوا فقال (الجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم فبأى آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد) . رواه الترمذى عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمر .

وقد اختلف فى مؤمنى الجن هل يدخلون الجنة أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذب بالنار فقط على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن ولعموم قوله تعالى « ولمن خاف

---

(١) فى كتابه تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير .

مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان » فامتن تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لما ذكر وعده عليهم من النعم وهذا وحده دليل مستقل كاف فى المسئلة وحده والله أعلم .

وقال البخارى حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدرى قال له (إنى أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة) قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ انفرد به البخارى دون مسلم .

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبى البشر وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم . كما قال « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » وقال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ » وقال تعالى « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » . وقال « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغـويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) .

وقد ذكر تعالى هذه القصة من سورة البقرة وفى الأعراف وههنا فى سورة سبحان وفى سورة طه وفى سورة ص . وقـد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه فى كتابنا التفسير ولله الحمد وسنـوردهـا فى قصـة آدم إن شاء الله والمقصود أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة محنة لعباده واختبـارا منـه لهم كما قال تعالى « وما كان له من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها

فى شك . وربك على كل شىء حفيظ ﴾ . وقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام)

فإبليس لعنه الله حى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن . وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن . وقد قال الله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وكان اسمه قبل معصيته العظيمة عزازيل . قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبى ﷺ لابن صياد ما ترى قال أرى عرشا على الماء . فقال له النبى ﷺ (اخسأ فلن تعدو قدرك) فعرف أن مادة مكاشفته التى كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذى هو يشاهد عرشه على البحر ، ولهذا قال له اخسأ فلن تعدو قدرك أى لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة .

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنى معاذ التميمى عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ (عرش إبليس فى البحر يبعث سراياه فى كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس) ورواه [1] .

وقال أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول (عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة) تفرد به من هذا الوجه .

وقال أحمد حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا على بن زيد عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لابن صائد (ما ترى . قال أرى عرشا على الماء أو قال على البحر حوله الحيات) قال رسول الله ﷺ (ذاك عرش إبليس ﴾ هكذا رواه مسندا جابر .

وقال فى مسند أبى سعيد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال لابن صائد (ما ترى قال أرى عرشا على البحر حوله الحيات) فقال رسول الله ﷺ (صدق ذاك عرش إبليس) .

---

(١) بياض بالأصـــــول .

وروى الإمام أحمد من طريق معاذ التميمى وأبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش [1] بينهم . وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبى ﷺ قال « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئا . ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . فقال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت . يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذى تستحق الإكرام . وبكسرها أى نعم منك . وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل . واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الأول ورجحه ووجهه بما ذكرناه ، والله أعلم .

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى « ما يفرقون به بين المرء وزوجه » يعنى أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن يتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب فى ذلك . فالذى ذمه الله يمدحه والذى يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله . وقد أنزل الله عز وجل سورتى المعوذتين مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته . ولا سيما سورة « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » وثبت فى الصحيحين عن أنس . وفى صحيح البخارى عن صفية بنت حسين أن رسول الله ﷺ قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا محمد بن جبير حدثنا عدى بن أبى عمارة حدثنا زياد النميرى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس . ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناس كما قال تعالى « واذكر ربك إذا نسيت » وقال صاحب موسى « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » وقال تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه » يعنى الساقى لما قال له يوسف اذكرنى عند ربك نسى الساقى أن يذكره لربه ، يعنى مولاه الملك ، وكان هذا النسيان من الشيطان ، فلبث يوسف فى السجن : بضع

---

(١) أى يسعى بينهم بالخصومة .

سنين . ولهذا قال بعده « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة » أى مدة . وقرىء بعد أمة أى نسيان . وهذا الذى قلنا من أن الناسى هو الساقى هو الصواب من القولين كما قررناه فى التفسير . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال عثر بالنبى ﷺ حماره فقلت تعس الشيطان فقال النبى ﷺ (لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتى صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب) . تفرد به أحمد وهو إسناد جيد . وقال أحمد حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (إن أحدكم إذا كان فى المسجد جاء الشيطان فأيس به كما يئس الرجل بدابته فإذا سكن له زنقه أو ألجمه . قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك . أما المزنوق فتراه مائلا كذا لا يذكر إلا الله . وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا ثور يعنى ابن يزيد عن مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمدانى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنى أحدث نفسى بالشىء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به) فقال النبى ﷺ « الله أكبر الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة » . ورواه أبو داود والنسائى من حديث منصور ، زاد النسائى والأعمش كلاهما عن أبى ذر به .

وقال البخارى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرنى عروة قال قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » . وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهرى وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به . وقد قال الله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وقال تعالى « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون » وقال تعالى «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم» وقال تعالى «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » وروى الإمام أحمد

وأهل السنن من حديث أبى المتوكل عن أبى سعيد قال كان رسول الله ﷺ يقول (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) وجاء مثله من رواية جبير ابن مطعم وعبد الله بن مسعود وأبى أمامة الباهلى . وتفسيره فى الحديث (فهمزه الموتة وهو الخنق الذى هو الصرع . ونفخه الكبر . ونفثه الشعر) وثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » قال كثير من العلماء استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم . وروى الإمام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من أصحاب عمر عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (ومن أتى الغائط فليستتر فإن لم يجد إلا أن يجمع كثيبا فليستدبره فإن الشيطان يلعب بمقاعد بني آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج) ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثور بن يزيد به . وقال البخارى حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن عدى بن ثابت قال قال سليمان بن صرد استب رجلان عند النبى ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبى ﷺ (إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقالوا للرجل : ألا تسمع ما يقول النبى ﷺ فقال إنى لست بمجنون ورواه أيضا مسلم وأبو داود والنسائى من طريق الأعمش . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله) هذا على شرط الصحيحين بهذا الإسناد ، وهو فى الصحيح من غير هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبى حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال (من أكل بشماله أكل معه الشيطان ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان) وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبى زياد الطحان سمعت أبا هريرة يقول عن النبى ﷺ أنه رأى رجلا يشرب قائما فقال له (قه) قال لم قال (أيسرك أن يشرب معك الهر) ؟ . قال لا . قال (فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان) . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن رجل عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لو يعلم الذى يشرب وهو قائم ما فى بطنه لاستقاء) قال وحدثنا عبد الرزاق ، عن معمر عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بمثل حديث الزهرى . وقال الإمام .. حدثنا سوسى

حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً سمعتَ النبى ﷺ قال (إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال أدركتم المبيت . وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء . قال نعم) . وقال البخارى حدثنا محمد حدثنا عبدة حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرنى الشيطان » أو (الشياطين) لا أدرى أى ذلك قال هشام . ورواه مسلم والنسائى من حديث هشام به . وقال البخارى حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبيد الله بن دينار عن ابن عمر قال رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال « ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » هكذا رواه البخارى منفردا به من هذا الوجه . وفى السنن أن رسول الله ﷺ نهى أن يجلس بين الشمس والظل . وقال إنه مجلس الشيطان » وقد ذكروا فى هذا معانى من أحسنها أنه لما كان الجلوس فى مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته فى نفسه مشوهة وهذا مستقر فى الأذهان ولهذا قال تعالى (طلعها كأنه رءوس الشياطين) الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم . فإن النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يروا . ولهذا قال تعالى « طلعها كأنه رءوس الشياطين » وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف (حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) . وقال البخارى حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنا ابن جريج أخبرنى عطاء عن جابر عن النبى ﷺ قال (إذا استجنح) أو (كان جنح الليل) فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فحلوهم [1] وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئا » .

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج وعنده : فإن الشيطان لا يفتح مغلقا [2] . وقال الإمام

---

(١) أى خلوا سبيلهم .

(٢) راجع مسند الإمام أحمد .

أحمد حدثنا وكيع عن قط [1] عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله ﷺ « أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء وإن الفويسقة تضرم البيت على أهله » : يعنى الفأرة . وقال البخارى حدثنا آدم حدثنا شعبة [2] عن منصور عن سالم بن أبى الجعد عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى ، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه » . وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله .

ورواه أيضا عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال (أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدا لم يضره الشيطان) وقال البخارى حدثنا إسماعيل حدثنا أخى عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد . يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة . فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه . وقال البخارى حدثنا إبراهيم عن حمزة حدثنى ابن أبى حازم عن يزيد يعنى ابن الهادى عن محمد بن إبراهيم عن عيسى ابن طلحة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه) ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردى . والنسائى عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز بن أبى حازم كلاهما عن يزيد بن الهادى به . وقال البخارى حدثنا عثمان عن أبى شيبه حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال « ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليله ثم أصبح ، قال ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » أو قال (فى أذنه) .

ورواه مسلم عن عثمان وإسحاق كلاهما عن جرير به . وأخرجه البخارى أيضا والنسائى وابن ماجه من حديث منصور بن المعتمر به . وقال البخارى حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ

---

(١) قوله عن قط كذا بالأصول ، وليس من الرواة من يسمى به .

(٢) فى بعض النسخ حدثنا منصور عن سالم .

« إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل فإذا ثوّب بها أدبر فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه . فيقول اذكر كذا وكذا حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتى السهو » هكذا رواه منفردا به من هذا الوجه .

وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا جعفر يعنى الأحمر عن عطاء بن السائب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « راصوا الصفوف فإن الشيطان يقوم فى الخلل » وقال أحمد حدثنا أبان حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبىّ ﷺ كان يقول : « راصوا الصفوف وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذى نفس محمد بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف .

وقال البخارى حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبى صالح عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ « إذا مر بين يدى أحدكم شىء فليمنعه فإن أبى فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان » ورواه أيضا مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال به وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا بشير بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائما يصلى فذهبت أمرّ بين يديه فردنى .

ثم قال حدثنى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين الإبهام والتى تليها ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل .

وروى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن أبى سريج عن أبى أحمد محمد ابن عبد الله بن محمد بن الزبير به . وقال البخارى حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « أنه صلى صلاة فقال إن الشيطان عرض لى فشد على لقطع الصلاة على فأمكننى الله منه » فذكر الحديث . وقد رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة به مطولا .

ولفظ البخارى عند تفسير قوله تعالى إخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال « رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (إن عفريتا من الجن تفلّت علىّ البارحة) أو : كلمة نحوها ، (ليقطع على الصلاة فأمكننى الله منه ،

فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) قال روح فرده خاسئا * وروى مسلم من حديث أبى إدريس عن أبى الدرداء قال قام رسول الله ﷺ يصلى فسمعناه يقول (أعوذ بالله منك) ثم قال (ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك فقال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة) . وقال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) فالشيطان لا يألو الإنسان خبالا جهده وطاقته فى جميع أحواله وحركاته وسكناته كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا فى ذلك سماه (مصائد الشيطان) وفيه فوائد جمة .

وفى سنن أبى داود : إن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه . وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت . وروينا فى بعض الأخبار أنه قال (يارب وعزك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى) وقال الله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إن للشيطان للمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ، ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

وقد ذكرنا فى فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه . وذكرنا فى فضل آية الكرسى أن من قرأها فى ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح . وقال البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف أنبأنى مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه

مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك . وأخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه من حديث مالك وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال البخارى أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال ﷺ كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبيه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب . تفرد به من هذا الوجه .

وقال البخارى حدثنا عاصم بن على حدثنا ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال (ها) ضحك الشيطان » ورواه أحمد وأبو داود والترمذى ، وصححه النسائى من حديث ابن أبى ذئب له * وفى لفظ (إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل) .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فإذا قال أحدكم ها ها فإنما ذلك الشيطان يضحك من جوفه » . ورواه الترمذى والنسائى من حديث محمد بن عجلان به .

وقال البخارى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا الأحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال قالت عائشة سألت النبى ﷺ عن التفات الرجل فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم . وكذا رواه أبو داود والنسائى من رواية أشعث بن أبى الشعثاء سليم عن بن أسود المحاربى عن أبيه عن مسروق به .

وروى البخارى من حديث الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ « الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلما يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره » .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده فيقع فى حفرة من نار » . أخرجاه من : حديث عبد الرزاق ، وقال الله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) . وقال : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد .

لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » وقال تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » وقال تعالى « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » وقال تعالى إخبارا عن الجان « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » .

وقال البخارى وقال الليث حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ قال الملائكة تحدث فى العنان (والعنان الغمام) بالأمر يكون فى الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة [١] . هكذا رواه فى صفة إبليس معلقا عن الليث به . ورواه فى صفة الملائكة عن سعيد بن أبى مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبى جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبى الأسود عن عروة عن عائشة بنحوه . تفرد بهذين الطريقين دون مسلم . وروى البخارى فى موضع آخر ومسلم من حديث الزهرى عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال « قالت عائشة سأل الناس النبى ﷺ عن الكهان فقال « إنهم ليسوا بشىء » . فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بشىء فيكون حقا ، فقال ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة » هذا لفظ البخارى .

وقال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول إن النبى ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان . فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذى قال . الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترق السمع . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه . فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا . فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء انفرد به البخارى . وروى مسلم من حديث الزهرى عن على بن الحسين زين العابدين :

---

(١) فى بعض النسخ مائة كذبة .

عن ابن عباس عن رجال من الأنصار عن النبى ﷺ نحو هذا . وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وقال تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية وقال تعالى (وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

وقد قدمنا فى صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير .

وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه واسمه حصين بن جندب وهو أبو ظبيان الجنبى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين قالوا وأنت يا رسول الله قال نعم ولكن الله أعاننى عليه فأسلم . تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا هارون حدثنا عبد الله بن وهب أخبرنى أبو صخر عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا قالت فغرت عليه قالت فجاء فرأى ما أصنع فقال مالك يا عائشة أغرت ؟ قالت فقلت وما لى أن لا يغار مثلى على مثلك ! فقال رسول الله ﷺ « أفأخذك شيطانك ؟ قالت يا رسول الله أو معى شيطان . قال نعم . قلت : ومع كل إنسان ؟ . قال نعم : قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال نعم ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم » وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن سعيد الأيلى بإسناده نحوه .

وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « أن المؤمن لينصى شيطانه كما ينصى أحدكم بعيره فى السفر » تفرد به أحمد من هذا الوجه ومعنى لينصى شيطانه ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه . وقوله تعالى إخبارا عن إبليس « قال فبما أغويتنى

لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفى حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى فاكه قال سمعت رسول الله ﷺ قال « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك . قال فعصاه وأسلم قال وقعد له بطريق الهجرة ، فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ « فمن فعل ذلك منهم كان حقا على الله أن يدخله الجنة . وان قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن كان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة . وان وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة » . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى حدثنى جبير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله ابن عمر يقول : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسى « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع يعنى الخسف ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به . وقال الحاكم صحيح الإسناد .

باب ما ورد فى خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى (وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك إنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة : وكلا منها رغدا حيث شئتما . ولا تقربا هذه

الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقال تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وقال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » كما قال « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» . وقال تعالى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » الآية وقال تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » كما قال فى الآية الأخرى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال ياإبليس مالك أن لاتكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون [1] قال فاخرج

---

(١) ظنا منه أن النار أفضل من الطين فكان أول من قاس فأخطأ .

منها فإنك رجيم وان عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » . وقال تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » وقال تعالى « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » وقال تعالى « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وقال تعالى (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين : إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . . إلا عبادك منهم المخلصين : قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين : قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن * وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير .

ولنذكر هنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم « إنى جاعل فى الأرض خليفة » أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين . قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن ، قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه . وعن الحسن ألهموا ذلك وقيل لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له الشجل . رواه ابن أبى حاتم عن أبى جعفر الباقر . وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلا ولا نهارا (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال (وعلم آدم الأسماء كلها) قال ابن عباس هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وفى رواية علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية : وقال مجاهد علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء .

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد : وقال الربيع علمه أسماء الملائكة ، وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته ، والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما . وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام ، عن قتادة عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال

(يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء) وذكر تمام الحديث . (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) قال الحسن البصرى لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله (إن كنتم صادقين) وقيل غير ذلك كما بسطناه فى التفسير قالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) أى سبحانك أن يحيط أحد بشىء من علمك من غير تعليمك كما قال (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله وأعلم ما تبدون ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبقوله وما كنتم تكتمون المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة (وما كنتم تكتمون) قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه . قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال (فإذا سويته ونفخت فيه من ورحى فقعوا له ساجدين) فهذه أربع تشريفات خلقه له بيده الكريمة . ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائكة بالسجود له . وتعليمه أسماء الأشياء ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه فى الملإ الأعلى وتناظرا كما سيأتى (أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء) . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتى إن شاء الله تعالى وقال فى الآية الأخرى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) قال الحسن البصرى قاس إبليس وهو أول من قاس . وقال محمد بن سيرين أول من قاس إبليس وما عُبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق . ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه . ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت

فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وان عليك اللعنة إلى يوم الدين) استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه بمخالفة الأمر الإلهى ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين وشرع فى الاعتذار بما لا يجدى عنه شيئا ـ وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) وقال فى سورة الكهف (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة الله عمدا وعنادا واستكبارا عن امتثال أمره وماذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها فإنه مخلوق من نار كما قال وكما روى فى صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال (خلق الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) .

قال الحسن البصرى . لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب كان من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه . وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون . كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا : قال ابن عباس واسمه عزازيل وفى رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) قال ابن عباس : وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علما وعبادة وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطانا رجيما : وقال فى سورة ص « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وان عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم

يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملئن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » وقال فى سورة الأعراف (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل جهة منهم ، فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه .

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل (هو عبد الله بن عقيل الثقفى) حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى الفاكه ، قال سمعت رسول الله ﷺ قال : (إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه) وذكر الحديث كما قدمناه فى صفة إبليس .

وقد اختلف المفسرون فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم . أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الأرض . كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس . وفيه انقطاع ، وفى السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث « وأسجد له ملائكته » وهذا عموم أيضا والله أعلم وقوله تعالى لإبليس (اهبط منها) و (اخرج منها) دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذءوما مدحوراً ، وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجه الجنة ، فقال : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال فى الأعراف (قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملئن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) ، وهذا قد صرح به إسحاق بن بشار وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود

وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها الله من ضلعه ، فسألها من أنت ؟ قالت امرأة قال : ولِمَ خلقت قالت لتسكن إلى ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه (ما اسمها يا آدم ؟) قال حواء ، قالوا ولم كانت حواء قال لأنها خلقت من شيء حى ، وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحما ، ومصداق هذا فى قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) الآية ، وفى قوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به) الآية وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفى الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال (استوصوا بالنساء خيراً ـ فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً) لفظ البخارى .

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) فقيل هى الكرم وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدى فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال وتزعم يهود أنها الحنطة ، وهذا مروى عن ابن عباس والحسن البصرى ، ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبى مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال وهب والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل . وقال الثورى عن أبى حصين عن أبى مالك ، ولا تقربا هذه الشجرة هى النخلة . وقال ابن جريج عن مجاهد : هى التينة وبه قال قتادة وابن جريج ، وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ، ولا ينبغى فى الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب . وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود إلينا لبينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن .

وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن هذه الجنة التى دخلها آدم هل هى فى السماء أو فى الأرض هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه ، الجمهور على أنها هى التى فى السماء وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى (وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة)

والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى ، وإنما تعود على معهود ذهنى وهو المستقر شرعا من جنة المأوى وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام (علام أخرجتنا ونفسك من الجنة) الحديث كما سيأتى الكلام عليه . وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الأشجعى واسمه سعد بن طارق عن أبى حازم سلمة بن دينار عن أبى هريرة . وأبو مالك عن ربعى عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم) وذكر الحديث بطوله ، وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى ، وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون بل الجنة التى أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكى عن أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، ووهب ابن منبه وسفيان بن عيينة ، واختاره ابن قتيبة فى المعارف والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة . وحكاه عن أبى حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى بن خطيب الرىّ فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى وأبى مسلم الأصبهانى . ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل وأبو محمد بن عطية فى تفسيره ، وأبو عيسى الرمانى فى تفسيره .

وحكى عن الجمهور الأول . وأبو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى تفسيره ، فقال واختلف فى الجنة التى أسكناها يعنى آدم وحواء على قولين أحدهما أنها جنة الخلد . الثانى جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين أحدهما أنها فى السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن . والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهذا قول ابن يحيى ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم ، والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف فى المسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره فى هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى . ورابعها الوقف . وحكى القول بأنها فى السماء وليست جنة المأوى عن أبى على الجبائى . وقد أورد أصحاب القول الثانى سؤالا يحتاج مثله إلى جواب ، فقالوا لا شك أن الله سبحانه وتعالى

طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدرى لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال : (اخرج منها مذءوما مدحورا) وقال : (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) وقال : (اخرج منها فإنك رجيم) والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وأيامًا كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرا فى المكان الذى طرد عنه وأبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز . قالوا ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وبقوله : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور) الآية ، وهذا ظاهر فى اجتماعه معهما فى جنتهما ، وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء ، وفى الثلاثة نظر ، والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى الزيادات عن هدبة ابن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن البصرى عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب قال : (إن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بنى آدم ، فقالوا إن أبانا اشتهى قطفا من عنب الجنة ، فقالوا لهم (ارجعوا فقد كفيتموه) فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه ، وقالوا : (هذه سنتكم فى موتاكم) ، وسيأتى الحديث بسنده ، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام ، قالوا فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التى كان فيها آدم التى اشتهى منها القطف ممكنا لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها فى الأرض لا فى السماء ، والله تعالى أعلم .

قالوا والاحتجاج بأن الألف واللام فى قوله « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهنى مسلم ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون فى الأرض وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) .

قالوا وهذا كقوله تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظى وإنما هى للمعهود الذهنى الذى دل عليه السياق وهو البستان .

قالوا وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء ، قال الله تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام

منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية وإنما كان فى السفينة حين استقر على الجودى ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم ، وقال الله تعالى : (اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم) الآية وقال تعالى (وإن منها لما يهبط من خشية الله) الآية ، وفى الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى : (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) أى لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى (وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أى لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من الملائمة ، فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التى نهى عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعى والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينا وأخلاقا وأعمالا وقصوداً وإرادات وأقوالا وأفعالا كما قال تعالى : (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) ولا يلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء كما قال تعالى : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) ومعلوم أنهم كانوا فيها ،ولم يكونوا فى السماء .

قالوا وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما فكل من حكى عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح كما سيأتى إيرادها فى موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : (فأزلهما الشيطان عنها) أى عن الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما كما قال تعالى : (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يقول ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك (وقاسمهما) أى حلف لهما على ذلك (إنى لكما لمن الناصحين) كما قال فى الآية الأخرى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله « شجرة الخلد » التى إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هى الشجرة التى قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد) وكذا رواه أيضاً عن غندر وحجاج عن شعبة ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده عن شعبة أيضاً به قال غندر قلت لشعبة « هى شجرة الخلد » قال ليس فيها « هى » تفرد به الإمام أحمد .

وقوله : (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) كما قال فى «طه» : «فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهى التى حَدَتْه على أكلها ، والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذى رواه البخارى حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه « لولا بنو إسرائيل لم يخنز [1] اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » . تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة به ، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبى وهب عن عمرو بن حارث عن أبى يونس عن أبى هريرة به . وفى كتاب التوراة التى بين أيدى أهل الكتاب : أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى الحية وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا ميازر . وفيها أنهما كانا عريانين * وكذا قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذى فى هذه التوراة التى بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ فى التعريب فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ولا يحيط علما بفهم كتابه أيضا فلهذا وقع فى تعريبهم لها خطأ كثير لفظا ومعنى . وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس فى قوله : (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) فهذا لا يرد لغيره من الكلام ، والله تعالى أعلم .

---

(١) يقال خنز اللحم إذا أنتن .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن بن إشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل يا آدم منى تفر ، فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء . وقال الثورى عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ورق التين . وهذا إسناد صحيح إليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضى أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر ، والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصرى عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعا كثير الشعر موارى العورة فلما أصاب الخطيئة فى الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته فناداه ربه : أفراراً منى يا آدم قال بل حياء منك والله يارب : مما جئت به . ثم رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ بنحوه . وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أبيا . ثم أورده أيضا من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسى عن محمد بن عبد الوهاب أبى قرصافة العسقلانى عن آدم بن أبى إياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه . (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته. إلى خير فى دنياه وأخراه (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس . قيل والحية معهم أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين . وقد يشهد لذكر الحية معهما بما ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات وقال ما سالمناهن منذ حاربناهن وقوله فى سورة طه (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) هو أمر لآدم وإبليس واستتبع آدم حواء وإبليس الحية . وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) والصحيح إن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدع ومدعى عليه قال وكنا لحكمهم شاهدين وأما تكريره الإهباط فى سورة البقرة فى قوله (وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو

ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فقال بعض المفسرين المراد بالإهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالثانى من السماء الدنيا إلى الأرض ، وهذا ضعيف لقوله فى الأول (قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أنه كرره لفظا وإن كان واحداً وناط مع كل مرة حكما فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم وبالثانى الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الحكيم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الأكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو فقال الله فراراً منى ؟ قال بل حياء منك يا سيدى . وقال الأوزاعى عن حسان هو ابن عطية مكث آدم فى الجنة مائة عام وفى رواية ستين عاما وبكى على الجنة سبعين عاما وعلى خطيئته سبعين عاما وعلى ولده حين قتل أربعين عاما * رواه ابن عساكر .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له دحنا بين مكة والطائف .وعن الحسن قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدة وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية بأصبهان . رواه ابن أبى حاتم أيضا . وقال السدى نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة فبثه فى الهند فنبتت شجرة الطيب هناك . وعن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة . رواه ابن أبى حاتم أيضا وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى الأشعرى قال إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير . وقال الحاكم فى مستدركه أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمر عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفى صحيح مسلم من حديث الزهرى عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها) وفى الصحيح من وجه آخر (وفيه تقوم الساعة) وقال أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعى عن أبى عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة) على شرط مسلم .

فأما الحديث الذى رواه ابن عساكر من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا محمد بن جعفر الوركانى حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ (هبط آدم وحواء عريانين جميعا عليهما ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكى ويقول لها يا حواء قد أذانى الحر ، قال فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج وقال كان آدم لم يجامع امرأته فى الجنة حتى هبط منها للخطيئة التى أصابتهما بأكلهما من الشجرة قال وكان كل واحد منهما ينام على حدة ينام أحدهما فى البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتى أهله قال وعلمه كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل فقال كيف وجدت امرأتك قال صالحة) فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً . وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكرى البصرى . قال فيه البخارى : منكر الحديث . وقال ابن حبان يروى الموضوعات وقال ابن عدى مظلم الأمر وقوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) قيل هى قوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) * روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن إشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ (قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت ، أعائدى إلى الجنة ؟ قال نعم) فذلك قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) . وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال الكلمات (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى

ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم) * وروى الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) قال : قال آدم : يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى . ونفخت فى من روحك ؟ قيل له بلى . وعطستُ فقلتَ يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى . وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى . قال أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال نعم . ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى الحاكم أيضا والبيهقى وابن عساكر من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ (لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد أن غفرت لى ، فقال الله فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك) * قال البيهقى تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف، والله أعلم.

وهذه الآية كقوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال حاج موسى آدم: عليهما السلام فقال له أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى ، أو قدره على قبل أن يخلقنى ، قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى . وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به . قال أبو مسعود الدمشقى ولم يخرجه عنه فى الصحيحين سواه . وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة .ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ فقال له آدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته

وبكلامه تلومنى على أمر قدِّر على قبل إن أخلق ، قال رسول الله ﷺ (فحج آدم موسى فحج آدم موسى) مرتين قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه .

وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ (قال احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ قال فقال آدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله كتبه الله على قبل أن يخلق السموات والأرض ، قال فحج آدم موسى) وقد رواه الترمذى والنسائى جميعا عن يحيى بن حبيب ابن عدى عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الأعمش به . قال الترمذى وهو غريب من حديث سليمان التيمى عن الأعمش قال وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد ، قلت هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مثنى عن معاذ ابن أسد عن الفضل بن موسى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد . ورواه البزار أيضا حدثنا عمرو بن علىَ الفلاس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيد عن النبى ﷺ : فذكره نحوه ، وقال أحمد حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاوسا سمع أبا هريرة يقول قال : رسول الله ﷺ (احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ! فقال له آدم يا موسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه) وقال مرة (برسالته وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال حج آدم موسى حج آدم موسى حج آدم موسى) وهكذا رواه البخارى عن على بن المدينى حدثنا عن سفيان قال حفظناه من عمرو عن طاووس قال سمعت أبا هريرة عن النبى ﷺ قال (احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده : أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ، فحج آدم موسى فحج آدم موسى هكذا ثلاثا) .

قال سفيان حدثنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله . وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الله ابن طاووس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه . وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد عن عمار عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال لقى آدم موسى فقال : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ثم فعلت ! ؟

ما فعلت فقال أنت موسى الذى كلمك الله واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة : أنا أقدم أم الذكر ؟ قال لا بل الذكر فحج آدم موسى .

قال أحمد : وحدثنا عفان حدثنا حماد عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . وحميد عن الحسن عن رجل قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلى عن النبى ﷺ : قال لقى آدم موسى ، فذكر معناه . تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا الحسن حدثنا جرير هو ابن حازم عن محمد هو ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (لقى آدم موسى فقال : أنت آدم الذى خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكتــه ثم صنعت ما صنعت ؟ قال آدم يا موسى أنت الـذى كلمـه الله وأنـزل عليه التـوراة ؟ . قال نعم . قال فهل تجده مكتوبا على قبل أن أخلق ؟ . قال نعم . قال : فحـــج آدم موسى ، فحج آدم موسى) . وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه .

وكذا رواه على بن عاصم عن خالد وهشام عن محمد بن سيرين . وهذا على شرطهما من هذه الوجوه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى أنس بن عياض عن الحارث بن أبى ذُباب عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ (احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى . قال موسى : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت النـاس إلى الأرض بخـطيئتـك ؟ . قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكـلامـه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة ؟ . قال موسى بأربعين عاماً . قال آدم فهل وجدت فيها « وعصى آدم ربه فغوى » قال نعم . قال أفتلومنى على أن عملت عمـلا كتب الله علىَّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة . قال : قال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » .

قال الحارث وحدثنى عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ . وقـد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصارى عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن يزيد بن هرمز والأعرج كلاهما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه .

وقـال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسـول الله ﷺ « احتـج آدم ومـوسى فقال موسى لآدم يا آدم أنت الذى أدخلت ذريتـك النـار ! ؟ . فقـال آدم يا موسى : اصـطفـاك الله برسـالاتـه وبكـلامـه وأنـزل

عليك التوراة فهل وجدت أن أهبط ؟ . قال نعم . قال فحجه آدم » وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه . وفى قوله « أدخلت ذريتك النار » نكارة .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبى هريرة رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان أبو صالح السمان وطاووس وابن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعمار بن أبى عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال حدثنا الحارث بن مسكين المصرى حدثنا عبد الله بن وهب أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال : (قال موسى عليه السلام يارب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم عليه السلام . فقال أنت آدم ؟ . فقال له آدم نعم ، قال أنت الذى نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك الأسماء كلها ؟ قال : نعم . قال فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : من أنت قال : أنا موسى . قال أنت موسى نبىُّ بنى إسرائيل أنت الذى كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟ قال نعم : قال تلومنى على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل قال رسول الله ﷺ : (فحج آدم موسى فحج آدم موسى) ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصرى عن ابن وهب به . قال أبو يعلى ، وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعى حدثنا عمران عن الردينى عن أبى مجلز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر قال أبو محمد أكبر ظنى أنه رفعه . قال : (التقى آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته ؟ . قال آدم : يا موسى أما تجده علىَّ مكتوبا ؟ . قال : فحج آدم موسى فحج آدم موسى) وهذا الإسناد أيضا لا بأس به - والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد . ورواية الإمام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل . قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلى عن النبى ﷺ : (لقى آدم موسى) . فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس فى هذا الحديث فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق . واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادى الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا ، وقال آخرون إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم وقيل

لأنه أبوه وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين . وقيل لأنهما فى دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه .

والتحقيق ان هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى وفيه نظر . ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلىَّ أكثر ما أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلى فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة ، وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه ، وله الحكمة فى ذلك فلهذا حج آدم موسى .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبى هريرة رضى الله عنه وناهيك به عدالة وحفظا وإتقانا . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى . وما فيهم من هو أقوى مسلكا من الجبرية . وفيما قالوه نظر من وجوه . (أحدها) أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله . (الثانى) أنه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها . وقد سأل الله فى ذلك بقوله « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له » الآية . (الثالث) إنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ، ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار ، وهذا يفضى إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء بأن جواب آدم إنما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية ، والله تعالى أعلم .

ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر حدثنا عوف حدثنى قسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك . والخبيث والطيب والسهل والحزن ، وبين ذلك .

ورواه أيضا عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر

الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك . والسهل والحزن وبين ذلك . والخبيث والطيب وبين ذلك) . وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن حبّان فى صحيحه من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى عن قسامة بن زهير المازنى البصرى عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى عن النبى ﷺ بنحوه . وقال الترمذى حسن صحيح .

وقد ذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا (فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال رب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع ، فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فَبَلَّ التراب حتى عاد طينا لَازِبًا) واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) . ويقول لأمر مًّا خلقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك ، فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى : « خُلق الإنسان من عجل » (فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات ، فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك) وقال ابن حبان فى صحيحه ، حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد ابن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك . . أن رسول الله ﷺ قال :

(لما نفـخ فى آدم فبلغ الـروح رأسـه عطس فقـال الحمـد لله رب العـالمين فقـال له تبارك وتعالى يرحمك الله) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر ابن الخطاب عن أبى هريرة رفعه ، قال : (لما خلق الله آدم عطس فقال الحمد لله فقال له ربه رحمك ربك يا آدم) . وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه . وقال عمر بن عبد العزيز « لما أمرت الملائكة بالسجود وكان أول من سجد منهم إسرافيل فآتاه الله أن كتب القرآن فى جبهته » رواه ابن عساكر وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عمرو بن محمد عن إسماعيل بن رافع عن المقبرى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينا ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار . قال فكان إبليس يمر به فيقول لقد خُلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة ربه فقال الله . يرحمك ربك . ثم قال الله يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم السلام عليكم فانظر ماذا يقولون فجاء فسلم عليهم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال يارب وما ذريتى قال اختر يدى يا آدم ، قال أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين وبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن فإذا رجال منهم أفواههم النور فإذا رجل يعجب آدم نوره قال يارب من هذا ؟ قال ابنك داود قال يارب فكم جعلت له من العمر قال جعلت له ستين قال يارب فأتم له من عمرى حتى يكون له من العمر مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك فلما نفد عمر آدم بعث الله له ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال له الملك أو لم تعطها ابنك داود فجحد ذلك فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته .

وقـد رواه الحـافظ أبـو بكـر البـزار والـترمـذى والـنسـائـى فى الـيوم والليلة من حديث صفـوان بن عيسى عن الحـارث بن عبـد الـرحمن بن أبى ذباب عن سعـيد المـقـبرى عن أبـى هريرة عن الـنبـى ﷺ . وقـال الـترمـذى حديث حسـن غريب من هذا الـوجـه . وقـال الـنسـائى : هذا حديث منكـر وقـد رواه محمـد بن عجـلان عن أبيه عن أبى سعيد المقـبرى عن عبـد الله بن سلام . وقـال الـترمـذى حدثنـا عبـد بن حميد حدثنـا أبـو نعيم حدثنـا هشـام بن سعـد عن زيـد بـن أسـلم ، عـن أبـى صـالـح ، عـن أبـى هـريـرة قـال : قـال

رسول الله ﷺ : (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم ، فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أى رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود ، قال فجحد فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته) ، ثم قال الترمذى حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وروى ابن أبى حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعا فذكره وفيه (ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم يارب لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال كى تشكر نعمتى) ، ثم ذكر قصة داود . وستأتى من رواية ابن عباس أيضا . وقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : (خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذى فى يمينه إلى الجنة ولا أبالى ، وقال للذى فى كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالى .

وقال ابن أبى الدنيا حدثنا خلف بن هشام حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال : « خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى ، فقال آدم يارب ألا سويت بين ولدى ، قال يا آدم إنى أردت إن أشكر » ، وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه ، وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه فقال حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا محمد ابن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله بإذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فسلم عليهم ، فقال السلام عليكم ، فقالوا وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم وقال الله ويداه مقبوضتان

اختر أيهما شئت فقال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال أى رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه وإذا فيهم رجل أضوؤهم » أو « من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعون سنة قال يارب ما هذا ، قال هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة ، قال أى رب زد فى عمره فقال ذاك الذى كتب له قال فإنى قد جعلت له من عمرى ستين سنة قال أنت وذاك ، اسكن الجنة ، فسكن الجنة ما شاء الله ثم هبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لى ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة ، فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته فيومئذ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه .

وقال قال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم قال اذهب فسلم علىٰ أولئك من الملائكة واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ، وهكذا رواه البخارى فى كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفر ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به ، وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال كان طول آدم ستين ذراعا فى سبع أذرع عرضا ، انفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم إن الله لما خلق آدم ومسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارىء إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهر قال أى رب من هذا قال هذا ابنك داود قال أى رب كم عمره قال ستون عاما قال أى رب زد فى عمره قال لا إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما ، فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاما ، فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال ما فعلت ، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة » ، وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن على ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ (إن أول من جحد آدم قالها ثلاث مرات إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته

فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلا يزهر فقال اى رب زد فى عمره قال لا إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره ، فكتب الله تعالى عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما أراد أن يقبض روحه قال إنه بقى من أجلى أربعون سنة فقيل له إنك قد جعلتها لابنك داود قال فجحد قال فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة ، تفرد به أحمد وعلى بن زيد فى حديثه نكارة ، ورواه الطبرانى عن على بن عبد العزيز عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال : (لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ إن أول من جحد آدم ثلاثا) وذكره ، وقال الإمام مالك بن أنس فى موطئه عن زيد بن أبى أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية ، فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : (إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار) .

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو حاتم بن حبان فى صحيحه من طرق عن الإمام مالك به ، وقال الترمذى هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة ، وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جُثعم عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم ابن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث ، قال الحافظ الدارقطنى وقد تابع عمر بن جُثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوى عن زيد بن أبى أنيسة قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهـذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى ، فأما الإشهاد

عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية فلم يجىء فى الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التى فى سورة الأعراف ، وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه . وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها . فمن أراد تحريره فليراجعه ثَمَّ ، والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعنى ابن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذريته ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : (ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا : أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا) إلى قوله (المبطلون) فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم . رواه النسائى وابن جرير والحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد المروزى به . وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر ، فروى عنه مرفوعا وموقوفا . وكذا روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا . وهكذا رواه العوفى والوالبى والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله [1] . وهذا أكثر وأثبت ، والله أعلم .

وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح . واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنى شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به ، قال فيقول نعم ، فيقول قد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى) أخرجاه من حديث شعبة به .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية والتى بعدها ، قال فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) الآية قال فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئاً ، وإنى سأرسل إليكم رسلا ينذرونكم عهدى وميثاقى ، وأنزل عليكم كتابى - قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال يارب لو سويت بين عبادك ، فقال إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة

---

(١) أي من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

فهـو الـذى يقول الله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) وهو الذى يقول : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى ذلك قال : (هذا نذير من النذر الأولى) وفى ذلك قال : (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) رواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من طريق أبى جعفـر . وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الإلهى وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيما .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع . ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا حدثنا الأعمش عن أبى صالـح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى : يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار ، ورواه مسلم من حديث وكيع وأبى معاوية عن الأعمش به ، ثم لما أسكن آدم الجنة التى أسكنها سواء كانت فى السماء أو فى الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه أقـام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً حيث شاءا فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منهـا . واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبى هريرة مرفوعا وخلق آدم فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة ، وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه يعنى يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها ، فإن كان اليوم الذى خلق فيه ، فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام ، فقد لبث بعض يوم من هذه الأيام ، وفى هذا نظر وإن كان إخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقـدارهـا ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير ، فقد لبث هناك مدة طويلة ، قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فمكث مصوراً طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر ، والله تعالى أعلـم * وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبى رباح أنه كان لما أهبط رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء فحطه الله إلى ستين ذراعـا . وقد روى عن ابن عباس نحوه ، وفى هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة أن رسـول الله : صلى الله عليه وسـلم ، قال : (إن الله سبحـانـه وتعـالى خلق

آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعا ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس أن الله قال يا آدم إن لى حرما بحيال عرشى فانطلق فابن لى فيه بيتا فطف به كما تطوف ملائكتى بعرشى وأرسل الله له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك . وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه أن أول طعام أكله آدم فى الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال ما هذا ؟ قال : هذا من الشجرة التى نهيت عنها فأكلت منها ، فقال : وما أصنع بهذا ؟ قال ابذره فى الأرض فبذره ، وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد ، وذلك قوله تعالى : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبة ولحواء درعا وخمارا .

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شىء من الأولاد ، فقيل لم يولد لهما إلا فى الأرض ، وقيل بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها ، والله أعلم .

وذكروا أنه كان يولد فى كل بطن ذكر وأنثى وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه والآخر بالأخرى ، وهلم جرا ولم يكن تحل أخت لأخيها الذى ولدت معه .

ذكر قصة ابنى آدم قابيل وهابيل

قال الله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتُقبِّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يَدِىَ إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) * قد تكلمنا على هذه القصة فى سورة المائدة فى التفسير بما فيه كفاية ، ولله الحمد .

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف فى ذلك . فذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل وأخت

هابيل أحسن فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها ، فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً ، وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السموات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك . فلما ذهب قربا قربانهما ، فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . وروى عن ابن عباس من وجوه أخر ، وعن عبد الله بن عمرو ، وقال عبد الله بن عمرو : وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تقبل منك ولم يتقبل منى ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله . وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته . وقيل : بل خنقه خنقاً وعضه عضا شديداً كما تفعل السباع فمات ، والله أعلم .

وقوله له لما توعده بالقتل قال : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله ، ولهذا ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » . وقوله : « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » أى إنى أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه أن تبوء بإثمى وإثمك ، أى تتحمل إثم قتلى مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك . قاله مجاهد والسدى وابن جرير وغير واحد وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعضهم ، قال فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذى يورده بعض من لا يعلم عن النبى ﷺ أنه قال : « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب » فلا أصل له ، ولا يعرف فى شىء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً ، ولكن قد يتفق فى بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول

القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفى بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح فى سائر المظالم ، والقتل من أعظمها ، والله أعلم . وقد حررنا هذا كله فى التفسير ، ولله الحمد .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال عند فتنة عثمان ابن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى قال : أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى ، قال : كن كابن آدم » . ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وقال «كن كخير ابنىْ آدم». وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائى عن أبى ذر نحو هذا .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » ورواه الجماعة سوى أبى داود من حديث الأعمش به ، وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعى أنهما قالا مثل هذا سواء . وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب ، فالله أعلم بصحة ذلك . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد ابن كثير وقال : إنه كان من الصالحين أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدقه فى ذلك رسول الله ﷺ وقال : إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان فى كل يوم خميس . وهذا مقام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة ، وقال آخرون : حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين .

قال السدى بإسناده عن الصحابة : أخوين تقاتلا فقتل أحدهما الآخر ، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ، ففعل مثل ما فعل الغراب ، فواراه ودفنه .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنا شديدا وأنه قال فى ذلك شعراً ، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغـيرت البـلاد ومن عليهـا   فوجـه الأرض مغـبر قبـيح
تغـير كل ذى لون وطـعـم   وقَـلَّ بشـاشـة الـوجـه المـليح

(فـأجيـب آدم)

أبـا هابـيل قد قتـلا جميعـا   وصـار الحـى كالمـيْت الـذبـيح
وجـاء بشرة قد كان منهـا   على خوف فجـاء بها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاما يتحزن به بلغته فألفه بعضهم إلى هذا وفيه أقـوال والله أعلم . وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه . وقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم) .

والـذى رأيتـه فى الكتـاب الذى بأيدى أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره وأنه سكن فى أرض نود فى شرقى عدن وهم يسمونه قنين وأنه ولد له خنوخ ولخنـوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا فولـدت عدا ولـدا اسمه إبل وهو أول من سكن القباب واقتنى المال وولدت أيضا نوبل وهو أول من أخـذ فى ضرب الـونـج والصنج وولدت صلا ولدا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحـاس والحديد وبنتا اسمها نعمى وفيها أيضا إن آدم طاف على امرأته فولدت غلاما ودعت اسمـه شيث وقـالت من أجـل إنـه قد وهب لى خلفا من هابيل الذى قتله قابيل وولد لشيث أنوش قالوا وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسا وستين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنـين . وولد له بنون وبنات غير أنوش فولد لأنوش قينان وله من العمر تسعون سنة وعاش بعـد ذلـك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمهـلاييل من العمـر خمس وستـون سنة ولد له يرد وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنـون وبنات فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له خنوخ وعاش بعد ذلك

ثمانمائة سنة ، وولد له بنون وبنات ، فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلح ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات ، فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له لامك ، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات ، فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له نوح ، وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة ، وولد له بنون وبنات ، فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون سام وحام ويافث ، هذا مضمون ما فى كتابهم صريحا .

وفى كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم فى ذلك ، والظاهر أنها مقحمة فيها . ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير ، وفيها غلط كثير كما سنذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطناً ، قاله ابن إسحق وسماهم والله تعالى أعلم . وقيل : مائة وعشرين بطناً فى كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته قليما ، وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا فى الأرض ونموا ، كما قال الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة ، والله أعلم . وقال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) الآيات ، فهذا تنبيه أولا بذكر آدم ، ثم استطرد إلى الجنس ، وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس ، كما فى قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) ، وقال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره .

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم عند هذه الآية وأخرجه الحاكم فى مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه فهذه علة قادحة فى الحديث أنه روى موقوفا على الصحابى وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روى موقوفا على ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الإحبار ودوّنه والله أعلم ، وقد فسر الحسن البصرى هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه إلى غيره والله أعلم . وأيضا فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالا كثيراً ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر فى هذا الحديث إن كان محفوظا . والمظنون بل المقطوع به إن رفعه إلى النبى ﷺ خطأ أو الصواب وقفه والله أعلم ، وقد حررنا هذا فى كتابنا التفسير ، ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما فى هذا ، فإن آدم أبو البشر الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه جنته ، وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال : « قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قلت يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير ، قلت يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال آدم ، قلت يا رسول الله نبى مرسل ؟ قال نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا » ، وقال الطبرانى حدثنا إبراهيم ابن نائلة الأصبهانى حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل وأفضل النبيين آدم وأفضل الأيام يوم الجمعة وأفضل الشهور شهر رمضان وأفضل الليالى ليلة القدر وأفضل النساء مريم بنت عمران ، وهذا إسناد ضعيف فإن نافعا أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم .

وقال كعب الأحبار ليس أحد فى الجنة له لحية إلا آدم . لحيته سوداء إلى سرته ، وليس أحد يكنى فى الجنة إلا آدم كنيته فى الدنيا أبو البشر وفى الجنة أبو محمد ، وقد روى ابن عدى من طريق سبح [1] بن أبى خالد عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله

---

(١) هكذا فى الأصول ولم نجد فى أسماء الرجال من هو بهذا الاسم .

مرفوعا أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد . ورواه ابن عدى أيضا من حديث على بن أبى طالب وهو ضعيف من كل وجه ، والله أعلم .

وفى حديث الإسراء الذى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو فى السماء الدنيا قال له مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح قال وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى ، فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه ، فإذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمالى وهم أهل النار بكى ، هذا معنى الحديث ، وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد ابن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء فى قوله ﷺ فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، قالوا معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه ، وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضا موقوفا ومرفوعا أن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ، فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان ، وقد ورد الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال إن الله (خلق آدم على صورته) وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنى شيث هبة الله وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل ، قال أبو ذر فى حديثه عن رسول الله ﷺ إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة ، قال محمد بن إسحاق ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك ، قال ويقال إن أنساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى شيث ، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا ، والله أعلم .

ولما توفى آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام ، قال ابن إسحاق وكسفت

الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن ، وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيى هو ابن ضمرة السعدى قال رأيت شيخا بالمدينة تكلم فسألت عنه فقالوا هذا أبى بن كعب ، فقال إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه أى بَنِيّ إنى أشتهى من ثمار الجنة قال فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفئوس والمساحى والمكاتل ، فقالوا لهم يا بنى آدم ما تريدون وما تطلبون أو ما تريدون وأين تطلبون قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال إليك عنى فإنى إنما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره فوضعوه فى قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا يا بنى آدم هذه سنتكم ، إسناد صحيح إليه ، وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد ابن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال كبرت الملائكة على آدم أربعا وكبر أبو بكر على فاطمة أربعا وكبر عمر على أبى بكر أربعا وكبر صهيب على عمر أربعا ، قال ابن عساكر ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر .

واختلفوا فى موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط منه فى الهند وقيل بجبل أبى قبيس بمكة ، ويقال إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت فدفنهما ببيتِ المقدس ، حكى ذلك ابن جرير ، وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس ، وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة ، واختلف فى مقدار عمره عليه السلام فقدمنا فى الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعا أن عمره اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنة ، وهذا لا يعارضه ما فى التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود إذ خالف الحق الذى بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم ، وأيضا فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما فى الحديث فإن ما فى التوراة إن كان محفوظا محمول على مدة مقامه فى الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهى بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه فى الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره ، فيكون الجميع ألف سنة .

وقال عطاء الخراسانى لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام ، رواه ابن عساكر فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام ، وكان نبيا بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر مرفوعا أنه أنزل عليه خمسون صحيفة ، فلما

حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينن . ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذى يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الذى بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى ، وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقا من مردة الجن والغيلان ، وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس ، ودامت دولته أربعين سنة ، فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ ، وهو إدريس عليه السلام على المشهور .

ذكر إدريس عليه السلام

قال الله تعالى : (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا) فأدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب . وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام ، وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين ، وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال إنه كان نبى يخط به فمن وافق خطه فذاك ، ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم فى ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء ، وقوله تعالى : (ورفعناه مكانا عليا) هو كما ثبت فى الصحيحين فى حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر به وهو فى السماء الرابعة ، وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له ما قول الله تعالى لإدريس (ورفعناه مكانا عليا) فقال كعب أما إدريس فإن الله أوحى إليه إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملا فأتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى ازداد عملا فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس قال هو ذا على ظهرى فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض

روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل (ورفعناه مكانا عليا) ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها ، وعنده فقال لذلك الملك سل لى ملك الموت كم بقى من عمرى فسأله وهو معه كم بقى من عمره فقال لا أدرى حتى أنظر فنظر قال إنك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر ، وهذا من الإسرائيليات وفى بعضه نكارة ، وقول ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله : (ورفعناه مكانا عليا) قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففى هذا نظر وإن أراد أنه رفع حيا إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار والله أعلم ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : (ورفعناه مكانا عليا) رفع إلى السماء السادسة فمات بها ، وهكذا قال الضحاك ، والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد ، وقال الحسن البصرى (ورفعناه مكانا عليا) قال إلى الجنة ، وقال قائلون رفع فى حياة أبيه يرد ابن مهلاييل ، والله أعلم ، وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح ، بل فى زمان بنى إسرائيل .

قال البخارى : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الإسراء إنه لما مر به عليه السلام قال له مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قالوا أنه لو كان فى عمود نسبه لقال له كما قالا له ، وهذا لا يدل ولابد ، لأنه قد لا يكون الراوى حفظه جيداً ، أو لعله قال له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر وإبراهيم الذى هو خليل الرحمن وأكبر أولى العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ، وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام ، كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره ، وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا

أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله أنبى كان آدم قال نعم مُكَلَّم ، قال فكم كان بينه وبين نوح قال عشرة قرون ، قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه ، وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام ، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار ، والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوحٍ) ، وقوله : (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) ، وقال تعالى : (وقرونا بين ذلك كثيراً) ، وقال : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وكقوله عليه السلام « خير القرون قرنى » الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم .

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس فى الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة ، وكان قومه يقال لهم بنو راسب ، فيما ذكره ابن جبير وغيره .

واختلفوا فى مقدار سنة يوم بعث فقيل كان ابن خمسين سنة ، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة ، حكاها ابن جرير وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة فى غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة ، فقال فى سورة الأعراف (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا

ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) وقال فى سورة يونس (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وقال تعالى فى سورة هود (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسالكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون . وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إنى ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم

الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) . وقال تعالى فى سورة الأنبياء (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين) وقال تعالى فى سوءة الشعراء (كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر أن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى فى سورة العنكبوت (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى فى سورة الصافات (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين) وقال تعالى فى سورة اقتربت (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على

أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالو لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا. ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا. فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وقد تكلمنا على كل موضع من هذه فى التفسير ، وسنذكر مضمون القصة مجموعا من الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار ، وقد جرى ذكره أيضا فى مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ، فقال تعالى فى سورة النساء : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) وقال فى سورة الأنعام : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم

وهديناهم إلى صراط مستقيم) الآيات ، وتقدمت قصته فى الأعراف . وقالَ فى سورة براءة (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، وتقدمت قصته فى يونس وهود ، وقال فى سورة إبراهيم : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) ، وقال فى سورة سبحان (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) ، وقال فيها أيضا (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) ، وتقدمت قصته فى الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت . وقال فى سورة الأحزاب : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ، وقال فى سور ص : (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كلٌ إلا كذب الرسل فحق عقاب) ، وقال فى سورة غافر : (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) وقال فى سورة الشورى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) وقال تعالى فى سورة ق : (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) وقال فى الذاريات : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) وقال فى النجم : (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) ، وتقدمت قصته فى سورة اقتربت الساعة . وقال تعالى فى سورة الحديد : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) وقال تعالى فى سورة التحريم (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخارى . وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال

بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا . ولا يغوث ويعوق ونسرا) قال (هذه) أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنوسى العلم عبدت .

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق .

وقال ابن جرير فى تفسيره حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد ابن قيس قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم . وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبى المطهر قال ذكروا عند أبى جعفر هو الباقر وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب قال : فلما انفتل من صلاته قال ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله . قال ذكر وداً رجلا صالحا وكان محببا فى قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسان ثم قال إنى أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه قالوا نعم . فصور لهم مثله . قال ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه . قالوا نعم قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله وداً : الصنم الذى سموه ودّا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس . وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصورة تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون

الله عز وجل . ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها فى مواضعها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنها لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل » .

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى حديث الشفاعة قال فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول ربى قد غضب غضباً شديدا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ونهانى عن الشجرة فعصيت نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل ، فيقول ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسى نفسى . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى فى قصة نوح .

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأن لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقال فيه وفى إبراهيم (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته . وكذلك إبراهيم قال الله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ولهذا قال نوح لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقال : (ألّا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) وقال : (يا قوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا

الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا) الآيات الكريمات . فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم (قال الملأ من قومه) أى السادة الكبراء منهم (إن لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى لست كما تزعمون من أنى ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أى الذى يقول للشيء كن فيكون (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا أى فصيحا ناصحا أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا : (ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) تعجبوا أن يكون بشر رسولا وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم . وقد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل ، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم بادى الرأى أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية ، وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق : ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم ، ولهذا كانت بيعته يوم الثقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضى الله عنهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه وقال : يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر رضى الله عنه . وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به . (وما نرى لكم علينا من فضل) أى لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا (بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) .

وهذا تلطف فى الخطاب معهم وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق كما قال تعالى : (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ، وقال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ، وهذا منه يقول لهم : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده) أى النبوة والرسالة (فعميت عليكم) أى فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها (أنلزمكموها) أى أنغصبكم بها ونجبركم عليها (وأنتم لها كارهون) أى ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم . وقوله : (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون) كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال : (إنهم ملاقوا ربهم) أى فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : (ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون) ، ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين ، كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف : (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك) أى بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ، ولا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) . يعنى من أتباعه (لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين) أى لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم ، وسيجازيهم على ما فى نفوسهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قالوا فى المواضع الآخر : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين) .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم ، وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ، أن لا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ، ودائما ما بقى ، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ، ولهذا قال : (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ، ولهذا قالوا (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه الذى لا يعجزه شىء ولا يكترثه أمر بل هو الذى يقول للشىء كن فيكون (ولا ينفعكم نصحى إن أردت

أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) أى من يريد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية . وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) تسلية له عما كان منهم إليه (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أى لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) وذلك أن نوحا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طرق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وقومه من الكرب العظيم) . وقال تعالى (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) . وقال تعالى (قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين) وقال تعالى (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وقال تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون) وقال تعالى (مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لايرد عن القوم المجرمين أنه لايعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ماتوعدهم به قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول كما قال البخارى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ (يجىء نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل هل بلغت ؟ فيقول نعم أى رب فيقول لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون لا ، ما جاءنا من نبى فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهد أنه قد

بلغ) وهو قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه . وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لايتوقع خروجه فى زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخارى حدثنا عبدان حدثنا عبد الله عن يونس عن الزهرى قال سالم قال ابن عمر قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله . ثم ذكر الدجال فقال (إنى لأنذركموه وما من نبى إلا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور) وهذا الحديث فى الصحيحين أيضا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبى قومه إنه أعور إنه يجىء معه بمثال الجنة والنار والتى يقول عليها الجنة هى النار وأنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه) لفظ البخارى .

وقد قال بعض علماء السلف لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة أخرى وقيل فى أربعين سنة فالله أعلـم .قال محمد ابن إسحق عن الثورى وكانت من خشب الســاج . وقيل من الصنوبر . وهو نص التوراة . قال الثورى وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق المـاء . وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا وهذا الذى فى التوراة على ما رأيته .

وقال الحسن البصرى ستمائة فى عرض ثلثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة ذراع . وقيل كان طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات . كل واحدة عشرة أذرع . فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليهـا . قال الله تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب فى صنعتها (فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الـذين ظلموا إنهم مغرقون) فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء

أمره وحل بأسه أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أى أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أى إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعانيه من العذاب العظيم الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أى نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس التنور عين فى الهند وعن الشعبى بالكوفة وعن قتادة بالجزيرة . وقال على بن أبى طالب المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أى إشراقه وضياؤه أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب . وقوله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق (اثنين) إن جعلنا ذلك مفعولا به . وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار . ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد فسلط الله عليه الحمّى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض . ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . هذا مرسل . وقوله (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذى غرق كما سيأتى بيانه (ومن آمن) أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم

نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذى انخزل وانعزل وتسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عذل . وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هى نص فى أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال (ونجنى ومن معى من المؤمنين) وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق وعابر وقد ماتت قبل الطوفان . قيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله (لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) قال الله تعالى (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) أى على اسمه ابتداء سيرها وانتهاؤه (إن ربى لغفور رحيم) أى وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره قال الله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) . وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر . وحملناه على ذات ألواح ودُسر) . والدسر المسامير (تجرى بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها (جزاء لمن كان كفر) .

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط . وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) أى السفينة (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن

واعية) قال جماعة من المفسرين ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذى عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف . ولا صغير ولا كبير .

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « لم تكن بقعة فى الأرض إلا ولها مالك وحائز » رواهما ابن أبى حاتم . (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث * وقيل اسمه كنعان . وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك . هذا . وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر (وغيض الماء) أى نقص عما كان (وقضى الأمر) أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم . (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى نودى عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى (فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) وقال تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وقال تعالى (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وقال تعالى (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى (ثم أغرقنا الآخرين) وقال (ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير ، وأبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى عن قائد مولى عبد الله بن أبى رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبى ربيعة ، أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى » قال رسول الله ﷺ : مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة ، « يعنى إلا خمسين عاما » ، وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ، ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة فى البر : كيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حباً شديداً خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى . وهذا حديث غريب وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ويقال ابن عناق ، كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى ، ويقولون كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ، ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا ، وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس ، وإنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة ما هذه القصعة التى لك ويستهزىء به ، ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا إلى غير ذلك من الهذيانات التى لولا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها . ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ، ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ، وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبى ولا الصبى ، ويترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : (ثم أغرقنا الآخرين . وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ، ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ،

أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أى لم يزل الناس فى نقصان طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك ، وهلم جرا إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ، وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء ، والله أعلم .

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ، ووجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أى الذين وعدت بنجاتهم ، أى أما قلنا لك وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ، فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ، ثم قال تعالى : (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) ، هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى ، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ، وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال (بسلام منا وبركات) ، أى اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعدُ أى من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه السلام قال تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم : « سام وحام ويافث » .

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال : « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم » ، ورواه الترمذى عن بشر ابن معاذ العقدى عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه ، وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله . قال والمراد بالروم هنا الروم الأُوَلُ وهم اليونان المنتسبون إلى رومى ابن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ، ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : « ولد نوح ثلاثة سام

ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر » قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده ، حدثنا إبراهيم بن هانىء ، وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم ، وولد لحام القبط والبربر والسودان » ، ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا إلا من هذا الوجه ، تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه ، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه ، ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده ، وإنما جعله من قول سعيد . قلت وهذا الذى ذكره أبو عمر ، وهو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا ، روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمرة لا يعتمد عليه ، وقد قيل إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة كنعان الذى غرق وعابر مات قبل الطوفان ، والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة ، وقد ذكر أن حاما واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان ، وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته ، وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : « قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة ، فحدثنا عنها ، قال فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، قال أتدرون ما هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هذا كعب بن حام بن نوح ، قال وضرب الكثيب بعصاه وقال قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب . فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت ؟ قال لا ولكنى مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة ، فمن ثم شبت ، قال حدثنا عن سفينة نوح ، قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير ، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث ، ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن أضرب بين عينى الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة

فأقبلا على الفار ، فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ، قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت ، قال فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له ، قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا) وهذا أثر غريب جداً .

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربى وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودى شهراً ، وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم . وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبى هريرة قال (مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال ما هذا الصوم فقالوا هذا اليوم الذى نجا الله موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل ، فقال النبى ﷺ أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم . وقال لأصحابه من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه ومن كان منكم قد أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه) . وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم ، وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وأطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شىء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بنى إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفى أول يوم من الشهر العاشر رئيت رءوس الجبال . فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك . وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . قال ابن إسحاق وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين فى ست وعشرين ليلة منه (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ولينموا وليكبروا فى الأرض فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله عز وجل وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق . قال بعضهم فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا ، قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث يعنون آدم إلى زماننا هذا ، وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان .

وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق فى القدر المحتوم .

ذكـــر شـــىء من أخبـار نـوح نفسـه عليـه السـلام

قال الله تعالى إنه كان عبداً شكوراً ، قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها) وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أبى أسامة ، والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفـادتكم النعمـاءُ منى ثلاثـةً   يَدى ولـســانـى والضمير المحجَّبَـا

ذكـــر صـــومــــه عليـــه الســـلام

وقال ابن ماجه (باب صيام نوح عليه السلام) حدثنا سهل بن أبى سهل حدثنا سعيد ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : (صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى) هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه . وقد قال الطبرانى حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج حدثنا عمرو بن خالد الحرانى حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة عن يزيد بن رباح أبى فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : (صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر) صام الدهر وأفطر الدهر » .

ذكـــر حجـــه عليـــه الســـلام

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبى عن زمعة هو ابن أبى صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال يا أبا بكر أى واد هذا قال هذا وادى عسفان قال لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق . وفيه غرابة .

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال حماد أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : (كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان [1] مزرورة بالديباج فقال ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس أو قال يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ورفع لكل راع ابن راع قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال لا أرى عليك لباس من لا يعقل . ثم قال إن نبى الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إنى قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شىء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر) قال قلت (أو) قيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان قال لا ، قال هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها قال لا ، قال هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها قال لا ، قال هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه قال لا . قلت (أو) قيل يا رسول الله فما الكبر قال سفه الحق وغمض الناس ، وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ورواه أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : (كان فى وصية نوح لابنه أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين) فذكر نحوه . وقد رواه أبو بكر البزار عن إبراهيم ابن سعيد عن أبى معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ بنحوه ، والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبرانى والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة ، وفى هذا القول نظر . ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فإن القرآن يقتضى أن نوحاً مكث فى قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة

---

(١) أى مخططة .

وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقى عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام ، وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر والله أعلم .

قصـــة هـــود عليـــه الســـلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . ويقال إن هودا هو عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام . ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربا يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضر موت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث . وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد) أى عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه . وأما عاد الأولى فهم عاد (إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد) أى مثل القبيلة . وقيل مثل العمد ، والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير .

ومن زعم أن إرم مدينة تدور فى الأرض فتارة فى الشام وتارة فى اليمن وتارة فى الحجاز وتارة فى غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه . وفى صحيح ابن حبـان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر . ويقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية . وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها . وقال غيره أول من تكلم بها نوح . وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم .

وأمـا العـرب المستعـربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن إبراهيم

عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكان أصنامهم ثلاثة صداً وصموداً وهراً ، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف ، (وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) ، وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء

الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرنى بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) ، وقال تعالى فى سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضا (كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) ، وقال تعالى فى سورة حم السجدة (وأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) وقال تعالى فى سورة الأحقاف (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكنى أراكم قوماً تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين) ، وقال تعالى فى الذاريات (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وقال تعالى فى النجم (وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى) وقال تعالى فى سورة اقتربت (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ، وقال فى الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى . كأنهم

أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) وقال فى سورة الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد) ، وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفى سورة (ص) وفى سورة (ق) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان ، وذلك بين فى قوله لهم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش ، وقال فى المؤمنون (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وهم قوم هود على الصحيح . وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) وهذا الذى قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات . ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود .

والمقصود أن عاداً كانوا عربا جفاة كافرين عتاة متمردين فى عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك (قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) أى ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجرة إلا من الذى أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه ولهذا (قال يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) أى مالكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق

المبين الذى تشهد به فطركم التى خلقتم عليها وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ، ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) وقال قوم هود له فيما قالوا (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) وهذا تحد منه لهم وتبرأ من آلهتم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله ، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا برىء منها لاعن لها (فكيدونى ثم لا تنظرون) أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) أى أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالى مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه .

وهـذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله : (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمـركم عليكم غمـة ثم اقضـوا إلى ولا تنـظرون) ، وهكـذا قال الخليل عليه السـلام (ولا أخـاف ما تشركـون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتـدون ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم

يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشرياً وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) وقال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ولهذا قال لهم هود عليه السلام (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أى ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين . قال ربى انصرنى بما كذبون) . استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاماً وقالوا هيهات هيهات أى بعيد بعيد هذا الوعد إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين أى يموت قوم ويحيا آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع .

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) وقال لهم فيما وعظهم به (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام .

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهى تتنقل فى البلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لا دليل عليه . وقوله (وتتخذون مصانع) قيل هى القصور . وقيل بروج الحمام . وقيل مآخذ الماء (لعلكم تخلدون) أى رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعماراً طويلة (وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقالوا له مما قالوا (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى جئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه. فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا

من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين) أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أى أن هذا الذى جئت به إلا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين . هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين . وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أى أن هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به . ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم (وما نحن بمعذبين) قال (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أى لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلا ولا برهانا وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد وقال تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) وقال تعالى (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون ، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين) وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا كقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وكقوله (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم إلا بعداً لعاد قوم هود) وكقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) ، وقال تعالى (فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا فى السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب،

ولهذا قال تعالى (بل هو ما استعجلتم به) أى من وقوع العذاب وهو قولهم (فأتنا بها تعدنا إن كنت من الصادقين) ومثلها فى الأعراف ، وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذى ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار قال فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليث بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذا ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبرى ، قال فبعث عاد وفداً قريبا من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر ، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به قال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يمنحنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عاداً	قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم أيامى
وأن الوحش يأتيهم جهارا	ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه اخترت رمادا رمددا لا تبقى من عاد أحدا ، لا والداً يترك ولا ولداً ، إلا جعلته همدا إلا بنى اللوذية الهمدا ، قال وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها) أى كل شىء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت ، فلما

أفاقت قالوا ما رأيت يا فهد قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روى الإمام أحمد حديثا فى مسنده يشبه هذه القصة فقال حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث وهو ابن حسان ويقال ابن يزيد البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغى إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست قال فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت فسلمت فقال هل كان بينكم وبين بنى تميم شىء فقلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتى أن أحملها إليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزاً فاجعل الدهنا فإنها كانت لنا قال فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك قال فقلت إن مثلى ما قال الأول (معزى حملت حتفها) حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هيه وما وافد عاد وهو أعلم بالحديث منى ولكن يستطعمه قلت أن عاداً قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فقال اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومى إلى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رماداً رمدداً لا تبقى من عاد أحداً قال فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا ، قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر عن عاصم بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه ، وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير

وغيره . وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيها ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتى وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين ، وفيه أن فى تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر ، وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين هى البـاردة والعاتية الشديد الهبوب (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أى كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) شبههم بأعجاز النخل التى لا رءوس لها وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال : (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر) أى فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ومن قال أن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال فى الآية الأخرى (فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات) ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة وهذا لا يقوله أحد وإنما المراد فى أيام نحسات أى عليهم وقال تعالى : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) أى التى لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تثير سحابا ولا تلقح شجراً بل هى عقيم لا نتيجة خير لها ولهذا قال : (ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور . وأما قوله تعالى : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) فالظاهر أن عاداً هذه هى عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى ، ويحتمل أن يكون المـذكورون فى هذه القصة عادا الثانية : ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشـة رضى الله عنهـا . وأما قوله (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذابٍ اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى : (بل هو ما استعجلتم به) أى من العذاب ثم فسره بقوله (ريح فيها عذاب أليم) يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة العبـوب التى استمـرت عليهم سبـع ليال بأيامهـا الثـمانية فلم تبق منهم أحـداً بل

تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم . ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم .

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها (قالوا هذا عارض ممطرنا) فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة ، وقد رواه الطبرانى عن عبدان ابن أحمد عن إسماعيل بن زكريا الكوفى عن أبى مالك عن مسلم الملائى عن مجاهد وسعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهل البوادى فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا قال عتت على خزنتها حتى خرجت من خلال الأبواب ، قلت وقال غيره خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث فى رفعه نظر ، ثم اختلف فيه على مسلم الملائى وفيه نوع اضطراب والله أعلم . وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منه لمعة السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكرى إن جعلناه مفسراً لهذه القصة ، وأصرح منه فى ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه حيث قال : حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء ابن أبى رباح عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : (اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) قالت وإذا عبيت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن جريج .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد حدثنا هرون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وهب أنبأنا عمرو هو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم ، وقالت كان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه قالت يا رسول الله (الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية فقال يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم نوح بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا) .

فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولا ، فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية ، وتكون بقية السياقات فى القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب ، وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف وأخرجه البخارى وأبو داود من حديث ابن وهب [1] وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام ، وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام فى بلاد اليمن ، وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان فى حائطه القبلى يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام نبى ثمود

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخى جديس وهما ابنا عابر بن أرم بن سام ابن نوح وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى فى سورة الأعراف (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم

---

(١) راجع فهارس صحيح مسلم بشرح النووى من إصداراتنا .

آية فذورهـا تأكـل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب أليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفـاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكـروا آلاء الله ولا تعثـوا فى الأرض مفسـدين . قال المـلأ الـذين استكبروا من قومه للذين استضعفـوا لمن آمن منهم أتعلمـون أن صالحـاً مرسـل من ربه قالوا إنا بها أرسل به مؤمنـون ، قال الـذين استكـبروا إنـا بالـذى آمنتم به كافـرون ، فعقـروا النـاقـة وعتـوا عن أمـر ربهم وقـالـوا يا صالـح ائتنـا بها تعـدنـا إن كنت من المـرسلين فأخـذتهم الـرجفـة فأصبحـوا فى دارهم جاثمـين فتـولى عنهم وقـال يا قوم لقد أبلغتكم رسـالـة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبـون النـاصحـين) وقـال تعـالى فى سورة هود (وإلى ثمـود أخـاهـم صالحـا قال يا قوم اعبـدوا الله ما لكـم من إلـه غيره ، هو أنشـأكم من الأرض واستعمـركم فيهـا فاستغفـروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ، قالـوا يا صالـح قد كنت فينـا مرجـواً قبـل هذا أتنهـانـا أن نترك ما يعبـد آبـاؤنـا وإنـنـا لفـى شك مما تدعـونـا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتـم إن كنـت على بينـة من ربى وآتـانى منـه رحمـة فمن ينصرنى من الله إن عصيتـه فما تزيدوننى غير تخسير ، ويا قوم هذه ناقـة الله لكم آية فذروهـا تأكـل فى أرض الله ولا تمسـوهـا بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقـروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمـرنـا نجينـا صالحـا والـذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القـوى العـزيز ، وأخـذ الـذين ظلمـوا الصيحـة فأصبحـوا فى دارهم جاثمين ، كأن لم يغنـوا فيهـا ألا إن ثمـود كفـروا ربهم ألا بعـداً لثمـود) وقـال تعـالى فى سورة الحجـر (ولقـد كذب أصحـاب الحجـر المرسلين ، وآتينـاهم آياتنـا فكـانـوا عنهـا معرضين ، وكـانـوا ينحتـون من الجبال بيوتـاً آمنـين ، فأخـذتهم الصيحـة مصبحـين ، فما أغنى عنهم ما كانـوا يكسبـون) وقـال سبحـانـه وتعـالى فى سورة سبحـان (ومـا منعنـا أن نرسـل بالآيات إلا أن كذب بها الأولـون ، وآتينـا ثمـود النـاقـة مبصرة فظلمـوا بها ومـا نرسـل بالآيات إلا تخويفـاً) وقـال تعـالى فى سورة الشعـراء (كذبت ثمـود المـرسلين ، إذ قال لهم أخـوهم صالـح ألا تتقـون ، إنى لكم رسـول أمـين ، فاتقـوا الله وأطيعـون ، ومـا أسـألكم عليه من أجـر إن أجـرى إلا على رب العالمين ، أتتركـون فيما ها هنـا آمنـين . فى جنـات وعيون ، وزروع ونخـل طلعها هضيم ، وتنحتـون من الجبـال بيوتـا فارهـين ، فاتـقـوا الله وأطيعـون ، ولا تطيعـوا أمـر المسرفـين . الـذين يفسـدون فى الأرض ولا يصلحـون ، قالـوا إنـما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنـا فأت بآية إن كنـت من الصـادقـين ، قال هذه ناقـة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسـوهـا بسـوء فيأخـذكم عذاب عظيم ، فعقـروهـا فأصبحـوا نادمـين ، فأخـذهم العـذاب إن فى ذلـك لآية ومـا كان أكثـرهم مؤمنـين . وإن ربـك لهو العـزيز الـرحيم) وقـال تعالى فى النمل (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن أعبـدوا الله فإذا هم فريقـان يختصمـون ، قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبـل

الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، قالوا اطيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ، وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعالى فى سورة حم السجدة (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعالى فى سورة اقتربت (كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ، إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال تعالى (كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها) ، وكثيراً ما يقرن الله فى كتابه بين ذكر عاد وثمود كما فى سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة (ص) وسورة (ق) والنجم والفجر . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة ولكن فى القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى فى سورة إبراهيم (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد ، ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات) الآية ، الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهورا فى زمان موسى عليه السلام . وقد تكلمنا على هذا كله فى التفسير متقصياً ولله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام . وقد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا إذ جعلكم

خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أى حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله (أتتركون فيما ههنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم) أى متراكم كثير حسن بهى ناضج (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وقال لهم أيضاً (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) أى هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه (فاستغفروه ثم توبوا إليه) أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم (إن ربى قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا (أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب وحسن تأت فى الدعوة لهم إلى الخير أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بينى وبينكم وقالوا له أيضاً (إنما أنت من المسحرين) أى من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين المسحورين . وقيل من المسحرين أى ممن له سَحَر ، وهى الرئة كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سَحَر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ما أنت إلا بشر مثلنا . وقولهم (فأت بآية إن كنت من الصادقين) سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم) . وقال : (قد جاءتكم بينة من ربكم

هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم)
وقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) .

وقد ذكر المفسرون أن ثمودا اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبى صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بها جئتكم به وتصدقونى فيها أرسلت به ، قالوا نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا أو على الصفة التى نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيما ومنظراً هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعاً وبرهانا ساطعاً فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال (فظلموا بها) أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى أكثرهم ، وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو ابن محلاه بن لبيد بن جواس ، وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام قصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والخباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلمس ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فهم بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم وفى ذلك يقول رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله :

وكانت عصبة من آل عمرو	إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا	فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا	وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من ال حجر	تولوا بعد رشدهم ذآبا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام (هذه ناقة الله لكم آية) أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله (لكم آية) أى دليلا على صدق ما جئتكم به (فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون

من لبنها كفايتهم ولهذا قال « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ولهذا قال تعالى (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أى اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون (فارتقبهم) أى انتظر ما يكون من أمرهم (واصطبر) على أذاهم فسيأتيك الخبر على جليته (ونبئهم إن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال أنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صيبان ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرها قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن فى لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال يارب أين أمى ثم دخل فى صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضا قال الله تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر) . وقال تعالى (إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) أى احذروها (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها) .

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هاشم هو أبو عزرة عن أبيه عبد الله بن زمعة

قال خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال (إذ انبعث أشقاها) انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة ، أخرجاه من حديث هشام ـ عارم أى شهم عزيز أى رئيس منيع أى مطاع فى قومه . وقال محمد بن إسحاق حدثنى يزيد بن محمد ابن خيثم عن محمد بن كعب عن يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى ألا أحدثك بأشقى الناس قال بلى قال رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىّ على هذا يعنى قرنه حتى تبتل منه هذه يعنى لحيته ، رواه ابن أبى حاتم ، وقال تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه ، منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية ، ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين . أحدهما الشرط عليهم فى قوله (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) وفى آية عظيم وفى الأخرى أليم والكل حق . والثانى استعجالهم على ذلك . ومنها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم . قال تعالى (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) أى غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدنّ قتله وننكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ، ولهذا قالوا ، (ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) قال الله تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل ، وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل ، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا فى دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها ، قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ، ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت ، قال الله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء (ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) ، أى نادى عليهم لسان القدر بهذا .

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعنى الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله ، فقالوا من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شىء من الكتب الستة والله أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضا قال معمر أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هذا قبر أبى رغال رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن . قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهرى أبو رغال أبو ثقيف . هذا مرسل من هذا الوجه . وقد جاء من وجه آخر متصلا كما ذكره ابن إسحق فى السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبى بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال إن هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه ، فابتدره الناس فاستخرجوا منه

الغصن . وهكـذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحق به . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله هذا حديث حسن عزيز ، قلت تفرد به بجير بن أبى بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية . قال شيخنا فيحتمل أنه وهم فى رفعه وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملته والله أعلم قلت لكن فى المرسل الذى قبله وفى حديث جابر أيضا شاهد له ، والله أعلم . وقوله تعالى (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) أى جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى (ولكن لا تحبون الناصحين) أى لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذى وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد وهكذا خاطب النبى ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقـا وقـال لهم فيما قال بئس عشـيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمـونى وصـدقنى النـاس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم فقال له عمر يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون) ، وسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال يا أبا بكر أى واد هذا ، قال وادى عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق . إسناد حسن . وقد تقدم فى قصة نوح عليه السلام من رواية الطبرانى وفيه نوح وهود وإبراهيم .

ذكر مـرور النبى ﷺ بوادى الحجـــر
من أرض ثمـــــود
عـــام تبـــــوك

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جويرية ، عن نافع ، عن ابن عمر قال :

لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا عبد العزيز ابن مسلم ، حدثنا عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ، وهو بالحجر : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه . وفى بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين . وفى رواية : فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون ، حدثنا المسعودى ، عن إسماعيل بن أوسط ، عن محمد بن أبى كبشة الأنبارى ، عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ، ويقال : عامر ابن سعد رضى الله عنه قال : لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادى فى الناس : الصلاة جامعة قال : فأتيت النبى ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل : نعجب منهم يا رسول الله . قال : أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً ، إسناد حسن ولم يخرجوه . وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً فى الجبال ، وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية ، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذى كان فى جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء ، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك ، وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل فى البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهراً طويلا ، وانقرض جيل وأتى جيل آخر ، فلما كان فى بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله فى الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة ، وهو قدار بن سالف ، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم ، فنشأ نشأة سريعة فكان يشب فى الجمعة كما يشب

غيره فى شهـر حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر النـاقـة ، واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام ، فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحا عليه السلام جاءهم باكياً عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون : إن هذا لم يقع عن ملإ منا ، وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال : إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك ، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير ، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه ، ثم استقبل صالحا عليه السلام ودعا ثلاثاً ، فعندها قال صالح : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ، ثم تحمر وجوههم فى الثانى ، وفى اليوم الثالث تسود وجوههم . فلما كان فى اليوم الـرابـع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين . وفى بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن فى شأنهم وقصتهم كما قدمنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

قصـــة إبراهـــيم الخليـل عليـه السـلام

هو إبــراهيم بن تارخ « ٢٥٠ » بن ناحـور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راعوا « ٢٣٩ » بن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » ابن سام « ٦٠٠ » بن نوح عليه السلام . هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندى كما ذكروه من المدد [1] ، وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته . وحكى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحق بن بشر الكاهلى صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم إبراهيم أميلة ، ثم أورد عنه فى خبر ولادتها له حكاية طويلة . وقال الكلبى : اسمها بونا بنت كربنا بن كرثى من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قالوا ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهـاران وولـد لهاران لوط . وعنـدهـم أن إبراهيم عليه السلام وهو الأوسط وأن هاران مات

(١) هذه الأعداد هى أعداد السنين التى عاشوها وقوله بالهندى إذ أن الأعداد التى نستعملها نحن الآن أصلها أعداد هندية .

فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل ، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له قاسيون ، ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل ، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام . قالوا : فتزوج إبراهيم سارة وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقراً لا تلد . قالوا : وانطلق تارخ بابنة إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران ، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة ، وهذا يدل على أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها ، ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً ، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين ، وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام ، وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده فى صغره وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره ، قال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أى كان أهلا لذلك ، وقال تعالى : (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ، والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ، فما كان جواب قومه إلا أن

قالـوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ، فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنـه هو العـزيز الحكيم ، ووهبنـا له إسحق ويعقـوب وجعلنـا فى ذريتـه النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) . ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ، قال سلام عليك سأستغفـر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعـوا ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) . فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة ، وأحسن إشارة وبين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغنى عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ، ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سنًا من أبيه : (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهـدك صراطـاً سويًّا) أى مستقيما واضحـا سهـلا حنيفـا يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك ، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده (قال : أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك) قيل بالمقـال وقيل بالفعـال (واهجـرنى مليا) أى واقطعنى وأطل هجرانى ، فعندها قال له إبراهيم : (سلام عليك) أى لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى أذى بل أنت سالم من ناحيتى ، وزاده خيراً فقال : (سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) . قال ابن عباس وغيره : أى لطيفا ، يعنى فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له ، ولهذا قال : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) ، وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده فى أدعيته ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) .

وقال البخارى حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنى أخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصنى فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون وأىّ خزى أخزى من أبى الأبعد فيقول الله إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفردا .

وقال فى التفسير وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة . وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بن طَهَمان به ، وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، وفى سياقه غرابة ، وررواه أيضا من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى ﷺ بنحوه وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لُقِّب بصنم كان يعبد اسمه آزر .

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم ، وهذا الذى قاله محتمل والله أعلم . ثم قال تعالى (وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) ، وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة

لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيبُ عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شىء ولا تخفى عليه خافية بل الدائم الباقى بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب ، قيل هو الزُّهرة لذلك ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ولهذا قال (فلما رأى الشمس بازغة) أى طالعة (قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً) ، أى لست أبالى فى هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته هذه فى الكواكب لأهل حران فإنه كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوقف بها ولا سيما إذا خالفت الحق . وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم وأهانهم وبين بطلانها كما قال تعالى (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقال فى سورة الأنبياء (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم

يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) وقال فى سورة الشعراء (واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) ، وقال تعالى فى سورة الصافات (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضربا باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) أى معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا (وجدنا آباءنا لها عابدين) ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) كما قال تعالى (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين) قال قتادة فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم (هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئا وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال ولهذا قال لهم (أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يقولون هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه فى آبائنا تقوله محقا جاداً فيه أم لاعبا (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى

فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محقا وإنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شىء فاطر السموات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدكم ، قيل إنه قال هذا خفية فى نفسه وقال ابن مسعود سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال إنى سقيم كما قال تعالى (فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم) . عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق فى بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة . فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو فى بلدهم (فراغ إلى آلهتهم) أى ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها فى بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها (فقال) لها على سبيل التهكم والازدراء (ألا تأكلون ، ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضربا باليمين) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم فى يده كما قال تعالى (فجعلهم جذاذاً) أى حطاما كسرها كلها (إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) قيل إنه وضع القدوم فى يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار . فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) . (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها ، وعلى قول ابن مسعود أى يذكرهم بقوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) أى فى الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون (موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا) قيل معناه هو الحامل لى على تكسيرها وإنما عرض لهم فى القول (فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق

فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها (ثم نكسوا على رءوسهم) قال السدى أى ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أى فى عبادتها . وقال قتادة أدركت القوم خيرة سوء أى فأطرقوا ثم قالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) كما قال (فأقبلوا إليه يزفون) قال مجاهد يسرعون (قال أتعبدون ما تنحتون) أى كيف تعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الخشب والحجـارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون (والله خلقكم وما تعملون) وسواء كانت ما مصدرية أو بمعنى الذى فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل فالآخـر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) . عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) . وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم . ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيه ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له هزن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثم أخـذوا يقيدونـه ويكتفـونه وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد حين قيل له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) الآية .

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى جعفر الرازى

عن عاصم بن أبى النجود عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال ﷺ لما ألقى إبراهيم فى النار قال اللهم إنك فى السماء واحد وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا . ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر فكان أمر الله أسرع (قلنا يا نار كونى بردا وسلاماً على إبراهيم) قال على بن أبى طالب أى لا تضر به وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله قال وسلاماً على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها . وقال كعب الأحبار لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه ولم يصبه منها شىء غيره . وقال السدى كان معه أيضا ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام فى ميل الجوبة حوله النار وهو فى روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم فعن أبى هريرة أنه قال أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم . وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته يا بنى إنى أريد أن أجىء إليك فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك . فقال نعم فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر النار . فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت . وعن المنهال بن عمرو أنه قال أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً وأنه قال ما كنت أياما وليالى أطيب عيشا إذ كنت فيها وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا . قال الله تعالى (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) وفى الآية الأخرى (الأسفلين) ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا وسلاما ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما بل هى كما قال تعالى (إنها ساءت مستقراً ومقاما) .

قال البخارى حدثنا عبد الله بن مسعود أو ابن سلام عنه أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال كان ينفخ على إبراهيم . ورواه مسلم من حديث ابن جريج . وأخرجاه والنسائى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به . وقال أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ابن جريج أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى أمية أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم ، قال فكانت عائشة تقتلهن . وقال أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا

أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت ما هذا الرمح فقالت نقتل به الأوزاغ . ثم حدثت عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه . تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا جرير حدثنا نافع حدثتنى سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا موضوعا فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح قالت هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم حين ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفىء عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله . ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يونس بن محمد عن جرير ابن حازم به .

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل فى العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية هو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) . يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذى ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد . وقال غيره نمرود بن فالح بن عابر ابن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح قال مجاهد وغيره وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران . فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان . والكافران النمرود وبختنصر وذكروا أن نمروداً هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا . ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت .

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحق يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر . وهذا ليس بمعارضة

للخليل بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع فى الحقيقة فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ولهذا (قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) فقول هذا الملك الجاهل أنا أحيى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة (قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها . وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت ولهذا قال (فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة . وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد ابن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شىء من الطعام . فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما . فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال أنَّى لكم هذا قالت من الذى جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل . قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره

بالإيمان بالله فأبى عليه . ثم دعاه الثانية فأبى عليه . ثم الثالثة فأبى عليه . وقال أجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمزارب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها .

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال تعالى (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقرا لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط ابن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه والأرض التى قصدها بالهجرة هى بلاد الشام وهى التى قال الله عز وجل (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) قاله أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفى عن ابن عباس قوله (إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) مكة ألم تسمع إلى قوله (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) .

وزعم كعب الأحبار أنها حران . وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها .

وقال السدى انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقى إبراهيم سارة وهى ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها فى دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها رواه ابن جرير وهو غريب .

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذى تنسب إليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلى عن القتيبى والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعا فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعا فى وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم انطلق مرتحلا إلى التيمن وأنه كان جوع أى قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر وذكروا قصة سارة مع ملكها وإن إبراهيم قال لها قولى أنا أخته وذكروا خدمة الملك إياها هاجر ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن يعنى أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبى هريرة قال لم يكـذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل لها ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها فقال من هذه قال أختى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ فقال ادع الله لى ولا أضرك فدعت له فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادع الله لى ولا أضرك فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتنى بإنسان وإنما أتيتنى بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيم فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخـدم هاجـر . قال أبـو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء . تفرد به من هذا الوجه موقوفا . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن على الفلاس عن عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال إن إبراهيم لم يكـذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك فى ذات الله قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلا فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختى فلما رجع إليها قال إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك وأنـك أختى ، فلا تكذبينى عنده ، فانطلق بها فلما ذهب يتناولها أُخذ فقال ادع الله لى

ولا أضرك فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها . فقال ادع الله لى ولا أضرك فدعت فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه فقال إنك لم تأتنى بإنسان ولكن أتيتنى بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فجاءت وإبراهيم قائم يصلى فلما أحس بها انصرف فقال مهيم فقالت كفى الله كيد الظالم وأخدمنى هاجر وأخرجاه . من حديث هشام . ثم قال البزار لا نعلم أسنده عن محمد عن أبى هريرة إلا هشام ورواه غيره موقوفا .

وقال الإمام أحمد حدثنا على بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكرى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لسارة (إنها أختى) قال ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك قال أختى قال : فأرسل بها إليه وقال لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى إن على الأرض مؤمن غيرى وغيرك فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلى وتقول اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر قال فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة إنها قالت اللهم إن يمت يقال هى قتلته قال فأرسل قال ثم قام إليها قال فقامت توضأ وتصلى وتقول (اللهم ان كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر) قال فغط حتى ركض برجله قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبى هريرة أنها قالت اللهم إن يمت يقل هى قتلته قال فأرسل قال فقال فى الثالثة أو الرابعة ما أرسلتم إلى إلا شيطانا أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر قال فرجعت فقالت لإبراهيم أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة . تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح . وقد رواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ به مختصرا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سفيان عن على بن زيد بن جُدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله فقال إنى سقيم وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين أراد امرأته هى أختى فقوله فى الحديث هى أختى أى فى دين الله وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كان معهم وهو نبى عليه السلام وقوله لها لما رجعت

إليه مهيم معناه ما الخبر فقالت إن الله رد كيد الكافر وفى رواية الفاجر وهو الملك وأخدم جارية وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء وهكذا فعلت هى أيضاً فلما أراد عدو الله أن ينال منها قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ولهذا قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلوة) فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام . والذى عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن . ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهدا لها وهى عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حبا شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضى الله عنها ولله الحمد والمنة .

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملا لأخيه على مصر ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق ابن لاوذ بن سام بن نوح . وذكر ابن هشام فى التيجان أن الذى أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ وكان على مصر نقله السهيلى فالله أعلم .

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفارا فجاراً وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره أن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية . يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ أن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها . قالوا ثم أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ أمواله قتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شرقى دمشق

وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام إبراهيم إنما سمى لأنه موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصورا إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه .

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك وأنها لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام إن الرب قد أحرمنى الولد فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت الله عز وجل على ذلك . وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه الذى سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض . ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام قالوا وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحق بثلاث عشرة سنة . ولما ولد إسماعيل أوحى الله لإبراهيم يبشره بإسحق من سارة فخر لله ساجداً وقال له استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيما . واجعله رئيسا لشعب عظيم وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ (يكون اثنا عشر أميراً) ثم قال كلمة لم أفهمها فسألت أبى ما قال قال (كلهم من قريش) أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية لا يزال هذا الأمر قائما وفى رواية عزيزا حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . فهؤلاء

منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضا . ومنهم بعض بنى العباس وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقا بل لابد من وجودهم وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكرى فيما يزعمون فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس فى الرءوس وهذيان فى النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت فإذاً لا يضيعنا . وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله فى كتاب النوادر أن سارة غضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها . قال السهيلى فكانت أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنها منهن وأول من طولت ذيلها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهى أرض مكة وبنائه البيت العتيق

قال البخارى قال عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنس ولا شىء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذاً

لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذ نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبى ﷺ فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس قال النبى ﷺ (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم) أو قال (لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا) فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافى الضيعة فإن هنها بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا نعم . قال عبد الله بن عباس قال النبى ﷺ فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته فقالت خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر فى ضيق وشدة وشكت إليه . قال فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد فقالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشىء قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة

بابك قال : ذاك أبى وأمرنى أن أفارقك ، فألحقى بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنه إبراهيم ما شاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبى ﷺ ولم يكن لهم يومئذ حب . ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشىء قال نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبى وأمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد . ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك قال وتعيننى قال وأعينك قال فإن الله أمرنى أن ابنى ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم) .

ثم قال حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن أبى كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان من إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما تقدم وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفى بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات . وفيه أن إسماعيل كان رضيعا إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر الله عز وجل فى أهله فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر فى موضعه .

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدُّوم . تابعه عبد الرحمن بن إسحق عن أبى الزناد وتابعه عجلان عن أبى هريرة ورواه محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة . وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به . وفى بعض الألفاظ اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم والقدوم هو الآلة وقيل موضع وهذا اللفظ لا ينافى الزيادة على الثمانين . والله أعلم لما سيأتى من الحديث عند ذكر وفاته عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة . رواه ابن حبان فى صحيحه . وليس فى هذا السياق ذكر قصة الذبيح وإنه إسماعيل ولم يذكر فى قدمات إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر إلى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم . وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم فى غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة . وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشىء من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح فى سورة الصافات .

قصة الذبيح

قال الله تعالى (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فبشره الله تعالى بغلام حليم ، وهو : إسماعيل ـ عليه السلام ـ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة

من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره وقوله (فلما بلغ معه السعى) أى شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه قال مجاهد (فلما بلغ معه السعى) أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل . فلما كان هذا رئى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعا رؤيا الأنبياء وحى . قاله عبيد بن عمير أيضا وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أُمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قال الله تعالى (فلما أسلما وتله للجبين) قيل أسلما أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل هذا من المقدم والمؤخر والمعنى تله للجبين أى ألقاه على وجهه . قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاصقا بالأرض وأسلما أى سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره أَمَرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم . فعند ذلك نودى من الله عز وجل (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وبذْلِك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ولهذا قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر البين وقوله (وفديناه بذبح عظيم) أى وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة فى ثبير . قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا وقال سعيد بن جبير كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . ورواه ابن أبى حاتم .

قال مجاهد فذبحه بمنى وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا وعن الحسن أنه كان تيسا من الأروى . واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدى بذبح عظيم وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشا . قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله ﷺ قال إنى كنت رأيت قرنى كبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى قال سفيان لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا . وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسمعيل لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده (وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) ومن جعله حالا فقد تكلف ومستنده أنه إسحق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة بكره إسحق فلفظة إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . ذاك إسماعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وقد قال بأنه إسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم . وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل . وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل وليس بإسحق من قوله فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب قال فكيف تقع البشارة بإسحق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم .

وقد اعترض السهيلى على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله (فبشرناها بإسحاق) جملة تامة وقوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) جملة أخرى ليست فى حيز البشارة . قال لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضا إلا أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمر ، وقال فقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) منصوب بفعل مضمر تقديره (ووهبنا لإسحق يعقوب) وفى هذا الذى قاله نظر ، ورجح أنه اسحاق واحتج بقوله (فلما بلغ معه السعى) قال واسماعيل لم يكن عنده إنما كان فى حال صغره هو وأمه بحيال مكة فكيف يبلغ معه السعى . وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب فى كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله أعلم .

فمن حكى القول عنه بأنه إسحق كعب الأحبار ، وروى عن عمرو والعباس وعلى وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبى ومقاتل وعبيد بن عمير وأبى ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهرى والقاسم وابن أبى بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدى والحسن وقتادة وأبى الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبى ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس هو إسماعيل عليه السلام وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن قيس عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه هو إسماعيل ، وقال ابن أبى حاتم سألت أبى عن الذبيح فقال الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبى حاتم وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبى ومحمد بن كعب وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح أنهم قالوا الذبيح هو إسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوى أيضا عن الربيع بن أنس والكلبى وأبى عمرو بن العلاء . قلت وروى عن معاوية وجاء عنه أن رجلا قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار وكان الحسن البصرى يقول لا شك فى هذا .

وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كان معه بالشام يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة ، فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فقال له عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا ، فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم ، قال فسأله عمر بن عبد العزيز أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه ، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها فى كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

ذكر مولــــد إســـــحاق عليه الســــــلام

قال الله تعالى : (وبشرناه بإسحٰق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحٰق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) ، وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ، قال الله تعالى (لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب . قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وقال تعالى : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالـوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) ، وقال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألاتأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) يذكر

تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا سميناً من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام (فنكرهم) إبراهيم (وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) ، أى لندمر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم ، وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال الله تعالى : (فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب) ، أى بشرتها الملائكة بذلك (فأقبلت امرأته فى صرة) ، أى فى صرخة (فصكت وجهها) ، أى كما يفعل النساء عند التعجب (وقالت ياويلتى أألد وأنا عجوز ؛ وهذا بعلى شيخاً) أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلى أى زوجى شيخاً تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : (إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) ، وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحا بها (قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه فبشروهما (بغلام عليم) ، وهو إسحق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال فى الآية الأخرى (فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحق يعقوب) ، وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحق لايجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ وهو المشوى رغيفاً من مكة فيه ثلاث أكيال وسمن ولبن ، وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض . وقيل كانوا يودون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء ، وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم : أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ، ولكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه يعنى ساجداً ، وضحك قائلا فى نفسه أبعد مائة سنة يولد لى غلام ، أو سارة تلد ، وقد أتت عليها تسعون سنة ، وقال إبراهيم لله تعالى ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم بحقى إن امرأتك سارة تلد لك غلاما وتدعو اسمه إسحق فى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ولخلفه من بعده ، وقد استجبت لك فى إسماعيل ، وباركت عليه وكبرته ونميته جداً كثيراً ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيساً لشعب عظيم . وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم والله أعلم ، فقوله

تعالى : (فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب) دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب ، أي يولد فى حياتها لتقر أعينها به كما قرت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة ، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله ، وقال تعالى : (ووهبنا له إسحٰق ويعقوب كلا هدينا) ، وقال تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحٰق ويعقوب) ، وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ، قال : المسجد الأقصى ، قلت كم بينهما ، قال : أربعون سنة ، قلت : ثم أى ، قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد ، وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله ، وهذا متجه ، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء ، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحق ، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال فى دعائه كما قال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذرتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحٰق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ، وما جاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ، وكما سنورده فى قصته .

فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه ، وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

ذكر : بنايـة البيت العتيــــــق

قال الله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) ، وقـال تعـالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) ، وقال تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) ، يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أى أرشده إليه ودله عليه . وقد روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره أنه أرشد بوحى من الله عز وجل ، وقد قدمنا فى صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السموات السبع كما قال بعض السلف إن فى كل سماء بيتـا يعبـد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض ، فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبنى له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعـابـد لملائكـة السمـوات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السمـوات والأرض كما ثبت فى الصحيحين أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهـو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يجىء فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت ، فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله المقرر فى قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم . وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له طفنا قبلك

بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ، ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب ، فلا يحتج بها ، فأما إن ردها الحق فهى مردودة . وقد قال الله : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) ، أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة . قيل مكة وقيل محل الكعبة (فيه آيات بينات) ، أى على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ، ولهذا قال (مقام إبراهيم) أى الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا ، فإنه قد وافقه ربه فى أشياء منها فى قوله لرسوله ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ، وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام ، وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه	وراق لبر فى حراء ونازل [1]
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه	إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة	على قدميه حافيا غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ، ولهذا قال تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) أى فى حال قولهما (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان

---

(١) قال فى السيرة النبوية لابن هشام وقال أبو طالب عم النبى عليه السلام :

أعوذ برب الناس من كل طاعن	علينا بشر أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة	ومن مفتر فى الدين ما لم يحاول
وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه	وراق لبر فى حراء ونازل

راجع السيرة تحقيق طه عبد الرءوف سعد ط القاهرة / بيروت

من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرما محرما وآمنا محتما ، فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) ، وقال تعالى : (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا) وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أى من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى ، وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا وأى رسول ختم به أنبياءه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ، ولطفه ورحمته وكريم محتده ، وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده ، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام ، إذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور ، وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية ، فمن أراده فليراجعه ثَمَّ [1] ولله الحمد .

فمن ذلك ما قال السدى لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال لها الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس ، وذلك حين يقول تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) ، فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر

---

(١) أى هناك فى تفسيره المشهور بتفسير القرآن العظيم .

فوجده عند الركن . فقال يا أبتى من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما يدعوان الله (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ، وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة أجبل ، وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه ، فقال من أمركما بهذا ؟ فقال إبراهيم الله أمرنا به ، فقال وما يدرينى بما تقول ؟ فشهدت خمسة أكبش ، أنه أمره بذلك فآمن وصدق .

وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت ، وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ما هى عليه .

وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبره ابن عمر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ألم ترى إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ، فقلت يا رسول الله : ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال لولا حدثان قومك ، وفى رواية لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر . وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامى ، وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم ، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ، ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك . ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك ابن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير ، فقال له إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة ، يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد ، فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن

ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) . لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه وخالدة فى عقبه ، فأجيب إلى ما سأل ورام . وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى : (ووهبنا له إسحٰق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) . وقال تعالى : (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) . فالضمير فى قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور . ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أن دخل فى الذرية تغليبا . وهذا هو الحامل للقائل الآخر ، إن الضمير على نوح كما قدمنا فى قصته والله أعلم . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل ، فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ومرتبة عُليا لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر ، ثم إسحق من سارة ، وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بنى إسرائيل ، وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشى الهاشمى المكى ، ثم المدنى صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه فى صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : « سأقوم مقاما يرغب إلىَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم » ، فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة فى هذا السياق . ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق فى هذه الحياة الدنيا ، ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ، ويقول إن أباكما

كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحق . أعوذ بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة . ورواه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) ، ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطناها فى التفسير . وقررناها بأتم تقرير .

والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل ، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا فى تعيينها على أقوال والمقصود حاصل على كل تقدير ، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه فى بعض ، ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزءًا ففعل ما أمر به ، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتى إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر إلى قدرة الذى يقول للشىء كن فيكون ، فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا .

ويقال إنه أمر أن يأخذ رءوسهن فى يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله . وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) ، ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم وبين كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم فى قوله : (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) أى فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ، ولهذا قال : (أفلا تعقلون) إلى أن قال : (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) . فبين أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصد إلى الإخلاص ، وعمداً عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كما قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال

أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلها واحدا ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون) . فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا ، وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ، ولهذا قال تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) يعنى الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم (وهذا النبى) يعنى محمدا ﷺ ، فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) .

وقال البخارى حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما رأى الصُّوَر فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام ، فقال قاتلهم الله ، والله إن يستقسما بالأزلام قط [1] لم يخرجه مسلم .

---

(١) أى لم يستقسما بالأزلام أبدا .

وفى بعض ألفاظ البخارى قاتلهم الله ، لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط . فقوله (أمة) ، أى قدوة إماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه (قانتا لله) أى خاشعا له فى جميع حالاتـه وحركاته وسكناته (حنيفا) أى مخلصا على بصيرة (ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه) أى قائما بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله (اجتباه) أى اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته ، واتخذه خليلا وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبـراهيم خليلا) يرغب تعالى فى اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ، ومدحه تعالى بذلك فقال (وإبراهيم الذى وفى) ، ولهذا اتخذه الله خليلا والخلة هى غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تخللتَ مسلكَ الروحِ منى   وبـذا سُمِّـى الـخـليلُ خليلاَ

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : أيها الناس إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا . وقال أيضا فى آخر خطبة خطبها ، أيها الناس لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله . أخرجاه من حديث أبى سعيد وثبت أيضا من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود .

وروى البخارى فى صحيحه ، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ واتخذ الله إبراهيم خليلا . فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم إبراهيم .

وقال ابن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة حدثنا عبد الله الحنفى حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا ، فإبراهيم خليله . وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما . وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر : آدم

اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى كليمه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه وهو كذلك ، ألا وإنى حبيب الله ولا فخر ، ألا وإنى أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر . هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم .

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمود بن خالد المسلمى حدثنا الوليد عن إسحق ابن بشار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء ، وقال عبيد بن عمير كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوماً يلتمس إنسانا يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما ، فقال يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير إذنى ؟ قال : دخلتها بإذن ربها . قال ومن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا ، قال من هو ؟ فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينّه ، ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت ، قال ذلك العبد أنت ، قال أنا ! قال نعم ، قال فبم اتخذنى ربى خليلا ؟ قال : بأنك تعطى الناس ولا تسألهم . رواه ابن أبى حاتم . وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيراً فى غير ما وضع بالثناء عليه والمدح له فقيل إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعا [1] منها خمسة عشر فى البقرة وحدها وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء فى آيتى الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الآية : ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ﷺ ، وهو الذى وجده عليه السلام فى السماء السابعة

---

(١) بل فى ٦٩ موضعا كما أحصيناها وانظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١ .

مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . وما وقع فى حديث شريك بن أبى نمير عن أنس فى حديث الإسراء من أن إبراهيم فى السادسة ، وموسى فى السابعة فمما انتقد على شريك فى هذا الحديث والصحيح الأول .

وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن . تفرد به أحمد .

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال فيه : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم » رواه مسلم من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه . وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » الحديث . وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر ، ومسلم والنسائى من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به .

قال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الله حدثنى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة قال : قيل يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال أتقاهم . قالوا ليس عن هذا نسألك قال فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال فعن معادن العرب تسألونى : خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

ثم قال البخارى قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قلت وقد أسنده فى موضع آخر من حديثهما وحديث عبدة بن سليمان والنسائى من حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم خليل الله . تفرد به أحمد . وقال البخارى حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : الكريم ابن الكريم ابن

الكـريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثنى مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا ، فأول من يكسى إبـراهيم عليه السـلام » ثم قرأ (كما بدأنـا أول خلق نعيده) ، فأخـرجـاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى ، وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعى الكوفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبـة إلى ما قابلهـا مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخـرون . وأما الحديث الآخر الذى قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم حدثنا سفيان هو الثورى عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال رجل للنبى ﷺ يا خير البرية فقال ذاك إبراهيم ، فقد رواه مسلم من حديث الثورى ، وعبد الله بن إدريس وعلى ابن مسهر ومحمد بن فضيل أربعتهم عن المختار بن فلفل . وقال الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام ، كما قال لا تفضلونى على الأنبياء ، وقـال لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزِىَ بصعقة الطور . وهذا كله لا ينافى ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ، وكذلك حديث أبى بن كعب فى صحيح مسلم : وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل ، وأولى العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلى أن يقول فى تشهده ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن عُجْرة وغيره قال : قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك « قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمـد وعـلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » ، وقال تعـالى : (وإبـراهيم الذى وَفَّىٰ) قالوا وَفَّىٰ جميع ما أمر به ، وقام بجميع خصال الإيمان وشُعَبه ، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيامَ بأعباء المصالح الكبار عن الصغار . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس

فى الرأس وخمس فى الجسد . فى الرأس قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ، ونتف الأبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبى حاتم .

وقال وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد نحو ذلك قلت وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الأبط . وفى صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع عن زكريا بن أبى زائدة عن مصعب بن شيبة العبدرى المكى الحجبى عن طلق بن حبيب عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء ، وسيأتى فى ذكر مقدار عمره الكلام على الختان . والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ ، فهذا من جملة قوله تعالى فى حقه من المدح العظيم (وإبراهيم الذى وفى) .

ذكر قصره فى الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطى ومحمد بن موسى القطان قالا حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة قصراً أحسبه قال من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا . قال البزار وحدثناه أحمد بن جميل المروزى حدثنا النضر ابن شميل حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، ثم قال وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده ألا يزيد بن هارون والنضر ابن شميل وغيرهما يرويه موقوفا قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه [1] .

---

(١) ذلك أن لكل من كتب الصحاح شروطا عندهم يصح بها الحديث فيذكرونه فى كتبهم .

ذكر صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد حدثنا يونس وحجين قالا حدثنا الليث عن أبى الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : عرض علىّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ . وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن عثمان يعنى ابن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم . قالوا له فإبراهيم قال انظروا إلى صاحبكم يعنى نفسه .

وقال البخارى حدثنا بنان بن عمرو حدثنا النضر أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال بين عينيه كافراً و (ك ف ر) ، فقال لم أسمعه ، ولكنه قال ﷺ أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبه كأنى أنظر إليه انحدر إلى الوادى . ورواه البخارى أيضا ومسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى عن عبد الله بن عون به . وهكذا رواه البخارى أيضا فى كتاب الحج وفى اللباس ومسلم جميعا عن محمد بن المثنى عن ابن أبى عدى عن عبد الله بن عون به .

ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل فى عمره

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان ، وهو فيما قيل الضحاك الملك المشهور الذى يقال إنه ملك ألف سنة ، وكان فى غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر ، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفرع النمرود . فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين ، فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين ، فحماه الله عز وجل وصانه من

كيد الفجار ، وشب شباباً باهراً وأنبته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم ، وكان مولده بالسوس وقيل : ببابل وقيل بالسواد من ناحية كوثى [١] .

وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق .

فلما أهلك الله نمرودا على يديه وهاجر إلى حران ،ثم إلى أرض الشام ، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا ، وولد له إسماعيل وإسحق ، وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان ، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله ، واشترى من رجل من بنى حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال ، ودفن فيها سارة هنالك ، قالوا ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل .

قالوا ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا ، فولدت له زمران ويقشان ومادان ومَدين وشياق وشوح . وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجىء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها .

وقد قيل إنه مات فجأة ، وكذا داود وسليمان والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا ثم مرض إبراهيم عليه السلام ، ومات عن مائة وخمس وسبعين . وقيل : وتسعين سنة ، ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى عند امرأته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى ، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتى سنة ، كما قاله ابن الكلبى ، وقال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه ، أنبأنا المفضل بن محمد الجندى بمكة ، حدثنا على بن زياد اللخمى ، حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : اختتن إبراهيم بالقدُّوم وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمرى عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبى هريرة موقوفا .

ثم قال ابن حبان ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهو أخبرنا محمد

---

(١) كوثى ربى وفيها مشهد إبراهيم الخليل وهى بأرض بابل .

ابن عبدالله بن الجنيد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : اختتن إبراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، واختتن بقدوم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . وقد أتت عليه ثمانون سنة . ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال القدوم اسم القرية [١] . قلت الذى فى الصحيح أنه اختتن ، وقد أتت عليه ثمانون سنة . وفى رواية وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم .

وقال محمد بن إسماعيل الحسانى الواسطى زاد فى تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : كان إبراهيم أول من تسرول ، وأول من فرق ، وأول من استحد [٢] وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب ، هكذا رواه موقوفا وهو أشبه بالمرفوع خلافا لابن حبان والله أعلم .

وقال مالك عن يحيى عن سعيد بن المسيب قال : كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب ، فقال يارب ما هذا ؟ فقال الله « وقار » ، فقال يارب زدنى وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل . فقبره وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم ، وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم ، فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها . وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال : وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة .

إلهى جهولا أملُه ... يموت من جا أجلُهْ
ومن دنا من حتفِه ... لم تُغْنِ عنه حِيَلُهْ
وكيف يبقى آخر ... من مات عنه أولُهْ
والمرءُ لا يصحبه ... فى القبرِ إلا عملُهْ

---

(١) وقيل اسم الآلة التى اختتن بها ـ والله أعلم .

(٢) أى لبس السراويل وفرق شعر رأسه وأزال شعر عانته .

ذكر أولاد إبراهيـــم الخليـــل

أول من ولد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية ، فولدت له ستة مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس ، ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين ، فولدت له خمسة كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس . هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه التعريف والإعلام [1] .

ومما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام وما حل بهم من النقمة العميمة . وذلك لوط بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا ويقال إن هاران هذا هو الذى بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش والمنكرات والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة فى العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين ، ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين ، فقال تعالى فى سورة الأعراف : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وماكان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) . وقال تعالى فى سورة هود : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم

---

(١) أى بما أبهم من الأعلام .

وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبـراهيم أعـرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) وقال تعالى فى سورة الحجر : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قال لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنـا لمنجـوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين . فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمـرون . وقضينـا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين) . وقال تعالى فى سورة الشعراء (كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسـول أمـين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا

الآخـرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهم العزيز الرحيم) وقال تعالى فى سورة النمل : (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومـه إلا أن قالـوا أخـرجـوا آل لوط من قريتكم إنهم أنـاس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) . وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحـد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية . إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) . وقـال تعـالى فى سورة الصـافـات (وإن لوطـاً لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون) ، وقال تعالى فى الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم (قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ، وقال فى سورة الانشقاق (كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السورة فى التفسير ، وقد ذكر الله لوطاً وقومه فى مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود ، والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار وبالله المستعان ، وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا

ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم ، إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون ، فجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم فى محلتهم خالدين ، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج ، وما كان

هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها ، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون فى ناديهم ، وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ، ولا يستحيون من مُجالِسهم ، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ، ولا يستنكفون ، ولا يرعوون لوعظ واعظ ، ولا نصيحة من عاقل ، وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضى ولا راموا فى المستقبل تحويلا ، فأخذهم الله أخذاً وبيلا ، وقالوا له فيما قالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) ، فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين ، فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام ، فمروا على الخليل إبراهيم ، وبشروه بالغلام العليم ، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم (قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين) وقال (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) وقال الله تعالى : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) ، وذلك انه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى أعرض عن هذا وتكلم فى غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم إنه قد جاء أمر ربك أى قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن إسحاق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : (أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا لا قال : فمائتا مؤمن قالوا لا قال : فأربعون مؤمنا قالوا لا قال : فأربعة عشر مؤمنا قالوا لا) قال ابن إسحاق إلى أن قال : (فأريتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا لا) قال : (إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها) الآية ، وعند أهل الكتاب أنه قال يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا ، فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ، ثم تنازل إلى عشرة فقال الله ـ لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون ـ قال الله تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام ، وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس وسيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق شديد بلاؤه ، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحي منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها فقال لهم فيما قال يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدى خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا ، فقالوا لها يا جارية هل من منزل ؟ فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فقالت إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه ، وقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) . أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب

العظيمة الكبيرة الكثيرة ، (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث ، وكما قال تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ، وفى قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم ، وهذا كقوله : (أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) ، وهذا هو الذى نص عليه مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق وهو الصواب ، والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحف عليهم كما أخطأوا فى قولهم ، إن الملائكة كانوا اثنين ، وإنهم تعشوا عنده ، وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطا عظيما وقوله : (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) نهى لهم عن تعاطى ما لا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفرة أغبياء ، وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد ، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد (لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا ، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذى العذاب الأليم ، ولهذا قال عليه السلام : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب . وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعا (نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى) ، ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة . وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى الله عز وجل فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه . وقال تعالى : (وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) ، فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم ، هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلما نهاهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون . ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون . وصبيحة ليلتهم إليه منتقلون ، ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ، وقال تعالى : (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه

عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ، ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد لأحللت بكم النكال . قالت الملائكة : (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) ، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجـوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن . ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن قال الله تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت منكم أحد يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم . وقوله : (إلا امرأتك) على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله فأسر بأهلك كأنه يقول إلا امرأتك ، فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلى [1] واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة . وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) ، فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ويقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد . ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد . وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم ، فقالوا اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التى يقول الناس غور زغر ، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم ، فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة . وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم

---

(١) فى كتابه : التعريف والإعلام .

من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، قال مجاهد فكان أول ما سقط منها شرفاتها (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) والسجيل : فارسى معرب وهو الشديد الصلب القوى (منضود) أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء (مُسوَّمة) أى مُعَلَّمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال : (مسومة عند ربك للمسرفين) وكما قال تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) وقال تعالى : (والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى) يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها . ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتها ، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثاً ، وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم ، وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أى خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما . فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً . قال الله تعالى فى قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر ، وقال فيما قال (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) . أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة . وقوله ههنا . (وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو ابن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى : (وما هى من الظالمين ببعيد) . وجعل

الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات . وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى : (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى : (فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم .إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة . كما روى الترمذى وغيره مرفوعا (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ، ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله : (وإنها لبسبيل مقيم) أى لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن كما قال : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون) ، وقال تعالى : (ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون) ، وقال تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ، أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط « ومن تشبه بقوم فهو منهم » ، وإن لم يكن من كل وجه ، فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم ، فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد ، فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال . والجوارى من السرارى ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد . ويدخل فى قوله تعالى : (وما هى من الظالمين ببعيد) .

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكن إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو

لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) . وقال فى سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . وقال فى الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا . (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) وقال تعالى فى الشعراء بعد قصتهم (كذب أصحاب الأيكة المرسلين.إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . واتقوا الله الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو

العزيز الرحيم) .

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط . وكانو بعدهم بمدة قريبة . ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ذكره ابن إسحاق قال ويقال له بالسريانية بنزون وفى هذا نظر ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين ابن إبراهيم ويقال شعيب بن ضيفور بن عياف بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك فى نسبه .

قال ابن عساكر ويقال جدته ويقال أمه بنت لوط وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق .

وعن وهب بن منبه أنه قال شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتى لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة .

وفى هذا كله نظر أيضا والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب [1] فى ترجمة سلمة بن سعد العنزى قدم على رسول الله ﷺ وانتسب إلى عنزة فقال نعم الحى عنزة مبغى عليهم منصورون قوم شعيب وأختان موسى فلو صح هذا لدل على أن شعيبا من موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم .

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال : (أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر) وكان بعض السلف يسمى شعيبا خطيب الأنبياء يعنى لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان برسالته . وقد روى ابن إسحاق عن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبا قال (ذاك خطيب الأنبياء) وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص

---

(١) انظر الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر على ذيل الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى .

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد . وهو الولى الحميد . كما قال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم) أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل إلينا تفصيلا وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسـدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال : (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط) أى طريق (توعدون) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل . قال السدى فى تفسيره عن الصحابة (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة . وقال إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق (يبخسون الناس) يعنى يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفـوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم فى القصة الأخرى (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمـروا فيه فيمحق الله بركة ما فى أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولا عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم وعذابه الأليم فى أخراهم وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) قال ابن عباس والحسن البصرى (بقيت الله خير لكم) أى رزق الله خير لكم من أخـذ أموال الناس . وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . وقال وقد روى هذا عن ابن عباس وهذا الذى قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى :

(يمحق الله الربا ويربى الصدقات) . وقال رسول الله ﷺ (إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قُلٍّ) رواه أحمد أى إلى قلة وقال رسول الله ﷺ : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما» . والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدى وإن كثر ولهذا قال نبى الله شعيب (بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيرى (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلاتك هذه التى تصليها هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) هذا تلطف معهم فى العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون (إن كنت على بينة من ربى) أى على أمر بين من الله تعالى أنـه أرسلنى إليكم (ورزقنى منه رزقا حسنا) يعنى النبوة والرسالة يعنى وعمى عليكم معرفتها فأى حيلة لى بكم . وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء وقوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشىء فأنا أول من يتركه وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة وضدها هى المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون . قال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وذكر عندها فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه أى تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه . وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب فحالهم كما قال نبى الله شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى (وما توفيقى) أى فى جميع أحوالى (إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) أى عليه أتوكل فى سائر الأمور وإليه مرجعى ومصيرى

فى كل أمرى وهذا مقام ترغيب . ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط عنكم ببعيد) أى لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين . وقوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قيل معناه فى الزمان أى ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم . وقيل معناه وما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان . وقيل فى الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال : (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) أى أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا) روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى أنهم قالوا كان ضرير البصر . وقد روى فى حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمى فرد الله عليه بصره . وقال يا شعيب أتبكى خوفا من النار أو من شوقك إلى الجنة فقال بل من محبتك فإذا نظرت إليك فلا أبالى ماذا يصنع بى فأوحى الله إليه هنيئا لك يا شعيب لقائى فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمى . رواه الواحدى عن أبى الفتح محمد بن على الكوفى عن على بن الحسن بن بندار عن أبى عبد الله محمد بن إسحق الرملى عن هشام بن عمار عن إسماعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبى ﷺ بنحوه وهو غريب جداً وقد ضعفه الخطيب البغدادى . وقولهم (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا (ما نفقه كثيرا مما تقول) أى ما نفهمه ولا نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) وقولهم (وإنا لنراك فينا ضعيفا) أى مضطهداً مهجورا (ولولا رهطك) أى قبيلتك وعشيرتك فينا (لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وترعونى بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعونى لأنى رسول الله فصار رهطى أعز عليكم من الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جانب الله وراء ظهوركم (إن ربى بما تعملون محيط) أى هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه (ويا قوم اعملوا على

مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . ومن يحل عليه الهلاك والبوار (من يأتيه عذاب يخزيه) أى فى هذه الحياة الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أى فى الأخرى (ومن هو كاذب) أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر (وارتقبوا إنى معكم رقيب) وهذا كقوله (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال (أو لو كنا كارهين) أى هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارا مكرهين وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه ، ولهذا قال : (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا) ، أى فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا فى جميع أمرنا ، ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم فى تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) أى الحاكمين ، فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه ، ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون) وقال الله تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ، ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديداً ، أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثتهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها . وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديداً أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنها فى كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طباقها فى سياق قصة الأعراف أرجفوا بنبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودن فى ملتهم راجعين فقال تعالى : (فأخذتهم الرجفة

فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ، فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ، ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : (أصلوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) ، فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم .

وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : (إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعملون) قال الله تعالى : وهو السميع العليم (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ، ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان أحدهما أنه قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم كما قال : (وإلى مدين أخاهم شعيبا) . والثانى أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة ، والجواب عن الأول : أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الإخوة ههنا ، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة : وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى ، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان ، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن . فأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شقيق بن أبى هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : (إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبى عليه السلام) فإنه حديث غريب ، وفى رجاله من تكلم فيه . والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان ، فدل على أنهما أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر فى كل موضع ما يناسب من الخطاب وقوله : (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم فى الأسراب ، فهربوا من محلتهم إلى البر ، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح ، (فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) ، وقال تعالى : (وقال الملأ من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) ، وهذا فى مقابلة قولهم : (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) ، ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً فقال تعالى : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) ، أى أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) ، أى قد أديت ما كان واجبا علىّ من البلاغ التام ، والنصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين ، فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة ، ولهذا قال فكيف آسى ، أى أحزن على قوم كافرين ، أى لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا تلتفون إليه فحل بهم من بأس الله الذى لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص منه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم .

باب ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والتسليم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام ، وذكرنا ما وقع فى زمانه من قصة قوم لوط . وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجل فى مواضع متعددة ، فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين ، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا ، فذكرناها تبعا لها اقتداء بالقرآن العظيم . ثم نشرع الآن فى الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى أرسل بعده فمن ولده .

ذكر إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذى هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بِكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل . ومن قال إن الذبيح هو إسحاق ، فإنما تلقاه من نقلة بنى إسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل ، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل . فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر . وفى رواية الوحيد وأيّامّا كان فهو إسماعيل [١] بنص الدليل ، ففى نص كتابهم إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة . وإنما ولد إسحاق بعد مضى مائة سنة من عمر الخليل ، فإسماعيل هو البكر لا محالة ، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة . أما فى الصورة فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة، وأما أنه وحيد فى المعنى فإنه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر ، وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل ، فوضعهما فى وهاد جبال فاران ، وهى الجبال التى حول مكة نعم المقيل وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل ، وذلك ثقة بالله وتوكلا عليه . فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته ، فنعم الحسيب والكافى والوكيل والكفيل ، فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى ، ولكن أين من يتفطن لهذا السر ؟

---

(١) راجع أدلة هذه الأقوال مضت قريبا عند ذكر قصة إبراهيم عليه السلام .

وأين من يحل بهذا المحل ؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل . وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب . قال تعالى : (فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ، فطاوع أباه على ما إليه دعاه ، ووعده بأن سيصبر فوفَّى بذلك وصبر على ذلك . وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) . وقال تعالى : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) . وقال تعالى : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) الآية . وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى . وقال تعالى : (أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله) ، الآية . فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون . وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون . وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل ، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها . وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه ، حدثنا شيخ من قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل»، وكانت هذه العراب وحشا فدعا لها بدعوته التى كان أعطى ، فأجابته وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الأموى حدثنى على بن المغيرة حدثنا أبو عبيدة حدثنا مسمع بن مالك عن محمد ابن على بن الحسين عن آبائه عن النبى ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » فقال له يونس صدقت يا أبا سيار هكذا أبو جرى حدثنى . وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها . قال

الأموى هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى . ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وقيل هذه ثالثة فولدت له اثنى عشر ولداً ذكرا . وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم نابت وقيذر وأزبل وميشى ومسمع وماش ودوصا وأزر ويطور ونبش وطيما وقيذما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتبهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيما المبشر بهم المتقدم ذكرهم . وكذبوا فى تأويلهم ذلك ، وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه . ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق ، فولدت له الروم . ويقال لهم بنو الأصفر لصفرة كانت فى العيص . وولدت له اليونان فى أحد الأقوال . ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً . وتوقف ابن جرير رحمه الله .

ودفن إسماعيل نبى الله بالحِجْر مع أمه هاجر ، وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة ، فأوحى الله إليه أنى سأفتح لك بابا إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه تجرى عليك روحها إلى يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار . وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ . وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء بنى إسرائيل إلى زمان عيسى ابن مريم خاتم أنبيائهم ، ومحقق أنبائهم . ثم نذكر ما كان فى زمن بنى إسرائيل . ثم ما وقع فى أيام الجاهلية ثم ينتهى الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم العزيز الحكيم .

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والسلام

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة ، وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة قال الله تعالى : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . وقد ذكره الله تعالى بالثناء

عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقدمنا فى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وذكر أهل الكتاب إن إسحاق لما تزوج رفقا بنت بتواييل فى حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه عيصو وهو الذى تسميه العرب العيص وهو والد الروم . والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل قالوا : وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره ، وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر قالوا : فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاما وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له ، وكان العيص صاحب صيد ، فذهب يبتغى ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاما كما اشتهاه أبوه ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك ، فلما جاء به وقربه إليه قال من أنت ؟ قال : ولدك فضمه إليه وجسه ، وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص ، فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له : ما هذا يا بنى ؟ قال : هذا الطعام الذى اشتهيته فقال : أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك ، فوجد فى نفسه عليه وجداً كثيراً . وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم ، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذى بأرض حران ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل ، فخرج عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه أخذ حجرا فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى فى نومه ذلك معراجا منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك واجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالما ليبنين فى هذا الموضع معبدا لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عشره ، ثم

عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به ، وسمى ذلك الموضع بيت إيل أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى ، قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل ، وكانت أحسنهما وأجملهما (فأحب زواجه) ، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين ، فلما مضت المدة على خاله لابان صنع طعاما وجمع الناس عليه وزف إليه ليلا ابنته الكبرى ليا ، وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هى ليا ، فقال لخاله لم غدرت بى وأنت إنما خطبت إليك راحيل ، فقال له : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها ، وكان ذلك سائغا فى ملتهم ، ثم نسخ فى شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم . ووهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب لليا جارية اسمها زلفى ، ووهب لراحيل جارية اسمها بلهى ، وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولادا ، فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل ثم شمعون ثم لاوى ثم يهوذا ، فغارت عند ذلك راحيل ، وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلاما سمته دان وحملت وولدت غلاما آخر سمته نيفتالى فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام فولدت له حاذ وأشير غلامين ذكرين ثم حملت ليا أيضا فولدت غلاما خامسا منها وسمته ايساخر ثم حملت وولدت غلاما سادسا سمته زابلون ثم حملت وولدت بنتا سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاما من يعقوب ، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبى الله يعقوب فولدت له غلاما عظيما شريفاً حسناً جميلا سمته يوسف ، كل هذا وهم يقيمون بأرض حران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة ، فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله ، فقال له خاله إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت ! فقال : تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد . وكل أملح ببياض . وكل أجلح أبيض من المعز فقال نعم . فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شىء من الحملان على هذه الصفات . وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز وولب . فكان يقشرها بلقا وينصبها فى مساقى الغنم من المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها . فتصير ألوان حملانها كذلك ، وهكذا يكون من باب خوارق العادات ،

وينتظم فى سلك المعجزات ، فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه ، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته ، فتحمل بأهله وماله وسرقت راحيل أصنام أبيها ، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه ، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ولم أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناما فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن فى بردعة الحمل وهى تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن ، فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعاما وأكل القوم معهم ، وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم ، فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له ، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل ، فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذى وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون لقحة وأربعون بقرة وعشرة من الثيران وعشرون أتانا وعشرة من الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده ، وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ولمن هذه معك ؟ فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدى العيص ، وليقل الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعده ويقول كل منهم وهو جائى بعدنا وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلا ويكمن نهاراً ، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدا له ملك من الملائكة فى صورة رجل فظنه يعقوب رجلا من الناس ، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب ، فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال : يعقوب ، قال : لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل ، فقال له يعقوب : ومن أنت وما اسمك ؟ فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله ، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا ورفع يعقوب عينيه ، فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله ، فلما

رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان ، وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له كما سيأتى ، فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان ، فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت ليا وبنوها فسجدوا له ودنت راحيل وابنها يوسف فخرّا سجداً له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ورجع العيص ، فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال ساعير ، فلما مر بساحور ابتنى له بيتا ولدوابّه ظلالا ثم مر على أورشليم قرية شخيم ، فنزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم ابن جمور بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثَمَّ [1] مذبحا فسماه إيل إله إسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليوم الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولا .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا ، وما كان من أمرها مع شخيم ابن جمور الذى قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ، ثم خطبها عن أبيها وإخوتها ، فقال إخـوتهـا : إلا أن تختتنـوا كلكم ، فنصـاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نصاهر قوما غلفا ، فأجابوهـم إلى ذلك واختتنوا كلهم . فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم مضافا إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلاما وهو بنيامين إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً ، وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب فى أفراث وهى : بيت لحم ، وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم . وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلا فمن ليا : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وايساخر وزايلون ، ومن راحيل : يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالى ، ومن أمة ليا حاد وأشير عليهم السلام ، وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ، ثم مرض إسحاق ، ومات عن مائة وثمانين سنة ، ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها كما قدمنا .

---

(١) ثَمَّ : أى هناك .

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة فى حياة إسرائيل

فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل . وقد أنزل الله عز وجل فى شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم (آلر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) قد تكلمنا على الحروف المقطعة فى أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثَمَّ . وتكلمنا على هذه السورة مستقصى فى موضعها من التفسير ، ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول فى هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربى فصيح بين واضح جلى يفهمه كل عاقل ذكى زكى فهو أشرف كتاب نزل من السماء أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق فى أشرف زمان ومكان . بأفصح لغة وأظهر بيان . فإن كان السياق فى الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه ورده وإن كان فى الأوامر والنواهى فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكما وأعدل حكما فهو كما قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) . يعنى صدقا فى الأخبار عدلا فى الأوامر والنواهى ، ولهذا قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه كما قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وقال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) . يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على مرفوعا وموقوفا « من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » . وقال الإمام أحمد حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر : « أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال فغضب وقال : أتتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شىء ، فيخبرونكم بحق فتكذبونه

أو بباطل فتصدقونه والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى) إسناد صحيح . ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتمـوه وتركتمونى لضللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » ، وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه فى أول سورة يوسف . وفى بعضها أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال فى خطبته : « أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون » . ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخـوتـك فيكيدوا لك كيد إن الشيطان للإنسـان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحٰق إن ربك عليم حكيم) قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولـداً ذكـرا وسميناهم وإليهم تنسب أسبـاط بنى إسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبى غيره وباقى إخوته لم يوح إليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول . ومن استدل على نبوتهم بقوله : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمٰعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) ، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى لأن المراد بالأسباط شعوب بنى إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحى من السماء والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نص على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه ، ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد (حدثنا) عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم « انفرد به البخارى » فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقـد ذكرنا طرقه فى قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة . قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن (أحد عشر كوكبا) وهم إشارة إلى بقية إخوته (والشمس والقمر) وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا

له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر ، وهذا يدل على ما ذكرناه . ولهذا جاء فى بعض الآثار « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها . فإن كل ذى نعمة محسود » ، وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً وهو غلط منهم (وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها (يجتبيك ربك) أى يخصك بأنواع اللطف والرحمة (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى يفهمك من معانى الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك (ويتم نعمته عليك) أى بالوحى إليك (وعلى آل يعقوب) أى بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) ، أى ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحق ووالد جدك إبراهيم الخليل (إن ربك عليم حكيم) كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل أى الناس أكرم قال « يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » ، وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما وأبو يعلى والبزار فى مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة عن السدى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : « أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له بستانة اليهودى فقال يا محمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها . قال فسكت النبى ﷺ فلم يجبه بشىء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها قال : فبعث إليه رسول الله فقال : هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها قال نعم فقال هى جريان والطارق والديال وذو الكتفان . وقابس . ووثاب . وعمردان والفليق . والمصبح . والضروح . وذو الفرع ، والضياء ، والنور) فقال اليهودى أى والله إنها لأسماؤها ، وعند أبى يعلى فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله والشمس أبوه والقمر أمه ، (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) .

ينبه تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات ، ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأبيه وأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أى جماعة يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين (إن أبانا لفى ضلال مبين) أى بتقديمه حبهما علينا * ثم اشتوروا فيما بينهم فى قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أى لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك فلما تمالئوا على ذلك وتوافقوا عليه (قال قائل منهم) قال مجاهد هو شمعون وقال السدى

هو يهوذا . وقال قتادة ومحمد بن إسحق هو أكبرهم روبيل (لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة) أى المارة من المسافرين (إن كنتم فاعلين) ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذى أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم . يا بنى يشق علىَّ أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا فى لعبكم وما أنتم فيه فيأتى الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه . (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذا لخاسرون أى عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم . وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم فى التعريب فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلا أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال وأجمعوا على إلقائه فى غيابت الجب أى فى قعره على راعوفته وهى الصخرة التى تكون فى وسطه يقف عليها المائح وهو الذى ينزل ليملى الدلاء إذا قل الماء والذى يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا فى حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون إليك خائفون منك وهم لا يشعرون .

قال مجاهد وقتادة وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس وهم لا يشعرون أى لتخبرنهم بأمرهم هذا فى حال لا يعرفونك فيها . رواه ابن جرير عنه . فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطخوه بشىء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون أى على أخيهم ، ولهذا قال بعض السلف لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك

وذكـر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون أى فى ظلمة الليل ليكون أمشى لغَـدرهم لا لعُـذْرهم (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ثيابنا (فأكله الذئب) أى فى غيبتنا عنه فى استباقنا وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى وما أنت بمصدق لنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا فى هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدَّقين عندك فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا والحالة هذه ، (وجاءوا على قميصه بدم كذب) أى مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب قالوا ونسوا أن يخرقوه وآفة الكذب النسيان . ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التى كانت عليه فى صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه جاءوا وهم يتباكون وعلى ما تمالئوا عليه يتواطئون ولهذا (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

وعند أهل الكتاب أن روبيل أشار بوضعه فى الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة ، فلما جاء روبيل من آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده فصاح وشق ثيابه وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه ولطخوا من دمه جبة يوسف ، فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزرا أسود وحزن على ابنه أياما كثيرة . وهذه الركاكة جاءت من خطئهم فى التعبير والتصوير . (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه . قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) . يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع فى الجب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيارة أى مسافرون .

قال أهل الكتاب كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف ، فلما رآه ذلك الرجل (قال يا بشرى) أى يا بشارتى (هذا غلام وأسروه بضاعة) أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم (والله عليم بما يعملون) أى هو عالم بما تمالأ عليه إخوته

وبها أسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لا يغيره تعالى لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف . ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم . بثمن بخس أى قليل نزر ، وقيل هو الزيف (دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) . قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى باعوه بعشرين درهما اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد اثنا وعشرون درهما . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق أربعون درهما فالله أعلم (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه) أى أحسنى إليه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة . قالوا وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذى الخزائن مسلمة إليه . قال ابن إسحاق واسمه اطفير [1] ابن روحيب قال وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأة العزيز زاعيل بنت رعاييل [2] . وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها . وقيل فكا بنت ينوس رواه الثعلبى عن أبى هشام الرفاعى . وقال محمد ابن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس كان اسم الذى باعه بمصر يعنى الذى جلبه إليها مالك بن ذعر بن نويب بن عفقا [3] بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم .

وقال ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمى مثواه ، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً . وقيل بوزنه مسْكا ووزنه حريرا ووزنه وَرِقًا [4] . فالله أعلم ، وقوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له فى أرض مصر (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى فهمها . وتعبير الرؤيا من ذلك (والله غالب على أمره) أى إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسبابا وأموراً لا يهتدى إليها العباد ، ولهذا قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه

---

(١) فى نسخة قطفير .

(٢) فى نسخة رعابيل .

(٣) فى نسخة بن عنقاء .

(٤) أى فضة .

حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) . فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد . وهو حد الأربعين الذى يوحى الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الأشد فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى : هو الحلم ، وقال سعيد بن جبير : ثمانى عشرة سنة ، وقال الضحاك : عشرون سنة ، وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة ، وقال السدى : ثلاثون سنة ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) . يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهى مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحق وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر . وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبى من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء ، المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله » .

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال : (معاذ الله إنه ربى)

يعنى زوجها صاحب المنزل سيدى (أحسن مثواى) أى أحسن إلى وأكرم مقامى عنده (إنه لا يفلح الظالمون) وقد تكلمنا على قوله (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا . والذى يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها . ولهذا قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب) أى هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته فى أثره (وألفيا) أى وجدا (سيدها) ، أى زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) . اتهمته وهى المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف عليه السلام (هى راودتنى عن نفسى) احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة (وشهد شاهد من أهلها) قيل كان صغيراً فى المهد قاله ابن عباس . وروى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير . وروى فيه حديثا مرفوعا عن ابن عباس ووقفه غيره عنه . وقيل كان رجلا قريباً إلى أطفير بعلها . وقيل قريباً إليها . وممن قال إنه كان رجلا ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم فقال (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان . ولهذا قال تعالى : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى هذا الذى جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه . ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال (يوسف أعرض عن هذا) أى لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة إلى ربها . فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه . وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له فى ذلك . ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه لأنها رأت مالا صبر لها على مثله إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال : (استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه

وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) .
يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها وحبها الشديد له ، يعنين وهو لا يساوى هذا لأنه مولى من الموالى ، وليس مثله أهلا لهذا ، ولهذا قلن : (إنا لنراها فى ضلال مبين) .
أى فى وضعها الشىء فى غير محله (فلما سمعت بمكرهن) أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها ، وعشق فتاها ، فأظهرن ذما وهى معذورة فى نفس الأمر ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن ، فجمعتهن فى منزلها . وأعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت فى جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب ، وهو فى غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة . فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة (فلما رأينه أكبرنه) : أى أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح (وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) ، وقد جاء فى حديث الإسراء (فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن) .

قال السهيلى وغيره من الأئمة معناه : أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى ، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ، ويوسف كان على النصف من حسن آدم ، ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه .
وقال غيره كان فى الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس ، ولهذا لما قدم عذر امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) ، ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع (ولئن لم

يفعـل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين) ، وكان بقية النساء حرّضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين : (رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجـاهلين) ، يعنى إن وكلتنى إلى نفسى ، فليس لى من نفسى إلا العجـز والضعف ولا أملك لنفسى نفعـاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، فأنـا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى ، وحطتنى بحولك وقوتك ، ولهذا قال تعالى : (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخـل معـه السجن فتيان . قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخـر : إنى أرانى أحمـل فوق رأسى خبـزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمـر أن لا تعبـدوا إلا إياه ذلـك الـدين القيم ، ولكن أكثـر النـاس لا يعلمون . يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) . يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية وأخمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجونه ظلماً وعدواناً . وكان هذا مما قدر الله له . ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم . ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى أن من العصمة أن لا تجد قال الله : (ودخل معه السجن فتيان) قيل كان أحدهما ساقى الملك واسمـه فيما قيل بنـو . والأخـر خبـازه يعنى الـذى يلى طعامه وهو الذى يقول له الترك (الجاشنكير) ، واسمه فيما قيل مجلث كان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما . فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه فرأى الساقى فى المنام كأن ثلاثة قضبان من حبَلَةٍ ، وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضوارى الطير تأكل من السل الأعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا :

(إنا نراك من المحسنين) ، فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) . قيل معناه مهما رأيتما من حلم ، فإنى أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول ، وقيل معناه إنى أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضا كما قال عيسى : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) ، وقال لهما إن هذا من تعليم الله إياى ، لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب : (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا) أى بأن هدانا لهذا (وعلى الناس) أى بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو فى فطرهم مركوز ، وفى جبلتهم مغروز ، (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) . ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل وصغّر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها فقال : (يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دون إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله) أى هو المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) أى وحده لا شريك له و (ذلك الدين القيم) أى المستقيم والصراط القويم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره ، وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما عما سألا عنه وطلبا منه . ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً) ، قالوا وهو الساقى (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) ، قالوا وهو الخباز (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حالة ، ولهذا جاء فى الحديث : (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت) .

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم« أنهما قالا لم نر شيئاً » ، فقال لهما : (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) . يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذى ظنه ناجياً منهما وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) ، يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك . وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب . ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب . وقوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى فأنسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب (فلبث فى السجن بضع

سنين) والبضع ما بين الثلاث إلى التسع . وقيل : إلى السبع . وقيل : إلى الخمس . وقيل : ما دون العشرة . حكاه الثعلبى . ويقال بضع نسوة وبضعة رجال . ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر ، قال وإنما يقال نيف . وقال الله تعالى : (فلبث فى السجن بضع سنين) ، وقال تعالى (فى بضع سنين) وهذا رد لقوله . قال الفراء ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ولا يقال بضع ومائة وبضع وألف ، وخالف الجوهرى فيما زاد على بضعة عشر ، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين . وفى الصحيح (الإيمان بضع وستون) ، وفى رواية وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومن قال إن الضمير فى قوله : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على يوسف ، فقد ضعف ما قاله وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة والحديث الذى رواه ابن جرير فى هذا الموضع ضعيف من كل وجه . تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزى المكى وهو متروك . ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأحرى والله أعلم .

فأما قول ابن حبان فى صحيحه ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن ما لبث أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى ، ثنا مسدد بن مسرهد ثنا خالد بن عبد الله ثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها : اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن ، ورحم الله لوطا أن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ، قال فما بعث الله نبياً بعده إلا فى ثروة من قومه . فإنه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمـة له أشياء ينفـرد بها وفيهـا نكارة ، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها . والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم . (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) ، هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه

الرؤيا ، قال أهل الكتاب رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن فى روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ، ثم ملن عليهن فأكلهن فاستيقظ مذعوراً ، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً . فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل (قالوا أضغاث أحلام) أى أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ، ولهذا قالوا : (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) ، فعند ذلك تذكر الناجى منهما الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا . وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك ، فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار . ولهذا قال تعالى : (وقال الذى نجا منهما وادكر) أى تذكر (بعد أمة) أى بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين ، وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك (وأدكر بعد أمه) أى بعد نسيان وقرأها مجاهد (بعد أمه) بإسكان الميم وهو النسيان أيضاً يقال أمه الرجل يأمه أمهاً وأمها إذا نسى قال الشاعر :

أمهت وكنت لا أنسى حديثا   كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه وللملك (أنا أنبئكم بتأويله فارسلون) أى فأرسلونى إلى يوسف فجاءه فقال : (يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) ، وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الساقى استدعاه إلى حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له ، وهذا غلط والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران من قراى وربان . فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعاً بل أجابهم إلى ما سألوا وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب . (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية (وفيه يعصرون) يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبر لهم ، وعلى الخير دلهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله إلا ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل . وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

(وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم) . لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصته ، فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه برىء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا (قال ارجع إلى ربك) يعنى الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم) ، قيل معناه إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب إلى أى فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد ، فلما سئلن من ذلك أعرفن بما وقع من الأمر وما كان منه الأمر الحميد (وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء) فعند ذلك (قالت امرأة العزيز) وهى زليخا (الآن حصحص الحق) أى ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أى فيما يقوله من أنه برىء وأنه لم يراودنى وأنه حبس ظلما وعدواناً وزوراً وبهتانا . وقوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) قيل إنه من كلام يوسف أى إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة ، وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الأول . (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم) قيل إنه من كلام يوسف ، وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين . وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) . لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه (قال ائتونى به أستخلصه لنفسى) أى أجعله من خاصتى ومن أكابر دولتى ، ومن أعيان حاشيتى فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى ذو مكانة وأمانة (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) طلب

أن يوليه النظر فيها يتعلق بالإهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضى سبع سنى الخصب لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك إنه حفيظ أى قوى على حفظ ما لديه أمين عليه عليم بضبط الأشياء ومصالح الإهراء ، وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة . وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى ونودى بين يديه أنت رب ومسلط ، وقال له لست أعظم منك إلا بالكرسى . قالوا وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوجه امرأة عظيمة الشأن .

وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف . وقيل إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتى النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرايم ومنشا ، قال : واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل ، فأحبه الرجال والنساء .

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجب ذلك مع حداثة سنه فالله أعلم . قال الله تعالى : (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر (يتبوأ منها حيث يشاء) أى أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) أى هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل . ولهذا قال : (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ويقال إن أطفير زوج زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدق .

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدى يوسف عليه السلام فالله أعلم . وقد قال بعضهم .

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) يخبر تعالى عن

قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد ، وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية ديناً ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم فى القول ، وقال أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خبر بلادى . فقالوا معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ، ونحن بنو أبٍ واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد وصغيرنا عند أبينا ، فقال لابد أنْ أستعلم أمركم . وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام ، ثم أخرجهم واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر ، وفى بعض هذا نظر . قال الله تعالى : (فلما جهزهم بجهازهم) أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته فى إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) ، وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم فقالوا كنا اثنى عشر رجلا فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا ، فقال إذا قدمتم من العام المقبل فأتونى به معكم (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين) أى قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) أى فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدى إليهم أولا فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب ، (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن (وإنا لفاعلون) أى وإنا لقادرون على تحصيله . ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ما جاءوا به يتعرضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها فى بلادهم . وقيل خشى أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية . وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة .

وقد اختلف المفسرون فى بضاعتهم على أقوال سيأتى ذكرها ، وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من وَرِق وهو أشبه والله أعلم . (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم . قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتونِ موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن

يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم . وقولهم له (منع منا الكيل) أى بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى) أى أى شىء نريد ، وقد ردت إلينا بضاعتنا (ونمير أهلنا) أى نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم فى سنتهم ومحلهم (ونحفظ أخانا ونزداد) بسببه (كيل بعير) قال الله تعالى : (ذلك كيل يسير) أى فى مقابلة ذهاب ولده الآخر . وكان يعقوب عليه السلام أضن شىء بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ، ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه ، فلهذا قال : (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به (فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه فى ولده ولن يغنى حذر من قدر . ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم . ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة ، قيل أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصوراً بديعة قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك ، وقيل أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر ، قاله إبراهيم النخعى : والأول أظهر ، ولهذا قال (وما أغنى عنكم من الله من شىء) وقال تعالى (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعوضا آخر (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا

نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه . ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته . وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرته فى متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادى لهم ، فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم و (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) يقولون أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) ، وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، ولهذا قالوا : (كذلك نجزى الظالمين) . قال الله تعالى : (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة ، ثم قال الله تعالى : (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر (إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء) أى فى العلم (وفوق كل ذى علم عليم) ، وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأيا وأقوى عزما وحزما ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه ، فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف . قيل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له ، وقيل كان يأخذ الطعام

من البيت فيطعمه الفقراء ، وقيل غير ذلك ، فلهذا (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه) ، وهى كلمته بعدها وقوله : (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أجابهم سراً لا جهراً حلما وكرما وصفحا وعفواً ، فدخلوا معه فى الترقق والتعطف فقالوا : (يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرىء . هذا ما لا نفعله ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف إليهم حينئذ ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيدا (فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتؤاْ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

يقول تعالى مخبراً عنهم : (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا) يتناجون فيما بينهم (قال كبيرهم) وهو روبيل : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) فلم يبق لى وجه أقابله به (فلن أبرح الأرض) أى لاأزال مقيما ههنا (حتى يأذن لى أبى) فى القدوم عليه (أو يحكم الله لى) بأن يقدرنى على رد أخى إلى أبى (وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أى أخبروه بما رأيتم من الأمر فى ظاهر المشاهدة (وما شهدنا إلا بما علمنا وماكنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) أى فإن هذا الذى أخبرناك به من أخذهم أخانا لأن سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك (وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) أى ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقة وإنما سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل .

قال ابن إسحاق وغيره لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبا على صنيعهم فى يوسف قال

لهم ما قال ، وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال : (عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً) يعنى يوسف وبنيامين وروبيل (إنه هو العليم) أى بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة (الحكيم) فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة (وتولى عنهم) أى أعرض عن بنيه (وقال يا أسفى على يوسف) ذكرَه حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامنا كما قال بعضهم :

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعنى فهذا كله قبر مالك

وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) أى من كثرة البكاء (فهو كظيم) أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف ، فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق (قالوا) له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) يقولون لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك (قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) يقول لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجا ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ، ولهذا قال : (وأعلم من الله ما لا تعلمون) ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما : (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أى لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج فى المضايق إلا القوم الكافرون (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين) .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة

عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة . وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك : (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين) قيل بقبولها قاله السدى . وقيل برد أخينا إلينا قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير . فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف إليهم وعطف عليهم قائلا لهم عن أمر ربه وربهم . وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الخال فيه الذى يعرفون (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا) وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله : (وهذا أخى) تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا فى أمرهما من الاحتيال ولهذا قال : (قد منَّ الله علينا) أى بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى فضلك وأعطاك ما لم يعطنا (وإن كنا لخاطئين) ، أى فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك (قال لا تثريب عليكم اليوم) أى لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال : (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

ومن زعم أن الوقف على قوله (لا تثريب عليكم) والبدء بقوله (اليوم يغفر لكم) فقوله ضعيف والصحيح الأول ، ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذى يلى جسده فيضعوه على عينى أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات . ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور (ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن أبى سنان عبد الله بن أبى الهذيل سمعت ابن عباس يقول : (ولما فصلت العير) قال لما أخرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال (إنى لأجد ريح يوسف لو أن تفندون) قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام . وكذا رواه الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى سنان به . وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة وقوله (لولا أن تفندون) أى تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة تفندون تسفهون ، وقال مجاهد أيضاً والحسن تهرمون (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) قال قتادة والسدى قالوا له كلمة غليظة . قال الله تعالى : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب ، فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً ، وقال لبنيه عند ذلك (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف وستقر عينى به وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى ، فعند ذلك (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) . طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم ، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلا (سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم إلى وقت السحر قال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر يأتى المسجد فسمع إنساناً يقول : (اللهم دعوتنى فأجبت وأمرتنى فأطعت وهذا السحر فاغفر لى) ، قال فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : (سوف أستغفر لكم ربى) وقد قال الله تعالى : (والمستغفرين بالأسحار) . وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟) . وقد ورد فى حديث (أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة) .

قال ابن جرير : حدثنى المثنى ، ثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقى ، حدثنا الوليد أنبأنا ابن جريج ، عن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ (سوف أستغفر لكم ربى) يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه . وهذا

غريب من هذا الوجه . وفى رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضى الله عنه . (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التى قيل إنها ثمانون سنة ، وقيل : ثلاث وثمانون سنة ، وهما روايتان عن الحسن ، وقيل : خمس وثلاثون سنة ، قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة . قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة ، وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً ، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان فى السجن بضع سنين ، وهى سبع عند عكرمة وغيره ، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس فى السبع البواقى جاء إخوته يمتارون فى السنة الأولى وحدهم ، وفى الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفى الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين ، فجاءوا كلهم فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه اجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . قيل : هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير ، وهو معذور . قيل : تلقاهما وآواهما فى منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر (قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) قال السدى . لو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً وأنه ضمن قوله ادخلوا معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها (إن شاء الله آمنين) لكان صحيحا مليحا أيضاً .

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر ، وهى أرض بلبيس ، خرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه ، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم . وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبى الله يعقوب وهو إسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه ، فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيماً لنبى الله إسرائيل ، وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سنى الجدب ببركة قدومه إليهم ، فالله أعلم .

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السبيعى عن أبى

عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنساناً . وقال موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً ، وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً ، قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل . وفى نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم ، قال الله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : فأحياها الله تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالته ليا ، والخالة بمنزلة الأم . وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضى بقاء حياة أمه إلى يومئذ ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه ، وهذا قوى والله أعلم . ورفعهما على العرش : أى أجلسهما معه على سريره . (وخروا له سجدا) أى سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً ، وكان هذا مشروعاً لهم ، ولم يزل ذلك معمولا به فى سائر الشرائع حتى حرم فى ملتنا . (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لى ساجدين ، وأمرتنى بكتمانها ووعدتنى ما وعدتنى عند ذلك (قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) أى بعد الهم والضيق جعلنى حاكماً نافذ الكلمة فى الديار المصرية حيث شئت (وجاء بكم من البـدو) أى البـادية ، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) أى فيما كان منهم إلىّ من الأمر الذى تقدم وسبق ذكره . ثم قال : (إن ربى لطيف لما يشاء) أى إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدى إليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته (إنه هو العليم) أى بجميع الأمور (الحكيم) فى خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء ، ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك ، فصارت سنة أهل مصر بعده .

وحكى الثعلبى أنه كان لا يشبع فى تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار ، قال فمن ثم اقتدى به الملوك فى ذلك . قلت : وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب .

قال الشافعى قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة (لقد انجلت عنك

وإنك لابن حرة) . ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان . وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله . وسأل منه وهو خير المسئولين أن يتوفاه أى حين يتوفاه على الإسلام . وأن يلحقه بعباده الصالحين . وهكذا كما يقال فى الدعاء (اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين) أى حين تتوفانا ، ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبى ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى ، والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال : (اللهم فى الرفيق الأعلى) ثلاثا ثم قضى .

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزا فى صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً فى ملتهم وشرعتهم ، كما روى عن ابن عباس أنه قال ما تمنى نبى قط الموت قبل يوسف . فأما فى شريعتنا ، فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ، كما فى حديث معاذ فى الدعاء الذى رواه أحمد (وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين) ، وفى الحديث الآخر (ابن آدم الموت خير لك من الفتنة) ، وقالت مريم عليها السلام (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) ، وتمنى الموت على بن أبى طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القيل والقال ، وتمنى ذلك البخارى أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفيه الأهوال .

فأما فى حال الرفاهية فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب ، ولكن ليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى) ، والمراد بالضر هٰهنا ما يخص العبد فى بدنه من مرض ونحوه لا فى دينه . والظاهر أن نبى الله يوسف عليه السلام سأل ذلك ، إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفى عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق . قال السدى فصبر وسيره إلى بلاد الشام ، فدفنه بالمنارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام

بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة . هذا نص كتابهم وهو غلط إما فى النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر ، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا ، وقد قال تعالى فى كتابه العزيز : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) يوصى بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى ابن مريم والله أعلم .

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوما ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ، ومكث فيه أربعين يوما ، ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله ، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها ، فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى ، وعملوا له عزاء سبعة أيام قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف فى أبيهم ، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر . ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه ، فحنطوه ووضعوه فى تابوت ، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام ، فدفنه عند آبائه كما سيأتى . قالوا فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين . هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة . وقال غيره أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه .

قصة أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب وقيل غير ذلك فى نسبه ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقى فى النار فلم تحرقه والمشهور الأول لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب

ويوسف وموسى وهرون) الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام ، وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب) الآية فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل اسمها ليلى بنت يعقوب وقيل رحمه بنت أفرائيم ، وقيل منشأ بن يوسف بن يعقوب ، وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بنى إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، قال الله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ، وقال تعالى فى سورة ص (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بأرد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) وروى ابن عساكر من طريق الكلبى أنه قال أول نبى بعث إدريس . ثم نوح . ثم إبراهيم . ثم إسماعيل . ثم إسحاق . ثم يعقوب . ثم يوسف . ثم لوط . ثم هود . ثم صالح . ثم شعيب . ثم موسى وهرون . ثم الياس . ثم اليسع . ثم عرفى بن وسيلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب . ثم يونس ابن متى من بنى يعقوب . ثم أيوب بن زراح بن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق ابن إبراهيم ، وفى بعض هذاالترتيب نظر فإن هودا وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح ، وقيل إبراهيم والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران .

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه ، وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضى الله عنها وأرضاها وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص

بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه) . ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا . وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بنى إسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل فى كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه فى جسده والله أعلم بصحته . وعن مجاهد أنه قال كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص . وقال أنس ابتلى سبع سنين وأشهراً وألقى على مزبلة لبنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده حتى فرج الله عنه وعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه .

وقال حميد مكث فى بلواه ثمانى عشرة سنة . وقال السدى تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت : (يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة) فجزعت من الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال من أين لك هذا وأنكره فقالت خدمت به أناساً فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً قال فى دعائه (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزعه من شىء قط قال : (اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : (اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقنى فصدق من السماء وهما

يسمعان) ، ثم قال اللهم بعزتك وخر ساجداً فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبدا حتى تكشف عنى فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : (إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه وما ذاك قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فارجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق . قال وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فوالله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال فإنى أنا هو . قال وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جدا . والأشبه أن يكون موقوفاً . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أنبأنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله هذا المبتلى الذى كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة قال ولعل أنا أيوب قالت أتسخر منى يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدى .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه ، أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء ، فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك رواه ابن أبى حاتم وقال ابن أبى حاتم ثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام

أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذه بيده ويجعل فى ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ قال يارب ومن يشبع من رحمتك . وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبى داود الطيالسى ، وعبد الصمد عن همام عن قتادة به . ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله ابن محمد الأزدى عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد ثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أرسل على أيوب رِجْل من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها فى ثوبه فقيل يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك قال : أى رب ، ومن يستغنى عن فضلك ، هذا موقوف . وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر مرفوعا .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل (يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى) قال بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك . رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به وقوله : (اركض برجلك) أى اضرب الأرض برجلك ، فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهراً وباطناً وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له من المال صبا مطراً عظيما جراداً من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى : (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فقيل أحياهم الله بأعيانهم وقيل آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم فى الدار الآخرة . وقوله (رحمة من عندنا) ، أى رفعنا عنه شدته (وكشفنا ما به من ضر) رحمة منا به ورأفة وإحساناً (وذكرى للعابدين) أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبى الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هى رحمة من هذه الآية ، فقد أبعد النجعة وأغرق النزع ، وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم . وقوله : (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه

أواب) هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط ، فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عرضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب ، فأتته فأخبرته ، فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط ، فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضى الله عنها ، ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) ، وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكر طرفا من ذلك فى كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة ، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك ، وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات ابنه هذا ، وكان نبياً فيما يزعمون ، وكان عمره من السنين خمساً وسبعين . ولنذكر ههنا قصة ذى الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليهما السلام . وهذه .

قصة ذى الكفل

الذى زعم قوم أنه ابن أيوب . قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) ، وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً فى سورة ص : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور ، وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا عادلا ، وتوقف ابن جرير فى ذلك فالله أعلم .

وروى ابن جرير وابن أبى نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صالحا ، وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل ، فسمى ذا الكفل . وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال من يتقبل لى بثلاث استخلفه . يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، قال فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ، ولا تغضب قال نعم ، قال فردهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا ، فاستخلفه قال فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك ، فقال دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب ، فقال من هذا ؟ قال شيخ كبير مظلوم ، قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه ، فقال إن بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا حتى حضر الرواح ، وذهبت القائلة وقال إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك فانطلق وراح . فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه ، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه . فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا ؟ فقال الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فإذا رحت فأتنى قال ففاتته القائلة فراح ، فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق على النوم . فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك ، فقال إنى قد أتيته أمس ، فذكرت له أمرى فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه ، فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فإذا هو فى البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلى والله فلم تؤت فانظر من أين أُتيت ؟ قال : فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى فى كل شىء ففعلت ما ترى لأغضبنك فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس قريبا من هذا السياق وهكذا روى عن عبد بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر أنبأنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس

قال سمعت الأشعرى يعنى أبا موسى رضى الله عنه وهو على هذا المنبر يقول ما كان ذو الكفل نبيا ولكن كان رجلا صالحا يصلى كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل . ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، قال : قال أبو موسى الأشعرى فذكره منقطعا . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال سمعت من رسول الله ﷺ حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرار ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال لها ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتنى عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ، ثم نزل فقال اذهبى بالدنانير لك ، ثم قال والله لا يعصى الله الكفل أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله لكفل . ورواه الترمذى من حديث الأعمش به وقال حسن . وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جدا . وفى إسناده نظر فإن سعدا هذا قال أبو حاتم لا أعرفه إلا بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا فالله أعلم . وإن كان محفوظا فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن فالله أعلم .

بـــــاب ذكر أمم أهلكـــوا بعامــــة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية . كما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التى مسخوا قردة ألم تر أن الله تعالى يقول (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) ورفعه البزار فى رواية له . والأشبه والله أعلم وقفه فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام ، فمنهم أصحاب الرس قال الله تعالى فى سورة الفرقان (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً) . وقال تعالى فى سورة ق (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) وهذا السياق والذى قبله يدل على أنهم

أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك ، وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا ، وروى ابن جرير قال : قال ابن عباس أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر فى أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبى القاسم عبد الله بن عبد الله بن جراد وغيره أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث الله إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا فى اليمن كلها وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون وهى إرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكثر منها بدمشق فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد ابن الحلود بن عاد إلى عاد يعنى أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه وأهلكهم الله عز وجل فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم . وروى ابن أبى حاتم عن أبى بكر بن أبى عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال الرس بئر بآذربيجان ، وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة قال الرس بئر رسوا فيها نبيهم أى دفنوه فيها ، وقال ابن جريج قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب ياسين . وقال قتادة فلج من قرى اليمامة قلت فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة قال الله تعالى فى قصتهم (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) وستأتى قصتهم بعد هؤلاء وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضا وتبروا . وعلى كل تقدير فينافى ما ذكره ابن جرير وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفى أرضهم جميعا وكان لهم ملك عادل حسن السيرة فلما مات وجدوا عليه وجـدا عظيما فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته وقال : إنى لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه وأخبرهم أنه لا يموت أبدا فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه فبعث الله فيهم نبيا وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ونهاهم عن عبادته وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السهيلى وكان يوحى إليه فى النوم وكان اسمه حنظلة بن صفوان فعدوا عليه فقتلوه وألقوه فى البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة وبعد الاجتماع بالفرقة وهلكوا عن آخرهم وسكن فى

مساكنهم الجن والوحوش فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع ، فأما ما رواه أعنى ابن جرير عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله ﷺ (إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود) وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود . ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرابا ثم يأتى به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت قال فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهب إلى الحفرة إلى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له ما ندرى حتى قبض الله النبى عليه السلام وأهب الأسود من نومه بعد ذلك فقال رسول الله ﷺ إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة . فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه وقال لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن قال لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث فآمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم وقد صرح بهلاك أصحاب الرس والله أعلم .

قصة قوم يس وهم أصحاب القرية أصحاب ياسين

قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما

علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية . رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم ، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ، إنهم قالوا وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق وصدوق وشلوم فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل وزعم قتادة أنهم كانوا رسلا من المسيح . وكذا قال ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شعب الجبائى كان اسم المرسلين الأوليين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جداً لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التى تكون فيها بتاركة النصارى وهن أنطاكية والقدس واسكندرية وروميه ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) ، لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورن فى القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديما فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك . فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن هى قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى : (واضرب لهم مثلا) يعنى لقومك يا محمد (أصحاب القرية) يعنى المدينة (إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) أى أيدناهما بثالث فى الرسالة

(فقالوا إنا إليكم مرسلون) فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما قالت الأمم الكفار لرسلهم يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً ، فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام (وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (قالوا إنا تطيرنا بكم) أى تشاءمنا بما جئتمونا به (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) بالمقال وقيل بالفعل ويؤيد الأول قوله (وليمسنكم منا عذاب أليم) فتوعدوهم بالقتل والإهانة ، (قالوا طائركم معكم) أى مردود عليكم (أإن ذكرتم) أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة (بل أنتم قوم مسرفون) أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه ، وقوله تعالى (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) يعنى لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم (قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة . ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه ، ثم قال مخطابا للرسل (إنى آمنت بربكم فاسمعون) قيل فاستمعوا مقالتى واشهدوا لى بها عند ربكم ، وقيل معناه فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل الله جهرة ، فعند ذلك قتلوه . قيل رجما . وقيل عضا . وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه . وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته .

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول عن أبى مجلز كان اسم هذا الرجل حبيب بن مرى . ثم قيل كان نجارا ، وقيل حبالا ، وقيل إسكافا ، وقيل قصارا ، وقيل كان يتعبد فى غار هناك فالله أعلم . وعن ابن عباس كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة قتله قومه . ولهذا قال تعالى (ادخل الجنة) يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى ما فيها من النضرة والسرور (قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) يعنى ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لى .

قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته (يا قوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته (يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) رواه ابن أبى حاتم ، وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا يلقى غاشا لما عاين ما عاين من كرامة الله (يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه ، قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله (إن كانت إلا صيحة

واحدة فإذا هم خامدون) وقوله تعالى : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى ما احتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم . هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جنداً ، أى رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى قلت وأقوى ، ولهذا قال (وما كنا منزلين) أى ما كنا نحتاج فى الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، أى قد أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم ، فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح . فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقرى عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب) فإنه حديث لا يثبت لأن حسينا هذا متروك وشيعى من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية ، والله أعلم .

قصـــة يونس عليـــه الســـلام

قال الله تعالى فى سورة يونس : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) وقال تعالى فى سورة الصافات : (وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) . وقال تعالى فى سورة نون : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) ، قال

أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف ، فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشى فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة ، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم ، ولهذا قال تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ، وقوله : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . أى آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم كما قال تعالى (لما آمنوا) وقال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) . وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة واختلفوا فى الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف . وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية حدثنى أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال يزيدون عشرين ألفا ، فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا فى هذا الباب ، وعن ابن عباس كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً وعنه وبضعة وثلاثين ألفا . وعنه وبضعة وأربعين ألفاً وقال سعيد بن جبير كانوا مائة ألف وسبعين ألفا .

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هى مبسوطة فى التفسير . والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب سفينة

فى البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون . قالـوا فاشتـوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينـة ليتحفـظوا منـه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به فأعـادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً فشمر ليخلع ثيابه وَيلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم) . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى فى البحر وبعث الله عز وجل حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه . قالوا ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حى فخر لله ساجداً وقال يارب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد فى مثله .

وقـد اختلفـوا فى مقدار لبثه فى بطنه . فقال مجالد عن الشعبى التقمه ضحى ولفظه عشية . وقال قتادة مكث فيه ثلاثاً وقال جعفر الصادق سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت :

وأنت بفضـل منـك نجيت يونسـا   وقـد بات فى أضـعـاف حوت لياليـا

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك : مكث فى جوفه أربعين يوما ، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصـود أنـه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى . فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسـان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال فى كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين (وذا النون إذ ذهب) إلى أهله (مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) . (فظن أن لن نقدر عليه) أن نضيق . وقيل معناه نقدر من التقدير ، وهى لغة مشهورة قدِرَ وقدّر كما قال الشاعر :

فلا عائـد ذاكَ الـزمـان الـذى مضى   تبـاركـت ما يقـدر يكـن فلك الأمـر

(فنادى فى الظلمات) قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وقال سالم بن أبى الجعد ابتلع الحوت حوت آخر ، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) ، قيل معناه لولا أنه سبح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة . ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه . وقيل معناه (فلولا أنه كان) من قبل أخذ الحوت له (من المسبحين) أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لى : « يا غلام إنى معلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » وروى ابن جرير فى تفسيره ، والبزار فى مسنده من حديث محمد بن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ؟ ولا تخدش لحما ولا تتكسر عظما » فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا ، فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت أن هذا تسبيح دواب البحر . قال فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : (يا ربنا إنا نسمع صوتا بأرض غريبة) ، قال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر . قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم . قال فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله (وهو سقيم) هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً . ثم قال البزار لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد كذا قال . وقد قال ابن أبى حاتم فى تفسيره . حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنى أبو صخر أن يزيد الرقاشى حدثه سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال أما تعرفون ذاك . قالوا يارب ومن هو ؟ قال عبدى يونس . قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة قالوا يا ربنا أولا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من

البلاء ، قال بلى ! فأمر الحوت فطرحه فى العراء . ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به زاد ابن أبى حاتم . قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرنى ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة ، قلنا يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال شجرة الدباء ، قال أبو هريرة وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال هشاش الأرض . قال فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتاً من شعره :

فأنبت يقطينا عليه برحمة   من الله لولا الله أصبح ضاويا

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه ويزيد الرقاشى ضعيف ، ولكن يتقوى بحديث أبى هريرة المتقدم كما يتقوى ذاك بهذا والله أعلم . وقد قال الله تعالى : (فنبذناه) أى ألقيناه (بالعراء) وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار بل هو عار منها (وهو سقيم) أى ضعيف البدن . قال ابن مسعود كهيئة الفرخ ليس عليه ريش . وقال ابن عباس والسدى وابن زيد كهيئة الضبى حين يولد وهو المنفرش ليس عليه شىء (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) . قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخرسانى وغير واحد هو القرع .

قال بعض العلماء فى إنبات القرع عليه حكم جمة . منها أن ورقه فى غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيئا ومطبوخا وبقشره وببزره أيضاً ، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ ، وغير ذلك وتقدم كلام أبى هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الأروية التى كانت ترضعه لبنها وترعى فى البرية وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه ، ولهذا قال تعالى : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) أى الكرب والضيق الذى كان فيه (وكذلك ننجى المؤمنين) أى وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا . قال ابن جرير حدثنى عمران بن بكار الكلاعى حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثنى بشر بن منصور عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك وهو ابن أبى وقاص يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول اسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال فقلت يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله تعالى : (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) فهو شرط

من الله لمن دعاه به . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب . قال أبو خالد أحسبه عن مصعب يعنى ابن سعد عن سعد . قال : قال رسول الله ﷺ (من دعا بدعاء يونس استجيب له) قال أبو سعيد الأشج يريد به (وكذلك ننجى المؤمنين) وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما .

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد وهو ابن أبى وقاص قال مررت بعثمان بن عفان فى المسجد ، فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هل حدث فى السلام شىء ، قال لا وما ذاك قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىّ السلام . قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام . قال ما فعلت . قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت . قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلىّ رسول الله ﷺ فقال من هذا أبو إسحق ، قال قلت نعم يا رسول الله قال فمه قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك قال نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له ورواه الترمذى والنسائى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى به . وقال البخارى أيضاً حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبى العالية عن ابن عباس

عن النبى ﷺ قال : ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه . ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه لم يسمع قتادة من أبى العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحدها . وقد رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) تفرد به أحمد ورواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى . حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان حدثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبى يحيى العتاب عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا عبد الله خير من يونس بن متى » إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى) ، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به ، وفى البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة فى قصة المسلم الذى لطم وجه اليهودى حين قال لا والذى اصطفى موسى على العالمين . قال البخارى فى آخره (ولا أقول إن أحداً خير من يونس بن متى) أى ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس . والقول الآخر لا ينبغى لأحد أن يفضلنى على يونس بن متى كما قد ورد فى بعض الأحاديث لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى . وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام قال تعالى : (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبياً . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم

ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له (إن فرعـون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً) أي تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط الله عليهم هذا الظالم الملك الغـاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذا (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين) وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أنـاس من الصحـابة أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحـرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هالـه ذلك فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك ، فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال الله تعالى : (ونـريد أن نمن على الـذين استضعفوا فى الأرض) وهم بنو إسرائيل (ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) أى الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم (ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى سنجعل الضعيف قويا والمقهور قادراً والذليل عزيزاً ، وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل كما قال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) الآية، وقال تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم ونعمـة كانـوا فيها فكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته . وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم ، وهذا فيه نظر بل هو باطل ، وإنما هذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى : (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) ، ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذراً من وجود موسى . هذا والقدر يقول يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره إن هذا المولود الذى تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما وأن يتركوا عاما ، فذكروا أن هرون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً ، واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل . فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتا فأرسلته فى البحر وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون) هذا الوحى وحى إلهام وإرشاد كما قال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا) الآية ، وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلى واسم أم موسى أيارخا . وقيل أياذخت . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه وألقى فى خلدها وروعها أن لا تخافى ولا تحزنى فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك وأن الله سيجعله نبياً مرسلا يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها ، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون) قال الله تعالى : (ليكون لهم عدواً وحزناً) قال بعضهم هذه لام العاقبة وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله فالتقطه وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا وحزنا صارت اللام معللة كغيرها والله أعلم . ويقوى هذا التقدير الثانى قوله : (إن فرعون وهامان) وهو الوزير السوء (وجنودهما) المتابعين لهما (كانوا خاطئين) أى كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف . وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى . وقيل بل كانت عمته حكاه السهيلى فالله أعلم .

وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ فى الجنة . فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً . فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه (وقالت قرة عين لى ولك) فقال لها فرعون أما لك فنعم وأما لى فلا أى لا حاجة لى به (والبلاء موكل بالمنطق) . وقولها (عسى أن ينفعنا) وقد أنالها الله ما رجت من النفع ، أما فى الدنيا فهداها الله به ، وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه (أو نتخذه ولداً) وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده . (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا

من موسى إن كادت لتبدى به أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة (لولا أن ربطنا على قلبها) أى صبرناها وثبتناها (لتكون من المؤمنين) (وقالت لأخته) وهى ابنتها الكبيرة (قصيه) أى اتبعى أثره واطلبى لى خبره (فبصرت به عن جنب) . قال مجاهد من بعد . وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . ولهذا قال : (وهم لا يشعرون) وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما ، فحاروا فى أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل . كما قال تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعل يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) . قال ابن عباس لما قالت ذلك قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ، فقالت رغبة فى صهر الملك ورجاء منفعته فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحا شديداً ، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها وقالت إن لى بعلا وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى ، فأرسلته معها ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .
قال الله تعالى : (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق) أى كما وعدناها برده ورسالته ، فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له (ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) إذ قال قتادة وغير واحد من السلف أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى منى ، وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التى لايقدر عليها غيرى (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً) وسنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم .

قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين) لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخَلق والخُلق وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين آتاه الله حكما وعلماً وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمـه حين قال : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى . قال تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى . وذلك نصف النهار .

وعن ابن عباس بين العشائين (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان ويتهاوشان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى (وهذا من عدوه) أى قبطى قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه) وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أى من الرضاعة فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل إليه موسى (فوكـزه) . قال مجاهـد أى طعنه بجمع كفه . وقال قتادة بعصا كانت معه (فقضى عليه) أى فمات منها . وقد كان ذلك القبطى كافراً مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وإنـما أراد زجـره وردعـه ومع هذا (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على) أى من العز والجاه (فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغـوى مبـين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً أى من فرعون وملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم (خائفـاً يترقب) أى يلتفت فبينـما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره

بالأمس (يستصرخه) أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته قال له موسى إنك لغوى مبين . ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى فيردعه عنه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطى (قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) قال بعضهم إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس ، فذهب القبطى فاستعدى موسى إلى فرعون . وهذا الذى يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطى وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصارا جيدا للإسرائيلى ، فقال ما قال من باب الظن والفراسة إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل فى طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب (وجاء رجل من أقصى المدينة) ساعياً إليه مشفقا عليه فقال : (يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج) أى من هذه البلدة (إنى لك من الناصحين) أى فيما أقوله لك قال الله تعالى : (فخرج منها خائفاً يترقب) أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه قائلا : (رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أى يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدرى أين يتوجه ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) . أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع أوصلته إلى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئراً يستقون منها . ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام . وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء (ولما ورد) الماء المذكور (وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) ، أى تكفكفان عنهما أن تختلط بغنم الناس . وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات . وهذا أيضاً من الغلط وكأنه كن سبعا ، ولكن إنما كانت تسقى اثنتان منهن . وهذا الجمع ممكن إن كان

ذاك محفوظا ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين ، (قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) ، أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرغبة ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى (فسقى لهما) .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده . ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر . كما كان . قال أمير المؤمنين عمر ، وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوبا واحداً فكفاهما . (ثم تولى إلى الظل) قالوا وكان ظل شجرة من السمر. روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف (قال رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير) قال ابن عباس ، سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً ، فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . قال عطاء بن السائب لما (قال رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير) أسمع المرأة (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىَّ والله على ما نقول وكيل) ، لما جلس موسى عليه السلام فى الظل ، و(قال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، أى مشى الحرائر قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة . وهذا من تمام حيائها وصيانتها ، فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها (قال له) ذلك الشيخ (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) ، أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم .

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو؟ فقيل : هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس . وجاء مصرحا به فى

حديث ، ولكن فى إسناده نظر ، وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام ، وتزوج بابنته ، وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين . وقيل إنه ابن أخى شعيب . وقيل ابن عمه . وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب . وقيل رجل اسمه يثرون هكذا هو فى كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها . قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله اسمه يثرون . زاد أبو عبيدة وهو ابن أخى شعيب . زاد ابن عباس صاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها يا أبت استأجره أى لرعى غنمك ثم مدحته بأنه قوى أمين قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد لما قالت ذلك قال لها أبوها وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة . وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال كونى من ورائى ، فإذا اختلف الطريق فاقذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة . صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمى مثواه . وصاحبة موسى حين قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب . (قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) ، استدل بهذا جماعة من أصحاب أبى حنيفة رحمه الله على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله إحدى ابنتى هاتين . وفى هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم .

واستدل أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة واستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجه فى سننه مترجماً فى كتابه (باب استئجار الأجير) على طعام بطنه حدثنا محمد بن الصفى الحمصى ، حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن على عن سعيد ابن أبى أيوب بن الحارث بن يزيد عن على بن رباح قال: سمعت عتبة بن الندر يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طس حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمانى سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه ، وهذا من هذا الوجه لا يصح لأن مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده ، ولكن قد روى من وجه آخر ، فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن

بكر حدثنى ابن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال سمعت عتبة بن النُّدَّر السلمى صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله قال إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه . ثم قال تعالى : (ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىَّ والله على ما نقول وكيل) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان على والله على مقالتنا سامع ومشاهد ووكيل علىَّ وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخارى حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ، فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس ، فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل . تفرد به البخارى من هذا الوجه ، وقد رواه النسائى فى حديث الفتون كما سيأتى من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير ، وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسى وابن أبى حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدى عن سفيان بن عيينة حدثنى إبراهيم بن يحيى بن أبى يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال أتمهما وأكملهما . وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى عن سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره ، وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلا أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل ، فسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الرب عز وجل ، فقال أبرهما وأوفاهما . وبنحوه رواه ابن أبى حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا ، ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال أوفاهما وأتمهما . وقد رواه البزار وابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران الجونى وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ سئل أى الأجلين قضى موسى ؟ قال أوفاهما وأبرهما قال وإن سئلت أى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وقد رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح عن عتبة بن النُّدر أن رسول الله قال : إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه . فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أى الأجلين قال : أبرهما وأوفاهما . فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل

أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه سوداً حسانا فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها . ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وآنثت [1] ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف ، قال النبى ﷺ لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية . قال ابن لهيعة الفشوش واسعة السخب والضبوب طويلة الضرع تجره . والعزوز ضيقة الشخب والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين والكموش التى لا يحكم الكف على ضرعها لصغره ، وفى صحة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال لما دعا نبى الله موسى صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها ، فعمد فوضع خيالا على الماء ، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن ذلك العام ، وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم . (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) . تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله : (فلما قضى موسى الأجل) وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها . وقوله : (وسار بأهله) أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختفٍ فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة وتاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف وجعل يورى زناده فلا

---

(١) أى جاءت بتوائم إناث .

يورى شيئاً واشتد الظلام والبرد فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور وهو الجبل الغربى منه عن يمينه فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد (لعلى آتيكم منها بخبر) أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة لقوله فى الآية الأخرى (وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق .

وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله : (إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخـبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) . وقد أتاهم منها بخبر وأى خبر ووجد عندها هدى وأىّ هدى واقتبس منها نورا وأى نور . قال الله تعالى : (فلما أتاها نودى من شاطىء الـوادى الأيمن فى البقعـة المبـاركـة من الشجـرة أن يا موسى إنى أنـا الله رب العالمين) : وقال فى النمل (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) . أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) وقال فى سورة طه (فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التى رآها فانتهى إليها وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار فى اضطرام وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد فوقف متعجبا وكانت تلك الشجرة فى لحف جبل غربى منه عن يمينه كما قال تعالى : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) وكان موسى فى واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينـه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما فى تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفا على بصره ثم خاطبـه تعـالى كما يشـاء قائـلا له : (إنى أنا الله رب العالمين) . (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبـدنى وأقم الصلاة لذكرى) أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو الذى لا تصلح

العبادة وإقامة الصلاة إلا له . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر ، وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبينا له أنه القادر على كل شىء الذى يقول للشىء كن فيكون . (وما تلك بيمينك يا موسى) أى أما هذه عصاك التى نعرفها منذ صحبتها . (قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) . أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها (قال ألقها ياموسى .فألقاها فإذا هى حية تسعى) . وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشىء كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب عز وجل ما هذه التى فى يدك قال عصاى قال ألقها إلى الأرض : (فألقاها فإذا هى حية تسعى) فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا فى يده وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات . يقال الجان والجنان وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدا فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام (ولى مدبرا) أى هاربا منها لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت فناداه ربه قائلا له (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها . (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) . فيقال إنه هابها شديدا ، فوضع يده فى كم مدرعته ثم وضع يده فى وسط فمها . وعند أهل الكتاب بذنبها فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين ، ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه . ثم أمره بنزعها ، فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء أى من غير برص ولا بهق . ولهذا قال (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب) ، قيل معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصا به إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء ، وقال فى سورة النمل (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين) ، أى هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما فى قوله : (فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) ومع ذلك سبع

آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا) وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات فإن التسع من كلمات الله القدرية والعشر من كلماته الشرعية وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هى هذه كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة بنى إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون . (قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءًا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) . يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام فى جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذى خرج من ديار مصر فرارا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ولهذا (قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءًا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معينا وردءًا ووزيراً يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح منى لسانا وأبلغ بيانا ، قال الله تعالى مجيبا له إلى سؤاله (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا) أى برهانا (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وقال فى سورة طه (اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى) قيل إنه أصابه فى لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه التى كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله فخافت عليه آسية : وقالت إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصرى والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت فى لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم (ولا يكاد يبين) أى يفصح عن مراده ويعبر عما فى ضميره وفؤاده . ثم قال موسى عليه السلام : (واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذى طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى (وكان عند الله وجيهاً) وقال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج « أىُّ أخٍ أَمَنُّ على أخيه » فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه قال الله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) قال تعالى فى سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون . قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم علىَّ ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) تقدير الكلام فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته وتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) أى أمَا أنت الذى ربيناه فى منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث إليه هو الذى فر منه خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين وأن الذى بعث إليه فرعون آخر . وقوله : (وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت الرجل القبطى وفررت منا وجحدت نعمتنا (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى إلى وينزل على (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم

موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله (فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى) . وقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق ، كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار إنه ما ثَمَّ رب أرسله (وما رب العالمين) لأنهما قالا له (إنا رسول رب العالمين) فكأنه يقول لهما ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ، فأجابه موسى قائلا (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين . (قال) أى فرعون لمن حوله من أمرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام (ألا تستمعون) يعنى كلامه هذا ، قال موسى مخاطباً له ولهم (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة فى الآباد فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ، ولم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الضياء والظلام ، ورب السماء والأرض رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وفى فلك يسبحون يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته (قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو

جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين)وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رعب شديد وخوف عظيم بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نورا يبهر الأبصار فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى في سورة طه (فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي . اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) .

يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه وكلمه منه إليه قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين (ثم جئت على قدر) أي مني لذلك فوافق ذلك تقديري وتسييري (واصطنعتك لنفسي) أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي (اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري) يعني ولا تفترا في ذكري إذ قدمتما عليه ووفدتما إليه فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه ، وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه »[1] وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً) الآية ثم قال تعالى (اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا

---

(١) أي مثيله في الحرب .

لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو إذ ذاك أردى خلقه وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن برفق ولين ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية قال الحسن البصرى (فقولا له قولا لينا) أعذرا إليه قولا له إن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً ، وقال وهب بن منبه قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة .

قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه .

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية وخافا أن يسطو عليهما فى بادىء الأمر فثبتهما تعالى وهو العلى الأعلى فقال (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) كما قال فى الآية الأخرى (إنا معكم مستمعون) . (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم (قد جئناك بآية من ربك) وهو البرهان العظيم فى العصى واليد (والسلام على من اتبع الهدى) . تقيد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدى وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هرون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما . ثم قال يا هرون إن الله أمرنى وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معى فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق فقال موسى للبوابين والحجبة أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزءون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل ، وقال محمد بن إسحق أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما فالله أعلم * ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه فأفزع فرعون وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام إن هرون اللاوى يعنى من نسل لاوى ابن يعقوب سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى عند فرعون وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات . وقال له سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب وأكثر آياتى وأعاجيبى بأرض مصر . وأوحى الله إلى هرون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه .

فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا إلى فرعون فلما بلغاه رسالة الله قال من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بنى إسرائيل . وقال الله مخبرا عن فرعون (قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا (فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا . وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدر له فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره وهذه الآية كقوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى) أى قدر قدراً وهدى الخلائق إليه .

(قال فما بال القرون الأولى) يقول فرعون لموسى فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه فلم عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) أى هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك كل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل ولا يظلم أحدا مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده فى كتاب لا يضل عنه شىء ولا ينسى ربى شيئا .

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الأرض مهادا والسماء سقفا محفوظا وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة والفطر

القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرزاق . وكما قال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال (منها) أى من الأرض (خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) كما قال تعالى (كما بدأكم تعودون) وقال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ثم قال تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال (موعدكم يوم الزينة) وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم (وأن يحشر الناس ضحى) أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا فى ظلام كيما يروج عليهم محالا وباطلا بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين أن سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) .

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء فى فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير فقيل كانوا ثمانين ألفاً قاله محمد بن كعب . وقيل سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبى بردة . وقال السدى بضعة وثلاثين ألفاً . وعن أبى أمامة تسعة عشر ألفاً وقال محمد بن إسحاق خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار كانوا اثنى عشر ألفاً . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس كانوا سبعين رجلا وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاما

من بنى إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفى هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى .فتنازعوا أمرهم بينهم) قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول هذا كلام نبى وليس بساحر وقائل منهم يقول بل هو ساحر فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) يقولون إن هذا وأخاه هرون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى) . وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان . وهيهات كذبت والله الظنون وأخطأت الآراء . أنَّى يعارض البهتانُ ، والسحرُ والهذيان ، خوارقَ العادات التى أجراها الديان ، على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان .

وقولهم (فأجمعوا كيدكم) أى جميع ماعندكم (ثم ائتوا صفا) أى جملة واحدة ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم فى هذا المقام لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم قالوا له إما أن تلقى قبلنا وإما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التى تتضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها . وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . قال الله تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ، وقال تعالى (فإذا حبالهم

وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما فى يده فإنه لا يصنع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة (لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال(ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) (ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ، وقال تعالى (فألقى) موسى عصاه (فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون) وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم فيما ذكره غير واحد من علماء السلف وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى آمنا برب موسى وهرون كما قال تعالى : (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوالن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكروا موسى وهرون فى الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمراً بهره وأعمى بصيرته وبصره

وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس (آمنتم له قبل أن آذن لكم) أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وقال فى الآية الأخرى (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوما من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر . ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى فى سورة الأعراف (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

وقال تعالى فى سورة يونس (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا

قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء (قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولـو جئتك بشىء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالـوا أرجـه وأخـاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقـون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصـاه فإذا هى تلقف ما يأفكـون . فألقى السحـرة ساجـدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر فى قوله إنه لكبيركم الذى علمكم السحر وأتى ببهتان يعلمه العالِمون بل العالَمون فى قوله (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) وقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعنى يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه (ولأصلبنكم أجمعين) أى ليجعلهم مثلة ونكالا لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) يعنى فى الدنيا (قالوا لن نؤثـرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات (والذى فطرنا) قيل معطوف . وقيل قسم (فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما قدرت عليه (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) أى ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب وأبقى أى وأدوم من هذه الدار الفانية وفى الآية الأخرى (قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم (أن كنا أول المؤمنين) أى من القبط بموسى وهرون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا (ربنا أفرغ علينا صبراً) أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد (وتوفنا مسلمين) .

وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) يقولون له فإياك أن تكون منهم (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى المنازل العالية (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع وحكم العلى العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم (ذق إنك أنت العزيز الكريم) .

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة ، ويؤيد هذا قولهم (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

فصـــــل

لما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق ، قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف . (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك) يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم

الله ، وقرأ بعضهم (ويذرك وإلا هتك)أى وعبادتك ويحتمل شيئين أحدهما ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى الثانى ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله (قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) أى لئلا يكثر مقاتلتهم (وإنا فوقهم قاهرون) أى غالبون (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) على بليتكم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال فى الآية الأخرى (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقولهم (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وكان فرعون الملك وهامان الوزير . وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملائه وكان ذا مال جزيل جدا كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى ، (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بنى اسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك ولم يردّ عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم (صار فرعون مذكرا) وهذا منه فإن فرعون فى زعمه يخاف الناس أن يضلهم موسى عليه السلام (وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) أى عذت بالله ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء وقوله (من كل متكبر) أى جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء ، ولهذا قال (من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه . وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى والله أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذى جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبى حاتم . قال الدارقطنى لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . حكاه السهيلى .

وفى تاريخ الطبرانى أن اسمه خير فالله أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأى وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جوراً منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبى . ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر والله أعلم قال (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) أى من أجل أنه قال ربى آلله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعنى لأنه (قد جاءكم بالبينات من ربكم) أى بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة لأنه (إن يك كاذبا فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك (وإن يك صادقا) وقد تعرضتم له (يصبكم بعض الذى يعدكم) أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام فى هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام ، وقوله : (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) أى عالين على الناس حاكمين عليهم (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والشدة لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الممالك ، (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم إلا ماعندى (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر

خلافه بغياً وعدوانا وعتواً وكفراناً قال الله تعالى إخباراً عن موسى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ، وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) وقال تعالى : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأما قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ، فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال فى دعواه أنه رب تعالى الله ذو الجلال ، قال الله تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلا للاخرين) وقال تعالى (فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ، وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) .

والمقصود بيان كذبه فى قوله : (ما أريكم إلا ما أرى) وفى قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) .

يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومنم بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة فى صدق ما جاءت به الأنبياء لما

أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة وهو يوم التناد أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل (يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر) وقال تعالى : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاءربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقرأ بعضهم (يوم التناد) بتشديد الدال أى يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) ثم أخبرهم على نبوة يوسف فى بلاد مصر ما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وأن لا يشركوا به أحداً من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمـان . . أى من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال : (فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وكذبتم فى هذا ولهذا قال : (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت أى يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق (كذلـك يطبـع الله على كل قلب متكبر جبار) قرىء بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه إلا بلا برهان فإن الله يطبع عليها أى يختم عليها . (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم (ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الـطين فاجعـل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلـه موسى وإنى لأظنه من الكاذبين) وقال ههنا (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) أى طرقها ومسالكها (فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) ويحتمل هذا معنيين أحدهما وإنى لأظنه كاذبا فى قوله إن للعالم ربا غيرى والثانى فى دعواه أن الله أرسله ، والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع والثانى أقرب إلى اللفظ حيث قال : (فأطلع إلى إله موسى) أى فاسأله هل أرسله أم لا (وإنى لأظنه كاذبا) أى فى دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه قال تعالى : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله

وصُدَّ عن السبيل) وقرىء (وصَدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) قال ابن عباس ومجاهد يقول إلا فى خسار أى باطل لا يحصل له شىء من مقصوده الذى رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً أعنى السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السموات العلا وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل . وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وإن كان مبنياً من الآجر المشوى بالنار ولهذا قال : (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا) .

وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه وإلا ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية ، ولهذا قالوا لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال الله تعالى : (وقال الذى آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد والحق وهى متابعة نبى الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه . القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه الذى يعطى على القليل كثيراً ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها . وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التى لا تبيد ، والخير الذى كل ما لهم منه فى مزيد .

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال : (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى

الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

كان يدعـوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذى يقول للشىء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار فقال : (لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعـوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار) أى لا تملك تصرفا ولا حكما فى هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار .

وأمـا الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : (فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) قال الله (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم ولهذا قال (وحاق) أى أحاط (بآل فرعـون سوء العـذاب . النـار يعرضون عليها غدوا وعشيا) أى تعرض أرواحهم صباحا ومساء على النار (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى التفسير ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحـة الشبـه عنهم وأخـذ الحجة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) .

يخبر تعـالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله : (ونقص من الثمرات) وهى قلة الثمار من

الأشجار (لعلهم يذكرون) أى فلم ينتفعوا ولم يرعووا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم (فإذا جاءتهم الحسنة) الخصب ونحوه (قالوا لنا هذه) أى هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون فى الأول إنه بركتهم وحسن مجاورتهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : (ألا إنما طائرهم عند الله) أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى مهما جئتنا به من الآيات وهى الخوارق للعادات فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية . وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) قال الله تعالى : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار . وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك . وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت . وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال . وعن ابن عباس أمر طاف بهم . وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة عن النبى ﷺ الطوفان الموت وهو غريب . وأما الجراد فمعروف . وقد روى أبو داود عن أبى عثمان عن سلمان الفارسى قال سئل رسول الله عن الجراد فقال أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه وترك النبى ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار فى التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً . وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحِنطة وعنه أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير والحسن هو دواب سود صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هى البراغيث . وحكى ابن جرير عن أهل العربية أنها الحمنان وهو صغار القردان (فرق القمقامة) تدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف . وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت فى فيه ضفدعة من تلك الضفادع . وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من

النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دما فى الساعة الراهنة . هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل وفى هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحاق فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مفلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر وتتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد . لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء أرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل [1] عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا وقال زيد بن أسلم المراد بالدم الرعاف رواه ابن أبى حاتم .

قال الله تعالى : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع

---

(١) أى غير متماسك .

آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التى أراهم الله إياها عيانا وجعلها عليهم دليلا وبرهانا . وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون . ويعدون ولا يفون لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل . ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل .

هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين فى سورة حم والكتاب المبين (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين) .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون وعن الحق يصدون فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضا وكل آية أكبر من التى تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصا ولا عيبا لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى : (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها . وهى الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص

رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه (لا يكاد يبين) يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور فى بدنه ولا زينة عليه وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد فى الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى .

وقوله : (أو جاء معه الملائكة مقترنين) لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء فى الحديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم . وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب .

قال الله تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) أى استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم (إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا) أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك (فجعلناهم سلفا) أى لمن اتبعهم فى الصفات (ومثلا) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى : (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام وأغرقه هو وجنوده فى

صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار بل كل قد غرق فدخل النار وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ذكر هــلاك فرعون وجنـــوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة وهم امرأة فرعون ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ومؤمن آل فرعون الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة فقال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبى حاتم عنه ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط .

وقيل بل آمن طائفــة من القبط من قوم فرعــون والسحــرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعـون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين) فالضمير فى قوله : (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه . وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً (وإن فرعون لعالٍ فى الأرض) أى جبار عنيد مُسْتَعْلٍ بغير الحق (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافهـا ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها وعند ذلك قال موسى (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمـين . فقـالـوا على الله توكلنـا ربنـا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) .

يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن

يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة فى الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله : (واجعلوا بيوتكم قبلة) قيل مساجد وقيل معناه كثرة الصلاة فيها قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعى والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم . ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . وقيل معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفا من فرعون وملئه . والمعنى الأول أقوى لقوله : (وبشر المؤمنين) وإن كان لا ينافى الثانى أيضا والله أعلم . وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى متقابلة . (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضبا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلى الحسى والمعنوى والبرهان القطعى فقال : (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه) يعنى قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه (زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شىء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض فى الدنيا لا الدين (ربنا اطمس على أموالهم) .

قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة بلغنا أن زروعهم صارت حجارة . وقال محمد ابن كعب جعل سكرهم حجارة وقال أيضا صارت أموالهم كلها حجارة . ذكر ذلك لعمر ابن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له قم ائتنى بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) قال ابن عباس أى اطبع عليها وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لهما وحققها

وتقبلهـا كما استجاب لنوح فى قومه حيث قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنـك إن تذرهـم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ولهذا قال تعالى مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمّن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعى أيضا .

(قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهـزوا للخـروج وتأهبوا له وإنما كان فى نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حليا منهم فأعاروهم شيئا كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشـام فلما علم بذهـابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم قال الله تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبـادى إنكم متبعـون ، فأرسـل فرعـون فى المـدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنـا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنـوز ومقـام كريم . كذلـك وأورثنـاها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصـاك البحـر فانفلق فكـان كل فرق كالـطود العـظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

قال علماء التفسير لما ركب فرعون فى جنوده طالبا بنى إسرائيل يقفو أثرهـم كان فى جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم .

وقيل إن بنى إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون إنا لمدركون وذلك لأنهم اضْطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه . وهذا ما لا يستطيعه أحد

ولا يقـدر عليه والجبـال عن يسرتهم وعن أيامنهم وهى شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعـاينوه فى جنوده وجيوشه وعدده وهم منه فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الـرسول الصادق المصدوق (كلا إن معى ربى سيهدين) وكان فى الساق فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبيا بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله . ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف .

ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً فى البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام يا نبى الله أههنا أمرت ، فيقول نعم .

فلما تفـاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم (أن اضرب بعصاك البحر) فلما ضربه يقال إنه قال له انفلق بإذن الله ويقال إنه كناه بأبى خلد فالله أعلم قال الله تعالى (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ويقال إنه انفلق اثنـى عشـر طريقا لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى قيل إنه صار أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا وفى هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه . وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكـون وأمـر الله ريح الـدبور فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب . قال الله تعالى : (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى) .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول

إليه . ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) فقوله تعالى : (واترك البحر رهواً) أى ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة . قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلدا وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوا انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الأبقين من يدى الخارجين عن طاعتى وبلدى وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات .

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حايل فمر بين يدى فحل فرعون لعنه الله فحمحم إليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعا هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان .

قال الله تعالى : (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى فى إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم القبط وأنها لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل وأشفى لنفوسهم فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفسا إيمانها كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) .

وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أى حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم .

وقد قال تعالى لهما أى لموسى وهرون حين دعوا بهذا (قد أجيبت دعوتكما) فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هرون عليهما السلام . ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لما قال فرعون (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال : قال لى جبريل لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة . ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذي حديث حسن وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ قال لى جبريل لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة ورواه الترمذى وابن جرير من حديث شعبة وقال الترمذى حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير فى رواية إلى وقفه ، وقال ابن حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه

فيرمسه . ورواه ابن جرير من حديث أبى خالد به . وقد رواه ابن جرير من طريق كثير ابن زاذان وليس بمعروف وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ قال لى جبريل يا محمد لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال فى فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له . يعنى فرعون . وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمى وقتادة وميمون بن مهران ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس . وفى بعض الروايات إن جبريل قال ما بغضت أحداً بغضى لفرعون حين قال أنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس فى فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) قال الله تعالى (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) .

وقوله : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) قال ابن عباس وغير واحد شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : (فاليوم ننجيك ببدنك) أى مصاحباً درعك المعروفة بك (لتكون) أى أنت آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل دليلا على قدرة الله الذى أهلكه . ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خلقك آية [1] . ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وإنك هلكت والله أعلم .

وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء . كما قال الإمام البخارى فى صحيحه حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبى ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

---

(١) أى تكون آية ممن خلقك كسائر آيات الله فى عباده .

فصـــل فيما كان من أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعـالى : (فانتقمنـا منهم فأغـرقنـاهـم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبـاطـل ما كانـوا يعملون . قال أغـير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومـالهم وأنفسهم وأورث بنى إسرائيل جميع أمـوالهم وأمـلاكهم كما قال : (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وقال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهم الـوارثـين) وقال ههنا (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشـارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا . فذكر ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا .

وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئا ولا يكسروا له عظما ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم وكان ذلك فى فصل الربيع .

فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم وليأكلوا بسرعة قياما . ومهما فضل عن عشائهم فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولا بها فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع .

قالوا وقتل الله عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا عنهم وخرج بنـو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر فى مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت إلا وفيه عويل ، وحين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد فى الأردية وألقوها على عواتقهم . وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذرارى بما معهم من الأنعام وكـانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة ، هذا نص كتابهم . وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ ، ولهم عيد الفطير وعيد الحمل وهو أول السنة . وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها فى كتابهم .

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هنـاك حلول على شاطىء اليم فقلق كثير من بنى إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية ، وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا ، قالوا وأمر الله موسى عليه السـلام أن يضرب البحـر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل فى البحر واليبس . وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم .

لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان فى الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم فى تعريبهم والله أعلم .

قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سَبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا (نسبح الرب البهى قهر الجنود ونبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود) وهو تسبيح طويل ، قالـوا وأخذت مريم النبية أخت هارون دفا بيدها وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفـوف وطبـول وجعلت مريم ترتـل لهن وتقول سبحان الرب القهار الذى قهر الخيول وركبانها إلقاء فى البحر هكذا رأيته فى كتابهم ، ولعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظى على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هى أخت هرون وموسى مع قوله يا أخت هرون . وقد بينا غلطه فى ذلك وإن هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهرون عليها السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها فى الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله

ﷺ للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله يا أخت هرون فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم رواه مسلم .

وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد .

وهذا مشروع لنا أيضاً فى حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف فى أيام منى ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ فقال دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا .

وهكذا يشرع عندنا فى الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر فى موضعه والله أعلم .

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقا أجاجاً لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فَحَلَا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا ووصاه وصايا كثيرة ، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوماً تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) . قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً قيل كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك

له لأنه الخالق الرزاق القهار وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) أى قال بعضهم كما فى قوله : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبى ﷺ الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » ورواه النسائى عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به ، ثم قال حسن صحيح .

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحق ومعمر وعقيل عن الزهرى عن سنان ابن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى خيبر قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدة من السنين طويلة هى من العدد أربعون كما قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه

فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) . يذكرهم نبى الله نعمة الله عليهم وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد فى سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم) أى تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم (فتنقلبوا خاسرين) أى فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين) أى عتاة كفرة متمردين (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم فى أكمامه وحجزة سراويله وهم اثنا عشر رجلا فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين فقال ما هؤلاء ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفى الرجل وشيئا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح .

وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا ذكره البغوى وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » قالوا فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقا فى عنق عوج ابن عنق . ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله . يروى هذا عن عوف البكالى ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفى إسناده إليه نظر . ثم هو مع هـذا من الإسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بنى إسرائيل فإن الاخبار الكاذبة قد كثر عندهم ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها .

ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام . ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن أنس وغير واحد (قال رجلان من الذين يخافون) أى يخافون الله وقرأ بعضهم يخافون أى يُهابون (أنعم الله عليهما) أى بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم . (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير . فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهرون سجدا إعظاما لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة (قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال ابن عباس اقض بينى وبينهم . (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهاراً وصباحا ومساء ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم فى الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول أشيروا علىَّ حتى قال سعد بن معاذ كأنك تعرض بنا يا رسول الله فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن يلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك .

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسى عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى .

قال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال قال عبد الله بن مسعود لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل

به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين قال والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك رواه البخارى فى التفسير والمغازى من طرق عن مخارق به .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا على بن الحسن بن على حدثنا أبو حاتم الرازى حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا إذا لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) والذى بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك . رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائى عن محمد ابن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن حميد عن أنس به نحوه .

فصل فى دخول بنى إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى إسرائيل عن قتال الجبارين وأن الله تعالى عاقبهم بالتية وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار وأن موسى وهرون وخور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام وعندهم أن يثرون كلهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلما ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بنى إسرائيل وعظموه وأجلوه . وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بنى إسرائيل على موسى فى الخصومات التى تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالا أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشاء والخيانة فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ورؤوس مئين ورؤوس خمسين ورؤوس عشرة فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم وهى أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف والله أعلم .

قالوا ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بنى إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته وأمره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم إليه فمن دنا منه تنل حتى ولا شىء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً وخرجوا فقاموا فى سفح الجبل وغشى الجبل دخان عظيم فى وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البرق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ويأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب وهذا نص كتابهم على وقوع النسخ لا محالة فقال موسى يارب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه بأخيه هرون وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بنى إسرائيل غير بعيد ففعل موسى وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذ بالعشر كلمات .

وعندهم أن بنى إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى بلغنا أنت عن الرب عز وجل فانا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات وهى الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له . والنهى عن الحلف بالله كاذباً . والأمر بالمحافظة على السبت . ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة . وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت . أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض الذى يعطيك الله ربك . لا تقتل . لا تزن لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور . لا تمد عينك إلى بيت صاحبك . ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبك . ومعناه النهى عن الحسد .

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين من القرآن وهما قوله تعالى فى سورة الأنعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا

وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) الآية .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاما متفرقة عزيزة كانت فزالت وعملت بها حينا من الدهر . ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها وأولوها . ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعد ما كانت مشروعة مكملة فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وقد قال الله تعالى (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد . ومن أخذ منه قليلا . كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو فى غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم . وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر . كما قال تعالى فى سورة البقرة (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون) إلى أن قال (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . وإذ واعدنا

موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم . وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إلى أن قال (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه بل ينزل الله المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع لهم الماء بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس . ثم تتفجر ماء زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم . وظلل عليهم الغمام من الحر .

وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه

غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) .

ســـــــــــؤال الرؤية

قال تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكـانـه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكـل شىء فخـذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبـوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه وأقام حجته وبراهينه .

والمقصـود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت فى الحديث أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هرون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره فى الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة .

قال تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى فى الوقت الذى أمر بالمجىء فيه (وكلمه ربه) أى كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه فى

الـدنيا والأخرى * ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان (ربِّ أرنى أنظر إليك قال لن ترانى) . ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمن ولهذا قال (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) .

وفى الكتب المتقـدمـة أن الله تعالى قال له : موسى إنه لايرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده وفى الصحيحين عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ انه قال حجابه النور . وفى رواية النار لو كشفه حرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء ولهذا قال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . قال مجاهد (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا .

وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت . زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا بأصبعه ووضع النبى ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل لفظ ابن جرير :

وقال السدى عن عكرمة وعن ابن عباس ما تجلى يعنى من العظمة إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا قال ترابا (وخر موسى صعقا) أى مغشيا عليه وقال قتادة ميتا . والصحيح الأول لقوله (فلما أفاق) فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى (قال سبحانك) تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد (تبت إليك) أى فلست أسأل بعد هذا الرؤية (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده .

وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ (لا تخيرونى من بين الأنبياء فإن النـاس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العـرش فلا أدرى أفـاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور) لفظ البخارى وفى أوله قصة اليهودى الذى لطم وجهه الأنصارى حين قال لا والذى اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله « لا تخيرونى من بين الأنبياء » وفى الصحيحـين من طريق الـزهـرى عن أبى سلمـة

وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه وفيه (لاتخيرونى على موسى) وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف .

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ففى قوله نظر لأن هذا من رواية أبى سعيد وأبى هريرة وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرا فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله أعلم .

ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة . قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وما كملوا إلا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة لا فخر) ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

وقوله ﷺ (فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش) أى آخذاً بها (فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور) دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشا بقائمة العرش قال الصادق المصدوق « لا أدرى أصعق فأفاق قبلى» أى كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق «أو جوزى بصعقة الطور» يعنى فلم يصعق بالكلية وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقا من كل وجه . ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال « لا والذى اصطفى موسى على البشر » قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبى ﷺ فضيلته وشرفه .

وقوله تعالى (قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) أى فى ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ولا ما بعده لأن محمداً ﷺ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع الرسل والأنبياء وكما ثبت أنه قال « سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم » .

وقوله تعالى (فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك . قال الله تعالى (وكتبنا له فى الألواح

من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) وكانت الألواح من جوهر نفيس ففى الصحيح أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام (فخذها بقوة) أى بعزم ونية صادقة قوية (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى المكذبين لرسلى . (سأصرف عن آياتى) عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) أى لا يسلكوه ولا يتبعوه (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها والتفكر فى معناها وترك العمل بمتقضاها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

قصة عبادتهم العجل فى غيبة كليم الله عنهم

قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم . ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) .

وقال تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل

عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى . قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نفسا . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) .

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هرون السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلا جسدا أى لحما ودما حيا يخور . قال قتادة وغيره وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا ، وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعف آلاؤه وعداته .

قال الله تعالى مبينا بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من ألهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطاناً رجيما (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وقال (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعاً ولا يهدى إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على ما صنعوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح

المتضمنة التوراة ألقاها فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها وليس فى اللفظ القرآنى ما يدل على ذلك إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « ليس الخبر كالمعاينة » ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا (حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى) تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلا (يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن) أى هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا فقال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم (قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به) أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختبارا لكم (وإن ربكم الرحمن) أى لا هذا (فاتبعونى) أى فيما أقول لكم (وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) يشهد الله لهرون عليه السلام (وكفى بالله شهيداً) أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامرى (قال فما خطبك يا سامرى) أى ما حملك على ما صنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال (فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس) .

وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له فى الدنيا ثم توعده فى الأخرى فقال (وإن لك موعداً لن تخلفه) وقرىء (لن نخلفه) (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) قال فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قتادة وغيره . وقيل بالمبارد كما قاله على وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه فى البحر وأمر بنى إسرائيل فشربوا فمن

كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) وقال تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) وهكذا وقع وقد قال بعض السلف (وكذلك نجزى المفترين) مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه . ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفا .

ثم قال تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) استدل بعضهم بقوله وفى نسختها على أنها تكسرت وفى هذا الاستدلال نظر وليس فى اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم .

وقد ذكر ابن عباس فى حديث الفتون كما سيأتى أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) .

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا فى أول يوم ثلاثة آلاف . ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة .

(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل

لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

ذكر السدى وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بنى إسرائيل ومعهم موسى وهرون ويوشع وناداب وابيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) وليس هذا بلازم لقوله تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغاً وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال ههنا (فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) الآية .

قال محمد بن إسحق اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير . وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فى الغمام وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل .

فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل .

وقوله (إن هى إلا فتنتك) أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف . يعنى أنت الذى قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما (قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به) أى اختبرتم ولهذا قال (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته . لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) .

(واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمى والضحاك والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك فى اللغة . (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء) أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها (ورحمتى وسعت كل شىء) كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى » (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) .

أى فسأوجبها حتما لمن يتصف بهذه الصفات (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) الآية . وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة .

وقال قتادة قال موسى يارب أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق السابقون فى دخول الجنة رب اجعلهم أمتى . قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وأن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه أحداً عن الأمم قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتى . قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال رب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب فإنى

أجد فى الألواح أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال قتادة فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان فى صحيحه « ذكرَ سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة » أخبرنا عمر بن سعيد الطائى بمنبج حدثنا حامد بن يحيى البلخى حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان سمعنا الشعبى يقول سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبى ﷺ إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل أى أهل الجنة أدنى منزلة فقال رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال ادخل الجنة فيقول كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا إخاذاتهم فيقال له ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا . فيقول نعم أى رب فيقال لك هذا ومثله ومثله فيقول أى رب رضيت فيقال له لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك .

وسأل ربه أى أهل الجنة أرفع منزلة قال سأحدثك عنهم غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية . وهكذا رواه مسلم والترمذى كلاهما عن ابن أبى عمر عن سفيان وهو ابن عيينة به .

ولفظ مسلم (فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فيقول فى الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب .

قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال ومصداقه من كتاب الله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال الترمذى حسن صحيح . قال ورواه بعضهم عن الشعبى عن المغيرة فلم يرفعه والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان (ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع) حدثنا عبد الله بن محمد بن

مسلم ببيت المقدس حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال (سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها . قال يارب أى عبادك أتقى . قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأى عبادك أحكم قال الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال فأى عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه . قال فأى عبادك أعز . قال الذى إذا قدر غفر . قال فأى عبادك أغنى قال الذى يرضى بما يؤتى . قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص . قال رسول الله ﷺ (ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس) وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه وتقاه فى قلبه . وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه .

قال ابن حبان قوله صاحب منقوص يريد به منقوص حالته يستقل ما أوتى ويطلب الفضل .

وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التميمى عن هرون بن عبيرة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه قال (أى رب فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال أى رب فهل فى الأرض أحد أعلم منى قال نعم الخضر فسأل السبيل إلى لقيه) فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله وبه الثقة .

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال إن موسى قال أى رب عبدك المؤمن مقتر عليه فى الدنيا . قال ففتح له باب من الجنة فنظر إليها قال يا موسى هذا ما أعددت له . فقال موسى يارب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤسا قط قال ثم قال أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا . قال ففتح له باب إلى النار فيقول يا موسى هذا ما أعددت له فقال أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وفى صحته نظر والله أعلم . وقال ابن حبان (ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئا يذكره به) حدثنا ابن سلمة حدثنا حرملة بن

يحيى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن دراجا حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : قال موسى : (يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به) قال : قل يا موسى : (لا إله إلا الله) قال : يارب كل عبادك يقول هذا ، قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ، قال : يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله . ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة . وأقرب شىء إلى معناه الحديث المروى فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال : أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) وقال ابن أبى حاتم عند تفسير آية الكرسى : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية . حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ، قال : اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان فى يديك ، قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسى ، وقال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن إبان عن عكرمة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال : وقع فى نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والأرض ، وهذا حديث غريب رفعه ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصله إسرائيلياً ، وقال الله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وقال تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم فقالوا : انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها فقال : بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه ظلة أى غمامة على

رءوسهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم فصارت سنة لليهود إلى اليوم يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب . وقال سنيد بن داود عن حجاج ابن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس على وجه الأرض يهودى صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه قال الله تعالى : (ثم توليتم من بعد ذلك) أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم (لكنتم من الخاسرين) .

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها . قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى وغير واحد من السلف : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى ﷺ فقال موسى عليه السلام : أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل فى ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى . وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة

ومجاهد وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم وقد ورد فى حديث مرفوع . وفى إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهى الوسط بين النصف الفـارض وهى الكبـيرة والبكر وهى الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى مشرب بحمرة تسر الناظرين ، وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضا فـ (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون) ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه لولا أن بنى إسرائيل استثنوا لما أعطوا وفى صحته نظر والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالسانية مسلمة وهى الصحيحة التى لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة . وقوله : (لاشية فيها) أى ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف (قالوا الآن جئت بالحق) ويقال : إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدى بوزنها ذهبا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فبـاعهـا منهم ، فأمرهم نبى الله موسى بذبحها (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها . قيل : بلحم فخذها . وقيل : بالعظم الذى يلى الغضروف . وقيل : بالبضعة التى بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبى الله من قتلك قال : قتلنى ابن أخى . ثم عاد ميتا كما كان ، قال الله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره فى سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة كما قال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) الآية .

قصـة مـوسـى والخضـر عليهمـا السـلام

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا .

فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها . قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذى رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى . ويقال : إنه دمشقى وكانت أمه زوجة كعب الأحبار . والصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل . قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب

الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ . فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر واتخذ سبيله فى البحر سربا . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد (قال)موسى (لفتـاه آتنـا غداءنـا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به (قال) له فتاه (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قال : فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا (قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنَّى بأرضك السلام ، قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً (قال إنك لن تستطيع معى صبرا) يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمـرا) قال له الخضر: (فـإن اتبعتنى فلا تسـألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها (لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) قال: وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانا قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر ما علمى وعلمك فى علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعـه بيده فقتله فقال له موسى : (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) قال وهذه أشد من الأولى (قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) قال مائل فقال الخضر بيده (فأقامه) فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخـذت عليه أجرا. قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا)

قال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ، قال سعيد ابن جبير : فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين . ثم رواه البخارى أيضا عن قتيبة عن سفيان ابن عيينة بإسناده نحوه . وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان : وفى حديث غير عمرو قال : وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شىء إلا حيى فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا) وساق الحديث ، وقال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى : ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمام الحديث . وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرنى يعلى ابن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه . وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال : سلونى فقلت أى أبا عباس جعلنى الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له : نوف يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل ، أما عمرو فقال لى : قال قد كذب عدو الله ، وأما يعلى فقال لى : قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : موسى رسول الله قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال : أى رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله . قيل بلى قال أى رب فأين ؟ قال بمجمع البحرين ، قال : أى رب اجعل لى علماً أعلم ذلك به قال لى عمرو : قال حيث يفارقك الحوت وقال لى يعلى : قال خذ حوتا ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال ما كلفت كبيراً فذلك قوله : (وإذ قال موسى لفتاه) يوشع بن نون . ليست عن سعيد بن جبير قال : فبينما هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر قال لى عمرو هكذا كان أثره فى حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال : وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد ، أخبره فرجعا فوجدا خضرا ، قال لى عثمان بن أبى سليمان : على طنفسة خضراء على كبد البحر ، قال سعيد مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضى من سلام ؟ من أنت ؟

قال : أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم قال فما شأنك قال جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحى يأتيك يا موسى ، إن لى علما لا ينبغى لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغى لى أن أعلمه ، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر (حتى إذا ركبا فى السفينة) وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح . قال فقلنا لسعيد « خضر » قال نعم . لا نحمله بأجر (خرقها) ووتد فيها وتدا (قال) موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا) قال مجاهد منكراً (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً) كانت الأولى نسيانا والوسطى شرطاً والثالثة عمداً (قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) قال يعلى قال سعيد وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين (قال أقتلت نفسا زكية) لم تعمل بالخبث . ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاما زكيا (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال يعلى حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام (قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً) قال سعيد : أجراً نأكله (وكان وراءهم) وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم . ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور (ملك يأخذ كل سفينة غصبا) فإذا هى مرت به يدعها بعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها . منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار .

(فكان أبواه مؤمنين) وكان كافراً (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً) أى يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) لقوله : (أقتلت نفسا زكية) (وأقرب رحما) هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خضر وزعم سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية وأما داود بن أبى عاصم فقال : عن غير واحد إنها جارية وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى بنى إسرائيل فقال : ما أحد أعلم بالله وبأمره منى فأمر أن يلقى هذا الرجل . فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضا ورواه العوفى عنه موقوفا وقال الزهرى : عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى فقال ابن عباس : هو خضر فمر بهما أبى بن كعب فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى

الذى سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا قال : نعم ؛ وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه فى تفسير سورة الكهف ولله الحمد . وقوله . (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قال السهيلى وهما أصرم وصريم ابنا كاشح (وكان تحته كنز لهما) قيل كان ذهبا قاله عكرمة وقيل علما قاله ابن عباس والأشبه أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه علم قال البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبى عن عياش بن عباس الغسانى عن ابن حجيرة عن أبى ذر رفعه قال إن الكنز الذى ذكر الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت . عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله ، وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا وقوله (وكان أبوهما صالحا) وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر . وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته فالله المستعان . وقوله (رحمة من ربك) دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى وقيل رسول وقيل ولى وأغرب من هذا من قال كان ملكا ، قلت : وقد أغرب جدا من قال هو ابن فرعون وقيل : إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة . قال ابن جرير : والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ويقال إنه كان مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل . وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل وقيل : اسمه ملكان وقيل : أرميا بن خلقيا وقيل : كان نبيا فى زمن سباسب بن لهراسب ، قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب ، قال ابن جرير : والصحيح أنه كان فى زمن أفريدون واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى فى زمن منو شهر الذى هو ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلاً وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل فى كل قرية دهقانا وكانت مدة ملكه قريبا من مائة وخمسين سنة ويقال : إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم ، وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحيى السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم . وقد قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم) الآية .

فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه

يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملكا فيما ذكر وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون ، فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى ، ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

ذكـر الحديث الملقب بحديث الفتون المتضمن قصـة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب التفسير من سننه عند قوله تعالى فى سورة طه (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا) « حديث الفتون » حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبى أيوب أخبرنى سعيد ابن جبيرقال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى : (وفتناك فتونا) فسأله عن الفتون ما هو؟ فقال : استأنف النهار يا بن جبير فإن لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون فقال : تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا : توشكـون أن تفنوا بنى إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذى كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فتقل بناتهم ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا بمن تستحبون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ولن تفتنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا تقتل فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع فى قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا بن جبير ما دخل عليه فى بطن أمـه مما يراد فأوحى الله إليهـا أن لا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من

المرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت وتلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها ما فعلت بابنى لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى جوفى عند فرضة تستقى منها جوارى امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن فى هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاما فألقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شىء إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا بن جبير ، فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم ، فأتت فرعون فقالت : (قرة عين لى ولك) فقال فرعون يكون لك فأمّا لى فلا حاجة لى فيه فقال رسول الله ﷺ : (والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك) فأرسلت من حولها إلى كل امرأة لأن تختار ظئرا فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً يأخذه منها فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والها فقالت لأخته : قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحى ابنى أم قد أكلته الدواب ، ونسيت ما كان الله وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فقالوا : ما يدريك ما نصحهم هل يعرفونه ؟ حتى شكوا فى ذلك . وذلك من الفتون يا بن جبير فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعة الملك ، فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه . فلما رأت ما يصنع بها قالت امكثى ترضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئا حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع أن أترك بيتى وولدى فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيراً فعلت ، فإنى غير تاركة بيتى وولدى ، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز موعوده ، فرجعت إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا حسنا وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع

قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريني ابني فوعدتها يوما تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينا يحصى كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحلته وأكرمته فرحبت به ونحلت أمه بحسن أثرها عليه . ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه فلما دخلت به عليه جعله فى حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يابن جبير ، بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت : ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى فقالت اجعل بينى وبينك أمرا تعرف فيه الحق ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به وكان الله بالغافيه أمره . فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى غضبا شديد لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل وحفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى فقال موسى حين قتل الرجل : (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ثم قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين.فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال : ابغونى قاتله من يشهد عليه فإن الملك وإن كان صفوه مع قومه لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذى رأى ، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى : لما فعل بالأمس واليوم (إنك لغوى مبين) فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه

الفرعونى فخاف أن يكون بعد ما قال له (إنك لغوى مبين) أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعونى فخاف الإسرائيلى . وقال لموسى (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره . وذلك من الفتون يا بن جبير فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فإنه قال : (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما فقال لهما (ما خطبكما) معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرة (فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطانا فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا فى مملكته (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لها ما يدريك ما قوته وما أمانته فقالت أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلا أقوى فى ذلك السقى منه . وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك . ثم قال لى امشى خلفى وانعتى لى الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت فقال له : هل لك (أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت السنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا . قال سعيد هو ابن جبير فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال : هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال أما علمت أن ثمانية كانت على نبى الله واجبة لم يكن نبى الله لينقص منها شيئا وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التى وعده فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك فقال : الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل

وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده ما قص الله عليك فى القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام سأل ربه أن يعينه بأخيه هٰرون يكون له ردءا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فأتاه الله عز وجل وحل عقدة من لسانه وأوحى الله إلى هٰرون يأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى هٰرون فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما . ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا إنا رسولا ربك فقال فمن ربكما فأخبره بالذى قص الله عليك فى القرآن قال فما تريدان وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معى بنى إسرائيل فأبى عليه وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه هى ثعبان عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها واقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل . ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص . ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم فلما أتوا على فرعون قالوا : بم يعمل السحر ؟ قالوا يعمل بالحيات قالوا : فلا والله ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل وما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى قال سعيد : فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء ، فلما اجتمعوا فى صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهٰرون استهزاء بهما فقالوا يا موسى بعد تريثهم بسحرهم (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا) ، (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا على الثعبان أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصى ولا حبلا إلا ابتلعته ، فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحر لم تبلغ من سحرنا كل هذا ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون

وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل فإذا مضت أخلف من غده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه . ثم التقى على من بقى بعد من فرعون وأشياعه فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله عز وجل فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى إنا لمدركون فافعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب ، قال : وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى ، فأنزلهم موسى منزلا وقال : أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم فإنى ذاهب إلى ربى وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى شيئا من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان ، قال يارب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح . قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى ، ففعل موسى ما أمره به ربه ، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ، ولكم فيها مثل ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيرا وأمر كل قوم

عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير . ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم . وكان السامرى من قوم يعبدون البقر جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثرا فقبض منه قبضة ، فمر بهارون فقال له هارون : يا سامرى ألا تلقى ما فى يديك وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون فقال : أريد أن تكون عجلا فاجتمع ما كان فى الحفرة من متاع أو حلية أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح له خوار ، قال ابن عباس : لا والله ما كان فيه صوت قط إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقا ، فقالت فرقة : يا سامرى ما هذا ؟ وأنت أعلم به ، قال : هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق ، وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى ، وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون عليه السلام : يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ليس هذا ، قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ؟ هذه أربعون يوما قد مضت ، قال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه ، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقى قومه من بعده فرجع إلى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم ما فى القرآن (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له فانصرف إلى السامرى فقال له ما حملك على ما صنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول) وفطنت لها وعميت عليكم فنبذتها (وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا) ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألوا الخير خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى الحق فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما بفعل السفهاء منا وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين

يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) فقال : يارب سألتك التوبة لقومى ، فقلت : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى ، فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحوم ، فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقى من والد وولد فيقلته بالسيف لا يبالى من قتل فى ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهٰرون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ونتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر ، وذكر من ثمارهم أمراً عجبا من عظمها ، فقالوا يا موسى : إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون ، قيل ليزيد : هكذا قرأه ، قال : نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجنا إليه ، فقالوا : نحن أعلم بقومنا ، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون) فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله لهم وسماهم كما سماهم فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذى كان فيه بالأمس . رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع من ابن عباس هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل فقال : كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ، فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى فقال له : يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون . الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم

الفرعونى قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع الإسرائيلى الذى شهد ذلك وحضره ، هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هُرون والأشبه والله أعلم أنه موقوف ، وكونه مرفوعا فيه نظر وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شىء يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام وفى بعض ما فيه نظر ونكارة والأغلب أنه كلام كعب الأحبار ، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك والله أعلم .

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخرى كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره ، وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعا ونصفاً ، ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق فى أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب ، يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان ، صنعه رجل اسمه بصليال وأمروه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراع ونضف لها ضباب ذهب وأكليل ذهب بشفة مرتفعة بأكليل من ذهب ، وأربع حلق من نواحيها من ذهب معذرة فى مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً ، واعمل صحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة واصنع منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة ، على كل قصبة ثلاث سرج وليكن فى المنارة أربع قناديل ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضا وهو الذى عمل المذبح أيضا ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ، ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور فى قوله تعالى : (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولا جداً وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجىء بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه

السـلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سجدا لله عز وجل ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين ، فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهى ، وإذا تحاكموا إليه فى شىء ليس عنده من الله فيه شىء يجىء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة ، وقد كان هذا مشروعاً لهم فى زمانهم ، أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء فى معبدهم وعند مصـلاهم ، فأمـا فى شريعتنا فلا ، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وسع فى مسجد رسول الله ﷺ للذى وكله على عمارته : ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس ، وقال ابن عباس : لتـزخـرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم ، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه ، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم ، إذ جمع الله همهم فى صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر فى غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة ، فلله الحمد والمنة .

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل فى التيه يصلون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليمُ الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام ، فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون فى الذى كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن ، وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، وهو الذى دخل بهم بيت المقدس ، كما سيأتى بيانه ، والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس . فكانوا يصلون إليها ، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهى الصخرة ، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه ، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر ، وقيل : سبعة عشر شهراً ، ثم حولت القبلة إلى الكعبة ، وهى قبلة إبراهيم فى شعبان سنة ثنتين فى وقت صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، كما بسطنا ذلك فى التفسير عند قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) إلى قوله : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) الآيات .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال : هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن هافث . قال ابن جريج : وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى . ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله ، وقال شهر ابن حوشب : زاد فى ثيابه شبراً طولا ترفعاً على قومه . وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد ، وقد قيل : إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا فالله أعلم ، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين (لا تفرح) أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك (إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) يقولون لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة فإنه خير وأبقى ، ومع هذا (لا تنس نصيبك من الدنيا) أى وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى ولا تسىء إليهم ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك (إن الله لا يحب

المفسدين) فما كان جواب قومه ، لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن (قال إنما أوتيته على علم عندى) يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى ، قال الله تعالى رداً عليه وما ذهب إليه : (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أى قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالا منه ، ولم يكن ماله دليلا على محبتنا له واعتنائنا به ، كما قال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا) وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله (إنما أوتيته على علم عندى) وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال فليس بصحيح ، لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافرا فى الباطن منافقا فى الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا فى كتابنا التفسير ولله الحمد . قال الله تعالى : (فخرج على قومه فى زينته) ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء قالوا لهم : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى ، قال الله تعالى : (ولا يلقاها إلا الصابرون) أى وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده ، وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات . قال الله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) . لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال فخسفنا به وبداره الأرض كما روى البخارى من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال : بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة . ثم رواه البخارى من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقد ذكر ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى

عليه السلام وهو فى ملإ من الناس إنك فعلت بى كذا وكذا ، فيقال : إنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ساجدا ودعا الله على قارون ، فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم ، وقد قيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته مر حفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بأيام الله فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه فدعا موسى عليه السلام فقال له ما حملك على هذا فقال يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ولئت شئت لتخرجن فلتدعون على ولأدعون عليك ، فخرج وخرج قارون فى قومه فقال له موسى : تدعو أو أدعو ، قال : أدعو أنا ، فدعى قارون فلم يجب فى موسى ، فقال موسى : أدعو ، قال : نعم ، فقال موسى : اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم ، فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقـال موسى : يا أرض خذيهم فأخـذتهم إلى أقـدامهم ثم قال خذيهم فأخـذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ، ثم قال أقبلى بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الأرض .

وقد روى عن قتادة أنه قال يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال خسف بهم إلى الأرض السابعة ، وقد ذكر كثير من المفسرين هٰهنا إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً . وقوله تعالى (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : (فما له من قوة ولا ناصر) ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتى وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) وقد تكلمنا على لفظ ويك فىّ التفسير ، وقد قال قتادة : ويكأن بمعنى ألم تر أن وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم . ثم أخبر تعالى أن الدار الآخرة وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى معدة للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسـادا . فالعلو هو التكـبر والفخـر والأشر والبطر والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم ثم قال تعالى (والعاقبة للمتقين) .

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله : (فخسفنا به وبداره الأرض) فإن الدار ظاهرة فى البنيان وقد تكون بعد ذلك فى التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام كما قال عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

والله أعلم . وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن قال الله (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف . انفرد به أحمد رحمه الله .

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفائه

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) . وقال تعالى (قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) . وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور . وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة قطعا جزما لا يحتمل النقيض . وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى

إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) إلى أن قال (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) قال الإمام أبو عبد الله البخارى حدثنا إسحق بن إبراهيم بن روح بن عبادة عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى جلده شىء استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص أو أدرة وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر . ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإذا الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملإ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا قال فذلك قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) ، وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام ابن منبه عن أبى هريرة به وهو فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به ، ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلى عنه .

قال بعض السلف كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) ثم قال البخارى حدثنا ابن الوليد حدثنا شعبة حدثنا الأعمش سألت أبا وائل قال : سمعت عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ قسما فقال رجل : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأتيت النبى ﷺ فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ، ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر . وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به . وقال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبى زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ، قال وأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، فثبت حتى سمعت ما قالا . ثم أتيت رسول الله فقلت يا رسول الله إنك قلت لنا لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه . ثم قال : دعنا منك فقد أوذى موسى أكثر من ذلك فصبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذى من حديث

إسرائيل عن الوليد بن أبى هاشم به ، وفى رواية للترمذى ولأبى داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدى عن الوليد به وقال الترمذى غريب من هذا الوجه . وقد ثبت فى الصحيحين فى أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى فى قبره . ورواه مسلم عن أنس . وفى الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال : فسلمت عليه فقال مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له : ما يبكيك ؟ قال أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . وذكر إبراهيم فى السماء السابعة . وهذا هو المحفوظ وما وقع فى حديث شريك ابن أبى نمر عن أنس من أن إبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذى عليه الجادة أن موسى فى السادسة وإبراهيم فى السابعة وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وقال الله تعالى هى خمس وهى خمسون أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً ، وقال البخارى حدثنا مسدد حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هذا موسى فى قومه ، هكذا روى البخارى هذا الحديث هٰهنا مختصراً وقد رواه الإمام أحمد مطولا فقال حدثنا شريح حدثنا هشام حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة قلت : أنا ثم قلت : إنى لم أكن فى صلاة ولكن لدغت ، قال وكيف فعلت قلت استرقيت . قال وما حملك على ذلك قال قلت حديث حدثناه الشعبى عن بريدة الأسلمى أنه قال لا رقية إلا من عين أو حمة ، فقال سعيد يعنى ابن جبير : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ثم قال حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ قال : عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى معه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض

رسول الله فدخل فخاض القوم فى ذلك فقالوا من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبى ﷺ . وقال بعضهم لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط وذكروا أشياء ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه ؟ فأخبروه بمقالتهم ، فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن الأسدى فقال أنا منهم يا رسول الله ؟ قال أنت منهم . ثم قام آخر فقال أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال سبقك بها عكاشة . وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو فى الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى فى باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها . وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه بليغا . وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه كما قال فى سورة البقرة (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) وقال تعالى (الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) وقال تعالى فى سورة الأنعام (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيما وقال تعالى فى آخرها (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقال تعالى فى سورة المائدة (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) إلى أن قال (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) الآية فجعل القرآن حاكما على سائر الكتب غيره وجعله مصدقا لها ومبينا ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها

وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم وقصورهم فى علومهم ورداءة قصورهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف . وقال تعالى فى سورة الأنبياء (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) وقال الله تعالى فى سورة القصص . (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) . فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقالت الجن لقومهم (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ، وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحى وتلا عليه (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) قال سبوح سبوح هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران . وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله . وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد حدثنا هشام حدثنا داود بن أبى هند عن أبى العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا : وادى الأزرق . قال كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال أى ثنية هذه ؟ قالوا هذه ثنية هرشاء ، قال كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة . قال هشيم : يعنى ليفاً ، وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند به . وروى الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا أن موسى حج على ثور أحمر وهذا غريب جداً . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن أبى عدى عن ابن عون عن مجاهد قال كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس : لم أسمعه ، قال ذلك ولكن . قال أما

إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم . وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأنى أنظر إليه وقد انحدر من الوادى يلبى ، قال هشيم : الخلبة الليف . ثم رواه الإمام أحمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم . قالوا : فإبراهيم ، قال انظروا إلى صاحبكم . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس حدثنا شيبان قال : حدث قتادة عن أبى العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبى الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلا طوالا جعـدا كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر قال الزهرى : وأخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : حين أسرى به لقيت موسى فنعته فقال رجل ، قال حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة. ولقيت عيسى . فنعته رسول الله ﷺ فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعنى حماما قال ورأيت إبـراهيم وأنـا أشبـه ولده به ، الحديث . وقد تقدم غالب هذه الأحاديث فى ترجمة الخليل .

ذكـــر وفـاتـه عليـــه الســـلام

قال البخارى فى صحيحه (وفاة موسى عليه السلام) حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة قال أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أى رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقـدسة رمية بحجر ، قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر . قال وأنبأنا معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به ورواه أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة مرفوعا وسيأتى . وقال الإمام أحمـد: حدثنا الحسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس، يعنى سليم بن جبير، عن أبى هريرة قال الإمام أحمد : لم يرفعه . قال : جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال : أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فرجع الملك إلى الله فقال : إنك بعثتنى

إلى عبد لك لا يريد الموت . قال : وقد فقأ عينى ، قال : فرد الله عينه وقال : ارجع إلى عبدى فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة قال : ثم مه قال : ثم الموت قال : فالآن يارب من قريب . تفرد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق معمر عن ابن طاوس عن أبى هريرة قال معمر وأخبرنى من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام ، كما جاء جبريل فى صورة أعرابى ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط فى صورة شباب فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولا وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه وهذا موافق لشريعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذن . ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمـر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخارى ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه ، قال له : أجب ربك ، وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربك بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هٰرون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى ، وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التية ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ، ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله ﷺ إلى أهل الوبر والمدر : فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر . وقال الإمام حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر ، ورواه مسلم من حديث حماد ابن سلمة به وقال السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إنى متوف هٰرون فأتِ به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهٰرون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها

وإذا هم ببيت مبنى وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هٰرون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال يا موسى : إنى أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى فنم عليه ، قال : إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على ، قال له : لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم ، قال يا موسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هٰرون الموت فلما وجد حسه قال : يا موسى خدعتنى ، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء ، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هٰرون قالوا: فإن موسى قتل هٰرون وحسده على حب بنى إسرائيل له ، وكان هٰرون أكف عنهم وألين لهم من موسى ، وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم ، كان أخى أفترونى أقتله ، فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض ، ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبى الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبى الله ، فقال لا والله ما قتلته ولكنه استل منى فلم يصدقوه وأرادوا قتله . قال فإذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام ، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح وفى بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم . وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع ابن نون وكالب بن يوقنا وهو زوج مريم أخت موسى وهٰرون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم ، وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبرا فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد من عباد الله كريم فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى ربك وتنفس أسهل تنفس ففعل ذلك فمات صلوات الله وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه ، وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة وقد قال الإمام أحمد حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا : حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال يونس رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ قال : كان ملك الموت يأتى الناس عيانا ، قال : فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال : يارب عبدك موسى فقأ عينى ولولا كرامته عليك لعتبت عليه . وقال يونس لشققت عليه . قال له : اذهب إلى عبدى . فقل له فليضع يده

على جلد (أو) مَسْك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له ، فقال : ما بعد هذا ؟ قال : الموت ، قال : فالآن ، قال : فشمه شمة فقبض روحه ، قال يونس : فرد الله عليه عينه وكان يأتى الناس خفية ، وكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن مصعب ابن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضا .

ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهرون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون يوشع ابن عم هود وقد ذكره الله تعالى فى القرآن غير مصرح باسمه فى قصة الخضر كما تقدم من قوله : (وإذ قال موسى لفتاه) ، (فلما جاوزا قال لفتاه) وقدمنا ما ثبت فى الصحيح من رواية أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ من أنه يوشع بن نون وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فإن طائفة منهم وهم السامرة لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون لأنه مصرح به فى التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع فى آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهى حتى قال له : يا كليم الله إنى كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرنى أنت ابتداء من تلقاء نفسك ، فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت ، ففى هذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحى والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززاً مكرماً مدللا وجيهاً عند الله كما قدمنا فى الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ قال : الموت ، قال : فالآن يارب وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه ، فهذا الذى ذكره محمد بن إسحق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ، ففى كتابهم الذى يسمونه التوراة أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان . وقد ذكروا فى السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّا بنى إسرائيل

على أسباطهم وأن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميراً وهو النقيب ، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال ، قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة . ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه فى صورته تلك ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه ولم يكن فى قدر الله أن يقع ذلك فى زمانه ، بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك فى سنة تسع ، ثم حج فى سنة عشر ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالا لقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولما جهز رسول الله ﷺ جيش أسامة توفى عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لما لـمَّ شعث جزيرة العرب وما كان دهى من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم وملكهم نواصى أعدائهم كما سنورده عليك فى موضعه إذا انتهينا إليه مفصلا إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده .

وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بنى إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) يقول لهم لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » وهكذا قال تعالى لبنى إسرائيل (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم فى دينه وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك فى التفسير مستقصى ، ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا وأن يجعل على كل سبط نقيبا منهم . السبط الأول سبط روبيل لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفا وخمسمائة . ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديثورا . السبط الثانى سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفا وثلاثمائة . ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداى . السبط الثالث سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة . ونقيبهم نحشون بن عميناداب . السبط الرابع سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر . السبط الخامس سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس سبط ميشا وكانوا أحدا وثلاثين ألفا ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن سبط حاد وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلا ونقيبهم الياساف بن رعوئيل . السبط التاسع سبط أشير وكانوا أحدا وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن . السبط العاشر سبط دان وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ونقيبهم أخيعزر بن عمشداى . السبط الحادى عشر سبط نفتالى وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة . ونقيبهم أخيرع بن عين. السبط الثانى عشر شبط زيولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم الباب ابن حيلون. هذا نص كتابهم الذى بأيديهم والله أعلم . وليس منهم بنو لاوى فأمر الله موسى أن لا يعدهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهٰرون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك . وهم فى أنفسهم قبائل إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها . وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون لكن قالوا فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلا سوى بنى لاوى وفى هذا نظر ، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم لا تطابق الجملة التى ذكروها والله أعلم . فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل ورأس الميسرة بنو ران وبنو نفتالى يكونون ساقة . وقرر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانة فى بنى هٰرون كما كانت لأبيهم من قبلهم وهم ناداب وهو بكره وأبيهو والعازر ويثمر . والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا

هٰهنا قاعدون) قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس وقاله قتادة وعكرمة ورواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهٰرون قبله كلاهما فى التيه جميعا وقد زعم ابن إسحٰق أن الذى فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر فى مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) وقد ذكرنا قصته فى التفسير وأنه كان فيها قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له . ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضربا أشد من الأول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له : يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان . ونظر إلى معسكر موسى وبنى إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا واندلع لسانه حتى وقع على صدره وقال لقومه ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة . ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون فى الزنا ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم . يقال إنه كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فجعل يجوس فيهم فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العزار بن هٰرون أخذ حربته وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ثم خرج بهما على الناس والحربة فى يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعها نحو السماء وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين ألفاً والمقلل يقول عشرين ألفاً وكان فنحاص بكر أبيه العزار بن هٰرون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية والذراع واللحى ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم . وهذا الذى ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف لكن لعله لما أراد

موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن إسحاق ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم .

ولعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه فإن فى هذا السياق ذكر حسبان وهى بعيدة عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصدا بيت المقدس كما صرح به السدى . والله أعلم .

وعلى كل تقدير فالذى عليه الجمهور أن هرون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين . وبعده موسى فى التيه أيضا كما قدمنا وأنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك فكان الذى خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع ببنى إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلا فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون يعنى الأبواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكا كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكا من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر . فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان ، قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد وأمر القمر فوقف عن الطلوع وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولا ينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب ولكن ذكرهم أن هذا فى فتح أريحا فيه نظر ، والأشبه والله أعلم أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم وفتح أريحا كان وسيلة إليه والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس . انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى . وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى وإن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالب

صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبى ﷺ على ركبته فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت . وقد صححه على بن صالح المصرى ولكنه منكر ليس فى شىء من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعى على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعنى رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن . ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع شقفها ، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على شيئا فحبست عليه حتى فتح الله عليه فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال : فيكم غلول فليبايعنى من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول ولتبايعنى قبيلتك فبايعته قبيلته فلصق بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب قال فوضعوه بالمال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا . انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . قال ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى قال ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا أى ركعا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذى كان الله وعدهم إياه وأن يقولوا حال دخلوهم حطة أى حط عنا خطايانا التى سلفت من نكولنا الذى تقدم منا . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته وهو متواضع حامد شاكر حتى أن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطىء رأسه خضعانا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ولا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ﷺ ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعات وهى صلاة الشكر على النصر على المشهور من قولى العلماء . وقيل إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى . وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا دخلوا الباب يزحفون على استاههم يقولون حبة فى شعرة وفى رواية حنطة فى شعرة . وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به كما قال تعالى حاكيا عنهم فى سورة الأعراف وهى مكية (وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليه رجزا من السماء

بما كانوا يظلمون) وقال فى سورة البقرة وهى مدنية مخاطبا لهم (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) . وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم وكذا روى العوفى عن ابن عباس وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق عن البراء . قال مجاهد والسدى والضحاك والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس . قال ابن مسعود فدخلوا مقنعى رءوسهم ضد ما أمروا به ، وهذا لا ينافى قول ابن عباس إنهم دخلوا يزحفون على استاههم . وهكذا فى الحديث الذى سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعو رءوسهم . وقوله (وقولوا حطة) الواو هنا حالية لا عاطفة أى ادخلوا سجدا فى حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا . قال البخارى حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة فى شعرة . وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدى به موقوفا . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم فقالوا حبة فى شعرة . ورواه البخارى ومسلم والترمذى من حديث عبد الرزاق وقال الترمذى حسن صحيح . وقال محمد ابن إسحاق : كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدا يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة . وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود قال فى قوله (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قال قالوا « هطى شقاثا ازمة مزبا » فهى فى العربية « حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء » وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عامر بن سعد ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ أنه قال إن هذا الوجع (أو) السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، وروى النسائى وابن أبى حاتم وهذا لفظه من حديث الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم

ابن سعد بن أبى وقاص عن أبيه وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم ، وقال الضحاك عن ابن عباس الرجز العذاب . وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدى والحسن وقتادة ، وقال أبو العالية : هو الغضب ، قال الشعبى : الرجز إما الطاعون وإما البرد . وقال سعيد بن جبير هو الطاعون . ولما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبى الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة فكان مدة حياته بعد موسى سبعا وعشرين سنة .

ذكر قصتى الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه فى طلب ما عنده من العلم اللدنى وقص الله من خبرهما فى كتابه العزيز فى سورة الكهف وذكرنا فى تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذى رحل إليه هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل عليه السلام الذى أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف فى الخضر فى اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك ههنا إن شاء الله وبحوله وقوته . قال الحافظ ابن عساكر يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ثم روى من طريق الدارقطنى حدثنا محمد بن الفتح القلانسى حدثنا العباس بن عبد الله الرومى حدثنا رواد بن الجراح حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسىء له فى أجله حتى يكذب الدجال وهذا منقطع وغريب . وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا إن أطول بنى آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم قال وذكر ابن إسحق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة وأن يدفنوه فى مكان عينه لهم ، فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى ، فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك . وقال إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر فهابوا المسير إلى ذلك الموضع فى ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه وأنجز الله ما وعده فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا . وذكر ابن قتيبة فى المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا . ويقال

إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال إسماعيل بن أبى أويس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمر بن مالك بن عبدان ابن نصر بن لازد. وقال غيره هو خضرون بن عماييل بن اليفز بن العيص بن إسحٰق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن خلقيا فالله أعلم . وقبل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جدا . قال ابن الجوزى رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان . وقيل : إنه ابن مالك وهو أخو إلياس قاله السدى كما سيأتى . وقيل : إنه كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه ، وقيل : كان نبياً فى زمن بشتاسب بن لهراسب .

قال ابن جرير والصحيح أنه كان متقدما فى زمن أفريدون بن أتقيان حتى أدركه موسى عليه السلام وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال الخضر أمه رومية وأبوه فارسى .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضا . قال أبو زرعة فى دلائل النبوة حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة فقال يا جبريل : ما هذه الرائحة الطيبة قال هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها ، وقال وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بنى إسرائيل وكان ممره براهب فى صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام ، فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحدا ، وكان لا يقرب النساء ، ثم طلقها ، ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ، ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هاربا حتى أتى جزيرة فى البحر فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال قد رأيت العز قيل، ومن رآه معك ؟ قال : فلان ، فسئل فكتم ، وكان من دينهم أنه من كذب قتل ، فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة ، قال فبينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس فرعون ، فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوج ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا ، فقال : إنى قاتلكما ، فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا فى قبر واحد ، فجعلهما فى قبر واحد ، فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما وقد دخلت الجنة ، وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون وهذا المشط فى أمر الخضر قد يكون مدرجا من كلام أبى بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم كنيته أبو العباس والأشبه والله أعلم أن

الخضر لقب عليه ، قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء ، انفرد به البخارى وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمـر به . ثم قال عبد الرزاق : الفروة الحشيش الأبيض وما أشبهه يعنى الهشيم اليابس . وقال الخطابى وقال أبو عمر : الفروة الأرض البيضاء التى لا نبات فيها ، وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل فروة الرأس وهى جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعى .

ولقـد ترى الحبشى حول بيوتنا   جذلا إذا ما نال يومـا مأكـلا
جعـدا أصـك كأن فروة رأسـه   بذرت فأنبـت جانبـاه فلفـلا

قال الخطابى : إنما سمى الخضر خضرا لحسنه وإشراق وجهه . قلت : هذا لا ينافى ما ثبت فى الصحيح ، فإن كان ولابد من التعليل باحدهما فما ثبت فى الصحيح أولى وأقوى بل لا يلتفت إلى ما عداه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث ، أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الايلى ، حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : إنما سمى الخضر خضرا لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقال قبيصة عن الثورى عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على كبـد البحر وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه فسلم عليه السلام فكشف عن وجهـه فرد وقال : أنى بأرضك السلام ، من أنت ؟ قال: أنا موسى قال : موسى بنى إسرائيل ، قال : نعم ، فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه . الأول قوله تعالى : (فوجدا عبداً عن عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

الشانى قول موسى له (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) فلو كان ولياً وليس بنبى لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه ، فلو كان غير

نبى لم يكن معصوما ، ولم تكن لموسى وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضى حقبا من الزمان قيل ثمانين سنة ، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه فى صورة مستفيد منه دل على أنه نبى مثله يوحى إليه وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبى بنى إسرائيل الكريم ، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرمانى [1] على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحى إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته لأن الولى لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خلده لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم علما منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتها له فيتابعانه عليه ، ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته ، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمتـه . وقـد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا .

الرابع أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى ، قال بعد ذلك كله : (رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى) يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى بل أمرت به وأوحى إلى فيه فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافى ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون . وأما كونه ملكا من الملائكة فغريب جدا . وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولى قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف فى وجوده إلى زماننا هذا فالجمهور على أنه باق إلى اليوم . قيل لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة . وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيى .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن وسنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة وهذه وصيته لموسى حين (قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه

---

(١) وفى النسختين الموجودتين معنا (البرقانى) .

صبرا) روى فى ذلك آثار منقطعة كثيرة . قال البيهقى أنبأنا أبو سعيد بن أبى عمرو حدثنا أبو عبد الله الصغار حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا اسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير حدثنى أبو عبد الله الملطى قال لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى أوصنى قال كن نفاعا ولا تكن ضرارا ، كن بشاشا ولا تكن غضبانا ، ارجع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة . وفى رواية من طريق آخر زيادة « ولا تضحك إلا من عجب » . وقال وهب ابن منبه قال الخضر : يا موسى إن الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها ، وقال بشر بن الحارث الحافى قال موسى للخضر : أوصنى فقال يسر الله عليك طاعته . وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكرياء بن يحيى الوقاد إلا أنه من الكذابين الكبار . قال قرىء على عبد الله بن وهب وأنا أسمع قال الثورى قال مجاهد قال أبو الوداك قال أبو سعيد الخدرى : قال عمر بن الخطاب : قال رسول الله ﷺ قال أخى موسى يارب وذكر كلمته فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها فقال السلام ورحمة الله يا موسى بن عمران إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى هو السلام وإليه السلام والحمد لله رب العالمين الذى لا أحصى نعمه ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته ، ثم قال موسى أريد أن توصينى بوصية ينفعنى الله بها بعدك . فقال الخضر : يا طالب العلم إن القائل أقل ملامة [1] من المستمع فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك . واغرف من الدنيا وانبذها وراءك . فإنها ليست بدار ولا لك فيها محل قرار . وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد . وروض نفسك على الصبر تخلص من الإثم ، يا موسى تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له ، ولا تكن مكثارا للعلم مهذارا فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدى مساوىء السخفاء . ولكن عليك بالاقتصاد فإن ذلك من التوفيق والسداد . وأعرض عن الجهال وماطلهم واحلم عن السفهاء ، فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء ، إذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلما . وجانبه حزما ، فإن ما بقى من جهله عليك وسبه إياك أكثر وأعظم . يا بن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلا ، فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف . يا بن عمران لا تفتحن باباً لا تدرى ما غلقه ولا تغلقن بابا لا تدرى ما فتحه . يا بن عمران من لا ينتهى من الدنيا نهمته ولا تنقضى منها رغبته ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهدا . هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه . أو ينفعه طلب العلم والجهل

---

(١) لعله يقصد ملالة .

قد حواه ، لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه . يا موسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره .

يا موسى بن عمران اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك واعمل خيرا فإنك لابد عامل سوء ، قد وعظت إن حفظت ، قال : فتولى الخضر وبقى موسى محزونا مكروبا يبكى .

لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصرى كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ بن عساكر سكت عنه . وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى ثنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصى حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندى حدثنا بقية بن الوليد عن محمد بن زياد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : ألا أحدثكم عن الخضر قالوا : بلى يا رسول الله قال بينما هو ذات يوم يمشى فى سوق بنى إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال : تصدق على بارك الله فيك ، فقال الخضر : آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندى من شىء أعطيكه ، فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت على ، فإنى نظرت إلى السماء فى وجهك ورجوت البركة عندك ، قال الخضر : آمنت بالله ، ما عندى من شىء أعطيكه إلا أن تأخذ بى فتبيعنى ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال : نعم ، الحق أقول لك ، لقد سألتنى بأمر عظيم أما أنى لا أخيبك بوجه ربى ، يعنى قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشترى زمانا لا يستعمله فى شىء ، فقال له : إنك ابتعتنى التماس خير عندى فأوصنى بعمل ، قال : أكره أن أشق عليك ، إنك شيخ كبير ضعيف ، قال : ليس يشق على ، قال : فانقل هذه الحجارة ، وكان لا ينقلها دون ستة نفر فى يوم ، فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة فى ساعة ، فقال : أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه ، ثم عرض للرجل سفر فقال : إنى أحسبك أمينا فاخلفنى فى أهلى خلافة حسنة ، قال : فأوصنى بعمل ، قال : إنى أكره أن أشق عليك ، قال ليس تشق على ، قال : فاضرب من اللبن لبيتى حتى أقدم عليك ، فمضى الرجل لسفره فرجع وقد شيد بناؤه ، فقال : أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك ؟ فقال ، سألتنى بوجه الله والسؤال بوجهه أوقعنى فى العبودية ، سأخبرك من أنا ، أنا الخضر الذى سمعت به ، سألنى مسكين صدقة فلم يكن عندى من شىء أعطيه ، فسألنى بوجه

الله فأمكنته من رقبتى فباعنى ، وأُخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع ، فقال الرجل : آمنت بالله شققت عليك يا نبى الله ولم أعلم ، فقال : لا بأس ، أحسنت وأبقيت ، فقال الرجل : بأبى وأمى يا نبى الله احكم فى أهلى ومالى بما أراك الله أو أخيرك فأخلى سبيلك ، فقال أحب أن تخلى سبيلى فأعبد ربى ، فخلى سبيله ، فقال الخضر : الحمد لله الذى أوقعنى فى العبودية ثم نجانى منها . وهذا حديث رفعه خطأ والأشبه أن يكون موقوفا وفى رجاله من لا يعرف فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزى فى كتابه عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر من طريق عبد الوهاب ابن الضحاك وهو متروك عن بقية ، وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناده إلى السدى أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملكا فقال إلياس لأبيه إن أخى الخضر لا رغبة له فى الملك فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لى فى النساء ، فإن شئت أطلقت سراحك ، وإن شئت أقمت معى تعبدين الله عز وجل وتكتمين على سرى ، فقالت : نعم ، وأقامت معه سنة ، فلما مضت السنة دعاها الملك فقال : إنك شابة وابنى شاب فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ، إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن ، فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيبا قد ولد لها ، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتى قبلها ، فأجابت إلى الإقامة عنده ، فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء فتطلبه أبوه فهرب فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال : إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى فأقامت تعبد الله فى بعض نواحى تلك المدينة ، فمر بها رجل يوما فسمعته يقول : باسم الله ، فقالت له : أنّى لك هذا الاسم ؟ فقال : إنى من أصحاب الخضر ، فتزوجته فولدت له أولاداً ، ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هى يوما تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : باسم الله ، فقالت ابنة فرعون : أبى ؟ فقالت : لا ، ربى وربك ورب أبيك الله ، فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها فألقيت فيه ، فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابن معها صغير : يا امه اصبرى فإنك على الحق ، فألقت نفسها فى النار فماتت رحمها الله . وقد روى ابن عساكر عن أبى داود الأعمى نفيع وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضا عن أبيه عن جده ، أن الخضر جاء ليلة ، فسمع النبى ﷺ وهو يدعو ويقول : اللهم أعنى على ما ينجينى مما خوفتنى ، وارزقنى شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه ، فبعث إليه رسول الله أنس بن

مالك فسلم عليه فرد عليه السلام ، وقال : قل له إن الله فضلك على الأنبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور ، وفضل أمتك على الأمم ، كما فضل يوم الجمعة على غيره ، الحديث ، وهو مكذوب لا يصح سنداً ولا متناً إذ كيف لا يتمثل بين يدى رسول الله ﷺ ويجىء بنفسه مسلما ومتعلما ، وهم يذكرون فى حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتى إليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم ، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف إليه بأنه موسى بنى إسرائيل ، وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى بعد إيراده الحديث : متفقون على أنه حديث منكر الاسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة ، فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى قائلا : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر ابن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال : لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا ، فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ، إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل فائت ، وخلفا من كل هالك ، فإلى الله فأنيبوا ، وإليه فارغبوا ، ونظر إليكم فى البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر ، وانصرف ، فقال بعضهم لبعض : تعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعلى : نعم ، هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام ، وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن كامل بن طلحة به وفى متنه مخالفة لسياق البيهقى ، ثم قال البيهقى عباد بن عبد الصمد ضعيف وهذا منكر بمرة ، قلت : عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصرى . وروى عن أنس نسخة قال ابن حبان والعقيلى : أكثرها موضوع ، وقال البخارى منكر الحديث ، وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث جداً منكره ، وقال ابن عدى : عامة ما يرويه فى فضائل على وهو ضعيف غال فى التشيع ، وقال الشافعى فى مسنده : أخبرنا القاسم بن عبد الله ابن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين قال : لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلا يقول : إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب . قال على بن الحسين أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر ، شيخ الشافعى القاسم العمرى متروك ، قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب ، زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو مرسل ومثله لا يعتمد عليه هُهنا والله أعلم ، وقد روى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن على . ولا يصح . وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلى على جنازة

إذ سمع هاتفا وهو يقول : لا تسبقنا يرحمك الله ، فانتظره حتى لحق بالصف ، فذكر دعاءه للميت ، إن تعذبه فكثيرا عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك ، ولما دفن قال : طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا ، فقال عمر : خذوا الرجل ، فسأله عن صلاته وكلامه عمن هو ؟ قال : فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع ، فقال عمر هذا والله الخضر الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ . وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثورى عن عبد الله بن محرز عن يزيد بن الأصم عن على ابن أبى طالب ، قال : دخلت الطواف فى بعض الليل فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يمنعه سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك ، قال فقلت : أعد على ما قلت ، فقال لى أو سمعته ، قلت : نعم ، فقال لى : والذى نفس الخضر بيده ، قال : وكان هو الخضر ، لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز فإنه متروك الحديث ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً ومثل هذا لا يصح والله أعلم ، وقد رواه أبو إسماعيل الترمذى حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبى الأسود عن محفوظ بن عبد الله الحضرمى عن محمد بن يحيى قال : بينما على بن أبى طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلطه السائلون ، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ، ارزقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك ، قال : فقال له على : يا عبد الله أعد دعاءك هذا ، قال وقد سمعته ، قال نعم . قال فادع به فى دبر كل صلاة فوالذى نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين ، وهذا أيضا منقطع وفى إسناده من لا يعرف والله أعلم .

وقد أورد ابن الجوزى من طريق أبى بكر بن أبى الدنيا ، حدثنا يعقوب بن يوسف حدثنا مالك بن إسماعيل ، فذكر نحوه ، ثم قال : وهذا إسناد مجهول منقطع وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر ، وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو إسحٰق المزكى حدثنا محمد بن إسحق بن خزيمة حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن زريق عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبى ﷺ قال : يلتقى الخضر

وإلياس كل عام فى الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات باسم الله ما شاء الله ، لا يصرف الشر إلا الله ، ما شاء الله ، ما كان من نعمة فمن الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال : وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق ، قال : وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطنى فى الافراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعنى الحسن بن زريق هذا ، وقد روى عنه محمد بن كثير العبدى أيضا ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى ليس بالمعروف ، وقال الحافظ أبو جعفر العقيلى مجهول وحديثه غير محفوظ ، وقال أبو الحسن بن المنادى هو حديث واه بالحسن بن زريق ، وقد روى ابن عساكر نحوه عن طريق على بن الحسن الجهضمى ، وهو كذاب ، عن ضمرة ابن حبيب المقدسى عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيرى عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب مرفوعا قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر ، وذكر حديثا طويلا موضوعا تركنا إيراده قصدا ولله الحمد ، وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشنى عن ابن أبى رواد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان فى كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل . وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك ابن مروان بانى جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلة فى المسجد ، فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فإذا رجل قائم يصلى فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقال لقومه : ألم آمركم أن تخلوه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجىء كل ليلة يصلى هٰهنا . وقال ابن عساكر أيضاً : أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل ابن أحمد ، أنبأنا أبو بكر بن الطبرى ، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل ، أنبأنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب ، هو ابن سفيان الفسوى ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا حمزة عن السرى بن يحيى عن رباح بن عبيدة قال : رأيت رجلا يماشى عمر بن عبد العزيز معتمدا على يديه فقلت فى نفسى إن هذا الرجل حافى ، قال : فلما انصرف من الصلاة قلت : من الرجل الذى كان معتمدا على يدك آنفا ؟ قال : وهل رأيته يا رباح ؟ قلت : نعم ، قال : ما أحسبك إلا رجلا صالحا ، ذاك أخى الخضر ، بشرنى أنى سألى وأعدل . قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى الرملى مجروح عند العلماء ، وقد قدح أبو الحسين بن المنادى فى ضمرة والسرى ورباح ، ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع

بالخضر وضعفها كلها . وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمى وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم . وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة فى الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف فى الاسناد . وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابى أو غيره ، لأنه يجوز عليه الخطأ والله أعلم . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثا طويلا عن الدجال وقال فيما يحدثنا : يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيرهم ، فيقول : أشهد أنك أنت الدجال الذى حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أريتم إن قتلت هذا ثم أحييته ، أتشكون فى الأمر ؟ فيقولون لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بصيرة فيك منى الآن ، قال : فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه ، قال معمر : بلغنى أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغنى أنه الخضر الذى يقتله الدجال ثم يحييه ، وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به ، وقال أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم ، الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر ، وقول معمر وغيره بلغنى ليس فيه حجة ، وقد ورد فى بعض ألفاظ الحديث فيأتى بشاب ممتلىء شبابا فيقتله ، وقوله الذى حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضى المشافهة بل يكفى التواتر . وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله فى كتابه عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر للأحاديث الواردة فى ذلك من المرفوعات ، فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد فى ذلك وأحسن الانتقاد . والذين ذهبوا إلى أنه قد مات ومنهم البخارى وإبراهيم الحربى وأبو الحسين بن المنادى والشيخ أبو الفرج بن الجوزى ، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتابا سماه ، عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر ، فيحتج لهم بأشياء كثيرة . منها قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فالخضر إن كان بشراً فقد دخل فى هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح ، انتهى ، والأصل عدمه حتى يثبت ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليومنن به . وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن

به وينصرنه . ذكره البخارى عنه ، فالخضر إن كان نبياً أو وليا فقد دخل فى هذا الميثاق ، فلو كان حيا فى زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ، لأنه إن كان وليا فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبيا فموسى أفضل منه ، وقد روى الإمام أحمد فى مسنده حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى . وهذا الذى يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة . وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم ، لو فرض أنهم أحياء مكلفون فى زمن رسول الله ﷺ ، لكانوا كلهم أتباعا له وتحت أوامره وفى عموم شرعه ، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم ، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم فصلى بهم فى محل ولايتهم ودار إقامتهم ، فدل على أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . فإذا علم هذا ، وهو معلوم عند كل مؤمن ، علم أنه لو كان الخضر حيا لكان من جملة أمة محمد ﷺ ، وممن يقتدى بشرعه لا يسعه إلا ذلك . هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولى العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بنى إسرائيل ، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ فى يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالا فى مشهد من المشاهد ، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق : فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كفره ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها فى الأرض ، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام ، كما قال حسان بن ثابت فى قصيدة له ، فى بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب .

وثبير بدر إذ يرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته ، قال القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلى : سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات ؟ فقال : نعم ، قال : وبلغنى مثل هذا عن أبى طاهر بن الغبارى ، قال : وكان يحتج بأنه لو كان حيا لجاء إلى رسول الله ﷺ ، نقله ابن الجوزى فى العجالة . فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً فى هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه ؟ فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذى يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات . ثم ما

الحاصل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته . ثم لو كان باقيا بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة ، والآراء البدعية ، والأهواء العصبية ، وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم ، وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحكام ، أفضل ما يقال عنه من كنونه فى الأمصار . وجوبه الفيافى والأقطار . واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال : أرأيتم ليلتكم هذه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد ، وفى رواية عين تطرف ، قال ابن عمر : فَوهِلَ الناس فى مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد انخرام قرنه . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن الزهرى ، قال : أخبرنى سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة أن عبد الله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال ، أرأيتم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد ، وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان التيمى عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : ما من نفس منفوسة ، أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية ، وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا بن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : يسألوننى عن الساعة وإنما علمها عند الله ، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة . وهكذا رواه مسلم من طريق أبى نضرة وأبى الزبير كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه . وقال الترمذى حدثنا عباد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ما على الأرض من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهذا أيضا على شرط مسلم . قال ابن الجوزى فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر . قالوا فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذى يترقى فى القوة إلى القطع فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ، لأنه داخل فى هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتابه التعريف والإعلام عن البخارى وشيخه أبى بكر بن العربى أنه أدرك حياة النبى ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث ، وفى كون البخارى رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى إلى زمان النبى ﷺ نظر ، ورجح السهيلى بقاءه وحكاه عن الأكثرين . قال : وأما اجتماعه مع النبى ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروى من طرق صحاح ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها والله أعلم .

وأما إلياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات (وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين . فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) قال علماء النسب هو إلياس النشبى . ويقال ابن ياسين بن فنحاس بن العيزار بن هرون . وقيل إلياس بن العازر بن العيزار بن عمران . قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم (ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين) فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله ، فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأذرعى عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم ، غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هاربا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة ، أو قال : أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه . وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى : أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : أول نبى بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران ثم إلياس النشبى ابن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، هكذا قال وفى هذا الترتيب نظر . وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء

أحياء اثنان فى الأرض إلياس والخضر ، واثنان فى السماء إدريس وعيسى . وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان فى كل عام فى شهر رمضان ببيت المقدس وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذى فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة ، وبينا أنه لم يصح شىء من ذلك ، وأن الذى يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليهما السلام . وما ذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب ، ففى هذا نظر وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى ، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنى أبو العباس أحمد بن سعيد المعدانى ببخارى، حدثنا عبد الله بن محمود ، حدثنا عبدان بن سنان ، حدثنى أحمد بن عبد الله البرقى ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوى ، حدثنا أبو إسحاق الفزارى عن الأوزاعى عن مكحول عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فنزلنا منزلا فإذا رجل فى الوادى يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها ، قال فأشرفت على الوادى ، فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لى : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال : فأين هو؟ قلت هو ذا يسمع كلامك ، قال فأته فأقرئه السلام وقل له : أخوك إلياس يقرئك السلام ، قال فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم . ثم قعدا يتحادثان ، فقال له : يا رسول الله إنى ما آكل فى سنة إلا يوما وهذا يوم فطرى فآكل أنا وأنت ، قال فنزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس فأكلا وأطعمانى ، وصلينا العصر ثم ودعه ، ورأيت مره فى السحاب نحو السماء . فقد كفانا البيهقى أمره وقال هذا حديث ضعيف بمرة ، والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابورى أخرجه فى مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك ، فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً ، فقد تقدم فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا فى السماء ، إلى أن قال : ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذى ذهب إليه . وهذا لا يصح لأنه كان أحق بالسعى إلى بين يدى خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل فى السنة مرة وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة

شربــة تكفيه إلى مثلهــا من الحــول الآخــر . وهــذه أشياء متعـارضـة وكلهـا باطلة لا يصح شيء منها . وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر واعترف بضعفها وهذا عجب منه ، كيف تكلم عليه ، فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانىء بن الحسن عن بقية عن الأوزاعى عن مكحول عن واثلة عن ابن الاسقع ، فذكر نحو هذا مطولا وفيه أن ذلك كان فى غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة ابن اليمان قالا : فإذا هو أعلى جسما بذراعين أو ثلاثة ، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل ، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة وقال : إن لى فى كل أربعين يوما أكلة وفى المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث ، وفيه أن رسول الله ﷺ سألــه عن الخضر فقـال عهدى به عام أول وقال لى : إنك ستلقاه قبلى فأقرئه منى السلام . وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة وهذا لا يسوغ شرعاً وهذا موضوع أيضاً . وقد أورد ابن عساكر طرقا فيمن اجتمع بإلياس من العباد وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثنى بشر بن معاذ ، حدثنا حماد بن واقد عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بوادى الكوفة ، فدخلت حائطا أصلى فيه ركعتين فافتتحت (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) . فإذا رجل من خلفى على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ، فقال لى : إذا قلت (غافر الذنب) فقل : يا غافر الذنب اغفر لى ذنبى . وإذا قلت : (وقابل التوب) فقل : يا قابل التوب تقبل توبتى . وإذا قلت (شديد العقاب) فقل يا شديد العقاب لا تعاقبنى . وإذا قلت (ذى الطول) فقل يا ذا الطول تطول علىّ برحمة ، فالتفت فإذا لا أحد ، وخرجت فسألت مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقـالوا : ما مر بنا أحد ، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس . وقوله تعالى : (فكذبوه فإنهم لمحضرون) أى للعذاب ، إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون . وقوله (إلا عباد الله المخلصين) أى إلا من آمن منهم وقوله (وتركنا عليه فى الآخرين) أى أبقينا بعده ذكراً حسناً له فى العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال : (سلام على إلياسين) أى سلام على إلياس . العرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرهـا كما قالوا : إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين وإلياس وإلياسين . وقد قرىء (سلام على آل ياســين) : أى على آل محمـد ، وقـرأ ابن مسعـود وغـيره « سلام على إدراسين » . ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال إلياس

هو ادريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن اسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم .

* * *

بحمد الله تعالى قد تم الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية ويلية الجزء الثانى وأوله

(باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام)

البداية والنهاية

لشيخ الإسلام
الإمام الحافظ المفسّر المؤرخ
عماد الدين أبي الفدا إسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي، الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

طبعة جديدة محققة ومصحّحة

الجـــزء الثـانـي

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير فى تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بنى إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا ، يعنى أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو الذى دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

قصة حزقيل

قال الله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) . قال محمد ابن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى ، وهو ابن العجوز ، وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) قال ابن إسحاق فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض ، فقال لهم الله : موتوا ، فماتوا جميعاً ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة ، فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً ، فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحماً ، وأن يتصل العصب بعضه ببعض ، فناداهم

عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد . وقال أسباط عن السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) قالوا كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط ، وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقى في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم ، فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو وادى أفيح ، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا ، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبى يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه تريد أن أريك كيف أحييهم ؟ قال : نعم ، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد فنادى ياأيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحى الله إليه أن ناد يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً ، فاكتست لحماً ودماً وثيابها التى ماتت فيها . ثم قيل له : ناد فنادى أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا «سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت» فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم . وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبى صالح تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً . وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات . وقال ابن جريج عن عطاء هذا مثل ، يعنى أنه سيق مثلا مبيناً أنه لن يغنى حذر من قدر ، وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع . وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهرى عن عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس ، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام ، فذكر الحديث يعنى في مشاورته المهاجرين والأنصار ، فاختلفوا عليه فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته ، فقال : إن عندى من هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر

ثم انصرف . وقال الإمام حدثنا حجاج ويزيد المفتى [1] قالا : حدثنا ابن أبى ذؤيب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبى ﷺ أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، قال : فرجع عمر من الشام ، وأخرجاه من حديث مالك عن الزهرى بنحوه .

قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل ، ثم إن الله قبضه إليه ، فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان ، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له : بعل ، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يقرنان في الذكر غالباً ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم . قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام ، وهذه

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين) وقال تعالى في سورة ص (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب . وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى حرف الياء من تاريخه : اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف

---

(١) هو يزيد بن أبى حبيب ، كان مفتى أهل مصر في زمانه .

ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، ويقال هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام . ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب ابن منبه . قال : وقال غيره وكان ببانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ واللَّيْسَع وهو اسم واحد لنبى من الأنبياء . قلت : قد قدمنا قصة ذى الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام ، لأنه قد قيل له : ابن أيوب ، فالله أعلم .

فصـــــل

قال ابن جرير وغيره : ثم مرج أمر بنى إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فى قبة الزمان كما تقدم ذكره ، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً ، وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له : شمويل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه . قال ابن جرير فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالى أربعمائة سنة وستون سنة ، ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً .

قصـة شـمويـل عليـه السـلام
وفيها بدأ أمر داود عليه السلام

هو شمويل ، ويقال له : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا . قال مقاتل : وهو من ورثة هارون ، وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم ، أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ، ومعناه بالعبرانية إسماعيل ، أى سمع الله دعائى ، فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته ، فكان عنده ، فلما بلغ أشده وبينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه ، فسأله أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم ، ثم نام . ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة ، فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ماقص الله في كتابه قال الله تعالى في كتابه العزيز (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

قال أكثر المفسرين : كان نبى هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل : شمعون ، وقيل : هما واحد ، وقيل : يوشع ، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير في تاريخه أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة ، فالله أعلم .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب ، وقهرهم الأعداء ، سألوا نبى الله في ذلك

الزمان ، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكا ، يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء ، فقال لهم : (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله) أى وأى شىء يمنعنا من القتال وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، يقولون نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم . قال تعالى (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) قال الثعلبى : وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدى : كان سقاء ، وقال وهب بن منبه : كان دباغاً . وقيل غير ذلك فالله أعلم ، ولهذا (قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) وقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط لاوى ، وأن الملك كان فى سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم ، وقالوا : نحن أحق بالملك منه وذكروا أنه فقير لاسعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكا ؟ (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) . قيل كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أىّ بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس فهو ملكهم ، فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم وقال لهم : (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم) قيل : في أمر الحروب وقيل بل مطلقاً (والجسم) قيل : الطول ، وقيل : الجمال ، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام (والله يؤتى ملكه من يشاء) فله الحكم وله الخلق والأمر (والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم ، أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه ، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه (فيه سكينة من ربكم) قيل : طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء . وقيل : السكينة مثل الريح الخجوج . وقيل : صورتها مثل الهرة ، إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) قيل : كان

فيه رضاض الألواح وشيء من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه (تحمله الملائكة) أى تأتيكم به الملائكة يحملونه ، وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم ، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ، ولهذا قال : (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ماذكر من السكينة والبقية المباركة . وقيل : كان فيه التوراة أيضاً ، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته ، فلما كان اليوم الثاني إذ التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما ، فيقال : إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون ، كما أخبرهم نبيهم بذلك ، فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكة ، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده) .

قال ابن عباس وكثير من المفسرين هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريعة ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى في هذه الغزوة ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفة في يده . قال الله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) .

قال السدى كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، فبقى معه أربعة آلاف كذا قال . وقد روى البخارى في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن ، وقول السدى : إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر ، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً ، والله أعلم . قال الله تعالى (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) يعنى بها

الفرسان منهم . والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلاد والجدال والطعان .
(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر ، أى يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن ، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ماسألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا ، ولهذا قال : (فهزموهم بإذن الله) أى بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) وقوله تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلا أذل به جنده وكسره ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه . ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه . وقد ذكر السدى فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه ، وكانوا ثلاثة عشر ذكرا ، كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتى وأشركته في ملكى ، وكان داود عليه السلام يرمى بالقذافة وهو المقلاع رمياً عظيماً ، فبينا هو سائر مع بنى إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذنى ، فإن بى تقتل جالوت ، فأخذه ، ثم حجر آخر كذلك ، ثم آخر كذلك ، فأخذ الثلاثة في مخلاته ، فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه ، فتقدم إليه داود فقال له ارجع فإنى أكره قتلك ، فقال : لكنى أحب قتلك ، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً ، ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً ، فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه ، وعظم داود عليه السلام عند بنى اسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إلى ذلك ، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكى حتى يبل الثرى بدموعه فنودى ذات يوم من الجبانة : أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات ، فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ، ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة ؟ فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟ حتى دل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه

السلام ، قالوا : فدعت الله فقام يوشع من قبره فقال : أقامت القيامة ؟ فقال : لا ، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل . ثم عاد ميتاً ؛ فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا ، قالوا فذلك قوله (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدى بإسناده . وفي بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : النبى الذى بعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب ، حكاه ابن جرير أيضاً ، وذكر الثعلبى أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ماصنع بعده من الأمور ، وهذا أنسب . ولعله إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حياً فإن هذا إنما يكون معجزة لنبى ، وتلك المرأة لم تكن نبية ، والله أعلم .

وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت ، إلى أن قتل مع أولاده ، أربعون سنة ، فالله أعلم .

قصة داود عليه السلام وما كان في أيامه وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وإعلامه

هو داود بن إيشا [١] بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم الخليل ، عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس . قال محمد بن إسحاق : عن بعض أهل العلم عن وهب ابن منبه كان داود عليه السلام أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه . تقدم أنه لما قتل جالوت ، وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر ، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمع في داود هذا وهذا ، كما قال الله تعالى (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

(١) هكذا بالنسخ والذى في ابن جرير داود بن إيشى .

لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء في بعض الآثار « السلطان ظل الله في أرضه » . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إلىَّ أو أخرج إليك ، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود . وقيل : إن ذلك عن أمر شمويل ، حتى قال بعضهم إنه ولاه قبل الوقعة . قال ابن جرير : والذى عليه الجمهور أنه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت ، والله أعلم . وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذى هناك هو المذكور في الآية فالله اعلم . وقال تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير) وقال تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعها وكيفيتها فقال (وقدر في السرد) أى لاتدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم ، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم ، وقد ثبت في الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده ، وقال تعالى : (واذكُر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) قال ابن عباس ومجاهد : الأيد القوة في الطاعة يعنى ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أعطى قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام . قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود » كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوما ، ولايفر إذا لاقى» .
وقوله : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب) كما قال : (يا جبال أوبى معه والطير) أى سبحى معه ، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد

في تفسير هذه الآية (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى عند آخر النهار وأوله ، وذلك أن الله تعالى كان قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً ، بحيث كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرَجِّعُ بترجيعه ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعى : حدثنى عبد الله بن عامر قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعا وحتى أن الأنهار لتقف . وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً . وقال أبو عوانة الاسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثنا محمد بن منصور الطوسى ، سمعت صبيحاً أنبأنا برادح [1] قال أبو عوانة : حدثنى أبو العباس المدنى حدثنا محمد بن صالح العبدى حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى ، وهذا غريب . وقال عبد الرزاق عن ابن جريج سألت عطاء عن القراءة على الغناء ، فقال : وما بأس بذلك ، سمعت عبيد بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ العزقة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته ، يريد بذلك أن يبكى وتبكى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت سمع رسول الله ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود ، وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه . وقال أحمد : حدثنا حسن حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود ، على شرط مسلم ، وقد روينا عن أبى عثمان الترمذى أنه قال : لقد سمعت البربط والمزمار فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى . وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ خفف على داود القراءة فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لايأكل إلا من عمل يديه وكذلك رواه البخارى منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به ولفظه « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل

---

(١) كذا فى إحدى النسخ وفى أخرى (أبا تراب رح) وفي ثالثة (أبو تراب ح) .

أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه » . ثم قال البخارى : ورواه موسى بن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن ابراهيم بن طهمان عن موسى ابن عقبة ومن طريق أبى عاصم عن أبى بكر السيرى عن صفوان بن سليم به .

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذى أُنزل عليه وأوحى إليه ، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً فإنه كان ملكا له أتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب ، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قال الله تعالى : (وآتينا داود زبوراً) والزبور كتاب مشهور ، وذكرنا في التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ ماهو معروف لمن نظر فيه .

وقوله : (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) أى أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذاً . روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المدعى عليه ، فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى ، فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إلى أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يانبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه ، ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا ، فأمر به داود فقتل ، فعظم أمر داود في بنى إسرائيل جداً ، وخضعوا له خضوعا عظيما . قال ابن عباس وهو قوله تعالى : (وشددنا ملكه) وقوله تعالى : (وآتيناه الحكمة) أى النبوة (وفصل الخطاب) قال شريح والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم : فصل الخطاب الشهود والأيمان ، يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد والسدى هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم ، واختاره ابن جرير وهذا لا ينافى ما روى عن أبى موسى أنه قول « أما بعد » .
وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حقٍّ ، فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلا لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازاً أودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى ، فلما قيل للآخر : خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على

بنى إسرائيل ، ثم رفعت سريعاً من بينهم . ذكره غير واحد من المفسرين . وقد رواه اسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

(وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هُهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ماهو مكذوب لا محاله تركنا إيراده في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ص ، هل هى من عزائم السجود ؟ أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود ؟ على قولين . قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ قال : أو ما تقرأ (ومن ذريته داود وسليمان) ، (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ . وقد قال الإمام أحمد حدثنا اسماعيل هو ابن علية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ، أنه قال في السجود في ص ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . وكذا رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث أيوب . وقال الترمذى : حسن صحيح . وقال النسائى أخبرنى إبراهيم بن الحسن المقسمى حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى ﷺ سجد في ص وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكراً ، تفرد به أحمد ورجاله ثقات .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن أبى سعيد الخدرى قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس ، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال : إنما هى

توبـة نبى ولكن رأيتكم تشرفتم فنـزل وسجـد . تفـرد به أبـو داود وإسنـاده على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا عنان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عمر وأبو الصديق الناجى أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب ص فلما بلغ إلى التى يسجـد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجداً ، قال : فقصها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد . تفرد به أحمد وروى الترمذى وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن جنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد ، قال : قال لى ابن جريج : حدثنى جدك عبيد الله بن أبى يزيد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى ، فسمعتها تقول وهى ساجدة « اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وضعْ بها عنى وزراً ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود » وقال ابن عباس : فرأيت رسول الله ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقـد ذكـر بعض المفسرين أنه ﷺ مكث ساجداً أربعين يوما ، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما ، وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية . قال الله تعالى : (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى أن له يوم القيامة لزلفى ، وهى القربة التى يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث « المقسـطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا » . وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر » . وهكذا رواه الترمذى من حديث فضيل بن مرزوق الأغرِّ به ، وقال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبى زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى في الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سلبته ، فيقول : إنى أرده عليك اليوم ، قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله

لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد ولاة الأمـور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ماسواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلا ونهاراً ، كما قال تعالى : (اعملوا آل داود شكـراً وقليل من عبادى الشكور) ، قال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا إسمٰعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا صالح المرى عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لى أن أشكرك ، وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك ، قال : فأتاه الوحى « أن ياداود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال : بلى يارب ، قال : فأنا أرضى بذلك منك » وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن الوليد حدثنا محمد بن يونس القرشى حدثنا روح بن عبادة حدثنى عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال : قال داود : « الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة ياداود » ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله ، وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثورى عن رجل عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب ، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه ، وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده وحرمة لمعاشه ولذة في غير محرم ، وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن أبى بكر بن أبى خيثمة عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى الأغر عن وهب بن منبه فذكره . ورواه أيضاً عن على بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشى عن أبى الأغر عن وهب بن منبـه فذكره ، وأبو الأغر هذا هو الذى أبهمه ابن المبارك في روايته . قاله ابن عساكر ، وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له : أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه فذكر مثله . وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة ، منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد . وروى بسند غريب مرفوعاً ، قال داود : يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها ، وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق في نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت ، وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من

ذلك الضلالة بعد الهدى ، وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال : لا تعدن أخاك بما لاتنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه . وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدى حدثنى هشام بن سعد عن عمر مولى غفرة قال : قالت يهود لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء ، حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا : لو كان نبياً مارغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيى بن أخطب ، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال : (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيماً) يعنى ما أتى الله سليمان بن داود ، كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلثمائة سرية وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان ابن داود التى تزوجها بعد الفتنة ، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ . وقد ذكر الكلبى نحو هذا ، وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلثمائة سرية .

وروى [1] الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقى الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصى عن أبى هريرة الحمصى عن صدقة الدمشقى أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندى في البحث [2] مخزوناً ، إن شئت أنبأتك بصوم داود ، فإنه كان صواماً قواماً وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقال رسول الله ﷺ : أفضل الصيام صيام داود ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكوّن فيها ، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والحموم . وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان ، فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام . وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ، فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم . وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين . وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمد ﷺ فإنه كان يصوم

---

(١) من هنا لآخر القصة لم يوجد فى بعض النسخ .

(٢) البحث المعدن

من كل شهر ثلاثة أيام ويقول : إن ذلك صوم الدهر . وقد روى [1] الإمام أحمد عن أبى النصر عن فرج بن فضالة عن أبى هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود .

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلا يزهر فقال : أى رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال أى رب كم عمره ؟ قال ستون عاماً ، قال أى رب زد في عمره ، قال : لا إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام ، فزاده أربعين عاماً ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال : بقى من عمرى أربعون سنة ، ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة ، رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى وصححه عن أبى هريرة وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم ، قال ابن جرير وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة . قلت : هذا غلط مردود عليهم ، قالوا : وكان مدة ملكه أربعين سنة ، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينفيه ولا ما يقتضيه .

أما وفاته عليه السلام ، فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار ، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت ، من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود ، فجاء داود ، فإذا الرجل قائم في وسط الدار ، فقال له داود من أنت؟ فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب ، فقال داود أنت والله إذن ملك الموت ، مرحباً بأمر الله ، ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلى على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : اقبضى جناحا ، قال : قال أبو هريرة فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية .

---

(١) كذا بالنسخ ولعله رواه أو يكون هناك حديث ساقط .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوى ورجاله ثقات ، ومعنى قوله :. وغلبت عليه يومئذ المضرحية . أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحى . قال الجوهرى : وهو الصقر الطويل الجناح . وقال السدى : عن أبى مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله ، وقال السدى أيضاً عن أبى مالك وعن سعيد بن جبير قال مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة ، وقال إسحاق بن بشر عن سعد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة ، وقال أبو السكن الهجرى : مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، رواه ابن عساكر ، وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعنى أنزل أو أصعد فقال يانبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق ، قال فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد ، وقال إسحاق ابن بشر [1] أنبأنا وافر بن سليمان عن أبى سليمان الفلسطينى عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف ، قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بنى إسرائيل بعد موسى وهٰرون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود ، قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح ، فكاد الناس أن يهلكوا غماً ، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمي وتنحى عن ناحية الريح ففعلت ، فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح فكان ذلك أول مارأوه من ملك سليمان . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثنى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتى سنة ، هذا حديث غريب وفي رفعه نظر ، والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث والله أعلم .

---

(١) هو إسحاق بن بشر بن حذيفة البخارى ، صاحب كتاب المبتدأ والفتوح ، وتركوه وكذبه على بن المدينى وقال ابن حبان : لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب .

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم أبى الربيع نبى الله ابن نبى الله . جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق . قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر ، قال الله تعالى : (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) أى ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، وفي لفظ ، نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم ، كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج ، لا يخصون بها أقرباءهم ، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) الآية يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ماتتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ [١] أنبأنا عن ابن حشاد [٢] حدثنا إسماعيل بن قتيبة حدثنا على بن قدامة حدثنا أبو جعفر الأسواني [٣] يعنى محمد بن عبد الرحمن عن أبى يعقوب القمى حدثنى أبو مالك قال: مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبى الله ؟ قال يخطبها إلى نفسه ويقول زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبى الطهمانى الحاكم النيسابورى المعروف بابن البيع ، صاحب المستدرك وغيره .

(٢) كذا في النسخة الحلبية وحشاد في المصريتين وكلاهما خطأ والصواب حمشاذ ا هـ .

(٣) كذا في النسخ بنون بعد الألف وواو بعد السين وهو خطأ والصواب الاستوائى بالهمز بعد الألف وبتاء مثناة بين السين والواو نسبة إلى استواء ، وهى كورة من نواحى نيسابور ومعناها بلسانهم المضحاه والمشرقة .

كذاب ، رواه ابن عساكر عن أبى القاسم زاهر بن طاهر [1] عن البيهقى به ، وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : (وأوتينا من كل شىء) أى من كل مايحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات . ثم قال : (إن هذا لهو الفضل المبين) أى من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى : (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين) .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه ، جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة ، أى نقباء يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيه ولا يتأخر عنه ، قال الله تعالى : (حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب : أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف ، وأن هذه النملة كان اسمها جرسا ، وكانت من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب . وفي هذا كله نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شىء ولا وطء ، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأى السديد

---

(١) هو زاهر بن طاهر أبو القاسم الشحامى مسند نيسابور أى راوى الحديث بالإسناد صحيح السماع لكنه يخل بالصلاة فترك الرواية عنه غير واحد من الحفاظ تورعا .

والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك . فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ، ولهذا قال (رب أوزعني) أي ألهمني وأرشدني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره ، وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال : قالت أم سليمان ابن داود: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه [1] ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر وقد روى مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب ، حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة ، وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : « اللهم أنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال فصب الله عليهم المطر . قال تعالى : (وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون

---

(١) من هنا لغاية قوله فصب الله عليهم المطر لم يوجد بالنسختين القديمتين الموجودتين بالمكتبة المصرية .

للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتونى في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) فذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقومون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد على ماذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجىء فينظر لهم ، هل بهذه البقاع من ماء ؟ وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته (فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى ماله مفقود من هٰهنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى (لأعذبنه عذاباً شديداً) توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كل تقدير (أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) أى بحجة تنجيه من هذه الورطة . قال الله تعالى : (فمكث غير بعيد) أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها (فقال) لسليمان (أحطت بما لم تحط به) أى اطلعت على ما لم تطلع عليه (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى بخبر صادق (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم) يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا فعم به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها ، فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم ، وهى بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ، وقيل شراحيل بن ذى

جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبوها من أكابر الملوك ، وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن ، فيقال : إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ، ويقال لها : بلقيس ، وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : كان أحد أبوى بلقيس جنياً . وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف . وقال الثعلبى : أخبرنى أبو عبد الله بن قبحونة حدثنا أبو بكر بن جرجة حدثنا ابن أبى الليث حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل ابن مسلم عن الحسن عن أبى بكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : لا يفلح قوم وكّلوا أمرهم امرأة . إسماعيل بن مسلم هذا هو المكى ضعيف . وقد ثبت في صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ وقال الترمذى : حسن صحيح وقوله : (وأوتيت من كل شيء) أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك (ولها عرش عظيم) يعنى سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلىء والذهب والحلى الباهر . ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه في المخلوقات . فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابا يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم : (ألا تعلوا عليَّ) أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى (وأتونى مسلمين) أى وأقدموا عليَّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟ تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى في خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابه ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها (قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) ثم قرأت عليهم عنوانه أولا (إنه من سليمان) ثم قرأته (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ثم شاورتهم في أمرها وماقد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون (قالت ياأيها الملأ أفتونى في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) تعنى ماكنت لأبت

أمراً إلا وأنتم حاضرون (قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين (و) مع هذا (الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلىَّ ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علىّ (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم ، والحالة هذه ، صرفاً ولا عدلا لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا (فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون) هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون ، ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) يقول : ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قد من بها ، فإن عندى مما قد أنعم الله علىَّ وأسداه إلىَّ من الأموال والتحف والرجال ماهو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجنهم منها من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة (وهم صاغرون) عليهم الصغار والعار والدمار فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا بصحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان : ما قصه الله عنه في القرآن : (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة

وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال ، يتصدى لمهمات بنى إسرائيل ومالهم من الأشغال (وإنى عليه لقوى أمين) أى وإنى لذو قوة على إحضاره اليك ، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك (قال الذى عنده علم من الكتاب) المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان . وقيل : هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل : رجل من بنى إسرائيل من علمائهم ، وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلى بأنه لا يصح في سياق الكلام ، قال : وقد قيل فيه قول رابع : وهو جبريل (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) قيل : معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما يرتد إليك طرفك من الأرض ثم يعود اليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس . وقيل : قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل . (فلما رآه مستقراً عنده) أى فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أى إنما يعود نفع ذلك عليه (ومن كفر فإن ربى غنى كريم) أى غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين . ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال (ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها ، لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب . قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ماكانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله ، اتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج ، وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج جعل فيه من السمك وغيرها من دواب

الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيهـا ، قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدى عن ساقيها ليرى ماعليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف ، وفي الأول أيضاً نظر ، والله أعلم . إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زوالـه فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك ، فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا الحمام . فكان أول من دخل الحمام ، فلما وجد مسه قال : أوه من عذاب أوه ، أوه قبل أن لا ينفع أوه . رواه الطبرانى مرفوعا ، وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبى وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليها وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط . وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غمدان وسالحين وبينون ، فالله أعلم . وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها ، بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التى ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر ، والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصـافنـات الجياد . فقـال إنى أحببت حب الخير عن ذكـر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسـداً ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) . يذكر الله تعالى أنه وهب لداود سليمان ، عليهما السلام ، ثم أثنى عليه الله تعالى فقال (نعم العبد إنه أواب) أى رجاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . الجياد وهى المضمرة السراع (فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس . وقيل : الخيل على ما سنذكره من القولين . (ردوها علىَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) قيل : مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل : مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر . والذى عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا : اشتغل

بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . روى هذا عن على بن أبى طالب وغيره ، والذى يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللهم إلا أن يقال : إنه كان سائغاً في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك .

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعا إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعى وغيره . وقال مكحول والأوزاعى : بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون : بل كان تأخير النبى ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً ، وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم . وأما من قال : الضمير في قوله (حتى توارت بالحجاب) عائد على الخيل ، وأنه لم تفته وقت صلاة وأن المراد بقوله : (ردوها علىَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) يعنى مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبى عن ابن عباس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ماكان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذى قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم . وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شىء من الحيوانات أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالب يوم عقر فرسه بمؤتة ، وقد قيل : إنها كانت خيلاً عظيمة ، قيل : كانت عشرة آلاف فرس ، وقيل : عشرين ألف فرس . وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة .

وقد روى أبو داود في سننه حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبى مريم أنبأنا يحيى ابن أيوب حدثنى عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب فقال : ما هذا ياعائشة ؟ فقالت : بناتى ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع ، فقال : ماهذا الذى أرى وسطهن ؟ قالت : فرس . قال : وما الذى عليه هذا ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ . وقال بعض العلماء لما ترك الخيل لله عوضه عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التى كانت غدوها شهراً ورواحها شهراً ، كما سيأتى الكلام عليها ، كما قال الإمام أحمد حدثنا إسمعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبى قتادة وأبى الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال

البدوى : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه . وقوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) . ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين هٰهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا هٰهنا على مجرد التلاوة ، ومضمون ما ذكروه : أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوما ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما . وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبى ذر : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : مسجد بيت المقدس . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، ومعلوم أن بين إبراهيم الذى بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليه السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة . وكان سؤاله الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس ، كما قال الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها . فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى ، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أى رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال بما حكم لكم نبى الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا ، حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ، ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به . وقريب من هذا ماثبت في الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا

على سليمان ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به لها ، ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : (وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . ثم قال (ولسليمان الريح عاصفة) أى سخرنا لسليمان الريح عاصفة (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) . وقال في سورة ص (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ، (تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) أى حيث أراد من أى البلاد . وكان له بساط مركب من أخشاب ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض ، أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أى مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس ، كما قال تعالى : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) . قال الحسن البصرى : كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، قلت : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتى ، كتدمر وبيت المقدس وباب جبرون وباب البريد اللذيْن بدمشق على أحد الأقوال .

وأما القِطْر ، فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس ، قال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له ، قال السدى ثلاثة أيام فقط ، أخذ منها جميع ما يحتاج

إليه للبنايات وغيرها، وقوله : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخر الله له من الجن عمالا يعملون له مايشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به (يعملون له ما يشاء من محاريب) وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس (وتماثيل) وهى الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم (وجفان كالجواب) . قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ، وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى :

تروح على آل المحلق جفنة   كجابية الشيخ العراقى يفهق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافيها منها ، يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد ، ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) ، وقال تعالى : (والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد) يعنى أن منهم من قد سخره في البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلىءوغير ذلك مما لايوجد إلا هنالك ، وقوله (وآخرين مقرنين في الأصفاد) أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهى القيود . هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن عفريتاً من الجن تفلت علىَّ البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرددته خاسئاً . وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة ، وقال مسلم حدثنا محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثنى ربيعة ابن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهى ،

فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة . وكذا رواه النسائي عن محمد ابن سلمة به . وقال أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا مرة معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائماً يصلى افذهبت أمر بين يديه فردنى ثم قال : حدثنى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى فمازلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين ، الإبهام والتى تليها ، ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل . روى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيرى به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ، سبعمائة بمهور وثلثمائة سرارى وقيل : بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيما جداً . قال البخارى : حدثنا خالد بن مخلد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه ، فقال النبى ﷺ لو قالها لجاهدوا في سبيل الله . وقال شعيب وابن أبى الزناد : تسعين ، وهو أصح ، تفرد به البخارى من هذا الوجه ، وقال أبو يعلى : حدثنا زهير حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة ، إلا امرأة ولدت نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل . إسناده على شرط الصحيح ، ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن ، فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان ، قال : قال رسول الله ﷺ : لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل ، تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبي عن أبى هريرة

قال : قال رسول الله ﷺ : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، قال ونسى أن يقول إن شاء الله ، فأطاف بهن ، قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته ، وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله . وقال إسحاق بن بشر أنبأنا مقاتل عن أبى الزناد وابن أبى الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية ، فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يستثن ، فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان ، فقال النبى ﷺ والذى نفسى بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل . وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها مالم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : (وأوتينا من كل شيء) وقال : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق. ولما ذكر تعالى ماأنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أى أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك ، أى : تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه أن لا يعطى أحداً ولا يمنع أحداً إلا بإذن الله له في ذلك الوقت ، وقد خير نبينا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولا . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبداً رسولا ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة ، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب ، حيث يقول تعالى : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

ذكر وفاته وكم كانت مدة حكمه وحياته

قال الله تبارك وتعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) . روى ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : كان سليمان نبى الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا ، فيقول : لأى شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء أنبتت ، فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب ، قال : لأى شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت ، فقال سليمان اللهم عَمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا ، والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ، قال : فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء . لفظ ابن جرير وعطاء الخراسانى في حديثه نكارة . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً وهو أشبه بالصواب والله أعلم . وقال السدى في خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة ، كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التى توفى فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ، فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت : نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال له الخروبة فسألها ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة فقال : ولأى شيء نبت ؟ فقالت نبت لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حى ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها في حائط له . ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ، ولم تعلم به الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان

من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ، ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته ، وهى العصا بلسان الحبشة ، قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ؛ ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وهى قراءة ابن مسعود ، فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ، وذلك قول الله عز وجل : (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب لسقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ، قال : فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون في جوف الخشب ؟ فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها . وهذا فيه من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود في كتاب القدر ، حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحى فأعلمنى ، قال : ما أنا أعلم بذاك منك ، إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت. وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أمِرت بى فأعلمنى ، فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت ، قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى ، قال : فبعث الله دابة الأرض ، يعنى إلى منسأته فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا ، قال فذلك قوله (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) . قال أصبغ : وبلغنى عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خر وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة ، والله أعلم ، وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة .

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس ، فيما ذكر ، ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة ، فيما ذكره ابن جرير ، وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل .

باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان عليهما السلام وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام

فمنهم شعيا بن أمصيا ، قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بنى إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة . وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب ، قال ابن إسحاق في ستمائة ألف راية ، وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً ، وقال الملك للنبى شعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال لم يوح إلىّ فيهم شىء بعد . ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : « اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعلمى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى سرى وإعلانى لك » قال : فاستجاب الله له ورحمه ، وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب ، فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده : « اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ،

وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين » فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برأ . ففعل ذلك فشفى وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه ، منهم بخت نصر ، فأرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوما ، ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهى أمة لا يستطيعها أحد من ربهم ، فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين . قال ابن اسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بنى اسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم ، وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه ، فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو غريب وليس بصحيح . قال ابن عساكر جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق ، فقال : أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن ورسب حتى غاب . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى على بن أبى مريم عن أحمد بن حباب عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أى رب أى عبادك أحب إليك قال : أكثرهم لى ذكراً ، الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق . الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء . الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك . أولئك أنحلهم محبتى وأعطيهم فوق غاياتهم .

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، يقال له : أرميا ، حين ظهرت فيهم المعاصى أن قم بين ظهرانى قومك فأخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون ، وأعينا ولا يبصرون ، وآذانا ولا يسمعون ، وأنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم ، فسلهم كيف وجدوا غب طاعتى ؟ وهل سعد أحد ممن عصانى بمعصيتى ؟ وهل شقى أحد ممن أطاعنى بطاعتى ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها ، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقى ، وأما قراؤهم فعبدوا غيرى ، وأما نُسّاكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما ولاتهم فكذبوا علىّ وعلى رسلى . خزنوا المكر في قلوبهم وعودوا الكذب ألسنتهم . وإنى أقسم بجلالى وعزتى لأهيجن عليهم جيولا لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم ملكا جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حمل فرسانه كسرب العقبان ، يعيدون العمران خرابا ، ويتركون القرى وحشة ، فياويل إيليا وسكانها كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السبا ، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخا ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرافات القصور مساكن السباع ، وبعد ضوء السرج وهج العجاج ، وبالعز ذلا ، وبالنعمة العبودية ، وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب ، وبالمشى على الزرابى الخبب ، ولأجعلن أجسادهم زبلا للأرض ، وعظامهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئا في خلال ذلك فبرحمتى للبهائم ، ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئا سلطت

عليه الآفة ، فإن خلص منه شىء نزعت منه البركة ، فإن دعونى لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال اسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بنى إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم ، فعملوا بالمعاصى وقتلوا الأنبياء طمع بختنصر فيهم ، وقذف الله في قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا إنى مهلك بنى إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى ، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال : يارب وددت أمى لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بنى إسرائيل من أجلى ، فقال له : ارفع رأسك فرفع رأسه فبكى ، ثم قال : يارب من تسلط عليهم ؟ فقال عبدة النيران ، لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى ، قم يا أرميا فاستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل . من قبل أن أخلقك اخترتك . ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ نبأتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك ، فقم مع الملك تسدده وترشده ، فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحى من الله ، حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم ، فقال أرميا : (يارب إنى ضعيف إن لم تقونى ، عاجز إن لم تبلغنى ، مخطىء إن لم تسددنى ، مخذول إن لم تنصرنى ، ذليل إن لم تعزنى فقال الله تعالى أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى ، وأن الخلق والأمر كله لى ، وأن القلوب والألسنة كلها بيدى فأقلبها كيف شئت فتطيعنى ، فأنا الله الذى ليس شىء مثلى . قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتى . وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لى ، ولا يعلم ما عندى غيرى ، وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى ، وأمرتها ففعلت أمرى ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدى وتأتى بأمواج كالجبال ، فإذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى وخوفاً واعترافاً لأمرى ، وإنى معك ولن يصل إليك شىء معى ، وإنى بعثتك إلى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم ، يا معشر أبناء الأنبياء : كيف وجد آباؤكم مغبة طاعتى ؟ وكيف وجدتم مغبة معصيتى ؟ وهل وجدوا أحداً عصانى فسعد بمعصيتى ؟ وهل علموا أحداً أطاعنى فشقى بطاعتى ؟ إن الدواب

إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذى به أكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم أمرى وأنسوهم ذكرى وسنتى وغزوهم عنى ، فدان لهم عبادى بالطاعة التى لا تنبغى إلا لى فهم يطيعونهم في معصيتى .

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتى وأمنوا مكرى وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابى ونسوا عهدى ، فهم يحرفون كتابى ويفترون على رسلى جرأة منهم علىّ وغرة بى ، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى ، هل ينبغى أن يكون لى شريك في ملكي ؟ وهل ينبغى لبشر أن يطاع في معصيتى ؟ وهل ينبغى لى أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دونى ؟ أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهى لاتنبغى إلا لى .

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون مايتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التى يبتدعون في دينى ويطيعونهم في معصيتى ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدى فهم جهلة بما يعلمون لا ينتفعون بشىء مما علموا من كتابى .

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصرى آباءهم والكرامة التى أكرمتهم بها ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكر ، ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم في أمرى حين اغتر المغترون ، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى ، فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون منى ويرجعون ، فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً منى ، فحتى متى هذا ؟ أبى يسخرون أم بى يتحرشون أم إياى يخادعون أم على يجترئون ؟ فإنى أقسم بعزتى لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ويضل فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ، ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة ، وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج ، وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان ، يعيدون العمران خرابا والقرى وحشا ، ويعيثون في الأرض فساداً ويتبرون ما علوا تتبيراً ،

قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولايسمعون ، يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد ، تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها. فوعزتى لأعطلن بيوتهم من كتبى وقدسى ، ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى ، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع وبطول العافية والرخاء أنواع البلاء وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ، ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار ، ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار ، وبالمشى على الزرابى عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والإسفار والأرواح السموم ، ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه ، إنى إنما أكرم من أكرمنى وإنما أهين من هان عليه أمرى ، ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد ، ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت ، فإن أمطرت خلال ذلك شيئا سلطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شىء نزعت منه البركة ، وإن دعونى لم أجبهم ، وإن سألونى لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا إلىّ صرفت وجهى عنهم ، وإن قالوا : اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا في البلاد ، واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا وإياهم برحمتك كبارا ، فأنت أوفى المنعمين وإن غيرنا ، ولا تبدل ، وإن بدلنا وأن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك ، فإن قالوا ذلك قلت لهم : إنى أبتدىء عبادى برحمتى ونعمتى . فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعفت ، وإن غيروا غيرت ، وإذا غيروا غضبت ، وإذا غضبت عذبت ، وليس يقوم شىء بغضبى .

قال كعب : فقال أرميا : برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك ، وهل ينبغى ذلك لى وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى بما رضيت به منى طولا والإقامة في دار

الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظني بك ، ثم قال : يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك ؟ يارب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك ؟ يارب أي القرى تأمن عقوبتك بعد ؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران ؟ قال الله تعالى : يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ولو أنهم عصوني لأنزلنهم دار العاصين ، إلا أن أتداركهم برحمتي .

قال أرميا : يارب اتخذت إبراهيم خليلا وحفظتنا به ، وموسى قربته نجيا ، فنسألك أن تحفظنا ، ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا ، فأوحى الله إليه : يا أرميا إني قدستك في بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم ، وكانوا عندي بمنزلة جنةٍ ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل ، إني كنت لهم بمنزلة الداعي الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة واتبع بهم الخصب ، حتى صاروا كباشا ينطح بعضها بعضا ، فياويلهم ثم ياويلهم ، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري ، إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعا فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رءوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجت السماء إليّ منهم وعجت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب .

قال : فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه ، وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟ لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون ، فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر ، فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى : (فجاسوا خلال الديار) قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله (فجاسوا خلال الديار) ، وحكم فيهم حكم الجاهلية

وبطش الجبارين فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل ، وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة وسأل عن دانيال الذى كان قد كتب الكتاب فوجدوه قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب ، وكان دانيال بن حزقيل خلفا من دانيال الأكبر ، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كله وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم ، فلما فرغ منها انصرف راجعا وحمل الأموال التى كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام ، وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط إيشى بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفا من سبط زبالون ونفتالى ابنى يعقوب ، وأربعة عشر ألفا من سبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب ، وألفين من سبط زبالون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى ، واثنى عشر ألفا من سائر بنى إسرائيل ، وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه ، فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم ، قال فأنّى علمت ذلك ، قال : أرسلنى الله إليهم فكذبونى ، قال : كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال : نعم ، قال : بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بى فأكرمك وأواسيك ؟ وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمّنتك ، قال له أرميا : إنى لم أزل في أمان الله منذ كنت ، لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ، ولم يكن لك عليهم سلطان ، فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا بأرض إيليا . وهذا سياق غريب ؛ وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى : كان بختنصر أصفهبذا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب ، وكان قد بنى مدينة بلخ التى تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن ، وبعث بختنصر لقتال بنى إسرائيل بالشام فلما

قدم الشام صالحه أهل دمشق ، وقد قيل : إن الذى بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله إليهم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دما يغلى على كبا ، يعنى القمامة ، فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر ، قال فقتل على ذلك سبعين ألفا من بنى إسرائيل وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر مايدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة ، والظاهر أن هذا دم نبى متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبى ثم قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها ، وكان من آل داود ، وصانعه عن بنى إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع . فلما بلغ طبرية بلغه أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية ، قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبى فأخرجه وقص عليه ماكان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه ، فقال بختنصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله ، وخلى سبيله وأحسن إليه ، واجتمع إليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربه فأوحى الله إليه أنه غير فاعل ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة ، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها ، فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبى : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد ، فنزلت طائفة منهم الحجاز ، وطائفة يثرب ، وطائفة وادى القرى ، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر ، فكتب بختنصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم ، ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية ، قال : ثم انصرف بسبى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفي السبى دانيال ، قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه والله أعلم .

ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيبانى قال : إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثنى بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندى عن عبد الله بن أبى الهذيل قال : ضرا بختنصر أسدين فألقاهما في جب وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاما وشرابا لدانيال ، فقال : يارب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال من هذا ؟ قال : أنا أرميا ، فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلنى إليك ربك ، قال وقد ذكرنى ربى ؟ قال نعم ، فقال دانيال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذى يجيب من رجاه ، والحمد لله الذى من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالاحسان إحسانا ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد لله الذى هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير : عن محمد بن إسحٰق عن أبى خلد بن دينار حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبى العالية ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم ، وماهو كائن بعد ، قلت فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه ، قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون ، قلت من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال ، قلت منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة ، قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع ؛ وهذا إسناد صحيح عن أبى العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظا من ثلثمائة سنة فليس بنبى ، بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبى بنص الحديث الذى في البخارى ، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة . وقيل :

ستمائة ، وقيل : ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر فإنه قد يكون رجلا آخر ، إما من الأنبياء أو الصالحين ولكن قربت الظنون أنه دانيال ، لأن دانيال كان أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم . وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا في كتاب أحكام القبور : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث ابن عبد الله بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبى الأشعث الأحمرى قال : قال رسول الله ﷺ : إن دانيال دعا ربه عز وجل أن يدفنه أمة محمد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : من دل على دانيال فبشروه بالجنة ، فكان الذى دل عليه رجل يقال له : حرقوص ، فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره ، فكتب إليه عمر أن ادفنه وابعث إلى حرقوص فإن النبى ﷺ بشره بالجنة ، وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظا نظر ، والله أعلم .

ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد ، وكـان عالما ، قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفا وجرة فيها ودك ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ، ومر من قِبَلَكَ من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه . وروى عن ابن ابى الدنيا من غير وجه أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالا موضوعا قريبا من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض ؛ وأن عنده ربعة ، فأمر عمر بأن يُغسَّل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال ، وبالربعة فتحمل إليه ، ونفله خاتمه . وروى عن أبى موسى أنـه أمـر أربعة من الأسراء فسكروا نهرا وحفروا في وسطه قبرا فدفنه فيه ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم ، فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى إبراهيم بن عبد الله حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن عبـد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : رأيت فى يد ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتما نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : هذا

خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده ، فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد ، فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه ، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ . قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك . إسناد حسن .

وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع الملأ من بنى إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) قال هشام بن الكلبى : ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغنى أنى عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها وهى خراب ، فقال في نفسه : سبحان الله أمرنى الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرنى أنه عامرها فمتى يعمرها ؟ ومتى يحييها الله بعد موتها ؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام بختنصر فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذى فوقه ، وهو لهراسب ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب ، وكان موت بختنصر في دولته ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في أرض بابل في بنى إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملّك عليهم رجلا من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها ، فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ، ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابا ، فلما نظر إليها عامرة آهلة قال : أعلم أن الله على كل

شيء قدير ، قال : فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف ، ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان ، يعنى بعد ظهور النصارى عليهم ، هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه . وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكا عادلا سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأى جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل ، ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلا كان اسمه زردشت [1] كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زردشت فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب يشتاسب فلقنه دين المجوسية الذى اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم . ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلا قبحه الله . والمقصود أن هذا الذى ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام . قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما وهو قوى من حيث السياق المتقدم ، وقد روى عن على وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان ابن بريدة وغيرهم أنه عُزَيْر . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف ، والله أعلم .

وهـــذه قصـــة العُـــزَيْـــر

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزير بن جروة ، ويقال : ابن سوريق بن عديا ابن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقى بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن

---

(١) (قوله وذلك أن رجلا كان اسمه زردشت إلخ) هذه الحكاية خلاف الواقع . بل الواقع أن زردشت هو إبراهيم الزردشت أحد الأنبياء الذين ظهروا في وادي نهر الأرس بقفقازيا المشار إليهم في قوله تعالى (وأصحاب الرس) فإن الرس تخفيف ارس . وله إلى الآن أتباع تعد بالملايين في الهند وإيران وله كتاب باللغة الفارسية القديمة مشتمل على المبادىء والتعاليم والأحكام والبشارات بالأمور الآتية على نهج سائر الكتب . منها بشاراته بظهور الرسول ﷺ بقوله : سيظهر في العرب نبى عظيم . وبعد أن يمضى من ظهور شريعته ألف سنة وكسور إذا جاء ثانياً لا يعرف أن هذه كانت شريعته اهـ ترجمته بالمعنى .

عمران . ويقال : عزير بن سروخا ، جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق ، ثم ساق من طريق أبى القاسم البغوى عن داود بن عمرو ، عن حبان بن على ، عن محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس مرفوعا لا أدرى ألعين تبع أم لا ؟ ولا أدرى أكان عزير نبياً أم لا ؟ ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزى عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعاً نحوه ، ثم روى من طريق إسحاق بن بشر وهو متروك عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه ، قال : وكان يذكر مع الأنبياء حتى محا الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر ، وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر ، والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبى عروة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام أن عزيراً هو العبد الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدى عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه قال إسحاق : كل هؤلاء حدثونى عن حديث عزير ، وزاد بعضهم على بعض ، قالوا بإسنادهم : إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيما خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه في القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه فى تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية فقال (أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها) فلم يشك أن الله يحييها ، ولكن قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام ، فلما أتت عليه مائة عام وكانت ، فيما بين ذلك في بنى إسرائيل ، أمور وأحداث ، قال : فبعث الله إلى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى ، ثم ركب خلقه ، وهو ينظر ، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح ، كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً ، فقال له الملك : كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال أو بعض يوم ولم يتم لى يوم ، فقال له الملك : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعنى الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذى كان اعتصره في القصعة ، فإذا

هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله تعالى : (لم يتسنه) يعنى لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر فى قلبه ، فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك ، انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة ، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك ، وعزير ينظر إليه ، ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً ، يظن القيامة قد قامت ، فذلك قوله تعالى : (وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) يعنى وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ، من إحياء الموتى وغيره ، قال فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منزله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة ، كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة ، فقال لها عزير : يا هذه أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم ، هذا منزل عزير ، فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس ، قال فإنى أنا عزير ، كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى ، قالت : سبحان الله فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر ، قال : فإنى أنا عزير ، قالت : فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيراً عرفتك . قال : فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا ، وأخذ بيدها وقال : قومى بإذن الله فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير ، وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنة ، وبنو بنيه شيوخ فى المجلس فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فرد علىّ بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه ، قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير ، فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا ، وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب ، قال : وجلس في ظل شجرة وبنو

إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل ، فمن ثَمَّ قالت اليهود : عزير ابن الله ، للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بنى إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل . والقرية التى مات فيها يقال لها سايراباذ . قال ابن عباس : فكان كما قال تعالى (ولنجعلك آية للناس) يعنى لبنى إسرائيل وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب ، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شابا كهيئة يوم مات ، قال ابن عباس : بُعِثَ بعد بختنصر ، وكذلك قال الحسن ، وقد أنشد أبو حاتم السجستانى في معنى ما قاله ابن عباس :

واسود رأس شاب من قبله ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى ابنه شيخا يدب على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حيل ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشى الصبى فيعثر
يعد ابنه في الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجرى ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرها ... لأن ابنه تسعون فى الناس عبر
فما هو فى المعقول إن كنت دارياً ... وإن كنت لا تدرى فبالجهل تعذر

فصل

المشهور أن عزيراً نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل ، كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكا فنزل بمغرفة من نور فقذفها فى عزير فنسخ التوراة حرفا بحرف حتى فرغ منها . وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله ابن سلام عن قول الله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كتبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه وقول بنى إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب وأن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب ، فرماه طوائف منهم وقالوا : عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير . وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبى كما قاله عطاء بن أبى رباح والحسن البصرى ، وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبى رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء بختنصر وجنة

صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا [1] وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : كان أمر عزير وبختنصر في الفترة . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بيني وبينه نبى . وقال وهب بن منبه كان فيها بين سليمان وعيسى عليهما السلام . وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان فى زمن موسى بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعنى لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول مائة موتة أهون من ذل ساعة ، وفى معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء :

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الحيف
ويؤثر الموت على حالة يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالى وسفيان الثورى وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء فهو منكر وفى صحته نظر ، وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات ، وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبى عمران الجونى عن نوف البكالى قال : قال عزير فيها يناجي ربه : يارب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدى من تشاء فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد فقيل له : لتعرض عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء ، إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون ، وهذا لا يقتضى وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محِي اسمه ، والله أعلم .

وقد روى الجماعة سوى الترمذى من حديث يونس بن يزيد عن الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار فأوحى الله إليه فهلا نملة واحدة . فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير . وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنه عزير ، فالله أعلم .

---

(١) هكذا فى نسخة . وفى النسخة المصرية (وأمر جاصور) .

قصـــة زكـريـا ويحيـى عليهمـا السـلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز : بسم الله الرحمن الرحيم (كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً. وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) وقال تعالى : (وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنَّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آيـة قـال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) وقال تعالى : (وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ويقال : زكريا بن دان ، ويقال : زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشيان بن داود ابن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهناشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود ، أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل . دخل البثينة من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى . وقيل : إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى ، والله أعلم . وقد قيل غير ذلك فى نسبه ، ويقال فيه : زكريا بالمد وبالقصر ويقال : زكرى أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته عاقراً فى حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : (ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً) . قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته ، فقال : « يارب يارب يارب ، فقال الله : لبيك لبيك لبيك » (قال رب إنى وهن العظم منى) أى ضعف وخار من الكبر (واشتعل الرأس شيباً) استعارة من اشتعال النار في الحطب ، أى غلب على سواد الشعر شيبه ، كما قال ابن دريد فى مقصورته :

أما ترى رأسى حاكى لونه	طرة صبح تحت أذيال الدجا
واشتعل المبيض فى مسوده	مثل اشتعال النار فى جمر الغضا
وآض عود اللهو يبساً ذاوياً	من بعد ما قد كان مجاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام (إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً) وقوله (ولم أكن بدعائك رب شقياً) أى ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة ، وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران ابن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها ولا فى آنيتها وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشىء فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كان قد طعن فى سنه (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) وقوله (إنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً) قيل : المراد بالموالى العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ، ولهذا قال : (فهب لى من لدنك) أى من عندك بحولك وقوتك (ولياً . يرثنى) أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل (ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى ، وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن أبى صالح من السلف لوجوه .

الأول : ما قدمنا عند قوله تعالى : (وورث سليمان داود) أى في النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق ،

عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : لا نورث ماتركنا فهو صدقة ، فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، لهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم ، واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم .

الثانى : أن الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه فى العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، وهذا أمر بينٌ واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهم إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد يعنى ابن هٰرون ، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : كان زكريا نجاراً . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله تعالى : (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً) . وهذا مفسر بقوله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً) أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير؟ قيل : كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه ، والله أعلم ، أنه كان أسن من ذلك (وكانت امرأتى عاقراً) يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقراً لا تلد ، والله أعلم ، كما قال الخليل (أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون) وقالت سارة (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وهكذا أجيب زكريا عليه

السلام قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه : (كذلك قال ربك هو على هين) أى هذا سهل يسير عليه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) أى قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخا . وقال تعالى : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت ، وقيل : كان فى لسانها شيء ، أى بذاءة (قال رب اجعل لى آية) أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) يقول : علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية ، وأمره بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار ، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) . والوحى هُهنا هو الأمر الخفى ، إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدى ، أو إشارة كما قاله مجاهد ووهب وقتادة . قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد . وقوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) يخبر تعالى عن وجودالولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه . قال عبدالله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا ، قال : وذلك قوله (وآتيناه الحكم صبيا) وأما قوله (وحنانا من لدنا) فروى ابن جرير عن عمرو بن بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدرى ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك (وحنانا من لدنا) أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة (وحنانا) أى محبة عليه ، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه ، وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما ، وأما الزكاة فهى طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل ، والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره ، ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهيا وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا) ثم قال (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) هذه الأوقات الثلاثة أشد ماتكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ماكان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ، وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك

النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ، ومن محزون ومثبور ، ومابين جبير وكسير ، (فريق في الجنة وفريق في السعير) . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولـدتـك أمك باكيا مستصرخـا   والنـاس حولـك يضحكـون سرورا
فاحـرص لنفسك أن تكون إذا بكوا   فى يوم موتـك ضاحـكـا مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل منها فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) وقال سعيد بن أبى عروبة : عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى : استغفر لى ، أنت خير منى ، فقال له الآخر : استغفر لى ، أنت خير منى ، فقال له عيسى : أنت خير منى سلمت على نفسي وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين) فقيل المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : (هب لى من لدنك ذرية طيبة) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغى لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى . على بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث ، وقد رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق أبى عاصم العبادانى عن على بن زيد بن جدعان به مطولا ، ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا . وقال ابن وهب حدثنى ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوما وهم يتذاكرون فضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله ، وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته ، وقـال قائـل : إبراهيم خليل الله ، فقال: أين الشهيد ؟ أين الشهيد ؟ يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب ، قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا . وقـد رواه محمـد بن إسحاق وهو مدلس ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : كل ابن آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب إلا ماكان من يحيى بن زكريا ، فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن هُهنا . ثم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلا . ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبى أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، ثم قد رواه ابن عسـاكـر من طريق إبـراهيم بن يعقـوب الجوزجانى خطيب دمشق حدثنا محمد بن الأصبهانى حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله

ابن عمرو قال : ما أحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا ، ثم تلا (وسيداً وحصوراً) ثم رفع شيئا من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثم ذبح ذبحا ، وهذا موقوف من هذه الطريق ، وكونه موقوفا أصح من رفعه ، والله أعلم . وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر ، من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ، وهو ضعيف عن عثمان بن سباح عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبى ﷺ بنحوه . وروى من طريق أبى داود الطيالسى وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى نعيم عن أبيه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام . وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهانى حدثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا أحمد بن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان ، فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا بن الخالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه تُغفر لك أبداً ، قال : وما هى يا بن خالة ؟ قال : امرأة صدمتها ، قال : والله ما شعرت بها ، قال : سبحان الله ! بدنك معى فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ، ولو أن قلبى اطمأن إلى جبريل لظننت أنى ما عرفت الله طرفة عين ، فيه غرابة وهو من الاسرائيليات . وقال إسرائيل عن أبى حصين عن خيثمة قال : كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنى خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهم دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ، ولا مأوى يأويان إليه أينما جنهما الليل آويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصنى ، قال : لا تغضب ، قال : لا أستطيع إلا أن أغضب ، قال : لا تقتنين مالا ، قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلا على روايتين ، فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ ، فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها ، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين . وقد روى هذا فى حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله . وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذى انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتا ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان بعد من البدلاء ، حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى أن النبى

ﷺ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال : ياأخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى ، قال : فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن ، أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن، بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم ، قال : يارسول الله ، وإن صام وصلى ؟ قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل . وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبى كثير به ، وكذلك رواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى وموسى بن اسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به . ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى به ، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطرى عن معاوية بن سلام عن أخيه به ، ثم قال : تفرد به مروان الطاطرى عن معاوية بن سلام قلت : وليس كما قال ، ورواه الطبرانى عن محمد بن عبدة عن أبى نوبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى فذكر نحوه فسقط

ذكر زيد بن سلام عن أبى سلام عن الحارث الأشعرى فذكر نحو هذه الرواية ، ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه عن الربيع بن أنس قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بنى إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم . وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البرارى ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان ويقول : من أنعم منك يا يحيى ؟ وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا فى تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل . وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليبكى من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلى حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : جلست يوما إلى أبى إدريس الخولانى وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاما ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاما ، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم . وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه ، فقال : يا بنى أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه ، فقال : يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين؟ فقال له : ابكِ يابنى فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه ، وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ماهم فيه من النعيم فكذا ينبغى للصديقين أن لا يناموا لما فى قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ، ثم قال: كم بين النعيمين ، وكم بينهما ، وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا فى قتله أسبابا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزوجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها ، فبعثت إليه

من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها .
وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ، ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طست . وقد ورد معناه فى حديث رواه إسحق بن بشر فى كتابه المبتدأ حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفى عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا فى السماء ، فسلم عليه وقال له : يا أبا يحيى خبرنى عن قتلك كيف كان ، ولم قتلك بنو إسرائيل ؟ قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً وكان كما قال الله تعالى: (وسيداً وحصوراً) وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بنى إسرائيل ، وكانت بغيًا ، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ، ولهم عيد يجتمعون فيه كل عام ، وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال : فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجباً ، ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سلينى فما سألتنى إلا أعطيتك ، قالت : أريد دم يحيى بن زكريا ، قال لها : سلينى غيره ، قالت : هو ذاك ، قال : هو لك ، قال : فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى وأنا إلى جانبه أصلى ، قال : فذبح فى طست وحمل رأسه ودمه إليها . قال : قال رسول الله ﷺ : فما بلغ من صبرك ؟ قال : ما انفتلت من صلاتى ، قال : فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها ، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا ، قال : فخرجوا فى طلبى ليقتلونى ، وجاءنى النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم علىّ ، فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لى شجرة فنادتنى وقالت : إلىّ إلىّ وانصدعت لى ودخلت فيها ، قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجا من الشجرة ، وجاءت بنو اسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره ، فقالوا : نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس : شقوه بالمنشار شقا ، قال : فشققت مع الشجرة بالمنشار ، قال له النبى ﷺ : هل وجدت له مسا أو وجعا ؟ قال : لا ، إنما وجدت ذلك الشجرة التى جعل الله روحى فيها . هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ما ينكر على كل حال ، ولم ير فى شىء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام ـ إلا فى هذا الحديث . وإنما المحفوظ فى بعض ألفاظ الصحيح : فى حديث الإسراء « فمررت بابنى الخالة يحيى وعيسى » ، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ؛ فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران ، وقيل

بل أشياع هى امرأة زكريا أم يحيى هى أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم ، فالله أعلم .

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره على قولين ، فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام ، وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى ، فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن ، وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصرى ، فالله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير ، وفى رواية كأنما قتل الساعة ، وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة ، فالله أعلم .

وقد (١) روى الحافظ ابن عساكر فى المستقصى فى فضائل الأقصى من طريق العباس ابن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة ـ يعنى دمشق ـ هداد بن هدار ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً ، ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك ، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك بإشارة أمها ، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلى بمسجد حيرون من أتاه برأسه فى صينية فجعل الرأس يقول له : لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ، ثم إلى حقويها ، وجعلت أمها تولول ، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى

---

(١) من هنا إلى قصة عيسى لم يوجد فى النسختين الموجودتين بدار الكتب المصريةونقلناها من نسخ أخرى .

برأسها ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا فى الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً .

قال سعيد بن عبد العزيز: وهى دم كل نبى ، ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن باذن الله ، فسكن ، فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس ، فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة ، وسبا منهم ، ثم رجع عنهم .

قصة عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وابن أمته عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى فى سورة آل عمران التى أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها فى الرد على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا أن لله ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث فى الأقانيم ، ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة ، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم ، على اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات ، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له : كن فكان ، سبحانه وتعالى ، وبين أصل ميلاد أمه مريم ، وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى ، وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم ، كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين : (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال وآل إبراهيم فدخل فيهم بنو اسماعيل وبنو اسحاق ، ثم ذكر

فضـل هذا البيت الـطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليه السلام ، وقال محمد بن إسحاق : وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن احريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن يهفاشاط بن ايشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داود .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن اخنر ابن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن ايشا بن ايبا ابن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام ، وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق ، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه وكانت أمها وهى حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات ، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع فى قول الجمهور ، وقيل : زوج خالتها أشياع ، فالله أعلم .

وقد ذكر محمد بن اسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل ، فرأت يوماً طائراً يزق فرخا له ، فاشتهت الولد ، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً ، أى حبيساً ، فى خدمة بيت المقـدس ، قالوا : فحاضت من فورها ، فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وقرىء بضم التـاء (وليس الذكر كالأنثى) أى فى خدمة بيت المقدس ، وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم ، وقولها (وإنى سميتها مريم) استدل به على تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت فى الصحيحين عن أنس فى ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله ، وجاء فى حديث الحسن عن سمرة مرفوعا « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه » رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وجاء فى بعض ألفاظه « ويدمى » بدل « ويسمى » ، وصححه بعضهم والله أعلم . وقولها (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) قد استجيب لها فى هذا ، كما تقبل منها نذرها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدى عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه . وقال أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن عمر حدثنا

ابن أبى ذؤيب عن عجلان مولى المشمعل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كل مولود من بنى آدم يمسه الشيطان بأصبعه إلا مريم ابنت عمران وابنها عيسى » . تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم عن أبى الطاهر عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن أبى يونس عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحـوه . وقال أحمد حدثنا هشيم حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان فى حضنـه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنـه » وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه ، ورواه قيس عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وكذا رواه محمـد بن إسحـاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بأصل الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك حدثنا المغيرة هو ابن عبد الله الحزامى عن أبى الـزنـاد عن الأعـرج عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب » . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقوله : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا) ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خرقها ثم خرجت بها إلى المسجـد فسلمتها إلى العبَّاد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغـرهـا ، ثم لما دفعتهـا إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الـزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين فشـاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى (وكفلها زكريا) أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفا به ثم حملوها ووضعوها فى موضع وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام ، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه فى الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا ، فكان زكريا

هو الغالب لهم ، فكفلها إذ كان أحق بها شرعا وقدراً لوجوه عديدة . قال الله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفا من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً فى غير أوانه فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها : (أنى لك هذا) فتقول : (هو من عند الله) أى رزق رزقنيه الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فعند ذلك وهنالك طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . قال بعضهم : قال يا من يرزق مريم الثمر فى غير أوانه هب لى ولداً وإن كان فى غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره فى قصته . (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمى زمانها بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً (يكلم الناس في المهد) أى فى صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له وكذلك فى حال كهولتـه ، فدل على أنه يبلغ الكهولة ، ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلا لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها ، رضى الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها ، فقول الملائكة (يا مريم

إن الله اصطفاك) أى اختارك واجتباك (وطهرك) أى من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة (واصطفاك على نساء العالمين)، يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى (إنى اصطفيتك على الناس) وكقوله عن بنى إسرائيل (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ، ومعلوم أن ابراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً ، وأفضل علما وأزكى عملا من بنى اسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله (واصطفاك على نساء العالمين) محفوظ العموم ، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله (واصطفاك على نساء العالمين) إذ لم يعارضه غيره ، والله أعلم . وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها ، والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عديدة عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع ، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة ابنة محمد » ورواه الترمذى عن أبى بكر بن زنجويه عن عبد الرزاق به وصححه ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبى جعفر الرازى وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبى جعفر الرازى عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « خير نساء العالمين أربع ، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله » . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبى ﷺ قال : خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه لزوج فى ذات يده . قال أبو

هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط . وقد رواه مسلم فى صحيحه عن محمد بن رافع وعبد ابن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به . وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى موسى بن على سمعت أبى يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره وأرأفه بزوج على قلة ذات يده . قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الابل ، تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبى هريرة . وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبى الفرات عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون . ورواه النسائى من طرق عن داود بن أبى هند . وقد رواه ابن عساكر عن طريق أبى بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعث حدثنا يحيى بن حاتم العسكرى نبأنا بشر بن مهران بن حمدان حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران ، وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا وهب بن منبه حدثنا خالد بن عبد الله الواسطى عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ، قالت : أخبرنى أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرنى أنى أسرع أهله لحوقا به وأنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت ، وأصل هذا الحديث فى الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم ، وفيه أنها أفضل الأربع المذكورات ، وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن يزيد ، هو ابن أبى زياد ، عن عبد الرحمن بن أبى نعيم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران ، إسناد حسن وصححه الترمذى ولم يخرجوه ، وقد روى نحوه من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى إسناده ضعف ، والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة ، لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول ، فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر أنبأنا أبو الحسن بن الفرا وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا أبو طاهر المخلص حدثنا أحمد ابن سليمان حدثنا الزبير هو ابن بكار حدثنا محمد بن الحسن عن عبد العزيز بن محمد عن

موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون ، فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التى للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لا تقتضى الترتيب ولا تنفيه ، والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازى عن داود الجعفرى عن عبد العزيز بن محمد ، وهو الدراوردى عن إبراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعا فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية ، فخالفه إسناداً ومتناً ، فالله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . فإنه حديث صحيح كما ترى، اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك فى زمانهما ، فإن كلا منهما كفلت نبياً فى حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفى كمال غيرهما فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة ، فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضى الله عنها وأرضاها ، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها ، لأنها أصيبت برسول الله وبقية أخواتها متن فى حياة النبى ﷺ ، وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف فى سائر النساء فى هذه الأمة ، بل ولا فى غيرها ، أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة ، وتفتى المسلمين وتصلح بين المختلفين ، وهى أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين فى قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيهما رضى الله عنهما وماذاك إلا لأن قوله ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، يحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ، ويحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى ما عدا المذكورات ، والله أعلم .

والمقصود هٰهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمى زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا ، وقد ورد فى حديث أنها تكون من أزواج النبى عليه الصلاة والسلام فى الجنة هى وآسية بنت مزاحم ، وقد ذكرنا فى التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله (ثيبات وأبكاراً) قال : فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران ، وقد ذكرناه فى آخر سورة التحريم ، فالله أعلم .

قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفى حدثنا أبى أنبأنى عمى الحسين حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة ، هو العوفى ، قال : قال رسول الله ﷺ إن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى ، وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعرة حدثنا عبد النور بن عبد الله حدثنا يونس بن شعيب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : أشعرت أن الله زوجنى مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى رواه ابن جعفر العقيلى من حديث عبد النور به ، وزاد فقلت : هنيئاً لك يارسول الله ، ثم قال العقيلى : وليس بمحفوظ . وقال الزبير بن بكار حدثنى محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبى داود قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهى فى مرضها الذى توفيت فيه فقال لها : بالكره منى ما أرى منك يا خديجة ، وقد يجعل الله فى الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله قد زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون ، قالت : وقد فعل الله بك ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم ، قالت : بالرفاء والبنين . وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابى حدثنا العباس بن بكار حدثنا أبو بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهى فى مرض الموت فقال : ياخديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن منى السلام ، قالت : يا رسول الله وهل تزوجت قبلى ؟ قال : لا ، ولكن الله زوجنى مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى ، وروى ابن عساكر من طريق سويد ابن سعيد حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد عن ابن عمر قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله إذ مرت خديجة ، فقال جبريل من هذه يا محمد ؟ قال : هذه صِدِّيقة أمتى ، قال جبريل : معى إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، بعيد من اللهب لا نصب فيه ولا صخب ، قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته وعلى رسول الله ، ما ذلك البيت الذى من قصب ؟ قال : لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران

وبيت آسية بنت مزاحم ، وهما من أزواجى يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب فى الصحيح ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل من هذه الأحاديث فى أسانيدها نظر . وروى ابن عساكر من حديث أبى زرعة الدمشقى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى معاوية عن صفوان ابن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة ، يعنى صخرة بيت المقدس ، فقال : الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة . ثم رواه من طريق إسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ بمثله ، وهذا منكر من هذا الوجه ، بل هو موضوع ، قد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عابد أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه . قلت : وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التى منها ماهو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم ، وهذا منه ، والله أعلم .

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم البتول

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهُزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هرٰون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث

حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر فى سورة آل عمران ، قرن بينهما فى سياق واحد ، وكما قال فى سورة الأنبياء (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين . والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً ـ وهو المكان الشريف من المسجد ـ لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام . وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها ، وبأنه سيهب لها ولداً زكياً ، يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات . فتعجبت من وجود ولد من غير والد ؛ لأنها لا زوج لها ولا هى ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ، فاستكانت لذلك وأنابت ، وسلمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ؛ فإن الناس سيتكلمون فيها بسببه ؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل . وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها ، أو لحاجة ضرورية لابد منها ؛ من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . فبينما هى يوماً قد خرجت لبعض شئونها ، و(انتبذت) أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى ، إذ بعث الله إليهـا الروح الأمين ، جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشراً سويا) ، فلما رأته (قالت إنى أعـوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) . قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نُهية [1] ، وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقى » ؛ فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال (قال إنما أنا رسول ربك) أى خاطبها الملك قائلا : إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك (لأهب لك غلاماً زكياً) أى ولداً زكياً ، (قالت أنى يكون لى غلام) أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ؟ (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً) أى ولست ذات زوج ، وما أنا من

---

(١) النهية بالضم ـ واحدة النهى : وهى العقول ؛ لأنها تنهى عن القبيح .

يفعل الفاحشة (قال كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا : (كذلك قال ربك) أى وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ، ولا تكونين ممن تبغين (هو على هين) أى وهذا سهل عليه ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير . وقوله : (ولنجعله آية للناس) أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله (ورحمة منا) أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله ، فى صغره وكبره ، فى طفوليته وكهوليته ـ بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : (وكان أمراً مقضياً) يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ؛ يعنى أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره . وهـذا معنى قول محمد بن إسحاق ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه ، والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : (وكان أمراً مقضياً) ـ كناية عن نفخ جبريل فيها ؛ كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا [1]) . فذكر غير واحد من السلف : أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال : إنه نفخ فى فمها ، أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها ـ فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن ؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذى أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج ، بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها ، فانسلكت فيه ، كما قال تعالى : (فنفخنا فيه من روحنا) ، يدل على أن النفخة ولجت فيه ؛ لا فى فمها كما روى عن أبى بن كعب ، ولا فى صدرها كما رواه السدى بإسناده عن بعض الصحابة . ولهذا قال تعالى : (فحملته) أى حملت ولدها (فانتبذت به مكاناً قصيا) . وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعا ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها ، فذكر غير واحد من السلف ـ منهم وهب بن منبه ـ أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل ، كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها ـ فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها ، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج . فعرض لها ذات يوم في الكلام ، فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت : نعم فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟

قالت نعم . فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت نعم . إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك ، فقالت : إن الله بشرنى (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين) . ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام : أنه سألها فأجابته بمثل هذا ، والله أعلم .

وذكر السدى بإسناده عن الصحابة : أن مريم دخلت يوماً على أختها ، فقالت لها أختها : أشعرت أنى حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أنى حبلى ؟ فاعتنقتها ، وقالت لها أم يحيى : إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، وذلك قوله : (مصدقاً بكلمة من الله) . ومعنى السجود هُهنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام ؛ كما كان فى شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة ، وكان حملهما جميعاً معاً ، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم : إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، رواه ابن أبى حاتم . وروى عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى ، وإذا كنت بين الناس سبح فى بطنى .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر ، كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ؛ إذ لو كان خلاف ذلك لذكر . وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : (فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) . والصحيح أن تعقيب كل شىء بحسبه ، كقوله : (فتصبح الأرض مخضرة) . وكقوله : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً ، كما ثبت فى الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر فى بنى إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا . قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم ، وانتبذت مكاناً قصياً . وقوله : (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو

ـ بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقى بإسناد ، وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ـ ببيت لحم ؛ الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره ـ هذا البناء المشاهد الهائل . (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) . فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها ، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات [١] في المسجد ، المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال ، أو كانت (نسياً منسياً) أى لم تخلق بالكلية .

وقوله : (فناداها مَنْ تحتَها) وقرىء مِن تحتِها على الخفض ، وفى المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل ، قاله العوفى عن ابن عباس ، قال ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم ، وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير فى رواية : هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير . وقوله : (ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) قيل النهر ، وإليه ذهب الجمهور ، وجاء فى حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم : أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) فذكر الطعام والشراب . ولهذا قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً) . ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً ، وقيل : كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ؛ لأن ميلاده كان فى زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : (تساقط عليك رطباً جنياً) . قال عمرو بن ميمون ليس شىء أجود للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأنصارى عن عروة بن رويم عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم ، وليس من الشجر شىء يلقح غيرها » ، وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الوُلَّد [٢] الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » . وكذا رواه أبو يعلى فى مسنده عن شيبان

---

(١) أى المعتكفات فيه .

(٢) جمع والدة ، وولود ، ووالد .

ابن فروخ عن مسروق بن سعيد ، وفى رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التميمى ، أورد له ابن عدى هذا الحـديث عن الأوزاعى به . ثم قال : وهـو منكر الحديث ، ولم أسمع بذكره إلا فى هذا الحديث . وقال ابن حبان : يروى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة ، التى لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها .

وقـوله : (فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) . هذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها ، قال : (فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحـداً) أى فإن رأيت أحـداً من الناس (فقولى) له ـ أى بلسان الحال والإشارة : (إنى نذرت للرحمن صوماً) أى صمتاً ، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسدى وابن أسلم ، ويدل على ذلك قوله : (فلن أكلم اليوم إنسياً) . فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل . وقوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا) ، ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب : أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ـ ذهبوا فى طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها ، فقالوا لها : (يا مريم لقد جئت شيئاً فريا) أى أمراً عظيما منكراً . وفى هذا الذى قالوا نظر ـ مع أنه كلام ينقض أوله آخره ـ وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت (ولدها) بنفسها ، وأتت به قومها وهى تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعللت من نفاسها بعد أربعين يوما .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا) والفرية هى الفعلة المنكـرة العظيمة من الفعال والمقال ، ثم قالوا لها (يا أخت هارون) قيل : شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة وكان اسمه هارون ، وقيل : شبهوها برجـل فاجر فى زمانهم اسمه هارون ، قاله سعيد بن جبير ، وقيل : أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبا ، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم مايرده عن هذا القـول الفظيع ، وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجا الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه ، فاعتقد أن هذه هى هذه ، وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه فى التفسير مطولا ، ولله الحمد والمنة . وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبى يذكره عن سماك بن علقمة ابن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون (يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » وكذا رواه مسلم والنسائى والترمذى من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وفى رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانو يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » ، وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون ، حتى قيل : إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً ، فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : يا أخت هارون ، ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبى اسمه هارون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ولهذا قالوا : (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) أى لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم ، لا أخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء ، فذكر ابن جرير فى تأريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا ، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار ، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذى الجلال ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال (فأشارت إليه) أى خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها (قالوا) من كان منهم جباراً شقياً (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ؟ أى كيف تحيلينا فى الجواب على صبى صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع فى مهده ولا يميز بين محض وزبدة ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولا نطقياً ، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبيا ، فعندها (قال إنى عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) .

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن قال : (إنى عبد الله) اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه ، فنزه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله بل عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله (آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) .

وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر أنها صديقة واتخذ ولدها نبيا مرسلا أحد أولى العزم الخمسة الكبار، ولهذا قال : (وجعلنى مباركا أين ما كنت) وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) وهذه وظيفة العبيد فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف ، وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات . ثم قال : (وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا) أى وجعلنى براً بوالدتى وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها ، إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها . (ولم يجعلنى جباراً شقيا) أى لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته . (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) وهذه الأماكن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره فى آل عمران : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) .

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكبا يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم ، وهم : العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة ، فجعلوا يناظرون فى أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران فى ذلك وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة ، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمدا لنبى

مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلا أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ، وقد بينا ذلك فى تفسير آل عمران ، وسيأتى بسط هذه القضية فى السيرة النبوية ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله : (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) يعنى من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ولهذا قال : (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى لا يعجزه شىء ولا يكترثه ولا يؤوده ، بل هو القدير الفعال لما يشاء (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقوله (إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم . قال الله تعالى : (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه ، فمن قائل من اليهود : إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم ، وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله ، وقال آخرون : هو ابن الله ، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون ، ومن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله : (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

قال البخارى : حدثنا صدقة بن الفضل أنبأنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانىء حدثنى جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » قال الوليد فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة وزاد « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » . وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعى به .

بـاب بيـان أن الله تعالى مـنزه عـن الـولـد تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

قال تعالى فى آخر هذه السورة : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً) أى شيئاً عظيما ومنكراً من القول وزوراً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) . فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد لأنه خالق كل شىء ومالكه وكل شىء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه ، وجميع سكان السموات والأرض عبيده وهو ربهم ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

كما قال تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) فبين أنه خالق كل شىء فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين والله تعالى لانظير له ولا شبيه له ولا عديل له ، فلا صاحبة له فلا يكون له ولد .

كما قال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) تقرر أنه الأحد الذى لانظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله (الصمد) وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته (لم يلد) أى لم يوجد منه ولد (ولم يولد) أى ولم يتولد عن شىء قبله (ولم يكن له كفواً أحد) أى وليس له عدل ولا مكافىء ولا مساو منقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال تبارك وتعالى وتقدس : (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السمٰوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ، ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء فى الدين ، وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول ، التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال : بيت الله وناقة الله وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفا لها وتكريما . وسمى عيسى بها لأنه كان بغير أب ، وهى الكلمة أيضا التى عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) . وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل له ما فى السمٰوات والأرض كل له قانتون . بديع السمٰوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . وقال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون) . فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى ، عليهم لعائن الله كل من الفريقين ادعوا على الله شططا وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة (تشابهت قلوبهم) وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذى يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثانى كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة ، والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختبارات باردة أوردوها ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركى العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة ، تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون ، كما قال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) وقال تعالى : (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين) . وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إلـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) . وقال تعالى فى أول سورة الكهف وهى مكية (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبدا . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقـولـون إلا كذبا) . وقال تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات ومافى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركى العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

ولما كانت النصارى ، عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، من أشهر من قال بهذه المقالة ذُكِروا فى القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم فى كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض . وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) . فدل على أن الحق يتحد ويتفق ، والباطل يختلف ويضطرب ، فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى ، وطائفة قالوا هو ابن الله عز الله ، وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة جل الله .

قال الله تعالى فى سورة المائدة : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير) . فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم ، وبين أنه الخالق القادر على كل شىء المتصرف فى كل شىء ، وأنه رب كل شىء ومليكه وإلهه . وقال فى أواخرها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلـه إلا إلـه واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى

يؤفكون) حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور فى الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزى فى الدار الآخرة والهوان والعار ولهذا قال : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ثم قال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلـه إلا إلـه واحد) قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم فى ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله ، كما سنبين كيفية اختلافهم فى ذلك ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ولهذا قال تعالى : (وما من إلـه إلا إلـه واحد) أى وما من إلـه إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد ، ثم توعدهم وتهددهم فقال : (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التـوبـة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التى توجب النار فقال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة ، أى ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله ، وفيه دليل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه طائفة من علمائنا ، وقوله : (كانا يأكلان الطعام) كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهـا ، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبـيراً . وقـال السدى وغيره : المراد بقوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك يقول فى آخر هذه السورة الكريمة (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ، فمن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه ، فيقول له : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك) أى تعاليت أن يكون معك شريك (ما يكون لى أن أقول ما ليس

لى بحق) أى ليس هذا يستحقه أحد سواك (إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب) وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) حين أرسلتنى إليهم وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم ، ثم فسر ما قال لهم بقوله : (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى) أى رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبرى من أهل النصرانية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك) أى وهم يستحقون ذلك (وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضى وقوع ذلك ، ولهذا قال (فإنك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وقال : إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً . وقال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار . خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) . وقال تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) . وقال تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل وكبره تكبيرا) وقال تعالى : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد » وفى الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم ، ولكن ثبت فى الصحيح أيضا عن

رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) ، وهكذا قوله تعالى : (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير) ، وقال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) ، وقال تعالى : (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) ، وقال تعالى : (فمهل الكافرين أمهلهم رويداً) .

ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام ومرباه فى صغره وصباه وبيان بدء الوحى إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس ، وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر ، وأن مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار ، وهى راكبة على حمار ليس بينها وبين الإكاف شىء ، وهذا لايصح ، والحديث الذى تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل .

وذكر وهب بن منبه أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت فى سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى ، فوجدوه فى حجر أمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم فى السماء ، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : هذا لمولد عظيم فى الأرض ، فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت ، فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس ، واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد فأرسلهم إليه بما معهم ، وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه ، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك ، فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات فى حال صغره، نذكر منها :

أن الدهقان الذى نزلوا عنده افتقد مالا من داره ، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج ، فلم يدر من أخذه ، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل

أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه ، فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به ، فقال : إنى لا أستطيع ذلك ، فقال : بلى ، كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار ، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم فى أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً ، يعني خمراً ، كما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان لم يجد فى جراره شيئاً ، فشق ذلك عليه ، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها ، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب ، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبى نضرة عن أبى سعيد وعن مكحول عن أبى هريرة قال : إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله ، لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلا ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره فى تمجيده فقال : « اللهم أنت القريب فى علوك ، المتعالى فى دنوك ، الرفيع على كل شىء من خلقك ، أنت الذى خلقت سبعاً فى الهواء بكلماتك ، مستويات طباقا ، أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم فى مفطور سمٰواتك وفيما دحوت من أرضك ، دحوتها على الماء فسمكته على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال التظاهر فذل لطاعتك صعبها ، واستحيى لأمرك أمرها ، وخضعت لعزتك أمواجها ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ، ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلمودها ، فتباركت اللهم ، فمن يبلغ بنعته نعتك ؟ أمَّن يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضى الحق وأنت خير الفاصلين ، لا إلـه إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إلـه إلا أنت سترت السمٰوات عن الناس ، لا إلـه إلا أنت سبحانك إنما يغشاك من عبادك الأكياس ، نشهد أنك لست بإلـه استحدثناك ولا رب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء

فندعوهم ونذكرك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفواً أحد » .

وقال إسحاق بن بشر : عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس : إن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفى أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية ، وذلك قوله تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) قال : فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب فجعل لا يعلمه المعلم شيئا إلا بدره إليه ، فعلمه « أبجد » فقال عيسى : ما « أبجد » ؟ فقال المعلم : لا أدرى ، فقال عيسى كيف تعلمنى ما لا تدرى ؟ فقال المعلم : إذاً فعلمنى! فقال له عيسى : فقم من مجلسك ؛ فقام فجلس عيسى مجلسه فقال : سلنى ، فقال المعلم : ما « أبجد » ؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، والجيم بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك ، فكان أول من فسر « أبجد » .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه بحديث طويل موضوع لا يسأل ولا يتمادى . وهكذا روى ابن عدى من حديث اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود وعن مسعد بن كدام عن عطية عن أبى سعيد رفع الحديث فى دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم معنى حروف « أبجد » وهو مطول لا يفرح به .

ثم قال ابن عدى : وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير اسماعيل ، وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ماخبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم ، فيقول : خبأت لك كذا وكذا ، فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعمينى ما خبأت لى ، فتقول : وأى شىء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا ، فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم . فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم ، فجمعوهم فى بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم فى بيت فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك ، رواه ابن عساكر .

وقال إسحاق بن بشر : عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : وكان

عيسى يرى العجائب فى صباه إلهاما من الله ففشا ذلك بين اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) .

وقد اختلف السلف والمفسرون فى المراد بهذه الربوة التى ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل وهى أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذى أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع ، ومع علوه فيه عيون الماء المعين ، وهو الجارى السارح على وجه الأرض ، فقيل : المراد المكان الذى ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ولهذا (فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير فى قول جمهور السلف .

وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق ، فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنها دمشق . وقيل : ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم والله أعلم ، وقيل : هى الرملة .

وقال إسحاق بن بشر قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال : فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى ، وإبراء الأسقام والعلل والعلم بالغيوب مما يدخرون فى بيوتهم .

وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتى من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه ، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقى : حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عمن حدثه قال : أنزلت التوراة على موسى فى ست ليال خلون من شهر رمضان ، ونزل الزبور على داود فى اثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة ، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم فى ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما ، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان ، وقد ذكرنا فى التفسير عند قوله : (شهر رمضان

الذى أنزل فيه القرآن) الأحاديث الواردة فى ذلك ، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام فى ثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير فى تأريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال إسحاق بن بشر : وأنبأنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ومقاتل عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : « يا عيسى جد فى أمرى ولا تهن واسمع وأطع ، يا ابن الطاهرة البكر البتول إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين ، إياى فاعبد وعلىَّ فتوكل ، خذ الكتاب بقوة فسر لأهل السريانية ، بلغ من بين يديك أنى أنا الحق الحى القائم الذى لا أزول ، صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج « وهى العمامة » والمدرعة والنعلين والهراوة « وهى القضيب » الأنجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين الجعد الرأس الكث اللحية المقرون الحاجبين الأقنى الأنف المفلج الثنايا البادى العنفقة الذى كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجرى فى تراقيه ، له شعرات من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر ، غير شثن الكف والقدم إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب ، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ وريح المسك تنفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة الطيب الريح نكاح النساء ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركة لها بيت ، يعنى فى الجنة ، من قصب لا نصب فيه ولا صخب ، تكفله يا عيسى فى آخر الزمان ، كما كفل زكريا أمك ، له منها فرخان مستشهدان ، وله عندى منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن ، ودينه الإسلام ، وأنا السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه ، وشهد أيامه ، وسمع كلامه » .

بيان شجرة طوبى ما هى

قال عيسى : يارب ، وما طوبى ؟ قال : « غرس شجرة أنا غرستها بيدى فهى للجنان كلها ، أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً » قال عيسى : يارب اسقنى منها . قال « حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبى ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبى » قال : يا عيسى أرفعك إلىَّ ، قال : رب ، ولم ترفعنى ؟ قال : « أرفعك ثم أهبطك فى آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبى العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال ، أهبطك فى وقت صلاة ثم لا تصلى بهم لأنها

مرحومة ولا نبى بعد نبيهم » . وقال هشام بن عمار : عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن ابن زيد عن أبيه أن عيسى قال : يارب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة ، قال : « أمة أحمد هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ، يرضون منى بالقليل من العطاء ، وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إلـه إلا الله ، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إلـه إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم » رواه ابن عساكر .

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلى عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم « أنزلنى من نفسك كهمك واجعلنى ذخراً لك فى معادك وتقرب إلىَّ بالنوافل أحبك ولا تول غيرى فأخذلك ، اصبر على البلاء وارض بالقضاء وكن لمسرتى فيك ، فإن مسرتى أن أطاع فلا أعصى ، وكن منى قريباً وأحيى ذكرى بلسانك ولتكن مودتى فى صدرك ، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم فى لطيف الفطنة وكن لى راغباً راهباً وأمت قلبك فى الخشية لى وراع الليل لحق مسرتى ، وأظمِ نهارك ليوم الرى عندى ، نافس فى الخيرات جهدك واعترف بالخير حيث توجهت وقم فى الخلائق بنصيحتى واحكم فى عبادى بعدلى ، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ، ولا تكن حلساً كأنك مقبوض وأنت حى تتنفس ، يا عيسى ابن مريم ما آمنت بى خليقة إلا خشعت ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى ، فأشهدك أنها آمنة من عقابى مالم تغير أو تبدل سنتى . يا عيسى ابن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها ، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه ، وكن فى ذلك تلين الكلام وتفشى السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، وأكحل عينك بملول الحزن إذا ضحك البطالون ، وكن فى ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين ، رح من الدنيا بالله يوم بيوم وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه ومالم يأتك كيف لذته ، فرح من الدنيا بالبلغة ، وليكفك منها الخشن الخبيب وقد رأيت إلى ما يصير ، اعمل على حساب فإنك مسئول ، لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائى الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك .

وقال أبو داود فى كتاب القدر حدثنا محمد بن يحيى بن فارس حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى : عن ابن طاوس عن أبيه قال : لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ماكتب لك ، قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فتردى

منه فانظر هل تعيش أم لا ، فقال ابن طاوس عن أبيه : فقال عيسى أما علمت أن الله قال : « لا يجربنى عبدى فإنى أفعل ما شئت » وقال الزهرى : إن العبد لا يبتلى ربه ولكن الله يبتلى عبده . قال أبو داود حدثنا أحمد بن عبدة أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاوس قال : أتى الشيطان عيسى ابن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأت هوة فألق نفسك ! قال : ويلك ، أليس قال : يا بن آدم لا تسألنى هلاك نفسك فإنى أفعل ما أشاء ..

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا حسين بن طلحة سمعت خالد بن يزيد قال : تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين ، أقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيت نفسى هل يصيبنى إلا ماكتب لى ، قال : إنى لست بالذى أبتلى ربى ولكن ربى إذا شاء ابتلانى ، وعرفه أنه الشيطان ففارقه . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا شريح بن يونس حدثنا على بن ثابت عن الخطاب بن القاسم عن أبى عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلى على رأس جبل فأتاه إبليس فقال : أنت الذى تزعم أن كل شىء بقضاء وقدر ؟ قال : نعم ، قال : ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر علىّ ! فقال : يالعين ، الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا الفضل بن موسى البصرى حدثنا إبراهيم بن بشار سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقى عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسى ابن مريم الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبياً . ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، قال : بل الربوبية للاله الذى أنطقنى ثم يميتنى ثم يحيينى ، قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيى الموتى ، قال : بل الربوبية لله الذى يحيى ويميت من أحييت ثم يحييه ، قال : والله إنك لإلـه فى السماء وإلـه فى الأرض ، قال : فصكه جبريل صكة بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس ، ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه ، وفى رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول : ما لقى أحد من أحد مالقيت منك يا بن مريم .

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنى أبو الحسن ابن رزقويه أنبأنى أبو بكر أحمد بن سبدى حدثنا أبو محمد الحسن بن على القطان حدثنا اسماعيل بن عيسى العطار أنبأنا على بن عاصم حدثنى أبو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال : صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغى لك أن تكون عبداً فأكثر عليه ، وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه فجعل لا يتخلص منه ، فقال فيما يقول : لا ينبغى لك يا عيسى أن تكون عبداً ، قال : فاستغاث عيسى بربه فأقبل جبريل

وميكائيل فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه فى بطن الوادى ، قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك ، فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغى أن تكون عبداً ، إن غضبك ليس بغضب عبد وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك لأمر هو لك ؛ آمر الشياطين فليطيعوك ، فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك ـ عبدوك . أما إنى لا أقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ولكن الله يكون إلهاً فى السماء وتكون أنت إلهاً فى الأرض ، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ومر عيسى وهو بمكانه ، فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً فرمى به فى عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال : فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه فى تلك الحمأة ، قال : والله ما عاد إليه بعد . قال : وحدثنا إسماعيل العطار حدثنا أبو حذيفة قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا قد لقيت تعبا ، قال : إن هذا عبد معصوم ليس لى عليه من سبيل وسأضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله ، قال وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً يذكر نعمته على عيسى فقال (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) يعنى إذ قويتك بروح القدس يعنى جبريل (تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) الآية كلها ، وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضى بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك فاعلم ، خلقان عظيمان من لقينى بهما فقد لقينى بأزكى الخلائق وأرضاها عندى ، وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا ، وصلينا فلم يقبل صلاتنا ، وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاءنا ، فقل لهم : ولم ذلك ؟ وما الذى يمنعنى ؟ إن زلت يدى قلت أوليس خزائن السموات والأرض بيدى أنفق منها كيف أشاء وأن البخل لا يعترينى ؟ أولست أجود من سُئِل وأوسع من أعطى ؟ أو أن رحمتى ضاقت ؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتى ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدوا أنفسهم بالحكمة التى تورث فى قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا وإذاً لأيقنوا أن أنفهسم هى أعدى الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونى ويستحلون محارمى ، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها .

يا عيسى إنها أجزى عليها أهلها ، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ، ازددت عليهم غضبا .

يا عيسى وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدنى وقال فيكما بقولى أن أجعلهم جيرانك فى الدار ورفاقك فى المنازل وشركاءك فى الكرامة ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم فى الدرك الأسفل من النار ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنى مثبت هذا الأمر على يدى عبدى محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يزر بالفحش ولا قوال بالخنا ، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته ، اسمه أحمد ، أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغنى به بعد العائلة وأرفع به بعد الضعة ، أهدى وأفتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة ، أجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمى وتصديقاً لما جاءت به الرسل ، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياما وقعوداً وركعا وسجوداً ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ، قرباتهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم وقربانهم فى بطونهم ، رهبان بالليل ليوث فى النهار ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتى المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة ، وقد روى أبو حذيفة إسحق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسى ، دخل حديث بعضهم فى بعض ، قالوا : لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهزءون به ، فيقولون ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله ؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا ، وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه ، إنما يسيح فى الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى ، فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غيرها وإنى عاهدت ربى أن لا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لى فأنظر إليها ، فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم ، قالوا : فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى

يا فلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى ، قال : فتحرك القبر ، ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عنى ؟ فقالت : لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكا فركب خلقى ، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلى روحى ، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة ، ثم أقبلت على أمها فقالت : ياأماه ماحملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ ياأماه اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا ، يا روح الله وكلمته سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقدمنا فى عقيب قصة نوح أن بنى إسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن نوح ، فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً ، وقد روى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس فى خبر ذكره وفيه أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل مات وحمل على سريره ، فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلا ومنظراً عجيباً ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه فى خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله (وعلى والدتك) فى اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبهاإليه الجاهلون ولهذا قال : (إذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه فى حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به (تكلم الناس فى المهد وكهلا) أى تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) أى الخط والفهم نص عليه بعض السلف (والتوراة والإنجيل) وقوله (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى) أى تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك (فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى) أى بأمرى ، يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم وقوله (وتبرىء الأكمه) قال بعض السلف : وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء

إلى مداواته (والأبرص) هو الذى لا طب فيه ، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا (وإذ تخرج الموتى) أى من قبورهم أحياء (بإذنى) وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية .

وقوله (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى وقوله (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون) قيل المراد بهذا الوحى وحى إلهام ، أى أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال (وأوحى ربك إلى النحل) ، (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم) وقيل : المراد وحى بواسطة الرسول وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين (آمنا واشهد بأننا مسلمون) .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لاشريك له كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) وقال تعالى : (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل ، الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه ، تصديقاً له أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا ، وهكذا عيسى ابن مريم بعث فى زمن

الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنىَّ لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم ، ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم فى ذلك غالطون وللحق مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين فى ذلك مخطئون ، قال تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى : (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) إلى أن قال بعد ذلك (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

قال محمد بن إسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام . وقد روى عن العرباض بن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا ، وفيه دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ، وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية ولما انتهت النبوة فى بنى إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده فى النبى العربى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام قال الله تعالى : (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ ، ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله) أى من يساعدنى فى الدعوة إلى الله (قال الحواريون نحن أنصار الله) وكان ذلك فى قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى ، قال الله تعالى : (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير ، بعث إليهم رسلا ثلاثة ، أحدهم شمعون الصفار ، فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورون فى سورة يس لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية ، وكفر آخرون من بنى إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) الآية فكل من كان إليه أقرب كان عاليا فمن دونه ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لاشك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

ذكــر خـــبر المـــائــدة

قال الله تعالى : (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منـزلهـا عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) قد ذكرنا فى التفسير الآثار الواردة فى نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسى وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف ، ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفـطرون عليهـا يوم فطرهـم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى فى ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها ، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل ، فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعـر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا ، فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحـدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلا قليلا ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاة بمنديل ، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول « باسم الله خير الرازقين » فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة ، ويقال : وخل ، ويقال : ورمان وثـمار ، ولهـا رائحة عظيمة جداً ، قال الله لها : كونى فكانت ثم أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لا نأكل حتى تأكل فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى ، وكانوا قريباً من ألف وثلثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك .

ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم ، حتى قيل : إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف ، ثم كانت تنزل يوما بعد يوم ، كما كانت ناقـة صالـح يشربون لبنها يوما بعد يوم ، ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو

المحاويج دون الأغنياء ، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك ، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى حدثنا سفيان ابن حبيب حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبى ﷺ قال : نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير ، ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبى عدى عن سعيد عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفا ، وهذا أصح وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بنى عجل عن عمار موقوفا وهو الصواب ، والله أعلم ، وخلاس عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلا فى هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا فى المائدة ، هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار ، كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله : (إنى منزلها عليكم) كما قرره ابن جرير ، والله أعلم . وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أنهما قالا : لم تنزل وأنهم أبوا نزولها حين قال : (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) . ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً فى كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعى على نقله ، والله أعلم . وقد تقصينا الكلام على ذلك فى التفسير فليكتب من هناك . ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ، ولله الحمد والمنة .

فصـــــل

قال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا رجل سقط اسمه حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان عن بكر بن عبد الله المزنى قال : فقد الحواريون نبيهم عيسى ، فقيل لهم : توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشى على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم ، فقال له بعضهم : قال أبو هلال : ظننت أنه من أفاضلهم ، ألا أجىء إليك يا نبى الله ؟ قال : بلى ، قال : فوضع إحدى رجليه على الماء ، ثم ذهب ليضع الأخرى فقال : أوه غرقت يا نبى الله ، فقال : أرنى يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء . ورواه أبو سعيد بن الأعرابى عن إبراهيم بن أبى الجحيم

عن سليمان بن حرب عن أبى هلال عن بكر بنحوه . ثم قال ابن أبى الدنيا حدثنا محمد ابن على بن الحسن بن سفيان حدثنا إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى ابن مريم : يا عيسى بأى شىء تمشى على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا : فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت ، قال : فامشوا إذاً ، قال : فمشوا معه فى الموج فغرقوا ، فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا : خفنا الموج قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال : فأخرجهم ، ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ، ثم بسطها ، فإذا فى إحدى يديه ذهب وفى الأخرى مدر أو حصى ، فقال : أيهما أحلى فى قلوبكم؟ قالوا : هذا الذهب قال : فإنهما عندى سواء ، وقدمنا فى قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوى إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد ، قال بعضهم كان يأكل من غزل أمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبى أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغى لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت ، وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر حدثنا جعفر بن بلقان أن عيسى كان يقول « اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهناً بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تسلط علىّ من لا يرحمنى » .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد ، كان عيسى يقول : لا نصيب حقيقة الإيمان حتى لا نبالى من أكل الدنيا . قال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكرت فى الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندى ممن خلق . وقال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن ، قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى ، قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا ، فقال : فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال هذا لك مع الدنيا .

وقال معتمر بن سليمان خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء ، وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش ، فقال : السلام عليكم يا بنى إسرائيل ، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر أتدرون أين بيتى ؟ قالوا : أين بيتك ياروح الله؟ قال : بيتى المساجد وطيبى الماء وإدامى الجوع

وسراجى القمر بالليل وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض ولباسى الصوف وشعارى خوف رب العزة وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء وأمسى وليس لى شىء وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنى منى وأربح . رواه ابن عساكر (١) .

وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى حدثنا هانىء بن المتوكل الاسكندرانى عن حيوة بن شريح حدثنى الوليد بن أبى الوليد عن سفى ابن نافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام . وهذا حديث غريب رفعه وقد يكون موقوفا من رواية سفى بن نافع عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم . وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا . وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سلونى فإنى لين القلب وإنى صغير عند نفسى . وقال إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم ، إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق ماأقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله .

وروى نحوه عن أبى هريرة ، وقال أبو مصعب : عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : « يا بنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره » وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تعمروها ، وكان يقول حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع فى القلب الشهوة . وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد ، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلا ، وعن عيسى عليه السلام : « يا بن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن فى الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة » . وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لايستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً . وفى هذا يقول سابق البربرى :

---

(١) من هنا إلى قوله : وقال عبد الله بن المبارك لم يوجد فى بعض النسخ .

لكم بيوت بمستن السيوف وهـل يبـنى على المـاء بيت أسـه مدر

وقال سفيان الثورى : قال عيسى ابن مريم : « لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء » . وقال إبراهيم الحربى عن داود بن رشيد عن أبى عبد الله الصوفى قال : قال عيسى : « طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله » وعن عيسى عليه السلام : « إن الشيطان مع الدنيا وفكره من المال وتزينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات » . وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول ، هكذا فاصنعوا بالقرى ، وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحجر حملك ولثدى أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتـاب الله واتبعه . وعنه ، طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته . وعنه ، طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم ، وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أنتن ريحها ، فقال ما أبيض أسنانها ، لينهاهم عن الغيبة . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا ابن عدى قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا : وفى ذلك يقول الشاعر :

أرى رجـالا بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضـوا فى العيش بالـدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استـغنى الملوك بدنياهم عن الـدين

وقال أبو مصعب : عن مالك قال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان ، معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية » . وقال الثورى : سمعت أبى يقول : عن إبراهيم التيمى قال : قال عيسى لأصحابه : « بحق أقول لكم : من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير» . وقال مالك بن دينار : قال عيسى : إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس . وقال عبد الله بن المبارك : أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبى الجعد قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم : نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها .

وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن ميسرة قال : قال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه ، قال آمين آمين بحق ما أقول لكم ، لا يترك الله من هذا لمسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التى تعجبكم شيئاً ، إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة ، وبها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفى أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر ابن عبد الله بن الهشيم إملاء حدثنا الوليد بن ابان إملاء حدثنا أحمد بن جعفر الرازى حدثنا سهيل بن إبراهيم الحنظلى حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان ، فقال : أى رب مر هذه المدينة أن تجيبنى ، فأوحى الله إلى المدينة أيتها المدينة الخربة جاوبى عيسى ، قال : فنادت المدينة عيسى حبيبى وما تريد منى ؟ قال ما فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك ؟ قالت : حبيبى ، جاء وعد ربك الحق فيبست أشجارى ونشفت أنهارى وخربت قصورى ومات سكانى ، قال : فأين أموالهم ؟ فقالت : جمعوها من الحلال والحرام موضوعة فى بطنى ، لله ميراث السموات والأرض ، قال : فنادى عيسى عليه السلام « فعجبت من ثلاث أناس . طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ، ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع ، تجمع مالك لمن لا يحمدك ، وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك ، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك ، وأنت يا بن آدم ترى حشد مالك فى ميزان غيرك » هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثورى عن أبيه عن إبراهيم التيمى قال : قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم فى السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه ، وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى ابن مريم : من تعلم وعلم وعمل دعى عظيما فى ملكوت السماء . وقال أبو كريب : روى أن عيسى عليه السلام قال : لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ويعبر بك النادى. وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعا أن عيسى قام فى بنى إسرائيل فقال : « يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل » .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال : قال عيسى : « لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير ، فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير » وكذا حكى وهب وغيره عنه ، وعنه أنه قال لأصحابه : « أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب ، والصبحة من غير سهر » . وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال زلة العالِم ، فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالَم كثير . وعنه أنه قال : « يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رءوسكم والآخرة تحت أقدامكم قولكم شفاء وعملكم داء ، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها » .

وقال وهب : قال عيسى : « يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ، ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه » . وقال مكحول : التقى يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك ، فقال له يحيى : يا بن خالة مالى أراك ضاحكا كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : مالى أراك عابساً كأنك قد يئست ، فأوحى الله إليهما أن أحبكما إلىّ أبشكما بصاحبه ، وقال وهب بن منبه : وقف عيسى وهو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : « قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع » وقال أبو عمر الضرير : بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً . والآثار فى مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفا صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر ، والله الموفق للصواب .

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء فى حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى فى دعوى الصلب

قال الله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) وقال تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح

عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم ، على الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان .

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دار بيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى ، الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى ، أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا ، وأخبر تعالى بقوله : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، وكما سنورد ذلك مستقصى فى كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال ، فنذكر ما ورد فى نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذى الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعى إلى الضلال .

وهذا ذكر ما ورد فى الآثار فى صفة رفعه إلى السماء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو أحمد بن سنان حدثنا معاوية عن الأعمش عن المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين ، يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ، فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : أنت ، هوذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق : فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء

اليعقـوبية ، وقـالت فرقـة : كان فينـا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ .

قال ابن عباس وذلك قوله تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية به نحوه ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبى معاوية ، وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، وممن ذكر ذلك مطولا محمد بن إسحٰق بن يسار ، قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله ، يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثـر الناس الدخول فى دين الله ، قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلا : بطرس ويعقـوب بن زبـدا ويحنس أخو يعقوب وإندراوس وفليبس وابرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن حلقيا وتداوس وفتاتيا ويودس كريايوطا ، وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى .

قال ابن إسحٰق وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى ، وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه ، قال : وبعض النصارى يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا ، والله أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون ، وقتلت اليهود يودس الذى ألقى عليه الشبه ، وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم قال : سمعت الفراء يقول فى قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) قال : إن عيسى غاب عن خالته زمـانـاً فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره ، فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى ، فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره ، ومعه سيف مسلول ، فقالوا : أنت عيسى ، وألقى الله شبه عيسى عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذكره : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه ، قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتمونا ، لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً ، فقال عيسى لأصحابه : من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة ، فقال رجل : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة

عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فمن ثَمَّ شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثنى حدثنا إسحاق حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة ، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا من ردعلىَّ شيئاً الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه ، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ماصنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى ، فليكن لكم بى أسوة ، فإنكم ترون أنى خيركم ، فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسى لكم ، وأما حاجتى التى استعنتكم عليها فتدعون الله وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينوننى فيها ، فقالوا : والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمراً ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال : يذهب بالراعى وتتفرق الغنم ، وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه .

ثم قال : الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ، ثلاث مرات ، وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه فجحد وقال : ما أنا بصاحبه فتركوه . ثمَّ أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلهم عليه ، وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيى الموتى وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون ، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ، ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ، حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً .

ثم إن أمه والمرأة التى كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : على مَنْ تبكيان ؟ قالتا عليك ، فقال : إنى قد رفعنى الله إليه ، ولم يصبنى إلا خير وأن هذا شىء شبه لهم فأمُرا الحواريين أن يلقونى إلى مكان

كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر ، وفقد الذى كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه فقال لو تاب لتاب الله عليه ، ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له : يحيى ، فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم . وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهى جالسة تبكى عند جذعة فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب ، وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة فى الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من فى بيت الملك ، بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام وهى تحسب أنه ابنها ، أن ينزل جسده فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ، فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذى هو عند القبر ، فقالت أم يحيى : إنى لا أرى أحداً ، فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل : وعرفته يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به ، فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه ، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فُعِل به فهم يبكون عليه ، فإذا كان يوم كذا وكذا فأتى غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح ، قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل ، فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة ، فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها ، فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال يا أمه إن القوم لم يقتلونى ، ولكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك والموت يأتيك قريبا فاصبرى واذكرى الله كثيراً ، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت . قال : وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة ، رضى الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصرى : كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة ، وفى الحديث « إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » . وفى الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحُسْن يوسف ، وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد ابن المسيب أنه قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذى رواه الحاكم فى مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوى فى تاريخه عن سعيد بن أبى مريم عن نافع بن زيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتنى فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبى كان بعده نبى إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله ، وأنه أخبرنى أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أرانى إلا ذاهب على رأس ستين. هذا لفظ الفسوى فهو حديث غريب .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر وإنما أراد به مدة مقامه فى أمته ، كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة ، قال : قالت فاطمة : قال لى رسول الله ﷺ : إن عيسى ابن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع . وقال جرير والثورى عن الأعمش عن إبراهيم [قال] : مكث عيسى فى قومه أربعين عاما ويروى عن أمير المؤمنين على أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان وتلك الليلة فى مثلها توفى علىٌّ بعد طعنه بخمسة أيام ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس ، أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها ، وجاءته مريم فودعته وبكت ، ثم رفع وهى تنظر وألقى إليها عيسى برداً له وقال هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها ، وكانت تحبه حباً شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً . قال بعض الشعراء :

وكنت أرى كالموت من بين ساعة فكيف ببين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذى شبه لهم ، وهم يحسبونه المسيح ، وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس ، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم ، فبعث فجىء بهم ، وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فبايعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوُضِع عن جذعه ، وجىء بالجذع الذى صُلِب عليه ذلك الرجل فعظمه ، فمن ثَمَّ عظمت النصارى الصليب ، ومن ها هنا دخل دين النصرانية فى الروم . وفى هذا نظر من وجوه :

الأول : أن يحيى بن زكريا نبى لا يقر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .

الثانى : أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة وذلك فى زمان قسطنطين ابن قسطنبانى المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ، ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحا للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك ، معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التى صلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفى ، فالله أعلم أكان هذا أم لا ؟ وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلا صالحا ؟ أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى فى ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلىء ومن ثَمَّ اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها ؟

وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التى يقال : لها القمامة ، باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة ، يعنون التى يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود ، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء ، وهو الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) قيل : سمى المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام ، وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين . وقال تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) وقال تعالى : (وآتيناعيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) والآيات فى ذلك كثيرة جداً وقد تقدم ما ثبت فى الصحيحين « ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن

فى الحجاب » وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » رواه البخارى ، وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بى فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » هذا لفظ البخارى . وقال البخارى حدثنا إبراهيم ابن موسى أنبأنا هشام عن معمر (ح) وحدثنى محمود حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب عن الزهرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسرى بى لقيت موسى ، قال : فنعته ، فإذا رجل ، حسبته قال : مضطرب ، رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيت عيسى ، فنعته النبى ﷺ فقال : ربعة ، أحمر كأنه خرج من ديماس ، يعنى الحمام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث ، وقد تقدم فى قصتى إبراهيم وموسى ثم قال : حدثنا محمد بن كثير أنبأنا إسرائيل عن عثمان ابن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر ، جعد ، عريض الصدر ، وأما موسى فآدم ، جسيم ، سبط ، كأنه من رجال الزط » تفرد به البخارى .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبى ﷺ يوماً بين ظهرانى الناس المسيح الدجال فقال : إن الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية ، وأرانى الليلة عند الكعبة فى المنام ، فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه ، رجل الشعر يقطر رأسه ماء ، واضعاً يديه على منكبى رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح ابن مريم ؛ ثم رأيت رجلا وراءه جعد قطط أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن ، واضعاً يده على منكبى رجل يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخارى : تابعه عبد الله بن نافع ، ثم ساقه من طريق الزهرى عن سالم بن عمر ، قال الزهرى : وابن قطن رجل من خزاعة هلك فى الجاهلية ، فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح الهدى ومسيح الضلالة ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا والذى لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عينى » وكذا رواه محمد بن نافع عن عبد الرزاق وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبى هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبى ﷺ قال : « رأى عيسى رجلا يسرق فقال : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقت ، فقال : آمنت بالله وكذبت بصرى » .

وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً فقبل عذره ، ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله ، أى صدقتك وكذبت بصرى لأجل حلفك .

وقال البخارى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) فأول الخلق يكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول : أصحابى ، فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى حدثنا سفيان سمعت الزهرى يقول أخبرنى عبد الله بن محمد بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخارى حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج يصلى إذ جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً ، فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جريج ، فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام؟ قال : فلان

الراعى ، قالوا : أنبنى صومعتك من ذهب ؟ قال لا إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابناً لها فى بنى إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يمص أصبعه ، ثم مُرّ بأمة فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت : لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو سلمة أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى » تفرَّد به البخارى من هذا الوجه ؛ ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى [1] عن الثورى عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وقال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان ، هو الثورى : عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات وليس بينى وبين عيسى نبى » وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ بنحوه ، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

وقال أحمد : حدثنا يحيى عن أبى عروبة حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات ، دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، بين ممصرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى يهلك فى زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه . ثم رواه أحمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة فذكر نحوه وقال : فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبى هريرة عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث فى الأرض أربعين سنة » .

---

(١) هو عمر بن سعد ا هـ .

وسيأتى بيان نزوله عليه السلام فى آخر الزمان فى كتاب الملاحم كما بسطنا ذلك أيضاً فى التفسير عند قوله تعالى فى سورة النساء : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) وقوله (وإنه لعلم للساعة) الآية ، وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصلِّ ، فيقول : لا ، بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة . وفى رواية : فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلى خلفه ، ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه قوى الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التى هى من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التى هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما ، ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل : فى الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد فى ذلك حديث ذكره ابن عساكر فى آخر ترجمة المسيح عليه السلام فى كتابه عن عائشة مرفوعا أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر فى الحجرة النبوية ، ولكن لا يصح إسناده ، وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا زيد بن أخزم الطائى حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة حدثنى أبو مودود المدنى حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب فى التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهم السلام ، يدفن معه . قال أبو مودود وقد بقى من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن كذا قال . والصواب الضحاك بن عثمان المدنى . وقال البخارى : هذا الحديث لا يصح عندى ، ولا يتابع . وروى البخارى عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عاصم الأحول عن أبى عثمان النهدى عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ؛ وعن قتادة خمسمائة وستون سنة . وقيل : خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة . ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمائة بالشمسية ، والله أعلم .

وقال ابن حبان فى صحيحه : « ذكر المدة التى بقيت فيها أمة عيسى على هديه » حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو همام حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته

وهديه مائتى سنة » . وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان . وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام ، قبل أن يرفع ، وصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس فى إقليم من الأقاليم ، من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه ، وهما متى ويوحنا ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه [1] وهما مرقس ولوقا ، وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له : ضيناً ، وكان مختفياً فى مغارة داخل الباب الشرقى قريباً من الكنيسة المصلبة خوفا من بولس اليهودى، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ، ولما جاء به . وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به فى البلد . ثم رجمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولس أن المسيح ، عليه السلام ، قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه . فلما رأى ذلك وقع فى نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه ، وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ، فقال اذهب إلى ضينا عندك بدمشق فى طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك ، فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره ، وحسن إيمان بولس بالمسيح على السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه ، فهى كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة ، رضى الله عنهم ، حتى خربت فى الزمان الذى سنورده ، إن شاء الله تعالى .

فصــــل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله ، فرفع إلى السماء ، وقال آخرون : هو الله ، وقال آخرون : هو ابن الله ، فالأول

---

(١) من هنا إلى قوله (كتاب أخبار الماضين إلخ) لم يوجد ببعض النسخ .

هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال تعالى : (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) . قد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلبلة الكبرى . اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات ، فسموا الملائكة ، ودحض من عداهم وأبعدهم ، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البرارى والبوادى وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل ، وبنت الملائكة الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى .

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القمامة يعنى على قبر المصلوب ، وهم يسلمون لليهود أنه المسيح ، وقد كفر هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التى هى التوراة ، وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير ، وصلّوا إلى الشرق ، ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى .

ومحمد خاتم النبيين ﷺ صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حول إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل ، وصوروا الكنائس ، ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التى يسمونها بالأمانة ، وهى فى الحقيقة أكبر الكفر، والخيانة، وجميع الملكية، والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعى أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها ، وها أنا أحكيها ، وحاكى الكفر ليس بكافر ، لأبث على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخيال المفضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ ، فيقولون : نؤمن بإلـه واحد ضابط الكل خالق السمٰوات والأرض ، كل ما يرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور ، نور من نور إلـه حق من إلـه حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر الذى كان به كل

شىء من أجلنا ، نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى ، وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث ، كما فى الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتى بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق فى الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأنه حى قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين .

كتاب أخبار الماضين

من بنى إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة ، سوى أيام العرب وجاهليتهم ، فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى ، قال الله تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً) وقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

خبر ذى القرنين

قال الله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً . فأتبع سبباً . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً . قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكراً . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً . ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً . ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال : انفخوا حتى إذا جعله ناراً ، قال : آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال : هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً) ذكر الله تعالى ذا القرنين

هذا وأثنى عليه بالعدل وأنه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم وقهر أهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط .

والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين ، وقيل : كان نبياً ، وقيل : رسولا ، وأغرب من قال : ملكا من الملائكة ، وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإنه سمع رجلا يقول لآخر : يا ذا القرنين ، فقال : مه ، ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ؟ ذكره السهيلي . وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان ذو القرنين نبياً ، وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبى محمد بن أبى نصر عن أبى إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبى ذؤيب ، حدثنا محمد ابن حماد أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذؤيب عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أدرى أتبع كان لعيناً أم لا ، ولا أدرى الحدود كفارات لأهلها أم لا ، ولا أدرى ذو القرنين كان نبياً أم لا » . وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكا صالحاً رضى الله عمله وأثنى عليه فى كتابه ، وكان منصوراً ، وكان الخضر وزيره . وذكر أن الخضر ، عليه السلام ، كان على مقدمة جيشه ، وكان عنده بمنزلة المشاور الذى هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم . وقد ذكر الأزرقى وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدى إبراهيم الخليل ، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام [١] . وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً ، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه وأن الله سخر لذى القرنين السحاب يحمله حيث أراد ، والله أعلم .

واختلفوا فى السبب الذى سمى به ذا القرنين، فقيل : لأنه كان له فى رأسه شبه القرنين ، قال وهب بن منبه : كان له قرنان من نحاس فى رأسه ، وهذا ضعيف وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك فارس والروم ، وقيل : لأنه بلغ قرنى الشمس غرباً وشرقاً ، وملك ما بينهما من الأرض ، وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهرى ، وقال [٢] الحسن البصرى : كانت له غديرتان من شعر يطافيها [٣] فسمى ذا القرنين . وقال إسحاق بن بشر : عن عبد

---

(١) من هنا إلى قوله قال وهب بن منبه الخل لم يوجد فى بعض النسخ .

(٢) من هنا إلى قوله وروى الثورى لم يوجد بها أيضا

(٣) كذا بالاصول .

الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن قال : دعا ملكا جباراً إلى الله فضربـه على قرنـه فكسره ورضـه ، ثم دعـاه فدق قرنه الثانى فكسره فسمى ذا القرنين ، وروى الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى الطفيل عن على بن أبى طالب أنه سئل عن ذى القرنين فقال : كان عبداً ناصح الله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات ، فسمى ذا القرنين . وهكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل عن على به .

وفى بعض الروايات عن أبى الطفيل عن على قال : لم يكن نبياً ولا رسولا ولا ملكا ، ولكن كان عبداً صالحاً .

وقـد اختلف فى اسمـه فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد وقيل : مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون [1] بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان .

وقـد جاء فى حديث أنه كان من حمير، وأمه رومية، وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله. وقد أنشد بعض الحميريين [2] فى ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال :

قد كان ذو القرنين جدى [3] مسلماً ... ملكـا تدين له المـلوك وتحشـد
بلغ المشـارق والمغـارب يبتغى ... أسـبـاب أمـر من حكيم مرشـد
فرأى مغيب الشمس عنـد غروبها ... فى عين ذى خلب وثـأط حرمـد
من بعـده بلقيس كانـت عمتى ... ملكتـهـم حتى أتـاهـا الهـدهـد

---

(١) كذا فى العينى على البخارى بالعين المهملة والنون وهو خطأ ، والصواب غوث بالغين المعجمة والثاء المثلثة

(٢) قوله : بعض الحميريين هو تبع على ما فى العرائس للثعلبى وهو تبع أبو كرب كما فى التيجان فى ملوك حمير ، والشعر من قصيدة هى أحد وخمسون بيتاً راجع السيرة النبوية لابن هشام .

(٣) قوله : جدى كذا فى التيجان ، ورواه صاحب العرائس فى قصص الأنبياء والفخر الرازى فى تفسيره

قال السهيلى : وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة ، ذكره ابن هشام [1] وذكر فى موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذى مرائد ، وهو أول التبابعة ، وهو الذى حكم لإبراهيم فى بئر السبع . وقيل : إنه أفريدون بن أسفيان الذى قتل الضحاك ، وفى خطبة قس : يا معشر إياد بن الصعب ، ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمّر ألفين . ثم كان ذلك كلحظة عين ، ثم أنشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا   بالجنو فى جدث أشم مقيما

وذكر الدارقطنى وابن ماكولا أن اسمه هرمس [2] ، ويقال : هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح ، فالله أعلم . وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال : اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة ، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام . فأما ذو القرنين الثانى فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون ابن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومى بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، كذا نسبه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، المقدونى اليونانى المصرى بانى إسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم ، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل ، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره ، وهو الذى قتل دارا ابن دارا ، وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم .

وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن هو الذى كان أرسطاطاليس وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير ، فإن الأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكا عادلا وكان وزيره الخضر ، وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا . وأما الثانى فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفا ، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفى سنة ، فأين هذا من هذا ؟ لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبى لا يعرف حقائق الأمور .

---

(١) قوله : ذكره ابن هشام أى فى السيرة ، وقوله : وذكر فى موضع آخر أى فى التيجان فى ملوك حمير روايته عن وهب بن منبه ا هـ . راجع السيرة لابن هشام تحقيق طه عبد الرءوف سعد .

(٢) والذى فى العرائس عن أكثر أهل السير هو الإسكندر بن فيلبس

وقوله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين) كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شىء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية خرجوا لا يُدرَى ما فعلوا ، فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين . ولهذا قال : (قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى من خبره وشأنه (ذكراً) أى خبراً نافعاً كافياً فى تعريف أمره وشرح حاله فقال : (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً) أى وسعنا مملكته فى البلاد وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة .

قال قتيبة عن أبى عوينة عن سماك عن حبيب بن حماد قال : كنت عند على بن أبى طالب وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال له : سُخِّر له السحاب ، ومُـدَّت له الأسباب ، وبُسِط له فى النور ، وقال : أزيدك ؟ فسكت الرجل وسكت على رضى الله عنه . وعن أبى إسحاق السبيعى عن عمرو بن عبد الله الوادعى سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة ، سليمان بن داود النبى عليهما السلام ، وذو القرنين ، ورجل من أهل حلوان ، ورجل آخر . فقيل له : الخضر ؟ فقال : لا . وقال الزبير بن بكار : حدثنى إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثورى قال : بلغنى أنه ملك الأرض كلها أربعة : مؤمنان وكافران ، سليمان النبى وذو القرنين ، ونمرود وبختنصر .

وهكذا قال سعيد بن بشير سواء ، وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنه كان رجلا مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب ، مد الله له فى الأجل ، ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال وفتح المدائن وقتل الرجال وجال فى البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قوله تعالى : (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى خبراً (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً) أى علما بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق : وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه ، وإلا قتله .

وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدى وقتادة والضحاك : (وآتيناه من كل شىء سببا) يعنى علما ، وقال قتادة ومطر الوراق : معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى تعليم الألسنة

كان لا يغزو قوما إلا حدثهم بلغتهم ، والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده فى المملكة وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر .

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفى كل هذه المدة نظر والله أعلم . وقد روى البيهقى وابن عساكر حديثا متعلقاً بقوله : (وآتيناه من كل شىء سببا) مطولا جداً وهو منكر جداً . وفى إسناده محمد بن يونس الكديمى وهو متهم ، فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا ، والله أعلم . وقوله (فأتبع سببا) أى طريقا (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) يعنى من الأرض ، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربى ، الذى يقال له : أوقيانوس ، الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات ، التى هى مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة والثانى من ساحل هذا البحر ، كما قدمنا ، وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته (تغرب فى عين حمئة) والمراد بها البحر فى نظره ، فإن من كان فى البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ، ولهذا قال : (وجدها) أى فى نظره ، ولم يقل : فإذا هى تغرب فى عين حمئة ، أى ذات حمأة ، قال كعب الأحبار : وهو الطين الأسود . وقرأه بعضهم حامية . فقيل : يرجع إلى الأول . وقيل من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها .

وقد روى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثنى مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال : « فى نار الله الحامية ، لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض » فيه غرابة وفيه رجل لم يسم ، ورفعه فيه نظر ، وقد يكون موقوفا من كلام عبد الله بن عمرو فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منهما ، والله أعلم .

ومن زعم من القُصَّاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشى بجيوشه فى ظلمات مدداً طويلة فقد أخطأ وأبعد النجعة وقال ما يخالف العقل والنقل .

بيان طلب ذى القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبى جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين خبراً مطولا جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال

له : زنافيل ، فسأله ذو القرنين هل تعلم فى الأرض عينا يقال لها عين الحياة ؟ فذكر له صفة مكانها ، فذهب ذو القرنين فى طلبها وجعل الخضر على مقدمته ، فانتهى الخضر إليها فى واد فى أرض الظلمات فشرب منها ، ولم يهتد ذو القرنين إليها ، وذكر اجتماع ذى القرنين ببعض الملائكة فى قصر هناك وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه فى كفة ميزان وجعلوا فى مقابلته ألف حجر مثله فوزنها ، حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً وحمل عليه حفنة من تراب فرجح به ، وقال : هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريما وإعظاما ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى أنه حُكِّم فى أهل تلك الناحية (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكراً) أى فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً) فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو العدل والعلم والإيمان . قال تعالى : (ثم أتبع سببا) أى سلك طريقا راجعا من المغرب إلى المشرق، فيقال: إنه رجع فى ثنتى عشرة سنة (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أى ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس . قال كثير من العلماء : ولكن كانوا يأوون إذا اشتد الحر إلى أسراب اتخذوها فى الأرض شبه القبور ، قال الله تعالى : (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً) أى ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا فى مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها .

وقد روى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حج ماشيا ، فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقاه ، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا . ويقال : إنه جىء بفرس ليركبها فقال : لا أركب فى بلد فيه الخليل ، فسخر الله له السحاب ، وبشره إبراهيم بذلك ، فكانت تحمله إذا أراد . وقوله تعالى : (ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) يعنى غشما . يقال : إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج ، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا فى بلادهم وقطعوا السبل عليهم ، وبذلوا له حملا وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم ، فامتنع عن أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة (قال ما مكنى فيه ربى خير) ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبنى بينهم وبينهم سداً ، وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم

إلا من بينهما . وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة ، فبناه كما ذكر تعالى : من الحديد والقطر ، وهو النحاس المذاب ، وقيل : الرصاص ؛ والصحيح الأول ؛ فجعل بدل اللبن حديداً ، وبدل الطين نحاسا ، ولهذا قال تعالى : (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها (وما استطاعوا له نقبا) أى بمعاول ولا فئوس ولا غيرها ، فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد .

(قال هذا رحمة من ربى) أى قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم فى تلك المحلة (فإذا جاء وعد ربى) أى الوقت الذى قدر خروجهم على الناس فى آخر الزمان (جعله دكاء) أى مساويا للأرض ولابد من كون هذا ، ولهذا قال : (وكان وعد ربى حقا) كما قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق) الآية ولذا قال هٰهنا : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) يوم فتح السد على الصحيح ، (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً) وقد أوردنا الأحاديث المروية فى خروج يأجوج ومأجوج فى التفسير وسنوردها إن شاء الله فى كتاب الفتن والملاحم فى كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته .

قال أبو داود الطيالسى عن الثورى : بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين . وروى عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا مات أن تصنع طعاما وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه ، إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئاً ، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه ، فقالت لهن : سبحان الله ! كلكن ثكالى ؟ فقلن : أى والله ما منا إلا من أُثكلت ، فكان ذلك تسلية لأمه . وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذى القرنين وموعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة ، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة ، وهذا غريب .

قال ابن عساكر : وبلغنى من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة . وقيل : كان عمره ثنتين وثلاثين سنة ، وكان بعد داود سبعمائة سنة وأربعين سنة . وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة . وكان ملكه ست عشرة سنة . وهذا الذى ذكره ينطبق على اسكندر الثانى لا الأول ، وقد خلط فى أول الترجمة وآخرها بينهما ، والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ ، والله أعلم . وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوى السيرة ، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلى رحمه الله إنكاراً بليغاً ورد قوله رداً شنيعاً وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا ، قال : ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذى القرنين تشبهاً بالأول . والله أعلم .

ذكر أمتىْ يأجوج ومأجوج
وصفاتهم ، وما ورد من أخبارهم ، وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ، ثم الدليل على ذلك ماثبت فى الصحيحين من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم قم فابعث بعث النار من ذريتك ، فيقول : يارب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . قالوا : يارسول الله أينا ذلك الواحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبشروا ، فإن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفا ، وفى رواية فقال : أبشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه ، أى غلبتاه كثرة . وهذا يدل على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة . ثم هم من ذرية نوح لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح فى دعائه على أهل الأرض بقوله : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) وقال تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وقال : (وجعلنا ذريته هم الباقين) . وتقدم فى الحديث المروى فى المسند والسنن أن نوحا ولد له ثلاثة وهم : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك ، فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل : إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه . فلهذا قيل لهم الترك .

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وأنهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوى فى شرح مسلم وغيره وضعفوه ، وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن . وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً . فمنهم من هو كالنخلة السحوق . ومنهم من هو غاية فى القصر . ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى ، فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم ، وقد قال النبى ﷺ : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » . وهذا فيصل فى هذا الباب وغيره . وما

قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً ، فإن صح فى خبر قلنا به ، وإلا فلا نرده إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضاً قد يرشد إليه والله أعلم .

بل قد ورد حديث مصرح بذلك ، إن صح ، قال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد ابن العباس الأصبهانى حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسى حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبى إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم ، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً . وإن من ورائهم ثلاث أمم : تأويل وتاريس ومنسك » . وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف . وفيه نكارة شديدة .

وأما الحديث الذى ذكره ابن جرير فى تاريخه أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته ، وأنه دعا تلك الأمم التى هناك « تاريس وتأويل ومنسك » فأجابوه فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث ، والله أعلم .

فإن قيل : فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة ، وأنهم فى النار ، ولم يبعث إليهم رسل ، وقد قال الله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فالجواب : أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والإعذار إليهم ، كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فإن كانوا فى زمن الذى قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة ، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلا فهم فى حكم أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة ، وقد دل الحديث المروى من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : « إن من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة ، فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار » وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحانهم لا يقتضى نجاتهم ولا ينافى الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب ، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له ، فهم لا يجيبون الداعى إلى يوم القيامة ، فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق فى الدنيا لو بلغهم فيها ، لأن فى عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً فى الدنيا ، فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه فى الدنيا ، والله أعلم . كما قال تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون

ناكسو رءوسهم عنـد ربهم ربنـا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) وقال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) . وأما الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح .

وأما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس ، وساوى به الجبال الصم الشـامخات الطوال فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه فى أمر دنياهم . قال البخارى : وقال رجل للنبى ﷺ : رأيت السد ، قال : وكيف رأيته ؟ قال مثل البرد المحبر ، فقال : رأيته هكذا . ذكر البخارى معلقا بصيغة الجزم ، ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه ، غير أن ابن جرير رواه فى تفسيره مرسلا فقال : حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا قال : « يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج ، قال : انعته لى ، قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء ، قال قد رأيته .

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته ، وكتب لهم كتبا إلى الملوك ، يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين وعلى أى صفة ، فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه بابا عظيما وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً ، وأن بقية اللبن الحديد والآلات فى برج هناك ، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ، ومحلته فى شرقى الأرض فى جهة الشمال فى زاوية الأرض الشرقية الشمالية ، ويقال : إن بلادهم متسعة جداً وأنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر ، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم .

فإن قيل : فما الجمع بين قوله تعالى (فما اسطاعو أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) وبين الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقـترب ، فتـح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » ، « وحلق تسعين » قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، « وعقد تسعين » .

فالجواب : أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن وأن

هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا إشكال . وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا إشكال أيضاً لأن قوله (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) أى فى ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفى وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم فى ذلك قدراً وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الأجل وينقضى الأمر المقدور فيخرجون ، كما قال الله تعالى : (وهم من كل حدب ينسلون) .

ولكن الحديث الآخر أشكل من هذه ، وهو ما رواه الإمام أحمد فى مسنده قائلا : حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرون غداً، إن شاء الله، ويستثنى ، فيعودون إليه وهو كهيئته يوم تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه وتتحصن الناس فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً فى أقفائهم فيقتلهم بها . قال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » ورواه أحمد أيضا عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة إلا أنه قال حدث أبو رافع ورواه الترمذى من حديث أبى عوانة عن قتادة به . ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، فقد أخبر فى هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينظرون شعاع الشمس من ورائه لرقته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظا فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون فى آخر الزمان عند اقتراب خروجهم ، كما هو المروى عن كعب الأحبار أو يكون المراد بقوله (وما استطاعوا له نقبا) أى نافذاً منه فلا ينفى أن يلحسوه ولا ينفذوه ، والله أعلم ، وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما فى الصحيحين عن أبى هريرة « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » ، « وعقد تسعين » أى فتح فتحا نافذاً فيه ، والله أعلم .

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على

آذانهم فى الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً . سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً . ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا . إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً . ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) .

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها ، فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا فى الدهر فلا يدرى ما صنعوا ، وعن رجل طواف فى الأرض ، وعن الروح ، فأنزل الله تعالى : (ويسألونك عن الروح) (ويسألونك عن ذى القرنين) وقال ههنا (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة . والكهف هو الغار فى الجبل . قال شعيب الجبائى : واسم كهفهم حيزم ، وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال : لا أدرى ما

المراد به . وقيل هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم ، كتب من بعدهم ، اختاره ابن جرير وغيره ، وقيل : هو اسم الجبل الذى فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجبائى واسمه بناجلوس ، وقيل : هو اسم واد عند كهفهم ، وقيل : اسم قرية هنالك ، والله أعلم .

قال شعيب الجبائى : واسم كلبهم حمران ، واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى ، والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كانوا فى زمن ملك يقال له : دقيانوس ، وكانوا من أبناء الأكابر ، وقيل : من أبناء الملوك ، واتفق اجتماعهم فى يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للاصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شىء ، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

ويقال : إن كل واحد منهم لما أوقع الله فى نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس ، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية فى مكان واحد ، كما صح فى البخارى « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه ، واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبرى منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم ، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور ، قال الله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أى وإذ فارقتموهم فى دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الله على لسان الخليل : (إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم : إذ قد فارقتم قومكم فى دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شرا (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) أى يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء فى الحديث « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » ، ثم ذكر تعالى صفة الغار الذى آووا إليه وأن بابه موجه إلى نحو

الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة ، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال ، فقال : (وترى الشمس إذا طلعت تزاور) وقرىء تَزْوَرُّ (عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) فأخبر أن الشمس ، يعنى فى زمن الصيف وأشباهه ، تشرق أول طلوعها فى الغار فى جانبه الغربى ثم تشرع فى الخروج منه قليلا قليلا وهو ازورارها ذات اليمين فترتفع فى جو السماء وتتقلص عن باب الغار ، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع فى الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا إلى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان ، والحكمة فى دخول الشمس إليه فى بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه (وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) أى بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلا من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم فى هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) قال بعضهم : لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل : فى كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ، ويحتمل أكثر من ذلك ، فالله أعلم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) قال شعيب الجبائى : اسم كلبهم حمران ، وقال غيره : الوصيد أسكفة الباب . والمراد أن كلبهم الذى كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم الكهف بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد ، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به ، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان فى كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم ، لأن من أحب قوماً سعد بهم ، فإذا كان هذا فى حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للاكرام ؟ وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلا أكثره متلقى من الاسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم فى اسمه ولونه .

وأما اختلاف العلماء فى محلة هذا الكهف ، فقال كثيرون : هو بأرض أيلة ، وقيل : بأرض نينوى ، وقيل : بالبلقاء ، وقيل : ببلاد الروم ، وهو أشبه ، والله أعلم . ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راء والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم فى ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب ، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) أى لما عليهم من المهابة والجلالة فى أمرهم الذى صاروا إليه ، ولعل الخطاب هٰهنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) أى : أيها الإنسان ، وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ، ولهذا

قال : (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة ، كما جاء فى الحديث ، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب .

ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين ، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض : (كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى بدراهمكم هذه يعنى التى معهم إلى المدينة ، ويقال : كان اسمها دفسوس (فلينظر أيها أزكى طعاما)أى أطيب طعاما(فليأتكم برزق منه) أى بطعام تأكلونه ، وهذا من زهدهم وورعهم (وليتلطف) أى فى دخوله إليها (ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا) أى إن عدتم فى ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها ، وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوما أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ، وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم .

ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس [1] فيما قيل ، وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه ، فيقال : إنهم حملوه إلى متوليهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة يخشون من مضرتها ، فيقال : إنه هرب منهم ويقال : بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان من أمرهم ، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا أمر قدره الله ، فيقال : إنهم استمروا راقدين ، ويقال : بل ماتوا بعد ذلك .

وأما أهل البلدة فيقال : إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمّى الله عليهم أمرهم ، ويقال لم يستطيعوا دخوله حساً [2] ويقال مهابة لهم .

واختلفوا فى أمرهم فقائلون يقولون : (ابنوا عليهم بنياناً) أى سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم ، وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا

---

(١) الذى فى ابن جرير أن اسمه يميلخا وأن تيذوسيس فهو اسم الملك الذى كان على المدينة حين قيامهم من رقدتهم .

(٢) لعلها جبنا .

(لنتخذن عليهم مسجداً) أى معبداً يكون مباركا لمجاورته هؤلاء الصالحين . وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا ، فأما فى شرعنا فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا ، وأما قوله (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) فمعنى (أعثرنا) أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين : ليعلم الناس أن المعاد حق وأن الساعة لا ريب فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ، فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان ، وعلى إحياء الأموات ، وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً ، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

هذا ويحتمل عود الضمير فى قوله : (ليعلموا) إلى أصحاب الكهف إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم ، ويحتمل أن يعود على الجميع ، والله أعلم . ثم قال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فذكر اختلاف الناس فى كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرر الثالث ، فدل على أنه الحق ، إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه ، فدل على ما قلناه ، ولما كان النزاع فى مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب فى مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول : الله أعلم . ولهذا قال : (قل ربى أعلم بعدتهم) وقوله : (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً) أى سهلا ولا تتكلف أعمال الجدال فى مثل هذا الحال ولا تستفت فى أمرهم أحداً من الرجال ، ولهذا أبهم تعالى عدتهم فى أول القصة فقال (إنهم فتية آمنوا بربهم) ولو كان فى تعيين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة ، وقوله تعالى : (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً . إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحث خلقه عليه وهو ما إذا قال أحدهم : إنى سأفعل فى المستقبل كذا فيشرع له أن يقول : إن شاء الله ، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ، لأن العبد لا يعلم ما فى غد ولا يدرى أهذا الذى عزم عليه مقدر أم لا ؟ وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقى ، ولهذا قال ابن عباس : يصح إلى سنة ، ولكن قد يكون فى بعض المحال لهذا ولهذا ، كما تقدم فى قصة سليمان عليه السلام حين قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، فقيل له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلا

امرأة واحدة نصف إنسان ، قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته .

وقوله تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت) وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه . وقوله : (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى إذا اشتبه أمر وأشكل حال والتبس أقوال الناس فى شىء فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك ، ثم قال : (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً) لما كان فى الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى ، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهى لتكميل ثلثمائة شمسية ، فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين (قل الله أعلم بما لبثوا) أى إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك فى ذلك نقل فرد الأمر فى ذلك إلى الله عز وجل (له غيب السموات والأرض) أى هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه (أبصر به وأسمع) يعنى أنه يضع الأشياء فى محالها لعلمه التام بخلقه وما يستحقونه ، ثم قال : (ما لهم من دونه من ولىٍّ ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى ربك المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له .

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى فى سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) إلى قوله : (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً) . قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً ، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله : (واضرب لهم مثلا) يعنى لكفار قريش فى عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم ، كما قال تعالى : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام .

والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين ، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً ، ويقال : إنه كان لكل منهما مال ، فأنفق المؤمن ماله فى طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه ، وأما الكافر

فإنه اتخذ له بستانين وهما الجنتان المذكورتان فى الآية على الصفة والنعت المذكور ، فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع فى ذلك ، والأنهار سارحة هٰهنا وهٰهنا للسقى والتنزه ، وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار وابتهجت الزروع والثمار ، وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى أوسع جناناً . ومراده أنه خير منه ، ومعناه ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه فى الوجه الذى صرفته فيه ؟ كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلى ، فافتخر على صاحبه (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى وهو على غير طريقة مرضية ، (قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وذلك لما رأى من اتساع أرضها وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها ، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها ، وزروعها دائرة لكثرة مياهها ، ثم قال (وما أظن الساعة قائمة) فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة ، ثم قال : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) أى ولئن كان ثَمَّ أخرة ومعاد فلأجدن هناك خيراً من هذا ، وذلك لأنه اغتر بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده ، كما قال العاص بن وائل : فيما قص الله من خبره وخبر خباب ابن الأرت فى قوله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه : (ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) وقال تعالى على لسان قارون : (إنما أوتيته على علم عندى) أى لعلم الله بى أنى أستحقه ، فقال الله تعالى : (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقد قدمنا الكلام على قصته فى أثناء قصة موسى . وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) . وقال تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) .

ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به فى الدنيا فجحد الآخرة وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له : (وهو يحاوره) أى يجادله (أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلا سويا سميعاً بصيراً تعلم وتبطش وتفهم ؟ فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة ؟ (لكنا هو الله

ربى) أى لكن أنا أقول بخلاف ما قلت ، وأعتقد خلاف معتقدك (هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً) أى لا أعبد سواه ، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ويعيد الأموات ويجمع العظام الرفات ، وأعلم أن الله لا شريك له فى خلقه ولا فى ملكه ولا إلـه غيره ، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ولهذا يستحب لكل من أعجبه شىء من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك ، وقد ورد فيه حديث مرفوع فى صحته نظر ، قال أبو يعلى الموصلى : حدثنا جراح بن مخلد حدثنا عمرو بن يوسف حدثنا عيسى بن عون حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » وكان يتأول هذه الآية (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدى عيسى بن عون : عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح ، ثم قال المؤمن للكافر (فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك) أى فى الدار الآخرة (ويرسل عليها حسباناً من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقتادة أى عذاباً من السماء ، والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذى يقتلع زروعها وأشجارها (فتصبح صعيداً زلقاً) وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه (أو يصبح ماؤها غوراً) وهو ضد المعين السارح (فلن تستطيع له طلباً) يعنى فلا تقدر على استرجاعه قال الله تعالى : (وأحيط بثمره) أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخرب جنته ودمرها (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها) أى خربت بالكلية فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه من أمل حيث قال (ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وندم على ما كان سلف منه من القول الذى كفر بسببه بالله العظيم ، فهو يقول : (يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً) . قال الله تعالى (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك) أى لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة فى نفسه على شىء من ذلك كما قال تعالى : (فما له من قوة ولا ناصر) وقوله : (الولاية لله الحق) ومنهم من يبتدىء بقوله : (هنالك الولاية لله الحق) وهو حسن أيضاً لقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) فالحكم الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغلب فى تلك الحال وفى كل حال لله الحق ، ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله (هو خير ثواباً وخير عقبا) أى معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء وخير عقبا وهو العاقبة فى الدنيا والآخرة .

وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغى لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ، ولا يغتر بها ولا يثق

بها ، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه فى كل حال نصب عينيه ، وليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه ، وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق فى سبيله عذب به ، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده ، وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة . وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم ، وبالله المستعان وعليه التكلان .

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار) . قال ابن عباس : هم كفار قريش ، فضرب الله تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التى قد انتهت واستحقت أن تجذ ، وهو الصرام ، ولهذا قال : (إذ أقسموا) فيما بينهم (ليصرمنها) أى ليجذنها ، وهو الاستغلال (مصبحين) أى وقت الصبح ، حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً ، فحلفوا على ذلك ، ولم يستثنوا فى يمينهم ، فعجزهم الله وسلط عليهم الآفة التى أحرقتها ، وهى السعفة التى اجتاحتها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به ، ولهذا قال : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) أى كالليل الأسود المنصرم من الضياء ، وهذه معاملة بنقيض المقصود (فتنادوا مصبحين) أى فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين (اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أى باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال (فانطلقوا وهم

يتخافتون) أى يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين (لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ، (وغدوا على حرد قادرين) أى انطلقوا مجدين فى ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه النية الفاسدة ، وقال عكرمة والشعبى : (وغدوا على حرد) أى غضب على المساكين ، وأبعد السدى فى قوله : إن اسم حرثهم حرد (فلما رأوها) أى وصلوا إليها ونظروا ما حل بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة ، فعند ذلك (قالوا إنا لضالون) أى قد تهينا عنها وسلكنا غير طريقها ، ثم قالوا : (بل نحن محرومون) أى بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا (قال أوسطهم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أعدلهم وخيرهم (ألم أقل لكم لولا تسبحون) قيل : تستثنون ، قاله مجاهد والسدى وابن جرير ، وقيل : تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا إخوة وقد ورثوا هذه الجنة عن أبيهم ، وكان يتصدق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً فعاقبهم الله أشد العقوبة ، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار وحث على ذلك يوم الجذاذ ، كما قال تعالى : (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) ثم قيل : كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها : ضروان ، وقيل : من أهل الحبشة ، والله أعلم .

قال تعالى : (كذلك العذاب) أى هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا (ولعذاب الآخرة أكبر) أى أعظم وأحكم من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) قيل : هذا مثل مضروب لأهل مكة ، وقيل : هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلا لأنفسهم ولا ينافى ذلك ، والله أعلم .

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا فى سبتهم

قال تعالى فى سورة الأعراف : (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون

فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عمـا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وقال تعالى فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) ، وقال تعالى فى سورة النساء (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم : هم أهل أيلة ، زاد ابن عباس بين مدين والطور . قالـوا : وكانوا متمسكين بدين التوراة فى تحريم السبت فى ذلك الزمان فكـانت الحيتـان قد ألفت منهم السكينـة فى مثـل هذا اليوم وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه ، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب ، فكانت الحيتان فى مثل يوم السبت يكثـر غشيانها لمحلتهم من البحر فتأتى من هُهنا وهُهنا ظاهرة آمنة مسترسلة فلا يهيجونها ولا يذعرونها (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت ، قال الله تعالى : (كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بكثرة الحيتان فى يوم السبت (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المتقدم ، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها فى يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص ، وحفروا الحفر التى يجرى معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ، ففعلوا ذلك فى يوم الجمعة فلما جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد فإذا خرج سبتهم أخذوها ، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره وانتهكوا محارمه بالحيل ، التى هى ظاهرة للناظر وهى فى الباطن مخالفة محضة ، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين ، فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه فى ذلك الزمان ، وفـرقـة أخـرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معـذبهم عذابـاً شديداً) يقولون : ما الفائدة فى نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة ؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة إذ قالوا : (معذرة إلى ربكم) أى فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فنقوم به خوفا من عذابه (ولعلهم يتقون) أى ولعل هؤلاء يتركـون ما هم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنه إذا هم رجعوا واستمعوا . قال الله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به) أى لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفـظيع (أنجينـا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر (وأخذنا الذين ظلموا) وهم المرتكبون الفاحشة (بعذاب بئيس) وهو

الشديد الموجع (بما كانوا يفسقون) ، ثم فسر العذاب الذى أصابهم بقوله (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وسنذكر ما ورد من الآيات فى ذلك .

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين وسكت عن الساكتين ، وقد اختلف فيهم العلماء على قولين : فقيل : إنهم من الناجين وقيل إنهم من الهالكين ، والصحيح الأول عند المحققين ، وهو الذى رجع إليه ابن عباس وإمام المفسرين وذلك عن مناظرة مولاه عكرمة فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمة .

قلت وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة إلا أنهم كان ينبغى لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولى ، الذى هو أوسط المراتب الثلاث التى أعلاها الإنكار باليد ذات البنان ، وبعدها الإنكار القولى باللسان ، وثالثها الإنكار بالجنان ، فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها . وقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس وحكى مالك عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخراسانى ما مضمونه أن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ونهاهم من نهاهم منهم فلم يقبلوا ، فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبوابا حاجزة لما كانوا يترقبون من هلاكهم ، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها وارتفع النهار واشتد الضحاء فأمر بقية أهل البلد رجلا أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذا هم قردة لها أذناب يتعاوون ويتعادون ، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ولا يعرفهم قراباتهم ، فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم فتشير القردة برءوسها أن نعم . ثم بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا لنرى منكرات كثيرة ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً . وقال العوفى عن ابن عباس صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير . وروى ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس أنهم لم يعيشوا إلا فواقا ثم هلكوا ما كان لهم نسل ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا ، وقد استقصينا الآثار فى ذلك فى تفسير سورتى البقرة والأعراف . ولله الحمد والمنة .

وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) وهذا صحيح إليه ، وغريب منه جداً ومخالف لظاهر القرآن ، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم .

قصة (أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام « قصة سبأ » سيأتى ذكرها فى أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة . « قصة قارون وقصة بلعام » تقدمتا فى قصة موسى ، وهكذا « قصة الخضر » و « قصة فرعون والسحرة » كلها فى ضمن قصة موسى و « قصة البقرة » تقدّمت فى قصة موسى وقصة (الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) فى قصة حزقيل ، وقصة « الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى » فى قصة شمويل وقصة « الذى مرّ على قرية » فى قصة عزير .

قصـــة لقمـــان

قال تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىَّ ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) .

هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال : لقمان بن ثاران حكاه السهيلى عن ابن جرير والقتيبى . قال السهيلى وكان نوبياً من أهل أيلة . قلت : وكان رجلا صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة . ويقال : كان قاضياً فى زمن داود عليه السلام فالله أعلم . وقال سفيان الثورى عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً . وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم فى شأن لقمان ؟ قال كان قصيراً أفطس من النوبة . وقال يحيى بن سعيد الأنصارى : عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال الأوزاعى : حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع

مولى عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر . وقال الأعمش عن مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفين مشقق القدمين ، وفى رواية مصفح القدمين .

وقال عمر بن قيس كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم فقال له : ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنينى ، رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن أبى يزيد بن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال : ألست عبد ابن فلان الذى كنت ترعى غنمى بالأمس ؟ قال : بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنينى ، وقال ابن وهب أخبرنى عبد الله بن عياش الفتيانى عن عمر مولى عفرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بنى النحاس ؟ قال : نعم ، قال : فأنت راعى الغنم الأسود ، قال : أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك ، قال : يا بن أخى إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك ، قال : ما هو ؟ قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فرجى ، وقيامى بعدتى ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى كما ترى .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح عن ربيعة عن أبى الدرداء أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلا ضمضامة [1] سكيتاً طويل التفكر عميق النظر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر ، فبذلك أوتى ما أوتى . ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه ، وفى هذا نظر ، والله أعلم . وهذا مروى عن قتادة كما سنذكره . وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق وكيع عن إسرائيل عن جابر الجعفى عن عكرمة أنه قال : كان لقمان نبياً ، وهذا ضعيف لحال الجعفى .

---

(١) وفى بعض النسخ صمصامة .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيما وليًّا ولم يكن نبيا ، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن فأثنى عليه وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذى هو أحب الخلق إليه وهو أشفق الناس عليه ، فكان من أول ما وعظ به أن قال : (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) . فنهاه عنه وحذره منه . وقد قال البخارى : حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه ليس بذاك ألم تسمع إلى قول لقمان : (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به ، ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكده وأمره بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين ، ولكن لا يطاعان على الدخول فى دينهما ، إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السمٰوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل ، فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب ويضعها فى الميزان كما قال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) وقال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وأخبره أن هذا الظلم لو كان فى الحقارة كالخردلة ولو كان فى جوف صخرة صماء لا باب لها ولا كوة ، أو لو كانت ساقطة فى شىء من ظلمات الأرض أو السمٰوات فى اتساعها وامتداد أرجائها لعلم الله مكانها (إن الله لطيف خبير) أى علمه دقيق فلا يخفى عليه الذر مما تراءى للنواظر أو توارى ، كما قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقال : (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال : (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السمٰوت ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقد زعم السدى فى خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة الصخرة التى تحت الأرضين السبع ، وهكذا حكى عن عطية العوفى وأبى مالك والثورى والمنهال بن عمر وغيرهم ، وفى صحة هذا القول من أصله نظر . ثم إن فى هذا المراد نظر آخر ، فإن هذه الآية نكرة غير معرفة ، فلو كان المراد بها ما قالوه لقال : فتكن فى الصخرة وإنما المراد فتكن فى صخرة أى صخرة كانت ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا ما كان ، ثم قال : (يا بنى أقم الصلاة) أى أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما

شرع فيهـا واجتنب ما ينهى عنـه فيها . ثم قال : (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى بجهـدك وطـاقتـك ، أى إن استـطعت باليد فبـاليد ، وإلا فبلسـانك ، فإن لم تستطع فبقلبـك ، ثم أمـره بالصـبر فقال : (واصبر على ما أصابك) وذلك أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر فى مظنة أن يعادَى وينال منه ولكن له العاقبة ، ولهذا أمره بالصبر على ذلك ، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج ، وقوله : (إن ذلك من عزم الأمور) التى لابد منها ولا محيد عنها ، وقوله : (ولا تصعر خدك للناس) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء وغير واحد : معناه لا تتكبر على الناس وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم .

قال أهل اللغة : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها فتلتوى رءوسها فشبه به الرجل المتكبر الذى يميل وجهه إذا كلم الناس أو كلموه على وجه التعظم عليهم . قال أبو طالب فى شعره :

وكـنـا قديماً لا نقـر ظلامـة ... إذا ما ثنـوا صعـر الخـدود نقيمها

وقال عمرو بن حيى التغلبى :

وكـنـا إذا الجبـار صعـر خده ... أقـمـنـا له من ميله فتـقـومـا

وقوله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور) ينهاه عن التبختر فى المشية على وجه العظمة والفخر على الناس ، كما قال تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) ، يعنى لست بسرعة مشيك تقطع البلاد فى مشيتك هذه ، ولست بدقك الأرض برجلك تخرق الأرض بوطئك عليها ، ولست بتشـامخـك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولا ، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك . وقد ثبت فى الحديث : بينما رجل يمشى فى برديه يتبختر فيهما إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، وفى الحديث الآخر « إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة لا يحبها الله » كما قال تعالى فى الآية : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) ، ولما نهاه عن الاختيال فى المشى أمره بالقصد فيه ، فإنه لابد له أن يمشى ، فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال : (واقصد فى مشيك) أى لا تتباطأ مفرطاً ولا تسرع إسراعا مفرطاً ولكن بين ذلك قواما كما قال تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .

ثم قال : (واغضض من صوتك) يعنى إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك فإن أرفع الأصـوات وأنكرها صوت الحمير . وقد ثبت فى الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع

صوت الحمير بالليل ، فإنها رأت شيطاناً ، ولهذا نهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ولا سيما عند العطاس ، فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه ، كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ ، فأما رفع الصوت بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال وعند الإهلاك ونحو ذلك فذلك مشروع ، فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام فى القرآن من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر ، وقد وردت آثار كثيرة فى أخباره ومواعظه ، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن إسحاق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا سفيان أخبرنى نهيك ابن يجمع الضبى عن قزعة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى إياك والتقنع فإنه مخونة بالليل مذمة بالنهار ، وقال أيضاً : حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عمارة حدثنا ضمرة حدثنا السرى بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بنى إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك ، وحدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن المسعودى عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنى إذا أتيت نادى قوم فأدمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام ، ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبى حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جرابا من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل فقال : يا بنى لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر قال : فتفطر ابنه . وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عبد الباقى المصيصى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرانى حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى عن ابن سفيان المقدسى عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشى وبلال المؤذن » قال الطبرانى : يعنى الحبشى ، وهذا حديث غريب منكر .

وقد ذكر له الإمام أحمد فى كتاب الزهد ترجمة ذكر فيها فوائد جمة فقال : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال الفقه والإصابة فى غير

نبوة . وكذا روى عن وهب بن منبه وحدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً ، وحدثنا أسود حدثنا حماد عن على بن يزيد عن سعيد بن المسيب أن لقمان كان خياطاً ، وحدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك يعنى ابن دينار قال : قال لقمان لابنه : يا بنى اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة ، وحدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع قال : كان لقمان يقول لابنه يا بنى اتق الله ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر . وحدثنا يزيد بن هارون ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربعى قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده : اذبح لى شاة ، فذبح له شاة . فقال : ائتنى بأطيب مضغتين فيها فأتاه باللسان والقلب ، فقال : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ قال : لا . قال فسكت عنه ما سكت . ثم قال له : اذبح لى شاة . فذبح له شاة ، فقال له : ألق أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب ، فقال أمرتك أن تأتينى بأطيبها مضغتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وحدثنا داود بن رشيد حدثنا ابن المبارك حدثنا معمر عن أبى عثمان رجل من أهل البصرة يقال له : الجعد بن أبى عثمان قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب فى ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك ، وحدثنا داود بن أسيد حدثنا إسماعيل بن عباش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمى عن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان ألا إن يد الله على أفواه الحكماء ، لا يتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له ، وحدثنا عبد الرزاق سمعت ابن جريج قال : كنت أقنع رأسى بالليل فقال لى عمر : أما علمت أن لقمان قال القناع بالنهار مذلة ، معذرة - أو قال معجزة - بالليل ، فلم تقنع رأسك بالليل ؟ قال قلت : إن لقمان لم يكن عليه دين . وحدثنى حسن بن الجنيد حدثنا سفيان قال لقمان لابنه : يا بنى ما ندمت على السكوت قط . وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب عن قتادة أن لقمان قال لابنه : يا بنى اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق . وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام ابن عروة عن أبيه قال مكتوب فى الحكمة : يا بنى إياك والرغب فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ، ويزيل الحكم كما يزيل الطرب ، يا بنى إياك وشدة الغضب فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة

عن عبيد بن عمير قال : قال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بنى اختر المجالس على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه اسم الله عز وجل فاجلس معهم ، فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يعلموك ، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصبك معهم ، يا بنى لا تجلس فى المجلس الذى لا يذكر الله فيه ، فإنك إن تك عالما لا ينفعك علمك ، وإن تلك غبياً يزيدوك غباء وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم . يا بنى لا تغبطوا أميراً رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين ، فإن له عند الله قاتلا لا يموت .

وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة « بنى لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء » وقال : مكتوب فى الحكمة أو فى التوراة « الرفق رأس الحكمة » وقال : مكتوب فى التوراة « كما تَرْحمون تُرْحمون » ، وقال : مكتوب فى الحكمة « كما تزرعون تحصدون » وقال : مكتوب فى الحكمة « أحب خليلك وخليل أبيك » وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال : قيل للقمان : أى الناس أصبر؟ قال صبر لا يتبعه أذى ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال من ازداد من علم الناس إلى علمه ، قيل : فأى الناس خير؟ قال الغنى ، قيل : الغنى من المال ؟ قال لا ، ولكن الغنى الذى إذا التمس عنده خير وجد ، وإلا أغنى نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان هو ابن عيينة قال : قيل للقمان : أى الناس شر ؟ قال : الذى لا يبالى أن يراه الناس مسيئاً . وحدثنا أبو الصمد عن مالك بن دينار قال : وجدت فى بعض الحكمة : يبدد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس ، ووجدت فيها : لا خير لك فى أن تعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت ، فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليه أخرى . وقال عبد الله بن أحمد حدثنا الحكم ابن أبى زهير ، وهو الحكم بن موسى ، حدثنا الفرج بن فضالة عن أبى سعيد قال : قال لقمان لابنه : يا بنى لا يأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاور فى أمرك العلماء .

وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد فى هذه المواضع ، وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها ، كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا العباس بن الوليد حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال : خيرّ الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة ، قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة ، قال : فأصبح

ينطق بها . قال سعد : سمعت قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكن خيرنى فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إلىَّ . وهذا فيه نظر لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه ، والذى رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال : يعنى الفقه والإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس ، والله أعلم .

قصـــة أصحـــاب الأخـــدود

قال الله تعالى : (والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) ، قد تكلمنا على ذلك مستقصى فى تفسير هذه السورة ولله الحمد . وقد زعم محمد بن إسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله . وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر فى العالم مراراً فى حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ، ولكن هؤلاء المذكورون فى القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع وأثر أورده ابن إسحاق ، وهما متعارضان ، وها نحن نوردهما لتقف عليهما .

قال الإمام أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك إنى : كبرت سنى ، وحضر أجلى فادفع إلىَّ غلاماً فلأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الملك وبين الساحر راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسنى الساحر ، قال : فبينا هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب ؟ قال : فأخذ حجراً فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز

الناس ، ورماها فقتلها ، ومضى فأخبر الراهب بذلك فقال : أى بنى أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علىَّ ، فكان الغلام يبرئُ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ، ويشفيهم الله على يديه .

وكان للملك جليس فعمى فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما هٰهنا أجمع ، فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل ، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك ، فآمن ودعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك : يا فلان ، من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، قال : أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فأتى به ، فقال : أى بنى ، بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمة والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل ، قال : أنا ؟ قال : لا ، قال : أو لك رب غيرى ؟ قال ربى وربك الله ، قال : فأخذه أيضاً بالعذاب ولم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى الراهب فقال : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شِقّاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه .

وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال : إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فبعث به مع نفر فى قرقرة فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا أغرقوه فى البحر ؛ فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى ، قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهماً من كنانتى ، ثم قل باسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى ، ففعل ووضع السهم فى كبد القوس ثم رماه وقال : باسم الله رب الغلام فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر فقد والله نزل بك ، قد آمن الناس كلهم .

فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . وقال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع فى النار فقال الصبى : اصبرى يا أماه فإنك على الحق » ، كذا رواه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائى من حديث حماد بن سلمة ، زاد النسائى وحماد ابن يزيدكلاهما عن ثابت به ، ورواه الترمذى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت بإسناده نحوه وجرى إيراده كما بسطنا ذلك فى التفسير .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر فقال : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد ـ ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيمون ، ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر .

فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم فوحّد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه فكتمه إياه ، وقال له يا بن أخى إنك لن تحمله أخشى ضعفك عنه ، والتامر لا يظن إلا أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه وتخوف ضعفه فيه عمد إلى قداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح ، لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى قد كتمه فقال : وما هو؟ قال : كذا وكذا ، قال : وكيف علمته فأخبره بما صنع ، قال : أى ابن أخى قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى وأدعو لك الله فيعافيك عما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم ، فيوحد الله ويسلم ، فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه فاتبعه على

أمره ودعا له فعوفى حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال : أفسدت عليّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى ، لأمثلن بك ، قال : لا تقدر على ذلك ، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها فيخرج ليس به بأس .

فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر : والله لا تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به فإنك إن فعلت سلطت عليّ فقتلتنى ، قال : فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن التامر ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله وهلك الملك مكانه ، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر ، فالله أعلم أى ذلك كان ؛ فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلكْ أو القتل فاختاروا القتل ، فخد الأخدود وحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ؛ فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً .

ففى ذى نواس وجنده أنزل الله على رسوله : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود) الآيات ؛ وهذا يقتضى أن هذه القصة غير ما وقع فى سياق مسلم ، وقد زعم بعضهم أن الأخدود وقع فى العالم كثيراً ، كما قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع ، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد واتخذ أتونا وألقى فيه النصارى ، الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد ، وفى العراق فى أرض بابل فى زمان بختنصر ، حين صنع الصنم وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيها الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها وألقى فيها الذين بغوا عليهم وهم تسعة رهط فأكلتهم النار . وقال أسباط عن السدى فى قوله : (قتل أصحاب الأخدود) قال : كان الأخدود ثلاثة : خد بالشام وخد بالعراق وخد باليمن ، رواه ابن أبى حاتم . وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها فى سورة البروج ، ولله الحمد والمنة .

باب بيان الإذن فى الرواية والتحديث عن أخبار بنى إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا همام حدثنا زيد عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « حدثوا عنِّى ولا تكذبوا علىّ ومن كذب علىَّ متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ، وقال أيضا : حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن فمن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه » ، وقال : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج حدثوا عنى ولا تكذبوا علىَّ ومن كذب علىَّ ـ قال همام أحسبه قال متعمِّداً ـ فليتبوأ مقعده من النار » وهكذا رواه مسلم والنسائى من حديث همام ورواه أبو عوانة الاسفراييني عن أبى داود السجستانى عن هدبة عن همام عن زيد بن أسلم به ، ثم قال : قال أبو داود : أخطأ فيه همام وهو من قول أبى سعيد ، كذا قال ، وقد رواه الترمذى عن سفيان عن وكيع عن سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعا ، فالله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم أنبأنا الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية حدثنى أبو كبشة السلولى أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يعنى يقول : بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ورواه أحمد أيضا عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق كلاهما عن الأوزاعى به . وكذا رواه البخارى عن أبى عاصم النبيل عن الأوزاعى به ، وكذا رواه الترمذى عن بندار عن أبى عاصم ، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلى عن محمد بن يوسف العريانى عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية وقال : حسن صحيح .

وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى حدثنا هشام بن معاوية حدثنا أبى عن قتادة عن أبى حسان عن عبد الله بن عمرو قال : كان نبى الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بنى إسرائيل حتى نصبح ما نقوم فيها إلا لمعظم صلاة ، ورواه أبو داود عن محمد بن مثنى ، ثم قال البزار حدثنا محمد بن مثنى حدثنا عفان حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أبى حسان عن عمران بن الحسين قال : كان رسول الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بنى إسرائيل لا يقوم إلا لمعظم صلاة ، قال البزار : وهشام أحفظ من أبى هلال ، يعنى أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، هو القطان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، إسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة حدثنا وكيع حدثنا ربيع بن سعد الجعفى عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : حدثوا عن بنى إسرائيل ، فإنه قد كان فيهم الأعاجيب ، ثم أنشأ يحدث ﷺ فقال : خرجت طائفة من بنى إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم فقالوا : لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل فيخرج لنا رجلا قد مات نسائله يحدثنا عن الموت ، ففعلوا ، فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور بين عينيه أثر السجود فقال : يا هؤلاء ما أردتم إلىّ فقد مت منذ مائة عام فما سكنت عنى حرارة الموت حتى الآن ، فادعوا الله أن يعيدنى كما كنت ، وهذا حديث غريب إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً . فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذى بأيدينا عن المعصوم ، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه ، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن نعتقد صحته لما رواه البخارى قائلا : حدثنا محمد بن يسار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » تفرد به البخارى من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من طريق الزهرى عن أبى نملة الأنصارى عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال : إذا جاء رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم ، فقال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم » تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال : فغضب وقال : أمتهوكون فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى به لقد جئتكم به بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى . تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم ، فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية

وحـرفـوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التى لم يحيطوا بها علما وهى بلغتهم ، فكيف يعبرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذا وقع فى تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير مع مالهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظرَ فى كتبهم التى بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

وهذه التوراة التى يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير ، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه ، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها ، وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، وقد أسلم فى زمن عمر وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب فكان عمر ، رضى الله عنه ، يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفاً لقلبه ، فتوسع كثير من الناس فى أخذ ما عنده وبالغ أيضاً هو فى نقل تلك الأشياء التى كثير منها ما يساوى مداده ، ومنها ما هو باطل لا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذى بأيدينا .

وقد قال البخارى : وقال أبو اليمان : حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إنه كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ، يعنى من غير قصد منه ، وروى البخارى من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرءونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكُم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكُم عن الذى أنزل عليكُم ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنه لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله أعلم .

قصة جريج أحد عباد بنى إسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا وهيب بن جرير حدثنى أبى سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، قال : وكان فى بنى إسرائيل رجل عابد يقال له : جريج فابتنى صومعة وتعبد فيها ، قال

فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج فقالت بغى منهم : لئن شئتم لأفتننه ، فقالوا : قد شئنا ذاك ، قال : فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأمكنت نفسها من راع كان يؤوى غنمه إلى أصل صومعة جريج ، فحملت فولدت غلاماً فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج ، فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : إنك زنيت بهذه البغى فولـدت غلاماً ، فقال : وأين هو؟ قالوا : هو هذا ، قال : فقام فصلى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بأصبعه فقال : بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال أنا ابن الراعى ، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه وقالوا : نبنى صومعتك من ذهب قال : لا حاجة لى فى ذلك ابنوها من طين كما كانت ، قال : وبينما امرأة فى حجرها ابن لها ترضعه إذ مر بها راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، قال : فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، قال : ثم عاد إلى ثديها فمصه .

قال أبو هريرة : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى صنيع الصبى ووضع أصبعه فى فيه يمصها . ثم مرت بأمةٍ تُضرَب ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، قال فترك ثديها وأقبل على الأمة فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، قال : فذاك حين تراجعا الحديث فقالت : خلفى مر الراكب ذو الشارة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ومررت بهذه الأمة فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فقلت : اللهم اجعلنى مثلها ، فقال : يا أمتاه إن الراكب ذا الشارة جبار من الجبابرة ، وإن هذه الأمة يقولون : زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، وهى تقول حسبى الله . وهكذا رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء وفى المظالم عن مسلم بن إبراهيم ، ومسلم فى كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هٰرون كلاهما عن جرير بن حازم به ، طريق آخر وسياق آخر .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : كان جريج يتعبد فى صومعته ، قال : فأتته أمه فقالت : يا جريج أنا أمك وكلمنى ، قال : وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن ، قال : وصادفته يصلى ، قال : يارب أمى وصلاتى فاختار صلاته ، فرجعت ثم أتته فصادفته يصلى ، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمنى ، فقال : يارب أمى وصلاتى فاختار صلاته ، فقالت : اللهم هذا جريج وإنه ابنى وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى ، اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات . ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن . قال : وكان راع يأوى إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعى فولدت

غلاماً ، فقيل : ممن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير ، فأقبلوا بفئوسهم ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم ، فأقبلوا يهدمون ديره ، فنزل إليهم فقالوا : سل هذه المرأة ، قال : أراه تبسم ، قال : ثم مسح رأس الصبى فقال : من أبوك ؟ قال : راعى الضأن ، قالوا : يا جريج نبنى ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة ، قال : لا ، ولكن أعيدوه كما كان ففعلوا . ورواه مسلم فى الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به .

سياق آخر قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له : جريج كان يتعبد فى صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت : أى جريج أى بنى أشرف علىّ أكلمك أنا أمك أشرف علىّ فقال : أى ربى صلاتى وأمى ، فأقبل على صلاته ، ثم عادت فنادته مراراً فقالت : أى جريج أى بنى أشرف على فقال : أى رب صلاتى وأمى ، فأقبل على صلاته فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسة ، وكانت راعية ترعى غنما لأهلها ثم تأوى إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأُخِذت ، وكان من زنى منهم قُتِل ، فقالوا : ممن ؟ قالت : من جريج صاحب الصومعة فجاءوا بالفئوس والمرور فقالوا : أى جريج أى مرائى انزل ، فأبى وأقبل على صلاته يصلى ، فأخذوا فى هدم صومعته فلما رأى ذلك نزل فجعلوا فى عنقه وعنقها حبلا ، فجعلوا يطوفون بهما فى الناس فوضع أصبعه على بطنها فقال : أى غلام من أبوك ؟ فقال : أبى فلان راعى الضأن فقبّلوه وقالوا : إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة ، قال : أعيدوها كما كانت ، وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلموا فى المهد : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وقد تقدم الكلام على قصته وصاحب جريج ابن البغى من الراعى ، كما سمعت ، واسمه يابوس كما ورد مصرحاً به فى صحيح البخارى ، والثالث ابن المرأة التى كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هى بريئة منه وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل ، كما تقدم فى رواية محمد بن سيرين عن أبى هريرة مرفوعا . وقد رواه الإمام أحمد عن هوذة عن عوف الأعرابى عن خلاس عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع وهو إسناد حسن .

وقال البخارى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال : بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب

وهى ترضعه فقالت : اللهم لا تمت ابنى حتى يكون مثل هذا ، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم رجع فى الثدى ومر بامرأة تجُر ويُلعَب بها فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فقال اللهم اجعلنى مثلها ، فقال : أما الراكب فإنه كافر . وأما المرأة فإنهم يقولون : إنها تزنى وتقول حسبى الله . وقد ورد فى من تكلم فى المهد أيضا شاهد يوسف ، كما تقدم ، وابن ماشطة آل فرعون ، والله أعلم .

قصـــة بـــرصيصـــا

وهى عكس قضية جريج ، فإن جريجاً عُصم وذلك فتن ، قال ابن جرير حدثنى يحيى ابن إبراهيم المسعودى أنبأنا أبى عن أبيه عن جده عن الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) . قال ابن مسعود وكانت امرأة ترعى الغنم وكان لها إخوة أربعة وكـانت تأوى بالليل إلى صومعـة راهب ، قال فنـزل الراهب ففجر بها فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل تصدق ويسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها ، قال فأتى الشيطان إخـوتهـا فى المنـام ، فقـال لهم : إن الـراهب صاحب الصـومعة ، فجر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ، ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ، بل قصها علينا ، قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، قالوا : فوالله ما هذا إلا لشىء فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ، ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان فقال : إنى أوقعتك فى هذا ولن ينجيك منه غيرى ، فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه ! قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل . وهكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، بسياق آخر فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا النضر بن شميل أنبأنا شعبة عن أبى إسحاق سمعت عبـد الله بن نهيك سمعت علياً يقـول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وأن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها عليكم بهذا القس فيداويها ، قال : فجاءوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت ،

فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة واحدة ، فسجد له ، فقال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) .

قصة الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم

قال الإمام البخارى : حدثنا إسمٰعيل بن خليل أخبرنا على بن مسهر عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال واحد منهم : « اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أنى اشتريت منه بقراً ، وأنه أتانى يطلب أجره فقلت : اعمد إلى تلك البقر فسقها ، فقال لى : إنما لى عندك فرق من أرز ، فقلت له اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا » فانساخت عنهم الصخرة فقال الآخر : « اللهم إن كنت تعلم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى فأبطأت عنهما ليلة فجئت وقد رقدا ، وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى ، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا » فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : « اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى ابنة عم من أحب الناس إلىَّ وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتنى من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركت المائة دينار ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا » ففرج الله عنهم فخرجوا ، رواه مسلم عن سويد بن سعيد عن على بن مسهر به ، وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن مروان بن معاوية عن عمرو بن حمزة بن عبد الله ابن عمر عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ بنحوه . ورواه الإمام أحمد من حديث وهب بن منبه عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق ، وفيه زيادات . ورواه البزار

من طريق أبى إسحاق عن رجل من بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعا مثله ؛ ورواه البزار فى مسنده من حديث أبى حنش عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ بنحوه .

خبر الثلاثة : الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخارى ومسلم من غير وجه عن همام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة حدثنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا لله أن يبتليهم ، فبعث الله إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له : أى شىء أحب إليك ؟ فقال لون حسن وجلد حسن ، قد قذرنى الناس ، قال : فمسحه ، فذهب عنه ، فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو قال البقر ـ هو شك فى ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ فأعطِىَ ناقة عشراء فقال : يبارك لك فيها . قال : وأتى الأقرع فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شَعر حسن ويذهب عنى هذا ، قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب وأعطِىَ شعراً حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطاه بقرة حاملا وقال : يبارك لك فيها . قال : وأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال يرد الله إلىَّ بصرى فأبصر به الناس ، قال فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطّعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك ، بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيراً اتبلغ عليه فى سفرى ، فقال له : إن الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله عز وجل ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له : مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأعمى فى صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك ، شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، وفقيراً فقد أغنانى فخذ ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل ، فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك ، هذا لفظ البخارى فى أحاديث بنى إسرائيل .

حديث الذى استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بشهداء أشهدهم ، قال كفى بالله شهيداً ، قال : ائتنى بكفيل ، قال كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال : اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بذلك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضى بذلك ، وأنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً وإنى استودعتكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه ؟ قال : فإن الله أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بألفك راشداً .

هكذا رواه أحمد مسنداً وقد علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد وأسنده فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه ، والعجب من الحافظ أبى بكر البزار كيف رواه فى مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عمر بن سلمة عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه ، ثم قال : لا يروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

قصـــــــة أخـــــــرى
شبيهة بهذه القصة فى الصدق والأمانة

قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اشترى رجل من رجل عقاراً له فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك منى إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب ، وقال الذى له الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية ، قال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا .

هكذا روى البخارى هذا الحديث فى أخبار بنى إسرائيل ، وأخرجه مسلم عن محمد ابن رافع عن عبد الرزاق به ، وقد روى أن هذه القصة وقعت فى زمن ذى القرنين ، وقد كان قبل بنى إسرائيل بدهور متطاولة ، والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر فى كتابه المبتدأ عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملوكه وعماله بنفسه وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه ، قال : فبينما هو يسير متنكراً فى بعض المدائن فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً ، لا يختلف إليه أحد فى خصومة ، فلما أن طال ذلك بذى القرنين ولم يطلع على شىء من أمر ذلك القاضى وهم بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه ، فادعى أحدهما فقال : أيها القاضى إنى اشتريتُ من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً وإنى دعوته إلى أخذه فأبى علىَّ ، فقال له القاضى : ما تقول ؟ قال : ما دفنتُ وما علمتُ به فليس هو لى ولا أقبضه منه ، قال المدعى : أيها القاضى مر من يقبضه فتضعه حيث أحببتَ ، فقال القاضى : تفر من الشر وتدخلنى فيه ، ما أنصفتنى وما أظن هذا من قضاء الملك ، فقال القاضى : هل لكما أمر أنصف مما دعوتمانى إليه ؟ قالا : نعم ، قال للمدعى : ألك ابن ؟ قال نعم ، وقال للآخر : ألك ابنة ؟ قال نعم ، قال اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال وادفعا فضل ما بقى إليهما يعيشان به ملياً فتكونا بخيره وشره ، فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ، ثم قال للقاضى : ما ظننت أن فى الأرض أحداً يفعل مثل هذا أو قاضى يقضى بمثل هذا ، فقال القاضى : وهو لا يعرفه ؟ وهل أحد يفعل غير هذا ؟ قال ذو القرنين : نعم ، قال القاضى : فهل يمطرون فى بلادهم ؟ فعجب ذو القرنين من ذلك ، وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

قصـــــة أخـــــرى

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن أبى عدى عن شعبة عن قتادة عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله ، فجعل يسأل فقال له رجل : ائتِ قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناءَ بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه أن تقربى وأوحى إلى هذه أن تباعدى ، وقال : قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له . هكذا رواه هٰهنا مختصرا ، وقد رواه مسلم عن بندار به ، ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولا .

حـــديـــث آخـــر

قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال : بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنما خلقنا للحرث ، فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم ، فقال ؟ فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثَمَّ (قال) : وبينما رجل فى غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب [1] هذا استنقذتها منى فمن لها يوم السبع يوم لا راعى لها غيرى ، فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلم ، قال فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم (قال) : وحدثنا على قال حدثنا سفيان عن مسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بمثله . وقد أسنده البخارى فى المزارعة عن على بن المدينى ومسلم عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة وأخرجاه من طريق شعبة كلاهما عن مسعر به . وقال الترمذى حسن صحيح وأخرج مسلم الطريق الأولى من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثورى كلاهما عن أبى الزناد .

(حديث آخـر) قال البخـارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم عن سعد

---

(١) أى يا هذا .

عن أبيه عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه وإن كان فى أمتى هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب » لم يخرجه مسلم من هذا الوجه ، وقد روى عن إبراهيم بن سعد عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبى سفيان ، عام حج ، على المنبر فتناول قُصة من شعر كانت فى يدى حرَسىٍّ ، فقال : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول : إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهرى بنحوه ، وقال الترمذى : حديث صحيح .

وقال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة قال : سمعت سعيد بن المسيب قال : قدم معاوية بن أبى سفيان المدينة ، آخر قدمة قدمها ، فخطبنا فأخرج من كمه كبة شعر وقال : ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود ، إن النبى ﷺ سماه الزور ، يعنى الوصال فى الشعر ، تابعه غندر عن شعبة ، والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر عن شعبة ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا سعيد بن تليد حدثنا ابن وهب قال : أخبرنى جرير بن حازم عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به . ورواه مسلم عن أبى الطاهر بن السرح عن ابن وهب به .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عبد الله بن أسماء حدثنا جويرية عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيهـا النار ، فلا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض . وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمر حدثنا المستمر بن الريان حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : كان فى بنى إسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب ، فكانت تمشى بين امرأتين قصيرتين ، واتخذت خاتماً من ذهب وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه ، رواه مسلم

من حديث المستمر وخليد بن جعفر كلاهما عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعا قريباً منه ، وقال الترمذى : حديث صحيح .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور سمعت ربعى بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال : قال النبى ﷺ : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » تفرد به البخارى دون مسلم ، وقد رواه بعضهم عن ربعى بن حراش عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، والله أعلم .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القسم حدثنا عبد الحميد ، يعنى ابن بهرام ، حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : بينما رجل وامرأة له فى السلف الخالى لا يقدران على شىء ، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته سغبة شديدة فقال لامرأته : عندك شىء ؟ قالت : نعم ، أبشر أتاك رزق الله ، فاستحثها ، فقال : ويحك ابتغى إن كان عندك شىء ، قالت : نعم ، هنيهة ، نرجو رحمة الله ، حتى إذا طال عليه المطال قال : ويحك قومى فابتغى إن كان عندك شىء فأتينى به ، فإنى قد بلغت الجهد وجهدت ، فقالت : نعم ، الآن ينضج التنور فلا تعجل ، فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضاً أن يقول لها قالت : من عند نفسها ، لو قمت فنظرت إلى تنورى ، فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحاها تطحن ، فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما فى تنورها من جنوب الغنم .

قال أبو هريرة : فوالذى نفس أبى القاسم بيده عن قول محمد ﷺ : لو أخذت ما فى رحاها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة . وقال أحمد حدثنا أبو عمار حدثنا أبو بكر عن هشام عن محمد عن أبى هريرة قال دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية فلما رأت امرأته ما لقى قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته ، ثم قالت : اللهم ارزقنا فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج ، قال : أصبتم بعدى شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا ، ثم قامت إلى الرحى فرفعتها ، فذكر ذلك للنبى ﷺ قال : « أما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » قال شهدت النبى ﷺ وهو يقول : « والله لأن يأتى أحدكم بحزمة حطب ثم يحمله فيبيعه فيستعفف منه خير له من أن يأتى رجلا فيسأله » .

قصــة الملِكــين التـائبـين

قال الإمـام أحمـد : حدثنا يزيد بن هرون حدثنا المسعودى عن سماك بن حرب عن عبـد الـرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان فى مملكته ، ففكر فعلم أن ذلك منقطع عنه وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه ، فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح فى مملكـة غيره ، وأتى ساحل البحر فكان به يضرب اللبن بالأجر ، فيأكل ويتصدق بالفضل ، ولم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم فأرسل إليه ، فأبى أن يأتيه ، فركب إليه الملك فلما رآه ولى هارباً ، فركض فى أثره فلم يدركه ، فناداه ، يا عبد الله إنه ليس عليك منى بأس ، فقام حتى أدركه فقال له : من أنت رحمك الله ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ففكرت فى أمرى فعلمت أن ما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلنى عن عبادة ربى عز وجل فتركته وجئت هٰهنا أعبد ربى ، فقال له : ما أنت بأحوج لما صنعت منى ، قال : فنزل عن دابته فسيبها وتبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فماتا . قال عبد الله فلو كنت برملـة مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذى نعت لنا رسول الله ﷺ .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أن رجلا كان قبلكم رغسه الله مالا فقال لبنيه لما حُضر : أى أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال فإنى لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فاحرقونى ثم اسحقونى ثم اذرونى فى يوم عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله عز وجل فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك ، فتلقاه برحمته .

ورواه فى مواضـع أخر ومسلم من طرق عن قتادة به . ثم رواه البخارى ومسلم من حديث ربعى بن حراش عن حذيفة عن النبى ﷺ بنحوه ومن حديث الزهرى عن حميد ابن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، قال فلقى الله فتجاوز عنه ، وقد رواه فى مواضع أخر ومسلم من طريق الزهرى به .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى مالك عن محمد ابن المنكدر عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ قال أسامة : قال رسول الله ﷺ : الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل وعلى من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه . قال أبو النضر : لا يخرجكم إلا فراراً منه .

ورواه مسلم من حديث مالك ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به ، حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا داود بن أبى الفرات حدثنا عبد الله بن يزيد عن يحيى بن معمر عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرنى أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، إلا كان له مثل أجر شهيد ، تفرد به البخارى عن مسلم من هذا الوجه .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ؟ ، حب رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة ، فقال : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم قام فخطب ثم قال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

(حديث آخر) وقال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النزال بن سبرة الهلالى عن ابن مسعود قال : سمعت رجلا قرأ وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها ، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فعرفت فى وجهه الكراهية وقال : كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا . تفرد به البخارى دون مسلم .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم . تفرد به دون مسلم وفى سنن أبى داود « صلوا فى نعالكم خالفوا اليهود » .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن طاوس عن ابن عباس سمعت عمر يقول : قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها . رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار به ، ثم قال البخارى : تابعه جابر وأبو هريرة عن النبى ﷺ ، ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتى فى باب الحيل من كتاب الأحكام ، إن شاء الله وبه الثقة .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا عمران بن ميسرة حدثنا عبد الوارث حدثنا خالد عن أبى قلابة عن أنس بن مالك قال : ذكروا النار والناقوس فذكروا اليهود والنصارى فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة ، وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبى قلابة عبد الله ابن زيد الجرمى به .

والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب فى جميع شعارهم ، فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلوات بغير دعوة إليها . ثم أمر من ينادى فيهم وقت الصلاة « الصلاة جامعة » ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشىء يعرفه الناس فقال قائلون : نضرب بالناقوس ، وقال آخرون : نورى ناراً ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب فأُرِىَ عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى فى منامه الأذان ، فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالا فنادى ، كما هو مبسوط فى موضعه من باب الأذان فى كتاب الأحكام .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا بشر بن محمد أنبأنا عبد الله أنبأنا معمر ويونس عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا . وهكذا رواه فى غير موضع ومسلم من طرق عن الزهرى به .

(حديث آخر) قال البخارى : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو غسان قال : حدثنى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، فقلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال النبى ﷺ : فمن ؟ وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به .

والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهى عنها شرعاً مما يشابه أهل

الكتاب قبلنا أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم فى أقوالهم وأفعالهم ، حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً ، لكنه تشبّه ففعله فى الظاهر فعلهم ، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكلية ، وهكذا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) . فكان الكفار يقولون للنبى ﷺ فى كلامهم معه : راعنا ، أى انظر إلينا ببصرك واسمع كلامنا ، ويقصدون بقولهم « راعنا » من الرعونة ، فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك ، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً .

فقد روى الإمام أحمد والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذِّلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » فليس للمسلم أن يتشبه بهم لا فى أعيادهم ولا مواسمهم ولا فى عباداتهم ، لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذى شرّع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل ، الذى لو كان موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة وعيسى ابن مريم الذى أنزل عليه الإنجيل حيين لم يكن لهما شرع متبع ، بل لو كانا موجودَين ، بل وكل الأنبياء ، لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهرة المشرفة المكرمة المعظمة ، فإذا كان الله تعالى قد مَنَّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ ، فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، قد بدلوا دينهم وحرفوه وأوّلوه حتى صار كأنه غير ما شرع لهم أولا . ثم هو بعد ذلك كله منسوخ ، والتمسك بالمنسوخ حرام لا يقبل الله منه قليلا ولا كثيراً ، ولا فرق بينه وبين الذى لم يشرع بالكلية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(**حديث آخر**) قال البخارى : حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : إنما أجلكم فى أجل من خلا من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى المغرب على قيراطين قيراطين ، ألا لكم الأجر مرتين ، فغضب اليهود

والنصارى فقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء ، فقال الله تعالى : « هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ فقالوا : لا ، قال : فإنه فضلى أوتيه من أشاء » .

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها لقوله : إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم قبلكم ، كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، فالماضى لا يعلمه إلا الله ، كما أن الآتى لا يعلمه إلا هو ، ولكنه قصير بالنسبة إلى ما سبق ولا اطلاع لأحد على تحديد ما بقى إلا الله عز وجل ، كما قال الله تعالى : (لا يجليها لوقتها إلا هو) وقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها) . وما يذكره بعض الناس من الحديث المشهور عن العامة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض ، فليس له أصل فى كتب الحديث ، وورد فيه حديث أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، وفى صحته نظر .

والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم وأن ذلك ليس منوطا بكثرة العمل وقلته ، بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى ، وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير ، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها ، وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا فى أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه من تمر ، وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور ، وقد برز فى هذه المدة التى هى ثلاث وعشرون سنة فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله ، حتى على نوح الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويعمل بطاعة الله ليلا ونهاراً صباحاً ومساء ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته ، كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

فصـــــل

وأخبار بنى إسرائيل كثيرة جداً فى الكتاب والسنة النبوية ، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخارى فى هذا الكتاب ففيه مقنع وكفاية

وهو تذكرة أو نموذج لهذا الباب والله أعلم . وأما الأخبار الاسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين فكثيرة جداً ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع ، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص مكذوب مفترى ، وضعه زنادقتهم وضلالهم وهى ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله فى كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ، ومنها ما يحتمل الصدق والكذب فهذا الذى أمرنا بالتوقف فيه ، فلا نصدقه ولا نكذبه كما ثبت فى الصحيح : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » .

ذكر تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام ، وكانت كما قال الله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء) وقال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) وقال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهٰرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) ، وقال تعالى : (وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم) ، وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان ، ثم شرعوا فى تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها ، كما قال الله تعالى :(وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ، وهو أنهم يتصرفون فى معانيها ويحملونها على غير المراد كما بدلوا حكم الرجم بالجلد والتحميم ، مع بقاء لفظ الرجم فيها ، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع .

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون بأنها جميعاً بدلت ، وقال آخرون : لم تبدل ، واحتجوا بقوله تعالى : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) ، وقوله : (الذى يجدونه

مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات) الآية ، وبقوله : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وبقصة الرجم ، فإنهم كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر وفى صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله وفى السنن عن أبى هريرة وغيره لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فى قصة اليهودى واليهودية اللذيْن زنيا ، فقال لهم ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة ، فلما جاءوا بها وجعلوا يقرءونها ويكتمون آية الرجم التى فيها ، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له رسول الله ﷺ : ارفع يدك يا أعور ! فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمر رسول الله ﷺ برجمها وقال : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » وعن أبى داود أنهم لما جاءوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها وقال : آمنت بك وبمن أنزلك ، وذكر بعضهم أنه قام لها ، ولم أقف على إسناده والله أعلم . وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم أن التوراة انقطع تواترها فى زمن بختنصر ولم يبق من يحفظها إلا العزير ، ثم العزير ، إن كان نبياً فهو معصوم ، والتواتر إلى المعصوم يكفى ، اللهم إلا أن يقال : إنها لم تتواتر إليه لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة ، فلو لم تكن صحيحة معمولا بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون .

ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود فى قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم ، وأنهم مأمورون به حتما إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به ، لكن لما كان فى زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتما وقالوا : إن حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبى لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم فاحذروا أن تقبلوا منه ، فأنكر الله تعالى عليهم فى هذا القصد الفاسد الذى إنما حملهم عليه الغرض الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) الآية ، ولهذا حكم بالرجم وقال : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، وسألهم ما حملهم على هذا ، ولم تركوا أمر الله الذى بأيديهم ؟ فقالوا : إن الزنا قد كثر فى أشرافنا ولم يمكنا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا فقلنا : تعالوا إلى أمر نصَف نفعله مع الشريف والوضيع فاصطلحنا على الجلد والتحميم .

فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل ، وهذا إنما فعلوه فى المعانى مع بقاء لفظ الرجم فى كتابهم كما دل عليه الحديث المتفق عليه ، فلهذا قال من قال : هذا من الناس إنه لم يقع تبديلهم إلا فى المعانى وأن الألفاظ باقية ، وهى حجة عليهم ، إذ لو أقاموا ما فى كتابهم لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال الله تعالى : (الـذين يتبعـون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغـلال التى كانت عليهم) الآية ، وقـال تعـالى : (ولـو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة) الآية ، وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) الآية ، وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها ، حكاه البخارى عن ابن عباس فى آخر كتابه الصحيح وقرر عليه ولم يرده ، وحكاه العلامة فخر الدين الرازى فى تفسيره عن أكثر المتكلمين .

ليـس للجنـب لمـس التـوراة

ذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث ، وحكاه الحناطى فى فتاويه عن بعض أصحاب الشافعى ، وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التـوسط فى هذين القـولين ، منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله فقال : أما من ذهب إلى أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلا بدلوه فهذا بعيد ، وكذا من قال لم يبدل شىء منها بالكلية بعيد أيضاً ، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير وتصرفوا فى بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرفوا فى معانيها وهذا معلوم عند التأمل ولبسطه موضع آخر والله أعلم .

كما فى قوله فى قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك وفى نسخة بكرك إسحاق ، فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية ، لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل ، لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق ، وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون إسماعيل غير الذبيح فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم فزادوا ذلك فى كتاب الله افـتراء على الله وعـلى رسوله ﷺ ، وقد اغتر بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف وَوَافقوهم على أن الذبيح إسحاق ، والصحيح أن الذبيح إسماعيل كما قدمنا ، والله أعلم ، وهكذا فى توراة السامرة فى العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور فى الصلاة وليس

ذلك فى سائر نسخ اليهود والنصارى . وهكذا يوجد فى الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه ، والله أعلم .

قلت : وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة فلا يشك عاقل فى تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح ، وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شىء كثير جداً ، فأما ما يتلونه بلسانهم وَيكْتبونه بأقلامهم فلا اطلاع لنا عليه والمظنون بهم أنهم كذبة خونة يُكْثِرون الفرية على الله وَرسله وَكتبه .

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس وَلوقا وَمتى ويوحنا أشد اختلافا وَأكثر زيادة وَنقصاً وأفحش تفاوتاً من التوراة ، وقد خالفوا أحكام التوراة وَالإنجيل فى غير ما شىء قد شرَّعوه لأنفسهم ، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وَليست منصوصاً عليها وَلا مأموراً بها فى شىء من الأناجيل الأربعة ، وَهكَذا تصويرهم كنائسهم وَتركهم الختان ، وَنقلهم صيامهم إلى زمن الربيع ، وزيادته إلى خمسين يوما وأكلهم الخنزير ووضعهم الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة والرهبانية ، وهى ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليهم ، وكتبهم القوانين التى وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر .

فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها فى أيام قسطنطين بن قسطن ، بانى القسطنطينية ، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة فى بعض أسفاره للصيد من بلاد حران وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين ، فلما ولد له منها قسطنطين المذكور تعلم الفلسفة وبهر فيها وصار فيه ميل بعض الشىء إلى النصرانية التى أمه عليها ، فعظم القائمين بها بعض الشىء وهو على اعتقاد الفلاسفة ، فلما مات أبوه واستقل هو فى المملكة سار فى رعيته سيرة عادلة فأحبه الناس وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة ، وعظم شأنه وكان أول القياصرة . ثم اتفق اختلاف فى زمانه بين النصارى ومنازعة بين بترك الاسكندرية اكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له : عبد الله بن أريوس ، فذهب اكصندروس إلى أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قوله ، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ، واتبعه على هذا طائفة من النصارى ، واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه فذهب يستعدى على اكصندروس وأصحابه إلى الملك قسطنطين ، فسأله الملك عن مقالته ، فعرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول فى المسيح من أنه عبد الله ورسوله ، واحتج على ذلك ، فمال إليه وجنح إلى قوله ، فقال له قائلون : فينبغى أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه ، فأمر الملك بإحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف وكل

من عنـده فى دين النصرانية ، وجمع البتاركـة الأربعـة من القـدس وأنطاكية وورومية والإسكنـدرية ، فيقـال : إنهم اجتمعوا فى مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفى أسقف فجمعهم فى مجلس واحد ، وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة ، وهم مختلفون اختلافا متبايناً منتشراً جداً .

فمنهم الشرذمة على المقالة التى لا يوافقهم أحد من الباقين عليها ، فهؤلاء خمسون على مقالة ، وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى ، وهؤلاء عشرة على مقالة ، وأربعون على أخرى ، ومائة على مقالة ، ومائتان على مقالة ، وطائفة على مقالة ابن أريوس ، وجماعة على مقالة أخرى ، فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين ، مع أنه سىء الظن بما عدا دين الصـابئين من أسلافه اليونانيين ، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقـالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة اكصندروس ولم يجد طائفـة بلغت عدتهم فقـال : هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثـر الفرق ، فاجتمع بهم خصـوصـاً ووضـع سيفه وخاتمه إليهم وقال : إنى رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه فأنا أنصرها وأذهب إليها ، فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتابا فى الأحكـام وأن تكـون الصـلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكـواكب النيرة ، وأن يصوروا فى كنائسهم صوراً لها جثث ، فصالحوه على أن تكون فى الحيطان ، فلما توافقوا على ذلك أخذ فى نصرهم وإظهـار كلمتهم ، وإقـامـة مقـالتهم ، وإبعاد من خالفهم ، وتضعيف رأيه وقـوله ، فظهر أصحاب اكصندروس بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم ، وأمر ببناء الكنائس على دينهم وهم الملكية ، نسبة إلى دين الملك .

فبنى فى أيام قسـطنـطين بالشام وغيرها فى المدائن والقرى أزيد من اثنتى عشرة الف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم ، يعنى على مكان مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة قمامـة بيت المقدس على مكان المصلوب الذى زعمت اليهود والنصارى ، بجهلهم وقلة علمهم ، أنه المسيح عليه السلام ، ويقال : إنه قتل من أعداء أولئك وخدّ لهم الأخاديد فى الأرض وأجج فيها النار وأحرقهم بها ، كما ذكرناه فى سورة البروج ، وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين وقد أفسده عليهم فسادا لا إصلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنـده ، وكثـرت أعيادهم بسبب عظمائهم وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم وتفـاقم كفـرهم وغلظت مصيبتهم وتخلد ضلالهم وعـظـم وبـالهم ، ولم يهد الله قلوبهم ولا أصلح بالهم ، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمالها عن الاستقامة .

ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين فى قضية النسطورية واليعقوبية وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى وتعتقد تخليدهم فى نار جهنم ، ولا يرى مجامعتهم فى المعابد والكنائس ، وكلهم يقول بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة ، ولكن بينهم اختلاف فى الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت ، هل تدرعه أو حل فيه أو اتحد به ؟ واختلافهم فى ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ وكلهم على الباطل إلا من قال من الأريوسية ، أصحاب عبد الله بن أريوس ، إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، كما يقول المسلمون فيه سواء ، ولكن لما استقر أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلوا فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم ، والله أعلم .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) . وقد روى ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه فى تفسيره وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغسانى الشامى ، وقد تكلموا فيه ، حدثنى أبى عن جدى عن أبى إدريس عن أبى ذر قال : « قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير ، قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال : آدم قلت : يا رسول الله نبى مرسل ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا ، ثم قال : يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ ، وهو إدريس ، وهو أول من خط بالقلم ، وأربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر ، وأول نبى من بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك » .

وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن على بن

زيد عن القاسم عن أبى أمامة قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً » . وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف فيه ثلاثة من الضعفاء : معان وشيخه وشيخ شيخه ، وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجوهرى البصرى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله ثمانية آلاف نبى : أربعة آلاف إلى بنى إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس » موسى وشيخه ضعيفان أيضا ، وقال : أبو يعلى أيضا : حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدى حدثنا معبد بن خالد الأنصارى عن يزيد الرقاشى عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخوانى من الأنبياء ثمانية آلاف نبى ، ثم كان عيسى ، ثم كنت أنا » يزيد الرقاشى ضعيف . وقد رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلى عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسلم بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت على أثر ثمانية آلاف نبى : منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل » وهذا إسناد لا بأس به ، لكننى لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا ، والله أعلم .

(حديث آخر) قال عبد الله ابن الإمام أحمد : وجدت فى كتاب أبى بخطه حدثنى عبد المتعال بن عبد الوهاب حدثنا يحيى بن سعيد الأموى حدثنا مجالد عن أبى الوداك قال : قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجال ؟ قال : قلت لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « إنى خاتم ألف نبى أو أكثر ، وما بعث الله نبياً يتبع إلا وحذر أمته منه ، وإنى قد بين لى فيه ما لم يبين لأحد منهم ، وأنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى ، كأنها نخامة فى حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب درى ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن » وهذا حديث غريب ، وقد روى عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لخاتم ألف نبى أو أكثر ، وأنه ليس منهم نبى إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وأنه قد تبين لى فيه ما لم يتبين لأحد منهم ، وأنه أعور وإن ربكم ليس بأعور » ، وهذا إسناد حسن وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء لكن فى الحديث الآخر ما من نبى إلا وقد أنذر أمته الدجال ، فالله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فرات

قال : سمعت أبا حازم قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبى ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وأنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال فوا ببيعة الأول فالأول ، أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم » وكذا رواه مسلم عن بندار ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن حفص حدثنا أبى حدثنى الأعمش حدثنى شقيق قال : قال عبد الله : هو ابن مسعود ، كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . رواه مسلم من حديث الأعمش به نحوه ، وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم عن رجل عن أبى سعيد الخدرى قال : وضع رجل يده اليمنى على النبى ﷺ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدى عليك من شدة حمّاك ، فقال النبى ﷺ : « إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبى من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبى من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباء فيجويها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء » هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبى سعيد وقد رواه ابن ماجه عن دحيم عن ابن أبى فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان بن أبى النجود عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عليه ، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة . ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث عاصم بن أبى النجود . وقال الترمذى حسن صحيح وتقدم فى الحديث « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد وأمهاتنا شتى » والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت فى الفروع ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ، إلا أن كل نبى بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد ، أن يعبد الله وحده لا شريك له ، كما قال الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت

عليه الضلالة) (١) الآية . فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متفرقات ، فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع فى اختلاف أحكامها ، كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقال : (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) (٢) وقال : (ولكل وجهة هو موليها) (٣) على أحد القولين فى تفسيرها .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت فى أوقاتها إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذى شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذى لا يقبل الله غيره يوم القيامة كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) (٤) وقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (٥) وقال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) (٦) الآية . فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه ، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع فى ذلك الوقت المأمور به ، ولهذا لا يقبل الله من أحد عملا بعد أن بعث محمداً ﷺ على ما شرعه له ، كما قال تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) (٧) وقال تعالى : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) (٨) وقال تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وقال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . قيل : أراد العرب والعجم . وقيل : الإنس والجن ، وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

والمقصود أن إخوة العلات أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى ، مأخوذ من شرب العلل بعد النهل ، وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وإخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة النحل .
(٢) الآية : ٦٧ من سورة الحج .
(٣) الآية : ١٤٨ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات : ١٣٠ - ١٣٢ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٤٤ من سورة المائدة .
(٧) الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٨) الآية : ١٩ من سورة الأنعام .

وفى الحـديث الآخـر « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة » وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم ، ولأن توكلهم على الله عز وجل فى ذراريهم أعظم وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالا يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس ومحاويجهم وذوى خلتهم . وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين فى أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالإمام أبى عبد الله الشافعى رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن أن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس فى ظل الكعبة فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر إذ نزل منزلا ، فمنا من يضرب خباءه ، ومنا من هو فى جشره [1] ، ومنا من ينتضل [2] إذ نادى مناديه الصلاة جامعة قال : فاجتمعنا قال : فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبى قبلى إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذرهم ما يعلمه شراً لهم ، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها ، تجىء فتن يربق بعضها بعضاً ، تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، ثم تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه ، ثم تنكشف ، فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر . قال : فأدخلت رأسى من بين الناس فقلت : أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : فأشـار بيده إلى أذنيه وقـال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، قال : فقلت هذا ابن عمك ، يعنى معاوية ، يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وأن نقتل أنفسنا وقد قال الله تعـالى : (يا أيهـا الـذين آمنوا لا تأكلوا أموالكُم بينكُم بالباطل) [3] قال : فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثم نكس هنيهة ثم رفع رأسه فقال : أطعه فى طاعة الله واعصه فى معصية الله » ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن الأعمش به وقال فيه : أيها الناس إنه لم يكن

---

(١) الجشرة : إخراج الدواب للرعى .

(٢) انتضل القوم : تفاخروا .

(٣) الآية : ٢٩ من سورة النساء .

نبى قبلى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم ، وينذرهم ما يعلمه شراً لهم ، وذكر تمامه بنحوه . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ورواه مسلم أيضاً من حديث الشعبى عن عبد الرحمن بن عبد رب الكَعبة عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ بنحوه .

آخر الجزء الثانى من خط المصنف ، رحمه الله تعالى ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أخبار العرب .

ذكـــر أخبـار العـــرب

قيل : إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل ، وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون ، لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، وفى زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وأما عرب اليمن وهم حِمْيَرَ فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم ، قاله : ابن ماكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة : قحطان وقاحط ومقحط وفالغ ، وقحطان بن هود ، وقيل : هو هود ، وقيل : هود أخوه ، وقيل : من ذريته ، وقيل : إن قحطان من سلالة إسماعيل ، حكاه ابن إسحاق وغيره ، فقال بعضهم هو قحطان بن تيمن بن قيذر بن إسماعيل . وقيل غير ذلك فى نسبه إلى إسماعيل والله أعلم .

وقد ترجم البخارى فى صحيحه على ذلك فقال : « باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام » حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن يزيد بن أبى عبيد حدثنا سلمة رضى الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون [1] بالسيوف فقال : ارموا بنى إسماعيل وأنا مع بنى فلان ، لأحد الفريقين ، فأمسكوا بأيديهم ، فقال مالكم ؟ قالوا : وكيف نرمى وأنت مع بنى فلان ؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم ، انفرد به البخارى ، وفى بعض ألفاظه ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع [2] فأمسك القوم ،

---

(١) يتبارون ويترامون ، والتناضل : الترامى للسبق .

(٢) الأدرع ـ لقبه . واسمه : محجن وهو صحابى معروف .

فقال : ارموا وأنا معكُم كلكُم . قال البخارى ، وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر ، من خزاعة ، يعنى وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العـرم كما سيأتى بيانه ، وكانت الأوس والخزرج منهم ، وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام : ارموا بنى إسماعيل ، فدل على أنهم من سلالته ، وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب ، لكنه تأويل بعيد إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل ، لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل ، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضاً : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان ، والشعب الخامس وهم قضـاعة مختلف فيهم ، فقيل : إنهم عدنانيون ، قال ابن عبد البر : وعليه الأكثرون ، ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيرى وابن هشام ، وقد ورد فى حديث قضاعة بن معد ولكنه لا يصح ، قاله ابن عبد البر وغيره ، ويقال : إنهم لم يزالوا فى جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان ، فلما كان فى زمن خالد بن يزيد بن معاوية وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان ، فقال فى ذلك أعشى بن ثعلبة فى قصيدة له :

أبلغ قضـاعـةَ فى القـرطاسِ إنهمُ ... لولا خلائـفُ آل الله ما عُتـقـوا
قالت قضـاعـةُ إنـا من ذوى يمْن ... والله يعـلـمُ ما بروا ومـا صدقـوا
قد ادّعـوا والـداً ما نال أمـهـم ... قد يعـلمـون ولـكن ذلـك الفـرقُ

وقـد ذكـر أبو عمرو السهيلى أيضاً من شعر العرب ما فيه إبداع فى تفسير قضاعة فى انتسابهم إلى اليمن ، والله أعلم . والقول الثانى أنهم من قحطان وهو قول ابن إسحاق والكلبى وطائفة من أهل النسب . قال ابن إسحاق وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد قال بعض شعرائهم ، وهو عمرو بن مرة صحابى له حديثان :

يا أيهـا الـداعِى ادعنـا وأبشرْ ... وكـن قضـاعـيـاً ولا تنـزّرْ
نحن بنـو الشيخِ الهِجان الأزهـرْ ... قضـاعـة بن مالـك بن حمير
الـنسـب المعـروف غير المنكـرْ ... فى الـحَجـرِ المنقـوشِ تحت المنـبر

قال بعض أهل النسب : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن حمير ، وقال

ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبى عشانة محمد بن موسى عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله : أما نحن من معد ؟ قال : لا ، قلت : فممن نحن ؟ قال : أنتم قضاعة بن مالك بن حمير ، قال أبو عمر بن عبد البر : ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهنى ، فعلى هذا قضاعة فى اليمن فى حمير بن سبأ ، وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاعة ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير ، وزعم بعضهم أنه كان حملا فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه ، والله أعلم .

وقال محمد بن سلام البصرى النسابة : العرب ثلاثة جراثيم : العدنانية والقحطانية وقضاعة . قيل له : فأيهما أكثر العدنانية أو القحطانية ؟ فقال : ما شاءت قضاعة إن تيامنت فالقحطانية أكثر ، وإن تعددنت فالعدنانية أكثر ، وهذا يدل على أنهم يتلومون فى نسبهم ، فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية ، والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] قال علماء النسب : يقال شعوب ، ثم قبائل ، ثم عمائر ، ثم بطون ، ثم أفخاذ ، ثم فصائل ، ثم عشائر ، والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شىء ، ولنبدأ أولا بذكر القحطانية ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلا بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء تعالى وبه الثقة .

وقد قال البخارى (**باب ذكر قحطان**) حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبى المغيث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه ، وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردى عن ثور بن زيد به . قال السهيلى : وقحطان أول من قيل له : أبيت اللعن ، وأول من قيل له : أنعم صباحا . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة عن جرير حدثنى راشد بن سعد المقرائى عن أبى حى عن ذى فجر أن رسول الله ﷺ قال : « كان هذا الأمر فى حمير فنزعه الله منهم فجعله فى قريش (و س ى ع و د ا ل ى هـ م) » قال عبد الله : كان هذا فى كتاب أبى وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء ، يعنى : وسيعود إليهم .

---

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

قصـــــة ســـــبأ

قال الله تعالى : (لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيهـا ليالىَ وأيامـاً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكُور) [١] .

قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، قالوا : وكان أول من سبى من العرب فسمى سبأ لذلك ؛ وكان يقال له : الرائش لأنه كان يعطى الناس الأموال من متاعه [٢] . قال السهيلى : ويقال : إنه أول من تتوج ، وذكر بعضهم أنه كان مسلماً ، وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ ، فمن ذلك قوله :

سيمـــلك بعـــدَنـــا ملكـــا عظيماً	نبـــىّ لا يرخِّص فى الحـــرامِ
ويمـــلك بعـــدَه منهـــم ملوك	يدينـــون الـــعبـــادَ بغـــير ذام
ويمـــلك بعـــدَهـــم منـــا ملوكٌ	يصـــير المـــلكُ فينـــا باقـــتـــسام
ويمـــلك بعـــدَ قحـــطان نبـــى	تقـــى جبينـــه خـــير الأنـــام
يســـمـــى أحمـــداً ، يا ليت أنـــى	أعـــمِّـــر بعـــدَ مبعـــثـــه بعـــام
فأعـــضـــده وأحـــبـــوه بنصرى	بكـــلِّ مدجـــجٍ ، وبـــكـــل رام
متـــى يظهـــر فكـــونـــوا ناصريه	ومـــن يلقـــاه يبـــلغـــه سلامـــى

حكاه ابن دحية فى كتابه التنوير فى مولد البشير النذير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن وعلة سمعت عبد الله بن العباس يقول : إن رجلا سأل النبى ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : بل هو رجل ولد عشرة [٣] فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون : فمذحج

(١) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة سبأ

(٢) فى القاموس . راش الصديق : أطعمه وكساه وأصلح حاله .

(٣) المراد : كان من نسله هؤلاء العشيرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه .

وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وقد ذكرنا فى التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفى هو السائل عن ذلك كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ، ولله الحمد .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن ، واحدهم تُبّع ، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك ، وكانت العرب تسمى كل من ملك اليمن مع الشحر حضرموت تبَّعاً ، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ، ومن ملك الفرس كسرى ، ومن ملك مصر فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشى ، ومن ملك الهند بطليموس ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس ، وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام ، وقد كانوا فى غبطة عظيمة وأرزاق دارة وثمار وزروع كثيرة ، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد ، فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق : عن وهب بن منبه أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً ، وزعم السدى أنه أرسل إليهم اثنى عشر ألف نبى ، فالله أعلم . والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله وكان ذلك فى زمان بلقيس ، وقبلها أيضاً ، واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم أن سد مأرب كان صنعته أن المياه تجرى من بين جبلين ، فعمدوا فى قديم الزمان فسدوا ما بينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على أعالى الجبلين ، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة ، ويقال : كان أول من بناه سبأ بن يعرب وسلط إليه سبعين واديا يفد إليه ، وجعل له ثلاثين فرضة [1] يخرج منها الماء ، ومات ولم يكمل بناؤه فكملته حمير بعده ، وكان اتساعه فرسخاً فى فرسخ ، وكانوا فى غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة ، حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلىء من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته وذكروا أنه لم يكن فى بلادهم شىء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فنائهم ، كما قال تعالى : (لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين

---

(١) أى ثلمة وفتحة .

وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) ، وكما قال تعالى : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) [١] .

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات ، سألوا أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم فى مشاق وتعب ، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً ، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة الغميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد ، كما قال تعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) قال غير واحد : أرسل الله على أصل السد الفار وهو الجرذ ويقال : الخلد [٢] ، فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير ، فلم تغن شيئاً إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر ، كلا لا وزر ، فلما تحكم فى أصله الفساد سقط وانهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار ومادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها بردىء الأشجار والأثمار ، كما قال العزيز الجبار : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو الأراك وثمره البرير ، وأثل وهو الطرفاء ، وقيل : يشبهه وهو حطب لا ثمر له (وشىء من سدر قليل) وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلا مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال فى المثل : لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى ، ولهذا قال تعالى : (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا ، وقال تعالى : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا فى غور البلاد ونجدها أيدى سبأ شذر مذر [٣] ، فنزلت طوائف منهم الحجاز ومنهم خزاعة ، نزلوا ظاهر مكة وكان من أمرهم ما سنذكره ، ومنهم المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم وكان من أمرهم ما سنذكره ، ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم الذين تنصروا فيها بعد وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم ، وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام فى زمن الشيخين رضى الله عنهما .

---

(١) الآية : ٧ من سورة إبراهيم .

(٢) الخلد : ضرب من القيرة ، وضرب من الجرذ أعمى .

(٣) أى تفرقوا وذهبوا فى كل وجه ، ومذر ـ اتباع لشذر .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة ، وهو ميمون بن قيس :

وفى ذاك للمؤتسى أسوةٌ ومأرب عفّى عليها العَرِمْ
رخام بنتْهُ لهم حِمْير إذا جاء موّاره [1] لم يرم
فأروَى الزروعَ وأعنابهَا على سعة ماؤهم إذ قُسم
فصاروا أيادى لا يقدرو نَ على شربِ طفلٍ إذا ما فُطم

وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب السيرة أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمى ، ولخم هو ابن عدى بن الحارث بن مرة بن أزد بن زيد بن مهع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال : لخم بن عدى بن عمرو بن سبأ قاله ابن هشام . قال ابن إسحٰق : وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثنى أبو زيد الأنصارى أنه رأى جرذاً يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن ، فكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى ، وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده ، وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ، ففى ذلك قال عباس بن مرداس :

وعكُّ بن عدنان الذين تلعبوا بغسانَ حتى طُردوا كل مطرد [2]

قال : فارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مراً ، ونزلت أزد السراة ، السراة ونزلت أزد عمان ، عمان ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك أنزل الله هذه الآيات . وقد روى عن السدى قريب من هذا ، وعن محمد بن إسحاق فى روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً ، وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم ، وكأنهم رأوا شاهد ذلك فى الفأر الذى سلط على سدهم ففعلوا ما فعلوا ، والله أعلم . وقد ذكرت قصته مطولة فيما رواه ابن أبى حاتم فى التفسير .

---

(١) المراد : إذا سال ماؤه ـ لم يسله السد حتى يأخذوا منه ما يحتاجون إليه .

(٢) هذا البيت من قصيدة له يفخر بعك .

فصـــــــــل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب ، الذين كان لهم السد ، فتفرقوا فى البلاد ، وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن بل إنما تشاءم منهم أربعة ، وبقى باليمن ستة وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون ، وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير ، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذى بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط ، نحواً من سبعين سنة ثم استرجعه سيف ابن ذى يزن الحميرى ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل ، كما سنذكره مفصلا قريباً ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن علياً وخالد بن الوليد ثم أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ، ثم تغلب على اليمن الأسود العنسى وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها ، فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها فى أيام أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

قصة ربيعة بن نصر بن أبى حارثة بن عمرو بن عامر

المتقدم ذكره اللخمى ، كذا ذكره ابن إسحاق ، وقال السهيلى : ونساب اليمن تقول نصر بن ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم ، وقال الزبير بن بكار : ربيعة بن نصر ابن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ، ولخم أخو جذام ، وسمى لخما لأنه لخم أخاه أى لطمه فعضه الآخر فى يده فجذمها فسمى جذاماً ، وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ ، أما سطيح ، فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان ، وأما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار ابن نزار ، ومنهم من يقول : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت بن مالك ابن زيد ابن كهلان بن سبأ ، ويقال : إن سطيحاً كان لا أعضاء له وإنما كان مثل السطيحة [1] ووجهه فى صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس ، وكان شق نصف إنسان ،

---

(١) السطيحة : الزائدة .

ويقال : إن خالد بن عبد الله بن القسرى كان من سلالته ، وذكر السهيلى أنهما ولدا فى يوم واحد وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال إنها تفلت فى فم كل منهما فورثا الكهانة عنها ، وهى امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره ، والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق : وكان ربيعة بن نصر ملكَ اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هائلة هالته وفظع بها فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرونى بها وبتأويلها ، فقالوا : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها ، لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه ، فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرنى بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها ، فقال : أفعل ، رأيت حممة [١] خرجت من ظلمة . فوقعت بأرض تهمة [٢] . فأكلت منها كل ذات جمجمة . فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح فما عندك فى تأويلها ؟ قال أحلف بما بين الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش . فليملكن ما بين أبين إلى جرش [٣] . فقال له الملك : يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ، أفى زمانى أم بعده ؟ فقال : لا ، وأبيك بل بعده بحين . أكثر من ستين أو سبعين . يمضين من السنين . قال : أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليهم أرم ذى يزن . يخرج عليهم من عدن . فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال ومن يقطعه ؟ قال : نبى زكى . يأتيه الوحى من قبل العلىّ . قال : وممن هذا النبى ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر . يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر . قال : هل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحق ما تخبرنى ؟ قال : نعم والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق .

قال : ثم قدم عليه شق فقال له كما قال لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم

---

(١) قال فى اللسان : الحمم : الفحم والرماد وكل ما احترق من النار ، الواحدة حممة .

(٢) التهمة ـ بالتحريك : الأرض المتصوبة إلى البحر المنخفضة . وبتسكين الهاء ـ لغة فى تهامة .

(٣) فى القاموس ـ جرش بالتحريك : بلد بالأردن ، وكزفر ـ مخلاف باليمن .

يختلفان ، قال : نعم رأيت حممة خرجت من ظلمة وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة . فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد إلا أن سطيحاً قال : وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة . وقال شق : وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة . فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئاً فما عندك فى تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين إلى نجران فقال له الملك : وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ، أفى زمانى أم بعده ؟ قال لا بل بعده بزمان . ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان . ويذيقهم أشد الهوان . قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بدنى ولا مدن [1] يخرج عليهم من بيت ذى يزن . قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول مرسل يأتى بالحق والعدل من أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات تسمع منها الأحياء والأموات ويجمع الناس فيه للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوزُ والخيرات ، قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : أى ورب السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض [2] .

قال ابن إسحاق : فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ما قالا فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له : سابور بن خرزاذ فأسكنهم الحيرة . قال ابن اسحاق : فمن بقية ولد ربيعة بن نصر ، النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو ابن عدى بن ربيعة بن نصر ، يعنى الذى كان نائباً على الحيرة لملوك الأكاسرة ، وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه ، وهذا الذى قال محمد بن اسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن اسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جىء بسيف النعمان بن المنذر سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان ؟ فقال : من أشلاء قنص بن معد بن عدنان ، قال ابن اسحاق : فالله أعلم أى ذلك كان .

---

(١) المدن : المقصر فى الأمر .

(٢) أى باطل ، أوشك ـ بلغة حمير .

قصة تبَّع أبى كرب تبان أسعد ملك اليمن مع أهل المدينة وكيف أراد غزو البيت الحرام ، ثم شرفه وعظَّمه وكساه الحلل ، فكان أول من كساه

قال ابن إسحاق : فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان بن أسعد [1] أبى كرب ، وتبان أسعد تبع الآخر ابن ملكيكرب بن زيد ، وزيد تبع الأول ابن عمرو ذى الأذعار بن أبرهة ذى المنار بن الرائش بن عدى بن صيفى بن سبأ الأصغر ابن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أنس بن الهميسع بن العرنجج ، والعرنجج هو حِمْيَر بن سبأ الأكبر بن يعرب بن يشجب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن إسحاق : وتبان أسعد أبو كرب هو الذى قدم المدينة وساق الحبرين من اليهود إلى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر ، وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوه بلاد المشرق على المدينة ، وقد مر بها فى بدأته فلم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحى من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلحة أخو بنى النجار ثم أحد بنى عمرو بن مبذول واسم مبذول عامر بن مالك بن النجار ، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ابن الحارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر .

وقال ابن هشام : عمرو بن طلحة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار ، وطلة أمه وهى بنت عامر بن زريق الخزرجية .

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له : أحمر ، عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد عذقا له فضربه بمنجله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبره [2] ، فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم فاقتتلوا ، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا لكرام ، وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تبعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه .

---

(١) تبان أسعد : اسمان جعلا اسماً واحداً .

(٢) أبر النخل : لقحه وأصلحه .

قال السهيلى : ويقال : إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم فى المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فبينا تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران [1] من أحبار اليهود من بنى قريظة عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالوا له : أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ، ولم نأمن عليك جل العقوبة ، فقال لهما : ولم ذلك ؟ قالا : هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان تكون داره وقراره ، فتناهى ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما .

قال ابن إسحاق وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة قال بلى قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا قال فماذا تأمراننى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى تخرج من عنده ، قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك ، أو كما قالا له ، فعرف نصحهما وصدق حديثهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأرى فى المنام أن يكسو البيت فكساه [2] الخصف ثم أرى فى المنام أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر [3] ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل [4] ،

---

(١) قيل : كان اسمهما : كعبا وأسدا ، وكانا ابنى عمه .

(٢) جمع خصفة : وهى ثوب غليظ ينسج من الخوص .

(٣) نوع من الثياب اليمانية تعرف بالمعافرية نسبة إلى معافر ، حى من همدان باليمن .

(٣) ثياب موصلة جيدة من ثياب اليمن .

وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دماً ولا ميتة ولا مثلاتاً وهى المحايض [١] وجعل له باباً ومفتاحا ففى ذلك قالت سبيعة بنت الأحب تذكر ابنها خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب وتنهاه عن البغى بمكة وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها :

أَبُنَىَّ لا تظلم بمـ ـكـةَ لا الصغيرَ ولا الكبيرَ
واحفظ محارمَها بـ ـنىّ ولا يغرنك الغرور
أبنىَّ من يظلم بمـ ـكة يلقَ أطراف الشرور
أبنىّ يُضربُ وجهه ويلج بخدَّيه السعير
أبنىّ قد جربتها فوجدت ظالمَها يبور
الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمنَ طيرها والعصم تأمن فى ثبير
ولقد غزاها تُبَّع فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربى ملكه فيها فأوفى بالنذور
يمشى إليها حافياً بفِنائها ألفا بعير
ويظل يطعم أهلَها لحمَ المهارى والجزور
يسقيهم العسلَ المصفَّى والرحيضَ من الشعير
والفيل أهلك جيشه يرمون فيها بالصخور
والملك فى أقصى البلا د وفى الأعاجم والخزور
فاسمع إذا حُدثت وافهم كيف عاقبةُ الأمور

قال ابن إسحاق ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من الجنود وبالحبرين حتى إذا دخل دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن قال ابن إسحاق حدثنى أبو مالك بن ثعلبة بن أبى مالك القرظى قال سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال إنه خير من دينكم قالوا تحاكمنا إلى النار قال نعم قال وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأخذ الظالم ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم وخرج

---

(١) جمع محيضة : وهى خرقة المحيض .

الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فزجرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق وقد حدثنى محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها فدنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهى تنقص عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذى خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما والله أعلم أى ذلك كان . قال ابن إسحاق وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون فيه إذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبع إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه قال فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لى بها آثار الدماء التى كانت تهراق [1] عليه وقد ذكرنا فى التفسير الحديث الذى ورد عن النبى ﷺ « لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم » قال السهيلى وروى معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا أسعد الحميرى فإنه أول من كسى الكعبة » .

قال السهيلى وقد قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعرا :

شهدت على أحمدَ أنه	رسول من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمرى إلى عمره	لكنت وزيراً له وابنَ عم
وجاهدت بالسيفِ أعداءه	وفرجت عن صدرِه كلَّ هَمْ

قال : ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وأرضاه . قال السهيلى وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب وفيه هذا قبر لميس وحبى ابنتى تبع ماتا وهما تشهدان ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

---

(١) يزعمون أنه كان ببيت رئام شيطان ، وكانوا يملئون له حياضاً من دماء القربان فيخرج فيصيب منها .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبان أسعد وهو أخو اليمامة الزرقاء التى صلبت على باب مدينة جو فسميت من يومئذ اليمامة . قال ابن إسحاق فلما ملك ابنه حسان بن أبى كرب تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم فكلموا أخا له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقالوا له اقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رعين الحميرى فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان :

ألا مَنْ يشترى سهراً بنوم   سعيدُ من يبيتُ قريرَ عَينْ
فأما حِمْيرَ غدرت وخانت   فمعذرةُ الإله لذى رُعَينْ

ثم استودعها عمراً فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فسأل الأطباء والحذاق من الكهان والعرافين عما به فقيل له إنه والله ما قتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغياً إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه فلما خلص إلى ذى رعين قال له إن لى عندك براءة قال وما هى قال الكتاب الذى دفعته إليك فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا .

وثوب لخنيعة ذى شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة . قال ابن إسحاق فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر [1] فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم وكان مع ذلك امرءا فاسقاً يعمل عمل قوم لوط فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه فى مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ مسواكا فجعله فى فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه حتى بعث إلى زرعة ذى نواس بن تبان أسعد أخى حسان وكان صبياً صغيرا حين قتل أخوه حسان ثم شب غلاماً جميلا وسيما ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه فأخذ سكيناً حديدا لطيفاً فخبأه بين قدمه ونعله ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ثم حز رأسه فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها ووضع مسواكه فى فيه ثم خرج على الناس

(١ الشناتر : الأصابع بلغة حمير .

فقالوا له ذا نواس أرطب أم يباس ؟ فقال سل نخماس [١] استرطبان ذو نواس استرطبان لا باس [٢] فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لخنيعة مقطوع فخرجوا فى أثر ذى نواس حتى أدركوه فقالوا ما ينبغى أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه عليهم واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمى يوسف فأقام فى ملكه زمانا ، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام على الإنجيل أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر .

ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران فى دين النصارى وأن ذلك كان على يدى رجل يقال له فيميون كان من عباد النصارى بأطراف الشام وكان مجاب الدعوة وصحبه رجل يقال له صالح فكان يتعبدان يوم الأحد ويعمل فيميون بقية الجمعة فى البناء وكان يدعو للمرضى والزمنى وأهل العاهات فيشفون ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب فباعوهما بنجران فكان الذى اشترى فيميون يراه إذا قام فى مصلاه بالبيت الذى هو فيه فى الليل يمتلىء عليه البيت نوراً فأعجبه ذلك من أمره وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلى نسائهم ويعكفون عندها فقال فيميون لسيده أرأيت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت أتعلمون أن الذى أنتم عليه باطل ؟ قال نعم فجمع له أهل نجران وقام فيميون إلى مصلاه فدعا الله عليها فأرسل عليها قاصفاً فجعفها [٣] من أصلها ورماها إلى الأرض فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب ثم ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر حين تنصر على يدى فيميون وكيف قتله وأصحابه ذو نواس وخد لهم الأخدود ، وقال ابن هشام وهو الحفر المستطيل فى الأرض مثل الخندق وأجج فيه النار وحرقهم بها وقتل آخرين حتى قتل قريباً من عشرين ألفا كما قدمنا ذلك مبسوطاً فى أخبار بنى إسرائيل وكما هو مستقصى فى تفسير سورة البروج من كتابنا التفسير ولله الحمد .

---

(١) النخماس : فى لغة اليمن : الرأس .

(٢) قيل معنى استرطبان : أخذته النار ـ بالفارسية . وفى الأغانى قال : كان الغلام إذا خرج من عند لخنيعة وقد لاط به قطعوا مشافر ناقته وذنبها وصاحوا به : أرطب أم يباس ، فلما خرج ذو نواس من عنده وركب ناقة له يقال لها السراب ، قالوا :ذا نواس! أرطب أم يباس ؟ فقال ستعلم الأحراس : إست ذى نواس ؛ إست رطب أم يباس .

(٣) أى قلعها وأسقطها .

ذكر خروج الملك باليمن من حميـــر وصيرورته إلى الحبشـــة السودان

كما أخبر بذلك شق وسطيح الكاهنان وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان [١] على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصرانى على دينهم فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك . فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره . فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمَّر عليهم رجلا منهم يقال له أرياط ومعه فى جنده أبرهة الأشرم فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس وسار إليه ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن . فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه فى البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح [٢] البحر حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيها فكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن وملكها .

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة وبالله المستعان .

ذكر خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما واقتتالهما وصيرورة ملك اليمن إلى أبرهة بعد قتلـــه أرياط

قال ابن إسحاق فأقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ثم نازعه أبرهة حتى تفرقت الحبشة عليهما . فانحاز إلى كل منهما طائفة ثم سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فشيئاً ، فابرز لى وأبرز لك فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط أنصفت فخرج إليه أبرهة وكان رجلا قصيراً لحيما وكان ذا دين فى النصرانية وخرج إليه أرياط

---

(١) هو رجل من سبأ .

(٢) الضحضاح من الماء : الذى يظهر منه القعر .

وكان رجلا جميلا عظيما طويلا وفى يده حربة له . وخلف أبرهة غلام يقال له عتودة يمنع ظهره ، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه [١] ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمى أبرهة الأشرم . وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند أرياط إلى أبرهة . فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى [٢] أبرهة أرياط . فلما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة الذى بعثهم إلى اليمن غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال عدا على أميرى فقتله بغير أمرى ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك وكل طاعته لك إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجرابِ تراب من أرضى ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه فىَّ ، فلما انتهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى فأقام أبرهة باليمن .

ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة فأهلكه الله عاجلا غير آجل

كما قال الله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) .

قيل : أول من ذلل الفيلة إفريدون بن أثفيان الذى قتل الضحاك قال الطبرى وهو أول من اتخذ للخيل السرج ، وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ويقال إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم .

ويقال : إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب فى قتال الهنود بإحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة .

---

(١) اليافوخ : وسط الرأس .

(٢) ودى القتيل : أعطى ديته .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبرهة بنى القُلَّيس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الأرض وكتب إلى النجاشى أنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب [١] .

فذكر السهيلى أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعا من السخر ، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة ، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيما جداً واتساعها باهراً فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من يتعرض لأخذ شىء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء ، وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كعيب وامرأته ـ وكان طول كل منهما ستين ذراعا . فتركها أهل اليمن على حالها . فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

قال ابن إسحاق فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى غضب رجل من النسأة [٢] من كنانة الذين ينسئون الشهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) [٣] الآية .

قال ابن اسحاق فخرج الكنانى حتى أتي القليس فقعد فيه أي أحدث حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك فقال من صنع هذا ؟ فقيل له صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها أى أنه ليس لذلك بأهل ، فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه الفيل .

وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه ، فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهُزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر يا أيها

---

(١) قال السهيلى : سميت هذه الكنيسة القليس ؛ لارتفاع بنائها وعلوها .

(٢) هم الذين كانوا يؤخرون حرمة شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات ، وطلب الثارات .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة التوبة .

الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل ، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم وهما شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله وخرج به معه يدله ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد ابن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ، قال فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس [1] ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس وقد تقدم فى قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلا منهم وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه « وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب » فحفروا فوجدوهما قال وهو أبو ثقيف .

قلت : والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله اعلم . وقد قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كرجمكم لقبر أبى رغال

الظاهر أنه الثانى .

قال ابن إسحاق فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك ، وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم

---

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة ، به قبر أبى رغال .

تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربى فائتنى به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر ما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشيا ؟ ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال حسبى .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . قال أفعل ، فكلم أنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال فَأْذَنْ له عليك فليكلمك فى حاجته فأذن له أبرهة قال وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجلهم فلما رآه أبرهة أجلّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له عبد المطلب إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . فقال ما كان ليمتنع منى . قال أنت وذاك . فرد على عبد المطلب إبله .

قال ابن إسحاق ويقال إنه كان قد دخل مع بعد المطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدى بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن إنانة سيد بنى بكر وخويلد بن وائلة سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا .

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رءوس الجبال . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ـ :

لاهُمَّ إن العبد يمـ ـنع رحلَه فامنع رحالَك [1]

لا يغلبن صليبُهم ومحالُهم غدوا [2] محالك

إن كنت تاركَهم وقبـ ـلتنا فأمرٌ ما بدالك

قال ابن هشام هذا ما صح له منها ، وقال ابن إسحاق ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت . فإنك فى بلد الله الحرام وأرسل إذنه . فبرك الفيل .

قال السهيلى أى سقط إلى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطبرزين [3] ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه [4] بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف [5] والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا . ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل فى ذلك :

---

(١) فى رواية : فامنع حلالك . والحلال : القوم والجماعة يحلون فى المكان .

(٢) أى غدا ، ولم يستعمل تاما إلا فى الشعر . والمحال : الكيد والمكر والقدرة ، وليس المراد الغد بعينه . وإنما المراد ـ القرب من الزمان .

(٣) الطبرزين : فأس السرج ، فارسى معرب .

(٤) بزغوه : أدموه ومنه المنزغ : وهو المشرط للحجام ونحوه .

(٥) الخطاطيف : جمع خطاف ، وهو طائر أسود . إذا رأى ظله فى الماء أقبل إليه ليخطفه .

ألا حُييت عنا يارُدَينا ... نَعِمناكم مع الإصباحِ عَيْنَا
رُدينة لو رأيتِ فلا تريه ... لدى جَنب المحصَّب ما رأينا
إذاً لعذرتني وحمدتِ أمرى ... ولم تأسَى على ما فات بينا
حمدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً ... وخفت حجارةً تُلقَى علينا
وكلُّ القومِ يسألُ عن نفَيْلٍ ... كأن علىّ للحُبشان دَيْنَا

قال ابن إسحاق فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده . وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث [1] قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام .

قال ابن إسحاق فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتى بعدها ، وقد بسطنا القول فى ذلك فى كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه . قال : وأما السِّجيل فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب قال : وزعم بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وأنها سنج وجل [2] فالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين . قال : والعصف ورق الزرع الذى لم يقصب . وقال الكسائى : سمعت بعض النحويين يقول واحد الأبابيل إبيل . وقال كثيرون من السلف : الأبابيل الفرق من الطير التى يتبع بعضها بعضاً من ههنا وههنا . وعن ابن عباس : كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف

---

(١) مت الجرح : نفى عنه غثيثته .

(٢) والأصل : « سنك وكل » وقد ركبا ، وأبدلت الكاف جيما .

الكـلاب . وعن عكـرمـة : كانت رءوسها كرؤوس السباع ، خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير : كانت سوداً بحرية فى مناقيرها وأكفها الحجارة وعن ابن عبـاس : كانت أشكالها كعنقاء مغرب [١] وعن ابن عباس : كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل كانت صغاراً والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجـرين فى رجليه وحجـراً فى منقـاره . قال : فجاءت حتى صفت على رءوسهم . ثم صاحت وألقت ما فى رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره . ولا يقع على شىء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقـد تقـدم أن ابن إسحاق قال : وليس كلهم أصابته الحجـارة يعنى بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله . وروى ابن إسحاق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكْر عن سمرة عن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيساً فأما قائده فلم يُسم والله أعلم .

وذكـر النقاش فى تفسيره أن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر . قال السهيلى : وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة [٢] من تاريخ ذى القرنين .

قلت : وفى عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار فى هذه الكائنة العظيمة التى نصر الله فيها بيته الحرام الذى يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له

---

(١) طائر معروف يبعد فى طيرانه .

(٢) الذى فى السهيلى : سنة اثنتين وثمانين الخ .

من الدين القويم الذى أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة ، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركى قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ ، فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزبعرى السهمى :

وتنكبوا [١] عن بطن مكة إنها ... كانت قديماً لا يُرَام حريمُهاَ
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت ... إذ لا عزيز من الأنام يرُومهاَ
سائل أمير الحبش عنها ما رأى ... فلسوف ينبى الجاهلين عليمُها
ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضَهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمُها
كانت بها عاد وجُرهم قبلهم ... والله من فوقَ العبادِ يقيمُها

ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت الأنصارى المدنى :

ومن صنعه يومَ فيل الحبو ... ش ، إذ كلما بعثوه رزمْ
محاجنهم تحتَ أقرابه ... وقد شرموا أنفَه فانخرم
وقد جعلوا سَوْطَه مِغْولاً ... إذ يَمَّمُوه قفاهُ كُلم
فولى وأدبرَ أدراجَهُ ... وقد باء بالظلمِ من كان ثَمْ
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفهم مثل لفِّ القَزَمْ
تحض على الصبرِ أحبارُهم ... وقد ثأجوا كثؤاج الغنم

ومن ذلك قول أبى الصلت ربيعة بن أبى ربيعة وهب بن علاج الثقفى ، قال ابن هشام : ويروى لأمية بن أبى الصلت :

إن آياتِ ربِّنا ثاقباتٌ ... ما يُمَارى فيهن إلا الكفورُ
خلق الليلَ والنهار فكل ... مستبينٌ ، حسابُه مقدورُ
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم ... بِمَهاة شعاعُها منشور
حبس الفيلَ بالمغمَّس حتى ... صار يحْبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قُـ ... ـدّ من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث فى الحروبِ صقور
خلفوه ثم ابْذَعَرُّوا جميعاً ... كلهم عظمُ ساقِه مَكسور
كلُّ دين يوم القيامةِ عند اللـ ... ـه إلا دين الحنيفة بور

---

(١) ارجعوا وانصرفوا خوفاً ورهبة منها .

ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت أيضاً :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسَّحوا ... بأركانِ هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاءٌ مصدق ... غداة أبى يكسومَ هادى الكتائب
كتيبتُه بالسهل تمشى ورجلُه ... على القاذفات فى رءوسِ المناقب
فلما أتاكم نصرُ ذى العرش ردهم ... جنود المليك بين سافٍ وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب ... إلى أهله مِالْحبش غير عصائب

ومن ذلك قول عبيدالله بن قيس الرقيات فى عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء :

كاده الأشرم الذى جاء بالفيـ ... ـل ، فولى وجيشُه مهزوم
واستهلت عليهم الطيرُ بالجنـ ... ـدلِ حتى كأنه مرجوم
ذاك من يغزه من الناس يرْ ... جع وهو فل من الجيوشِ ذميم

قال ابن إسحاق وغيره : فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشة بعده ابنه يكسوم ثم من بعده أخوهُ مسروق بن أبرهة ، وهو آخر ملوكهم ، وهو الذى انتزع سيف بن ذى يزن الحميرى الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسرى أنوشروان كما سيأتى بيانه .

وكانت قصة الفيل فى المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذى القرنين وهو الثانى اسكندر بن فلبس المقدونى الذى يؤرخ له الروم ، ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن هجر القليس الذى كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله وقلة عقله . وأصبح يباباً لا أنيس به . وكان قد بناه على صنَمَين وهما كعيب وامرأته وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعا فى السماء ، وكانا مصحوبين من الجان . ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شىء من بناء القليس وأمتعته إلا أصابوه بسوء .

فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح أول خلفاء بنى العباس فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذى كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذى كان باليمن ، فبعث إليه من خربه حجراً حجراً وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل . هكذا ذكره السهيلى والله أعلم .

ذكر خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذى يزن الحميرى كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمى

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما هلك أبرهة ملكَ الحبشة يكسوم بن أبرهة وبه كان يكنى . فلما هلك يكسوم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة . قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى وهو سيف بن ذى يزن بن ذى أصبح ابن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل ابن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير بن سبأ - وكان سيف يكنى أبا مرة - حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هو فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يجب فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق . فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان إن لى على كسرى وفادة فى كل عام فأقم عندى حتى يكون ذلك ففعل . ثم خرج معه فأدخله على كسرى وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل [1] العظيم فيما يزعمون يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقاً بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك . وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه فى تاجه فإذا استوى فى مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا بَرَكَ هيبة له .

فلما دخل عليه طأطأ رأسه . فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل علىَّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسه . فقيل ذلك لسيف فقال إنما فعلت هذا لهمى لأنه يضيق عنه كل شىء . ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة . قال كسرى : أى الأغربة الحبشة أم السند ؟ قال : بل الحبشة فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك . فقال له كسرى : بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب لا حاجة لى بذلك ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس . فبلغ ذلك الملك فقال إن لهذا لشأناً . ثم بعث إليه فقال عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس ؟ قال : وما أصنع بحباك ؟ ما جبال أرضى

---

(١) القنقل : هو مكيال يسع ثلاثة وثلاثين منًا . حكاه السهيلى .

التى جئت منها إلا ذهب وفضة يرغبه فيها ، فجمع كسرى مرازبته فقال لهم : ما ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم وإن ظفروا كان ملكا ازددته .

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً فخرجوا فى ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له رجلى ورجلك حتى نَمُوت جميعاً أو نظفر جميعاً . فقال له وهرز أنصفت وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنده فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم فقتل ابن وهرز فزاده ذلك حنقاً عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز أرونى ملكهم فقالوا له أترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم . قالوا ذلك ملكهم . فقال اتركوه . قال فوقفوا طويلا ثم قال علام هو؟ قالوا تحول على الفرس قال اتركوه فتركوه طويلا ثم قال علام هو؟ قالوا على البغلة قال وهرز بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم فإنى قد أخطأتُ الرجل وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاثوا فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم ، ثم وتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه وتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس فانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه . وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رايتى منكسة أبداً اهدموا هذا الباب فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته فقال سيف بن ذى يزن الحميرى :

يظن الناسُ بالملكيـ ـن أنهما قد التأما
ومن يسمع بلأمهما فإن الخطبَ قد فَقُما
قتلنا القَيْلَ مسروقا وروينا الكثيب دما
وإن القيل قيل النا س وهرز مقسم قسما
يذوق مشعشعاً حتى يفىء السبىُ والنعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه . فكان من جملة من وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم من أمره وسيأتى ذلك فى باب البشارات به ﷺ .

قال ابن إسحاق : وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى . قال ابن هشام ويروى لأمية ابن أبى الصلت :

ليطلب الوترَ أمثالُ ابن ذى يزن ... ريّم [١] فى البحر للأعداء أحوالا
يَمَّم قيصراً لما حان رحلته ... فلم يجد عندَه بعض الذى سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرةٍ ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرارِ يحملهم ... إنك عَمرى لقد أسرعت قلقالا [٢]
لله درهم من عصبةٍ خرجوا ... ما إن أرى لهم فى الناس أمثالا
غلباً مرازبة ، بيضاً أساورة ، ... أسداً تربب فى الغيضاتِ أشبالا
يرمون عن شُدف كأنها غُبُط ... بزمخَرٍ يعجل المرمىّ إعجالا [٣]
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم فى الأرض فُلّالا
فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً ... فى رأسٰ غمدان داراً منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم [٤] ... وأسبل اليوم فى بُرْدَيك إسبالا
تلك المكارمُ لا قعبان من لبن ... شيب بماء فعادا بعدُ أبوالا [٥]

يقال : إن غمدان قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان وملكه بعده واحتله واثلة بن حمير ابن سبأ ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم .

قال ابن إسحاق : وقال عدى بن زيد الحميرى وكان أحد بنى تميم :

ما بعد صنعاء كان يعمرها ... ولاة مُلك جزل مواهبها
رفعها من بنى لذى قزع الـ ... ـمزن وتندى مسكا محاربها
محفوفةٌ بالجبالِ دون عرى الـ ... ـكائد ما يرتقى غواربها
يأنس فيها صوتَ النهام إذا ... جاوبها بالعشى قاصبها [٦]
ساقت إليها الأسباب جند بنى الـ ... أحرار ، فرسانها مواكبها
وفوزت بالبغال توسق بالحـ ... ـتف وتسعى بها توالبها [٧]

---

(١) أى أقام .

(٢) عمرى : أصله لعمرى حذفت اللام للضرورة ، والقلقال : شدة الحركة . وبنى الأحرار : الفرس .

(٣) الشدف : جمع شدفاء . وهى القسى الفارسية ، والغبط : الهوادج ، شبه بها القسى لعلوها . والزمخر : القصب الفارسى ، والسهم الدقيق .

(٤) شالت نعامتهم : أى هلكوا ، وأصل النعامة : باطن القدم .

(٥) روى هذا البيت للنابغة الجعدى فى قصيدة .

(٦) النهام كغراب : طائر ، أو ذكر البوم . والقاصب : الذى يزمر فى القصب .

(٧) التوالب : جمع تولب ، وهو الجحش .

حتى يراهـا الأقـوال من طرف المـ ـنـقـل[1] مخضرة كتـائـبـهـا
يوم ينـادون آل بربـر واليـكـ ـسـوم لا يفـلحـنَّ هاربهـا
فكـان يومـا باقى الحـديث وزا لت أمـةٌ ثابـت مراتـبـهـا
وبـدل الهـيج بالـزرافـة والأ يام جون جـم عجـائـبـهـا
بعـد بنـى تبـع نخـاورة[2] قد اطـمـأنـت بها مرازبهـا

قال ابن هشام : وهذا الذى عنى سطيح بقوله يليه ارم ذى يزن يخرج عليهم من عدن . فلا يترك منهم أحداً باليمن . والذى عنى شق بقوله : غلام ليس بدنى ولا مدن . يخرج من بيت ذى يزن .

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الـذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة : أرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق بن أبرهة .

ذكر ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز فأمَّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ثم مات المرزبان فأمَّر كسرى ابنه التينجان ثم مات فأمر ابن التينجان ، ثم عزله عن اليمن وأمَّر عليها باذان أوفى زمنه بعث رسول الله ﷺ . قال ابن هشام فبلغنى عن الزهرى أنه قال كتب كسرى إلى باذان أنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلىَّ برأسه . فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا . فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر وقال إن كان نبياً فسيكون ما قال فقتل الله كسرى فى اليوم الـذى قال رسـول الله ﷺ . قال ابن هشام : على يدى ابنه شيرويه قلت : وقال بعضهم بنوه تمالئوا على قتله . وكسرى هذا هو ابرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباز ؛ وهو الذى غلب الروم فى قوله تعالى : (الٓمٓ . غلبت الروم فى أدنى الأرض) كما سيأتى

---

(١) المنقل كمقعد : الطريق فى الجبل ، والمراد من أعالى حصونها .

(٢) نخاورة : شرفاء ـ جمع نخوار ، وهو الشريف .

(٣) أول سورة الروم .

بيانه . قال السهيلي وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع من الهجرة . وكان والله أعلم لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فغضب ومزق الكتاب ، كتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال . وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان إن ربي قد قتل الليلة ربك فكان كما قال رسول الله ﷺ قتل تلك الليلة بعينها قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعد ما خلعوه وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه إلا ستة أشهر أو دونها ، وفي هذا يقول خالد بن حق الشيباني :

وكسرى إذ تقسَّمه بنوه ... بأسياف كما اقتسم اللحام
تمخضت المنونُ له بيوم ... ألا ولكل حاملة تمام

قال الزهري : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل إلى من نحن يا رسول الله ؟ قال أنتم منا وإلينا أهل البيت . قال الزهري ومن ثم قال رسول الله ﷺ سلمان منا أهل البيت . قلت والظاهر أن هذا كان بعد ما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عز وجل ؛ فبعث أولا خالد بن الوليد وعلى بن أبي طالب . ثم اتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل .

ودانت اليمن وأهلها للإسلام ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه وأجلى عن اليمن نواب رسول الله ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها . وقال ابن هشام وهذا هو الذي عنى به سطيح بقوله : نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي . والذي عنى شق بقوله بل ينقطع برسول مرسل . يأتي بالحق والعدل . بين أهل الدين والفضل . يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال ابن إسحاق : وكان في حجر باليمن فيما يزعمون كتاب الزبور كتب بالزمان الأول : لمن ملك ذمار لحمير الأخيار ؟ لمن ملك ذمار للحبشة الأشرار ؟ لمن ملك ذمار لفارس الأحرار ؟ لمن ملك ذمار لقريش التجار ؟ .

وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي :

حين شدت ذِمارٌ قيل : لمن أنـ ... ـت ؟ فقالت : لحمير الأخيار !
ثم سيلت من بعدِ ذاك فقالـ ... ـت : أنا للحبش ، أخبثِ الأشرار !
ثم قالوا من بعد ذلك : لمن أنـ ... ـت ؟ فقالت : لفارس الأحرار !
ثم قالوا من بعدِ ذاك : لمن أنـ ... ـت ؟ فقالت إلى قريش التجار !

ويقال : إن هذا الكلام الذى ذكره محمد بن إسحاق ، وجد مكتوبا عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن وذلك قبل زمن بلقيس بيسير فى أيام مالك ابن ذى المنار أخى عمرو ذى الأذعار بن ذى المنار ، ويقال : كان مكتوبا على قبر هود أيضاً وهو من كلامه عليه السلام . حكاه السهيلى والله أعلم .

قصة الساطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النعمان ابن المنذر الذى تقدم ذكره فى ورود سيف بن ذى يزن عليه وسؤاله فى مساعدته فى رد ملك اليمن إليه ، من سلالة الساطرون صاحب الحضر . وقد قدمنا عن ابن إسحاق أن النعمان ابن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر . وأنه روى عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان . فهذه ثلاثة أقوال فى نسبه فاستطرد ابن هشام فى ذكر صاحب الحضر . والحضر حصن عظيم بناه هذا الملك وهو الساطرون على حافة الفرات وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء دوره بقدر مدينة عظيمة وهو فى غاية الإحكام والبهاء والحسن والسناء . وإليه يجىء ما حوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون الضيزن بن معاوية ابن عبيد بن أجرم من بنى سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة كذا نسبه ابن الكلبى . وقال غيره : كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحضر . وقال غير ابن هشام : إنما الذى غزا صاحب الحضر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بنى ساسان أذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم . ذكره السهيلى .

قال ابن هشام : فحصره سنتين ، وقال غيره أربع سنين ، وذلك لأنه كان قد أغار على بلاد سابور فى غيبته بأرض العراق فأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها النضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا ، فدست إليه أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى الساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكراناً . فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب . ويقال : بل دلتهم على نهر متسع يدخل

منه الماء فولجوا منه إلى الحضر . ويقال : بل دلتهم على طلسم كان فى الحضر وكان فى علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ، ففعل ذلك فانفتح الباب .

فدخل سابور فقتل الساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها فبينما هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور أهذا الذى أسهرك ؟ قالت : نعم ؟ قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لى الديباج ويلبسنى الحرير ويطعمنى المخ ويسقينى الخمر . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع . فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

ألم ترَ للحَضْرِ إذ أهلُه ... بنعمى ، وهل خالد من نَعمْ [1]
أقام به شاهبور الجنو ... د حولين تضرب فيه القدم [2]
فلما دعا ربَّه دعوة ... أناب إليه فلم ينتقم
فهل زادهُ ربُّه قوة ... ومثل مجاوره لم يقم
وكان دعا قومَه دعوة ... هلموا إلى أمركم قد صرم
فموتوا كراماً بأسيافِكم ... أرى الموت يجشمه من جشم

وقال عدى بن زيد فى ذلك :

والحضر صابت عليه داهيةٌ ... من فوقه أيد مناكبها
ربية [3] لم توق والدها ... لحينها إذ أضاع راقبها
إذ غبقته صهباء صافية ... والخمر وهل يهيمُ شاربها
فأسلمت أهلَها بليلتها ... تظن أن الرئيسَ خاطبها
فكان حظ العروس إذ جشرَ الصـ ... ـبح دماء تجرى سبائبها [4]
وخرب الحضر واستبيح وقد ... أحرق فى خدرها مشاجبها [5]

---

(١) فى رواية من سلم .

(٢) جمع قدوم وهو معروف .

(٣) أصله : ربيئة ، وسهلت الهمز فصارت ياء .

(٤) جمع سبيبة : وهى كالعمامة ونحوها .

(٥) جمع مشجب ، وهو ما يعلق عليه الثياب .

وقال عدي بن زيد أيضاً :

أيها الشامتُ المعير بالدهر ... أأنت المبرّءُ الموفور؟!
أم لديك العهد الوثيق من الأ ... يام ، بل أنت جاهل مغرور!
من رأيت المنونَ خلدن أم ... من ذا عليه من أن يضام خفيرُ
أين كسرى كسرى الملوك أنو ... شروان ، أم أين قبله سابور؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... ـروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ... ـلةُ تُجبى إليه والخابور
شادهُ مرمراً وجلله كلـ ... ـساً ، فللطير فى ذُراه وكور
لم يهبهُ ريب المنون فبا ... ن الملك عنه فبابه مهجور
وتذكر ربَّ الخُوَرْنَق إذ ... أشرف يوماً وللهدى تفكير
سَرَّه مالُه وكثرةُ ما يمـ ... ـلك والبحر مُعْرِضاً والسَّدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ ... ـطة حى إلى الممات يصير
ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جـ ... ـفَّ فألْوَت به الصبا والدبور

قلت : ورب الخورنق الذى ذكره فى شعره رجل من الملوك المتقدمين وعظه بعض علماء زمانه فى أمره الذى كان قد أسرف فيه وعتا وتمرد فيه وأتبع نفسه هواها ولم يراقب فيها مولاها فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد وأنه ما صار إليه عن غيره إلا وهو منتقل عنه إلى من بعده ، فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه ، وفكر فى يومه وأمسه ، وخاف من ضيق رمسه . فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس زى الفقراء وساح فى الفلوات وحظى بالخلوات وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات وعصيان رب السموات .

وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسى رحمه الله فى كتاب التوابين ، وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتاب الروض الأنف المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر وهو الساطرون فقد تقدم أنه كان مقدماً على ملوك الطوائف وكان

من زمن اسكندر بن فليبس المقدونى اليونانى وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذل مملكته وخرب بلاده واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزق شمل الفرس شذر مذر عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ولا يلتئم لهم أمر ، فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس فى إقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها فاستمر كل منهم يحمى حوزته ويحفظ حصنه ويستغل محلته فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه . فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة حتى كان أزدشير بن بابك من بنى ساسان بن بهمن بن أسفنديار ابن يشتاسب بن لهراسب فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمتها إليه وأزال ممالك ملوك الطوائف ولم يبق منهم تالد ولا طارف وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذى كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم إذ كان رئيسهم ومقدمهم فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور ، فحاصره حتى أخذه كما تقدم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب ذكر بنى إسماعيل . وهم عرب الحجاز . وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء وكيف كان أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فأسكنها بوادى مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس وكان إسماعيل رضيعاً ، ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر وَوِكاء فيه ماء فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زَمزم التى هى طعام طعم وشفاء سَقم كما تقدم بيانه فى حديث ابن عباس الطويل الذى رواه البخارى رحمه الله .

ثم نزلت جرهم ، وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة على أن ليس لهم فى الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به ، فاستأنست هاجر بهم وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم فى كل حين ، يقال : إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس فى ذهابه وإيابه ، ثم لما ترعرع الغلام وَشَبَّ وبلغ مع أبيه السعى كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح . ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ثم فارقها وتزوج غيرها . وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وجاءته بالبنين الاثنى عشر كما تقدم ذكرهم وهم : نابت . وقيذر . وأدبيل . ومنشا . ومسمع وماشى . ودما وأذر . ويطور . ونبشى وطيما وقيذما هكذا ذكره محمد بن إسحاق

وغيره عن كتب أهل الكتاب [١] وله ابنة واحدة اسمها نسمة وهى التى زوجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً فى أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر ، وكـان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم فى مكة والناظر فى أمر البيت وزمزم نابت بن إسـماعيل وهو ابن أخت الجرهميين ، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً فى بنى أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بنى إسماعيل مدة طويلة فكان أول من صار إليه أمر البيت بعـد نابت مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن عيبر بن نبت بن جرهم ، وجرهم بن قحطان ويقال جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح الجرهمى . وكان نازلا بأعلى مكة بقعيقعان [٢] وكان السميدع سيد قطوراء نازلا بقومه فى أسفل مكة وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً إلى مكة .

ثم وقع بين جرهم وقطوراء فاقتتلوا فقتل السميدع واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه فى ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذلك لخئولتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث ثم إلى عمرو ابن الحارث ثم بغت جرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له إساف بن بغى وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل اجتمعا فى الكعبة فكان منه إليها الفاحشة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عُبدا من دون الله فى زمن خزاعة كما سيأتى بيانه فى موضعه . فكـانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة . فلما أكثرت جرهم البغى بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذى خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم . وقيل إن خزاعة من بنى إسماعيل فالله أعلم .

والمقصـود أنهم اجتمعـوا لحربهم وآذنـوهم بالحـرب واقتتلوا واعتـزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان وأجلوهم عن البيت فعمد عمرو ابن الحارث بن مضاض الجرهمى وهو سيدهم إلى غزالى الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن

---

(١) قال ابن جرير : وقد ينطق أسماء أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التى ذكرت عن ابن إسحاق ، وأسماؤهم فى سفر التكوين : ينايوتت ، وقيدار ، وأذبيل ، وميسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، ونافيس ، وقدمة .

(٢) فى القاموس ؛ قعيقعان : زرع على اثنى عشر ميلا من مكة .

وهو الحجر الأسود وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها فى زمزم وعلّم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . وفى ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض :

وقـائلة والـدمـعُ سكبٌ مبـادرُ ... وقـد شرقت بالـدمـعِ منها المحاجرُ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنـيسٌ ولم يسـمـر بمكـةَ سامـر
فقـلت لها والـقـلبُ منى كأنـما ... يلجلجـه بين الجنـاحـين طائـر
بلى نحـن كنـا أهلَهـا فأزالـنـا ... صروفُ الـليالى والجدود العـواثـر
وكـنـا ولاةَ البيت من بعـد نابت ... نطوف بذاك الـبيت والخـير ظاهـر
ونحن ولينـا البيتَ من بعـدِ نابت ... بعـزٍّ فما يحظى لدينـا المـكـاثـر
ملكنـا فعـززنـا فأعـظمْ بملكنا ... فليس لحىٍّ غيرنـا ثَمَّ فاخـر
ألم تنكحوا من خيرِ شخص علمته ... فأبـنـاؤه منـا ونـحـنُ الأصـاهـر
فإن تنثنى الـدنيا علينـا بحـالها ... فإن لها حالا وفـيهـا الـتـشـاجـر
فأخـرجـنـا منهـا المليكُ بقـدرة ... كذلـك يا للنـاس تجرى المـقـادر
أقـول إذا نام الخـلـىُّ ولم أنـم ... أذا العـرش لا يبعـد سهيل وعـامر
وبـدلت منهـا أوجهـا لا أحبهـا ... قبـائـل منهـا حِمِيرٌ ويحـابـر
وصرنـا أحـاديثـاً وكنـا بغبطةٍ ... بذلـك عضتنـا السنـون الغـوابر
فسحت دمـوع العـين تبكى لبلدةٍ ... بها حرم أمْـن وفـيهـا المـشـاعـر
وتـبـكـى لبيتٍ ليس يؤذى حمامـه ... يظل به أمـنـا وفـيه الـعـصـافـر
وفـيه وحـوشٌ لا ترام أنـيسـةٌ ... إذا خرجـت منـه فليسـت تغـادر

قال ابن إسحـاق : وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً يذكر بنى بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة :

يا أيهـا النـاسُ سيروا إن قصركم ... أن تصبحـوا ذات يومٍ لا تسـيرونـا
حثـوا المطىَّ وأرخـوا من أزمتهـا ... قبـل المـماتِ وقضـوا ما تقضـونـا
كنـا أنـاسـا كما كنتم فغـيرنـا ... دهـرٌ فأنـتـم كما صرنـا تصـيرونـا

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها وحدثنى بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب وأنها وجدت مكتوبة فى حجر باليمن ولم يسم قائلها وذكر السهيلى لهذه الأبيات إخوة وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة . قال : وزاد أبو الوليد الأزرقى فى كتابه فضائل مكة على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض :

قد مال دهـرٌ علينـا ثم أهلكنـا ... بالبغى فينـا وبـز النـاس ناسـونـا
واستخبروا فى صنيع الناس قبلَكم ... كما استبـان طريقٌ عنـده الهـونـا
كنـا زمـانـا ملوك النـاس قبلكم ... بمسـكـن فى حرام الله مسكـونـا

قصة خزاعة ، وخبر عمرو بن لحى وعبادة الأصنام بأرض العرب

قال ابن إسحاق : ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى ، وقريش إذ ذاك حُلول وصرِم ، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة . قالوا : وإنما سميت خزاعة ؛ لأنهم تخزعوا [1] من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصارى ثم الخزرجى فى ذلك :

فلما هبـطنـا بطنَ مُرٍّ تخزعـت ... خزاعـةُ منـا فى حلول كراكـر
حمت كلَّ واد من تهامـة واحتمت ... بصم القنـا والمـرهفـات البـواتـر

وقال أبو المطهر إسماعيل بن رافع الأنصارى الأوسى :

فلما هبـطنـا بطنَ مكـة أحمدت ... خزاعـة دار الآكـل المـتحـامـل
فحلت أكـاريسـاً وشتت قنـابـلا ... على كل حىٍّ بين نجـد وسـاحـل
نفـوا جرهماً عن بطن مكةَ واحتبوا ... بعـز خزاعـى شديد الـكـواهـل

فوليت خزاعـة البيت ، يتـوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم خليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعى ، الذى تزوج قصى بن كلاب ابنته حبى ، فولدت له بنيه الأربعة : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبدا ، ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتى بيانه وتفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة ، وقيل خمسمائة سنة والله أعلم . وكانوا قوم سوء فى ولايتهم ، وذلك لأنه فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحى ، لعنه الله ؛ فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جداً ؛ يقال : إنه فقأ أعين عشرين بعيراً ، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف

---

(١) أى تخلفوا ، والخزاعة : القطعة تقتطع من الشىء .

بعير . وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها ؛ لأنه يدفع بذلك العين عنها ، وممن ذكر ذلك الأزرقى . وذكر السهيلى : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة فى كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق . قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق - ويقال : ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له « هُبَل » ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفُسَح [1] فى البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه .

وفى الصحيح عن أبى رجاء العطاردى ، قال : كنا فى الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حَثْية من التراب ، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره ؛ فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها ؛ من تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفات والمزدلفة ، وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ؛ فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم

(١) الفسح : جمع فسحة - كغرفة ، وهى السعة .

ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون [١]) ، أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى .

وقد ذكر السهيلى وغيره : أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحى ، وأن إبليس تبدى له فى صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول ، واتبعه العرب فى ذلك .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون لبيك لا شريك لك ، يقول : « قَد قَد » أى حسب حسب . وقد قال البخارى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا يحيى بن آدم حدثنا إسرائيل عن أبى حفص عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن أول من سيب السوائب [٢] وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهذا يقتضى أن عمرو بن لحى هو أبو خزاعة الذى تنسب إليه القبيلة بكمالها ، كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق وغيره . ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً فى ذلك بل كالنص ، ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه ؛ فقال البخارى : وقال أبو اليمانى : أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة [٣] التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء . قال وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قُصْبه [٤] فى النار ، كان أول من سيب السوائب » . وهكذا رواه البخارى أيضاً ومسلم من حديث صالح بن كيسان عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة به . ثم قال البخارى : ورواه ابن الهاد عن الزهرى ، قال الحاكم : أراد البخارى رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهرى كذا قال .

وقد رواه أحمد بن عمرو بن سلمة الخزاعى عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن

---

(١) الآية : ١٠٦ من سورة يوسف .

(٢) السائبة : الناقة كانت تسيب فى الجاهلية لنذر أو غيره فلا تمنع عن ماء ولا كلأ ، ولا تركب ولا يحمل عليها .

(٣) قال فى القاموس : البحر : شق الأذن ومنه البحيرة ، كانوا إذا نتجت الناقة أو الشاة عشرة أبطن بحروها وتركوها ترعى ، وحرموا لحمها إذا ماتت على نسائهم وأكلها الرجال .

(٤) القصب : الخصر والمعى .

الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عمرو بن عامر يجر قُصْبه فى النار ؛ كان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة » . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم فالله أعلم .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار ، وهو أول من سيب السوائب » . وهذا منقطع من هذا الوجه . والصحيح الزهرى عن سعيد عنه كما تقدم . وقوله فى هذا الحديث والذى قبله :ـ الخزاعى ـ يدل على أنه ليس والد القبيلة ، بل منتسب إليها ، وما وقع فى الرواية من قوله أبو خزاعة تصحيف من الراوى ، من « أخو خزاعة » أو أنه كان يكنى بأبى خزاعة ، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خِندف يجر قصبة فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ! قال : « لا إنك مؤمن وهو كافر ؛ إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى » . ليس فى الكتب من هذا الوجه . وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه أو مثله ، وليس فى الكتب أيضاً .

وقال البخارى : حدثنى محمد بن أبى يعقوب أبو عبد الله الكرمانى ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب » . تفرد به البخارى . وروى الطبرانى من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً فى ذلك .

والمقصود أن عمرو بن لحى لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء فى الدين ؛ غير بها دين الخليل ، فاتبعه العرب فى ذلك فضلوا بذلك ضلالا بعيداً بيناً فظيعاً شنيعاً . وقد أنكر الله تعالى عليهم فى كتابه العزيز فى غير ما آية منه فقال تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم

الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . .) [١] الآية ، وقال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) [٢] وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً ، وبينا اختلاف السلف فى تفسير ذلك ؛ فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ ولله الحمد والمنة . وقال تعالى : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون) [٣] . وقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون . وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) [٤] .

بـــاب جهـــل العـــــــرب

قال البخارى فى صحيحه : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة فى سورة الأنعام : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . وقد ذكرنا تفسير هذه الآية ، وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التى ظنها كبيرهم عمرو بن لحى ـ قبحه الله ـ مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم ، وهو كاذب مفتر فى ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه ، بل قد تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير ؛ وهو عبادة الأوثان مع الله عز وجل . وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم ؛

---

(١) الآية : ١١٦ من سورة النحل

(٢) الآية : ١٠٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٥٦ من سورة النحل .

(٤) الآيات : ١٣٦ ـ ١٤٠ من سورة الأنعام .

من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له ، وتحريم الشرك . وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ، ولا دليل صحيح ولا ضعيف .

واتبعوا فى ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين ، وشابهوا قوم نوح . وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ؛ ولهذا بعث الله إليهم نوحاً ، وكان أول رسول بعث ونهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه فى قصة نوح : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً . . .) الآية قال ابن عباس : كان هؤلاء قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم ، وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم فى عبادتهم بما أغنى عن إعادته هٰهنا .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام فى العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل ؛ فكان « ود » لبنى كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكان منصوباً بدومة الجندل [١] . وكان « سواع » لبنى هذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر ، وكان منصوباً بمكان يقال له رهاط [٢] . وكان « يغوث » لبنى أنعُم من طىء ولأهل جُرَش [٣] من مذحج ، وكان منصوباً بجرش ، وكان « يعوق » منصوباً بأرض همدان من اليمن لبنى خيوان ، بطن من همدان ، وكان « نسر » منصوباً بأرض حِمْيرَ لقبيلة يقال لهم : ذو الكَلاع .

قال ابن إسحاق : وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له « عم أنس » [٤] يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله - فيما يزعمون ، فما دخل فى حق « عم أنس » من حق الله الذى قسموه له ، تركوه له ، وما دخل فى حق الله من حق « عم أنس » - ردوه عليه . وفيهم أنزل الله : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) ، قال : وكان لبنى مِلكان ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له « سعد » ؛ صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبَّلة [٥] ليقفها عليه التماس بركته - فيما يزعم ، فلما رأته الإبل وكانت مرعية لا تركب ، وكان الصنم يهراق عليه الدماء فنفرت منه ، فذهبت فى كل

---

(١) دومة الجندل - بفتح الدال وضمها : بلدة فى وادى القرى فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة قريبة منها .
(٢) رهاط - كغراب : موضع على ثلاث ليال من مكة .
(٣) جرش - كزفر : مخلاف باليمن .
(٤) وقيل : « عميانس »
(٥) مؤبلة : متخذة للقنية

وجه ، فغضب ربها وأخذ حجراً فرماه به ، ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت عليّ إبلي . ثم خرج فى طلبها فلما اجتمعت له قال :

أتينـا إلى سعـدٍ ليجمع شملنا　　فشتتنـا سعـدُ فلا نحن من سعـد
وهـل سعـد إلا صخـرة بتنوفة [1]　　من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد !

قال ابن إسحاق : وكان فى دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى . قال : وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له « هُبَل » وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام ، أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحى ، لعنه الله .

قال ابن إسحاق : واتخذوا « إسافاً » و « نائلة » على موضع زمزم ينحرون عندهما ، ثم ذكر أنهما كانا رجلا وامرأة ، فوقع عليها فى الكعبة فمسخهما الله حجرين . ثم قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة أنها قالت : سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم أحدثا [2] فى الكعبة فمسخهما الله عز وجل حجرين ، والله أعلم . وقد قيل : إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة ، فلما كان عمرو بن لحى نقلهما فوضعهما على زمزم ، وطاف الناس بهما . وفى ذلك يقول أبو طالب :

وحيث ينيخ الأشعـرون ركـابهم　　بمفضى السيول من إسـاف ونائل [3]

وقد ذكر الواقدى : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح ، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور . وقد ذكر السهيلى : أن « أجا » و « سلمى » - وهما جبلان بأرض الحجاز - إنما سميا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحى ، فجر بسلمى بنت حام ، فصلبا فى هذين الجبلين فعرفا بهما . قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطى يقال له : « فِلْس » .

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من

---

(١) أى مفازة .

(٢) أى فجرا وزنيا .

(٣) هذا البيت من قصيدة طويلة تزيد أبياتها على التسعين ، قالها أبو طالب يتودد فيها أشراف قومه ومطلعها :

ولما رأيت القـوم لاود فيهـم　　وقـد قطعـوا كل العـرى والوسـائل

سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال : فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : (أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) « الآية : ٥ من سورة ص » .

قال ابن إسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ؛ لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها . وهى مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده . وكانت لقريش وبنى كنانة « العزى » بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم ، وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتى . قال : وكانت « اللاّت » لثقيف بالطائف ، وكانت سدنتها وحجابها بنى معتّب من ثقيف ، وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجىء أهل الطائف كما سيأتى . قال : وكانت « مَناة » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد ، وقد خربها أبو سفيان أيضاً ، وقيل على بن أبى طالب كما سيأتى . قال : وكان « ذو الخلصة » [1] لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية ، وقد خربه جرير بن عبد الله البجلى كما سيأتى . قال : وكان « فِلْس » لطيىء ومن يليها بجبلى طيىء بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم . قال : وكان « رِآم » بيتاً لِحِمْيَرَ وأهل اليمن كما تقدم ذكره فى قصة تبع أحد ملوك حمير ، وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود . قال : وكانت « رُضاً » بيتاً لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر ، واسمه كعب بن ربيعة بن كعب :

ولقد شددت على رُضاء شدة ... فتركتها قفراً بقاع أسحما
وأعان عبد الله فى مكروهها ... وبمثلِ عبد الله أغشى المحرما

ويقال : إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذى يقول :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا

---

(١) ذو الخلصة ـ محركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية ، وكان فيه صنم يسمى : الخلصة .

مائـة حدتهـا بعـدهـا مائتـان لى ... وازددت من عدد الـشـهـور سنينـا
هل ما بقـى إلا كما قد فاتـنـا ... يوم يمـر ولـيلة تحدونـا

قال ابن هشام : وتروى هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل . قال السهيلى : ومن المعمرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة ، زهير هذا ، وعبيد بن شربة ، ودغفل بن حنظلة النسابة ، والربيع بن ضبع الفزارى ، وذو الأصبع العدوانى ، ونصر بن دهمان بن أشجع ابن ربث بن غطفـان ، وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد اعوجاجه . قال : وكان « ذو الكَعَبات » [1] لبكر وتغلب بن وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخـورنق والسـدير وبـارق ... والـبـيت ذو الشرفـات من سِنـداد

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمت وإن تطاول بى المدى ... أن الـسـبـيل سبيل ذى الأعـواد
ماذا أؤمِّـل بعـد آل محرّق ... تركـوا منـازلهـم وبـعـد إياد
نزلـوا بأنـقـرة يسـيل عليهـم ... ماء الـفـرات يجىء من أطـواد
أرض الخـورنق والسـدير وبـارق ... والـبـيت ذو الـكعبـات من سِنـداد
جرت الـرياح على محل ديارهـم ... فكـأنـما كانـوا على ميعـاد
وأرى الـنـعـيم وكـلـما يُلهـى به ... يومـاً يصـير إلى بِلىً ونـفـاد

قال السهيلى : الخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له : سنمار فى عشرين سنة ، ولم يُر بناء أعجب منه ، فخشى النعمان أن يبنى لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ، ففى ذلك يقول الشاعر :

جزانـى جزاه الله شرَّ جزائـه ... جزاء سِنـمار ومـا كان ذا ذنـب
سوى رضفه البنيان عشرين حِجة ... يعـد عليه بالـقـرامـد والسكب [2]
فلما انـتـهى البنيان يومـاً تمامـه ... وآض كمثـل الـطَّود والباذج الصعب
رمـى بسـنـمار على حُقِّ رأسـه ... وذاك لعمـر الله من أقبـح الخـطب

---

(١) بيت كانوا يطوفون به .

(٢) القرامد ـ جمع قرمد . قال صاحب القاموس : القرمد : حجارة لها خروق تنضج ويبنى بها ، والخزف المطبوخ ، والآجر ـ كالقرمد . والسكب · النحاس أو الرصاص .

قال السهيلى : أنشده الجاحظ فى كتاب الحيوان ، والسنمار من أسماء القمر . والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت ؛ ولما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ؛ حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد الله وحده لا شريك له ، كما سيأتى بيانه وتفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

خبر عدنان جد عرب الحجـــاز
وهو الذى ينتهى إليه نسب النبى ﷺ

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . واختلفوا فى عدة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة ؛ فأكثر ما قيل أربعون أباً وهو الموجود عند أهل الكتاب ؛ أخذوه من كتاب رخيا كاتب إرميا بن حلقيا على ما سنذكره ، وقيل بينهما ثلاثون ، وقيل عشرون ، وقيل خمسة عشر ، وقيل عشرة ، وقيل تسعة ، وقيل سبعة ، وقيل إن أقل ما قيل فى ذلك أربعة ؛ لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعى عن عمته عن أم سلمة عن النبى ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أدد بن زند بن يَرَى بن أعراق الثرى » . قالت أم سلمة : فزند هو الهميسع ، ويَرَى هو نابت ، وأعراق الثرى هو إسماعيل ؛ لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار ، كما أن النار لا تأكل الثرى . قال الدارقطنى : لا نعرف زنداً إلا فى هذا الحديث ، وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلى وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة أباء أو عشرة أو عشرون ؛ وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بختنصر اثنتى عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبرى وغيره أن الله تعالى أوحى فى ذلك الزمان إلى إرمياء بن حلقيا أن اذهب إلى بختنصر ، فأعلمه أنى قد سلطته على العرب . وأمر الله إرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق ؛ كى لا تصيبه النقمة فيهم ؛ فإنى مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل . ففعل إرميا ذلك ، واحتمل معدا على البراق إلى أرض الشام ، فنشأ مع بنى إسرائيل ممن بقى منهم بعد خراب بيت المقدس ، وتزوج هناك امرأة اسمها « معانة بنت جوشن » من بنى دب بن جرهم ، قبل أن يرجع إلى بلاده . ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب ، وكان رخيا كاتب إرمياء قد كتب نسبه فى كتاب عنده ؛ ليكون فى خزانة إرمياء فيحفظ نسب معد كذلك ، والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلى : وإنما تكلمنا فى رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه ؛ كابن إسحاق والبخارى والزبير بن بكار والطبرى وغيرهم من العلماء . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال : من أين له علم ذلك ؟ فقيل له فإلى إسماعيل ؟ فأنكر ذلك أيضاً وقال : ومن يخبره به ؟ وكره أيضاً أن يرفع فى نسب الأنبياء ، مثل أن يقال : إبراهيم ابن فلان ابن فلان ، هكذا ذكره المعيطى فى كتابه .

قال : وقول مالك هذا نحو ما روى عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل . وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، وروى عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً ، والأصح عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب : إنما تنسب إلى عدنان ، وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتابه [الإنباه فى معرفة قبائل الرواة] : روى ابن لهيعة عن أبى الأسود ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصاً . وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبى خيثمة - وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم - يقول : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان فى شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود ، وعمرو بن ميمون الأزدى ومحمد بن كعب القرظى إذا تلوا : (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) [1] قالوا : كذب النسابون .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا فى هذا غير ما ذهبوا ، والمراد أن من ادعى إحصاء بنى آدم ؛ فإنهم لا يعلمهم إلا الله الذى خلقهم . وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها ، قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها ، واختلفوا فى بعض فروع ذلك .

قال أبو عمر : والذى عليه أئمة هذا الشأن فى نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة .

قال ابن هشام : ويقال عدنان بن أد - يعنى عدنان بن أد بن أدد - ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه فى قصة الخليل عليه السلام . وأما الأنساب إلى عدنان من

---

(١) من الآية : ٩ من سورة إبراهيم ,

سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً ، لا يتمارى فيها اثنان . والنسب النبوى إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح ، وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه ، كما سنورده فى موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها ، وانتظامها فى سلك النسب الشريف ، والأصل المنيف إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وما أحسن ما نظم النسب النبوى الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء فى قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهى قوله :

مدحت رسول الله أبغى بمدحه ... وفورَ حظوظى من كريم المآرب
مدحت امرأً فاق المديحَ موحداً ... بأوصافه عن مبعد ومقارب
نبياً تسامى فى المشارق نوره ... فلاحت هواديه [1] لأهل المغارب
أتتنا به الأنباء قبل مجيئه ... وشاعت به الأخبار فى كل جانب
وأصبحت الكهانُ تهتف باسمه ... وتنفى به رجم الظنون الكواذب
وأُنطِقت الأصنامُ نطقاً تبرأت ... إلى الله فيه من مقال الأكاذب
وقالت لأهل الكفر قولاً مبيّناً ... أتاك نبى من لؤى بن غالب
ورام استراق السمع جن فزيلت ... مقاعدهم منها رجوم الكواكب
هدانا إلى ما لم نكن نهتدى له ... لطول العمى من واضحات المذاهب
وجاء بآيات تبين أنها ... دلائل جبار مثيب معاقب
فمنها انشقاقُ البدر حين تعممت ... شعوب الضيا منه رءوس الأخاشب [2]
ومنها نبوع الماء بين بنانه ... وقد عدم الورّاد قرب المشارب
فروَّى به جماً غفيراً وأسهلت ... بأعناقه طوعاً أكف المذانب [3]
وبئر طغت بالماء من مس سهمه ... ومن قبل لم تسمح بمذقة شارب
ضرع مَراه [4] فاستدر ولم يكن ... به درة تصغى إلى كفِّ حالب
ونطقٌ فصيح من ذراع مبينة ... لكيد عدو للعداوة ناصب
وإخباره بالأمر من قبل كونه ... وعند بواديه بما فى العواقب

---

(١) جمع هدى وهو : الطريقة والسيرة .
(٢) الأخشب : الجبل الخشن العظيم ، والأخاشب : جبال الصمان .
(٣) المذانب من الإبل : الذى يكون فى آخر الإبل .
(٤) مرى الناقة : مسح ضرعها فدر لبنها .

ومن تلكم الآيات وحيٌ أتى به ... قريب المآتى مستجم العجائب

تقاصرت الأفكارُ عنه فلم يطع ... بليغاً ولم يخطر على قلب خاطب

حوى كلَّ علم واحتوى كل حكمة ... وفات مرام المستمر الموارب

أتانا به لاعن روية مرتىءٍ ... ولا صحف مستمل ولا وصف كاتب

يواتيه طوراً فى إجابةِ سائل ... وإفتاء مستفتٍ ووعظ مخاطب

وإتيان برهان وفرض شرائع ... وقص أحاديث ونص مآرب

وتصريف أمثالٍ وتثبيت حجة ... وتعريف ذى جحد وتوقيف كاذب

وفى مجمعِ النادى وفى حومة الوغى ... وعند حدوث المعضلات الغرائب

فيأتى على ما شئت من طرقاته ... قويم المعانى مستدر الضرائب

يصدق منه البعضُ بعضاً كأنما ... يلاحظ معناه بعين المراقب

وعجز الورى عن أن يجيئوا بمثل ما ... وصفناه معلوم بطول التجارب

تأبى بعبد الله أكرم والد ... تبلج منه عن كريم المناسب

وشيبة ذى الحمد الذى فخرت به ... قريش على أهل العلى والمناصب

ومن كان يُستسقى الغمام بوجهه ... ويصدر عن آرائه فى النوائب

وهاشم البانى مشيد افتخاره ... بغرِّ المساعى وامتنان المواهب

وعبد مناف وهو علّم قومه اشـ ... ـتطاط الأمانى واحتكام الرغائب

وإن قُصيًّا من كريم غراسه ... لفى منهل لم يدن من كف قاضب

به جمع الله القبائلَ بعدما ... تقسمها نهب الأكف السوالب

وحل كلابٌ من ذرى المجد معقلا ... تقاصر عنه كل دان وغائب

ومرة لم يحلل مريرة عزمه ... سِفاه سفيه أو محوبة حائب

وكعبٌ علا عن طالب المجدِ كعبُه ... فنال بأدنى السعى أعلا المراتب

وألوى لؤى بالعداة فطوعت ... له همم الشم الأنوف الأغالب

وفى غالب بأس أبى البأس دونهم ... يدافع عنهم كل قِرن مغالب

وكانت لفهر فى قريش خطابةٌ ... يعوذ بها عند اشتجار المخاطب

وما زال منهم مالك خير مالك ... وأكرم مصحوب وأكرم صاحب

وللنضر طول يقصر الطرف دونَه ... بحيث التقى ضوء النجوم الثواقب

لعمرى لقد أبدى كنانةُ قبلَه ... محاسنَ تأبى أن تطوع لغالب

ومن قبله أبقى خزيمةُ حمده ... تليد تراث عن حميد الأقارب

ومدركة لم يدرك الناس مثله ... أعف وأعلى عن دنى المكاسب

وإلياس كان اليأس منه مقارناً ... لأعدائه قبل اعتداد الكتائب
وفى مضر يستجمع الفخر كله ... إذا اعتركت يوماً زحوف المقانب
وحل نزار من رياسةِ أهله ... محلا تسامى عن عيون الرواقب
وكان معدّ عدة لوليِّه ... إذا خاف من كيد العدو المحارب
وما زال عدنان إذا عُد فضله ... توحد فيه عن قرين وصاحب
وأدٌ تأدى الفضلُ منه بغاية ... وإرث حواه عن قروم أشايب
وفى أدد حلم تزين بالحجا ... إذا الحلم أزهاه قطوب الحواجب
وما زال يستعلى هميسع بالعلى ... ويتبع آمال البعيد المراغب
ونبت بنْته دوحةُ العز وابتنى ... معاقله فى مشمخر الأهاضب
وحيزت لقيذار سماحة حاتمٍ ... وحكمة لقمان وهمة حاجب
همو نسل إسماعيل صادقِ وعدِه ... فما بعده فى الفخر مسعى لذاهب
وكان خليلُ الله أكرم من عنت ... له الأرضُ من ماش عليها وراكب
وتارح ما زالت له أريحية ... تبين منه عن حميد المضارب
وناحور نحار العدى حُفظت له ... مآثرُ لما يحصها عد حاسب
وأشرع فى الهيجاء ضيغم غابة ... يقد الطلى بالمرهفات القواضب
وأرغو ناب فى الحروف محكم ... ضنين على نفس المشح المغالب
وما فالغ فى فضله تلو قومه ... ولا عابر من دونهم فى المراتب
وشالخ وأرفخشذ وسام وسمت بهم ... سجايا حمتهم كل زار وعائب
وما زال نوح عند ذى العرش فاضلا ... يعدده فى المصطفين الأطايب
ولمك أبوه كان فى الروعِ رائعاً ... جريئاً على نفس الكمِيِّ المضارب
ومن قبل لمك لم يزل متوشلخ ... يذود العدى بالذائدات الشوازب
وكانت لإدريس النبيِّ منازل ... من الله لم تقرن بهمة راغب
ويارد بحر عند آل سراته ... أبىّ الخزايا مستدق المآرب
وكانت لمهلاييل فيهم فضائل ... مهذبة من فاحشات المثالب
وقينان من قبل اقتنى مجد قومه ... وفاد بشأو الفضل وخد الركائب
وكان أنوش ناش للمجد نفسَه ... ونزهها عن مرديات المطالب
وما زال شيث بالفضائل فاضلا ... شريفاً بريئاً من ذميم المعائب
وكلهمُ من نور آدم أقبسوا ... وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
وكان رسولُ الله أكرم مُنجَب ... جرى فى ظهور الطيبين المناجب

مقـابـلة آبـاؤه أمـهـاتـه　　مبرأة من فاضـحـات المـثـالـب
عليه سلام الله فى كل شارق　　ألاح لنـا ضوءاً وفى كلِّ غارب

وهكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى فى تهذيبه ، من شعر الأستاذ أبى العباس عبد الله بن محمد الناشىء المعروف بابن شرشير ، أصله من الأنبار ، ورد بغداد ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وكان متكلماً معتزلياً يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعرى ، فى كتابه المقالات فيما يحكى عن المعتزلة ، وكان شاعراً مطبقاً حتى إن من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء فى المعانى ، فينظم فى مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعانى البديعة ، والألفاظ البليغة ، حتى نسبه بعضهم إلى التهوس والاختلاط . وذكر الخطيب البغدادى أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ، ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا .

قلت : وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته ، وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، وإطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف فى سلك شعره ، وغوصه على هذه المعانى التى هى جواهر نفيسة من قاموس بحره ، فرحمه الله وأثابه ، وأحسن مصيره وإيابه .

ذكر أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلـك لأن عدنان ولد له ولدان : معد ، وعك . قال السهيلى : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث ، وآخر يقال له المذهب ، قال : وقد ذكر أيضاً فى بنيه الضحاك . وقيل إن الضحـاك ابن لمعـد لا ابن عدنان . قال وقيل : إن عدن الذى تعرف به مدينة عدن ، وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان ، وحكاه الطبرى . فتزوج عك فى الأشعريين وسكن فى بلادهم من اليمن ، فصـارت لغتهم واحـدة ، فزعم بعض أهـل اليمن أنهم منهم ، فيقولون : عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث ، ويقال عك بن عدنان بن الذيب ابن عبد الله بن الأسـد ، ويقال الديث بدل الذيب ، والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان . قال عباس بن مرداس :

وعـك بن عدنـان الـذين تلقَّبـوا　　بغـسـانَ حتـى طُردوا كل مطرد [1]

---

(١) هذا البيت من قصيدة له يفخر فيها بعك .

وأما معد ، فولد له أربعة : نزار وقضاعة وقُنص وإياد ، وكان قضاعة بكره ، وبه كان يكنى ، وقد قدمنا الخلاف فى قضاعة ، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وأما قنص ، فيقال إنهم هلكوا ولم يبق لهم بقية ، إلا أن النعمان بن المنذر الذى كان نائباً لكسرى على الحيرة كان من سلالته ، على قول طائفة من السلف ، وقيل بل كان من حمْيَرَ كما تقدم ، والله أعلم .

وأما نزار ؛ فولد له ربيعة ومضر وأنمار ، قال ابن هشام : وإياد بن نزار كما قال الشاعر :

وفُتو حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

قال : وإياد ومضر شقيقان ، أمهما سَودة بنت عكّ بن عدنان ، وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان [1] ، ويقال جمعة بنت عك بن عدنان ، قال ابن إسحاق : فأما أنمار فهو والد خثعم وبجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلى ، قال : وقد تيامنت فلحقت باليمن ، قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث ابن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قلت والحديث المتقدم فى ذكر سبأ يدل على هذا ، والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حدا ؛ وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره ، فوثبت يده فجعل يقول وايدياه ! وايدياه ! فأعنقت الإبل لذلك . قال ابن إسحاق : فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس وعيلان ، وولد لإلياس مدركة وطابخة وقَمعَة ، وأمهم خِندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة .

قال ابن إسحاق : وكان اسم مدركة عامراً ، واسم طابخة عمراً ، ولكن اصطادا صيداً ، فبينا هما يطبخانه إذ نفرت الإبل ، فذهب عامر فى طلبها حتى أدركها ، وجلس الآخر يطبخ . فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك ، فقال لعامر : أنت مدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة . قال : وأما قَمعة فيزعم نساب مضر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس ، قلت والأظهر أنه منهم لا والدهم ، وأنهم من حمير كما تقدم ، والله أعلم .

---

(١) قال الطبرى : اسمها ـ جدالة بنت وعلان من جرهم .

قال ابن إسحاق : فولد مدكة خزيمة وهذيل ، وأمهما امرأة من قضاعة . وولد خزيمة كنانة وأسداً وأسدة والهُون . قال فولد كنانة بن خزيمة أربعة : النضر ومالك وعبد مناة وملِكـان ، وزاد أبو جعفر الطبرى فى أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث وغنماً وسعداً وعوفاً وجَرولا والحُدال وغَزوان [1] .

الـكـــــلام على قريش نسباً واشتقاقاً وفضلا وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر بَرَّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة ، وسائر بنيه لامرأة أخرى ، وخالفه ابن هشام ؛ فجعل بَرّة بنت مرّ أم النضر ومالك وملكان ، وأم عبد مناة هالة بنت سويد بن الغطريف من أزد شنوءة . قال ابن هشام : النضر هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى . وقال : ويقال فهر بن مالك هو قريش ؛ فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب ؛ كالشيخ أبى عمر بن عبد البر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد .

قال أبو عبيد وابن عبد البر : والذى عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة ؛ لحديث الأسعد ابن قيس ، قلت : وهو الذى نص عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبى وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو جادة مذهب الشافعى رضى الله عنه . ثم اختار أبو عمر أنه فهر ابن مالك ، واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع فى نسبه إلى فهر بن مالك ، ثم حكى اختيار هذا القول عن الزهير بن بكار ومصعب الزبيرى وعلى بن كيسان . قال وإليهم المرجع فى هذا الشأن . وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نساب قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك . والذى عليه من أدركت من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قرشى ، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ، ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لمآثرهم . وقد روى البخارى من حديث كليب بن وائل قال : قلت لربيبة النبى ﷺ - يعنى زينب - فى حديث ذكره : أخبرينى عن النبى ﷺ أكان من مضر ؟ قالت فمن كان إلا من

---

(١) وكذلك زاد الطبرى : مخرمة وعمرو ، وهؤلاء إخوة النضر لأبيه وأمه - ما عدا عبد مناة فإنه أخوهم من أبيهم .

مضر من بنى النضر بن كنانة ؟ . وقال الطبرانى : حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، حدثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن جفشيش الكندى قال : جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا أنت منا وادَّعوه ، فقال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقف أمنا ولا ننتفى من أبينا » .

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد : حدثنا أبى حدثنا الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال جاء رجل من كندة يقال له جفشيش إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله ! إنا نزعم أن عبد مناف منا ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقال النبى ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفى من أبينا » ، فقال الأشعث : ألا كنت سكت من المرة الأولى ؟ فأبطل ذلك قولهم على لسان نبيه ﷺ ، وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه - والكلبى ضعيف - والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، قال حدثنى عقيل ابن أبى طلحة وقال عفان عقيل بن طلحة السلمى عن مسلم بن الهيصم عن الأشعث بن قيس ، أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فى وفد كندة - قال عفان لا يرونى أفضلهم ، قال : فقلت يا رسول الله ! إنا نزعم أنكم منا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « نحن بنو النضر ابن كنانة لا نقف أمنا ولا ننتفى من أبينا » . قال : فقال الأشعث بن قيس : فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد . وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة به ، وهذا إسناد جيد قوى ، وهو فيصل فى هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم ولله الحمد والمنة .

وقد قال جرير بن عطية التميمى يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فما الأمُّ التى ولدت قريشاً ... بمُقْرِفَة النجار[1] ولا عقيم

وما قرم بأنجبِ من أبيكم ... ولا خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : يعنى أم النضر بن كنانة ، وهى بَرّة بنت مرّ أخت تميم بن مر .

وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق ، وذلك فى زمن قصى

---

(١) المقرف : الذى أمه عربية وأبوه ليس بعربى ، والنجار : الأصل - كالنجر .

ابن كلاب ، فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتى بيانه . وقد قال حُذافة بن غانم العدوى :

أبـوكم قصىّ كان يُدعى مُجُمِّعـا ... به جمع الله الـقـبـائـل من فِهـر

وقال بعضهم : كان قصى يقال له قريش ؛ قيل من التجمع ، والتقرش التجمع ، كما قال أبو خلدة البشكرى :

إخـوة قرشـوا الـذنـوب علينا ... فى حديث من دهـرنـا وقـديم

وقيل سميت قريش ؛ من التقرش وهو التكسب والتجارة ، حكاه ابن هشام رحمه الله .

وقـال الجـوهرى : القرش ـ الكسب والجمع ، وقد قرش يقرش ، قال الفراء : وبه سميت قريش وهى قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشى دون ولـد كنانة فما فوقه . وقيل من التقريش ؛ قال هشام بن الكلبى : كان النضر بن كنانة يُسمى قريشاً ؛ لأنه كان يقرش عن خَلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله ، والتقرش هو التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم ـ قريشاً ، وقد قال الحارث بن حِلِّزة فى بيان أن التقرش ـ التفتيش :

أيهـا الـنـاطـق المقّـرش عنـا ... عنـد عمـرو فهـل له إبقـاء [1] ؟

حكى ذلك الزبير بن بكار ، وقيل قريش تصغير قرش ، وهو دابة فى البحر . قال بعض الشعراء :

وقـريش هى الـتـى تسكن البحـ ... ـر بها سمـيت قريش قُرَيشـا

قال البيهقى : أخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أنبأنا أبو الحسن على بن عيسى المالينى ، حدثنا محمد بن الحسن بن الخليل النسوى ـ أن أبا كريب حدثهم ، حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبى ركانة العامرى ، أن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة تكون فى البحر هى أعظم دوابه ، يقال لها القرش ؛ لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته ، قال فأنشدنى فى ذلك شيئاً ، فأنشده شعر الجمحى إذ يقول :

---

(١) قال فى اللسان : عداه بعن ؛ لأن فيه معنى الناقل عنا .

وقـريش هى الـتـى تسكن البحـ ـرَ بها سمـيـت قريش قريشـا
تأكـل الـغـثَّ والسمـين ولا تتركـنّ لذى الجنـاحـين ريشـا
هكـذا فى الـبـلادِ حىّ قريش يأكـلون الـبـلادَ أكـلا كميشـا[1]
ولهـم آخـر الـزمـان نبـىٌّ يكـثـر الـقـتـل فيهم والخمـوشـا

وقيل سموا بقريش بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة ، وكان دليل بنى النضر وصاحب ميرتهم ، فكانت العرب تقول قد جاءت عير قريش ، قالوا : وابن بدر بن قريش ـ هو الذى حفر البئر المنسوبة إليه ، التى كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله أعلم .

ويقال فى النسبة إلى قريش قرشى وقريشى ، قال الجوهرى وهو القياس . قال الشاعر :

لكـل قريشـى عليه مهـابـة سريع إلى داعـى الـنـدا والـتـكـرم

قال : فإذا أردت بقريش الحى صرفته ، وإن أردت القبيلة منعته ، قال الشاعر فى ترك الصرف :

وكفـى قُـريـشَ المعضـلاتِ وسـادهـا[2]

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى عمر والأوزاعى قال : حدثنى شداد أبو عمار ، حدثنى واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » . قال أبو عمر بن عبد البر ، يقال : بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ ، وبنو هاشم فخذه ، وبنو عبد مناف بطنه ، وقريش عمارته ، وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شعبه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر ابن كنانة ـ مالكا ومخلداً ، قال ابن هشام والصلت : وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظرب العدوانى . قال كثير بن عبد الرحمن ـ وهو كُثير عزَّة ـ أحد بنى مُلَيح بن عمرو من خزاعة :

أليس أبى بالصلتِ أم ليس إخوتى لكـل هجـان من بنى النضر أزهـرا
رأيت ثيابَ العَصب مختلط السدى بنـا وبهـم والحضرمـى المـخصرا[3]
فإن تكـونوا من بنى النضر فاتركوا أراكـاً بأذنـاب الـفـوائـج أخضرا

---

(١) أى سريعاً .
(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك وأوله : غلب المساميح الوليد سماحة .
(٣) العصب : نوع من البرود اليمانية ، والمراد بالحضرمى المخصرا : النعال الضيقة من جانبيها .

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو ـ يعزون إلى الصلت بن النضر .

قال ابن إسحاق : فولد مالك بن النضر ـ فهر بن مالك ، وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الأصغر . وولد فهر ـ غالباً ومحارباً والحارث وأسداً ، وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر . قال ابن إسحاق : فولد غالب بن فهر ـ لؤى بن غالب وتيم بن غالب ، وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم ، وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعى . قال ابن هشام : وقيس بن غالب ، وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعى ، وهى أم لؤى وتيم بن غالب . قال ابن إسحاق : فولد لؤى بن غالب أربعة نفر ؛ كعباً وعامراً وسامة وعوفاً . قال ابن هشام : ويقال ـ والحارث ، وهم جشم بن الحارث فى هزان من ربية ، وسعد بن لؤى وهما : بنانة فى شيبان بن ثعلبة ، وبنانة حاضنة لهم ، وخزيمة بن لؤي وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة .

ثم ذكر ابن إسحاق خبر سامة بن لؤى ، وأنه خرج إلى عمان فكان بها وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر ، فأخافه عامر فخرج عنه هارباً إلى عمان ، وأنه مات بها غريباً ، وذلك أنه كان يرعي ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها ، ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال : إنه كتب بأصبعه على الأرض :

عين فابكـى لسامـةَ بن لؤى ... علِقَـتْ ما بسـامـة العَـلاَّقـه [1]

لا أري مثـلَ سامـة بن لؤى ... يوم حلّوا به قتـيلا لنـاقـه

بلغـا عامـراً وكـعـبـاً رسـولا ... أن نفـسـى إلـيهـا مشـتـاقـه

إنْ تكـن فى عُمان دارى فإنـى ... غالـبـيّ خرجـت من غير فاقـه

رب كأسٍ هرقـت يا بنَ لؤى ... حذر المـوت لم تكـن مهـراقـه

رمت دفـع الحتـوف يا بن لؤى ... ما لمن رام ذاك بالحـتـف طاقـه

وخـروسِ السرى تركـت رذياً ... بعـد جدّ وحـدة ورشـاقـه

قال ابن هشام : وبلغنى أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤى ، فقال له رسول الله ﷺ : « آلشاعر » ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

ربَّ كأس هرقـت يا بن لؤى ... حذر المـوت لم تكـن مهـراقـه

---

(١) فى نسخة : ساق ساقة ـ بدل : ما بسامة .

فقال : « أجل » ، وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يعقب . وقال الزبير : ولد سامة ابن لؤى غالباً والنبيت والحارث ، قالوا وكانت ذرية بالعراق يبغضون علياً ، ومنهم على بن الجعد ؛ كان يشتم أباه لكونه سماه علياً . ومن بنى سامة بن لؤى محمد بن عرعرة بن اليزيد شيخ البخارى .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤى فإنه خرج ـ فيما يزعمون ـ فى ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد ـ وهو أخوه فى نسب بنى ذبيان ـ فحبسه وزوجه والتاطه [1] وآخاه ، فشاع نسبه فى بنى ذبيان . وثعلبة ـ فيما يزعمون ـ الذى يقول لعوف حين أبطىء به فتركه قومه :

احبس علىّ ابن لؤى جَمَلكْ تركك القومُ ولا مَنْزِلَ لَكْ

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ـ أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين ـ أن عمر بن الخطاب قال : لو كنت مدعياً حياً من العرب ، أو ملحقهم بنا لادعيت بنى مرة بن عوف ؛ إنا لنعرف منهم الأشباه ، مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع يعنى عوف بن لؤى .

قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بنى مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافاً فى غطفان ؛ هم سادتهم وقادتهم ، قوم لهم صيت فى غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم . قالوا وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم : ما ننكره وما نجحده ، وإنه لأحب النسب إلينا ، ثم ذكر أشعارهم فى انتمائهم إلى لؤى .

قال ابن إسحاق : وفيهم كان البَسْل ؛ وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب ، وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضاً . قلت : وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، واختلفت ربيعة ومضر فى الرابع وهو رجب ؛ فقالت مضر : هو الذى بين جمادى وشعبان ، وقالت ربيعة : هو الذى بين شعبان وشوال . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ؛ منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو

(١) التاطه : ادعاه ولداً وليس له .

الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » ، فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة . وقد قال الله عز وجل : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض ، منها أربعة حرم) [1] . فهذا رد على بنى عوف بن لؤى فى جعلهم الأشهر الحرم ثمانية ؛ فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه . وقوله فى الحديث : ثلاث متواليات رد على أهل النسىء ، الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر . وقوله فيه : ورجب مضر رد على ربيعة .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤى ثلاثة : مرة ، وعدياً ، وهصيصاً . وولد مرة ثلاثة أيضاً : كلاب بن مرة ، وتيم بن مرة ، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث . قال وولد كلاب رجلين : قصى بن كلاب ، وزهرة بن كلاب ، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل ـ أحد الجَدَرَة من خثعمة [2] الأسد من اليمن ، حلفاء بنى الدِّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ـ وفى أبيها يقول الشاعر :

ما ترى فى الناس شخصاً واحداً ... من علمناه كسعد بن سيل
فارساً أضبطَ [3] فيه عسرة ... وإذا ما واقف القرن نزل
فارساً يستدرج الخيلَ كما اسـ ... ـتدرج الحر القطامى الحجل

قال السهيلى : سيل ـ اسمه خير بن جمالة ، وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة .

قال ابن إسحاق : وإنما سموا الجدرة ؛ لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن خثعمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمى ، وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت ، فبنى للكعبة جداراً فسمى عامر بذلك الجادر ، فقيل لولده الجدرة لذلك .

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) وقيل : جعثمة .

(٣) الأضبط : الذى يعمل بكلتا يديه ؛ يعمل بيساره كما يعمل بيمينه ، ويقال له أيضاً : « أعسر يسر » .

خبر قصى بن كلاب ، وما كان من أمره فى ارتجاعه ولاية البيت إلى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة ، واجتماع قريش إلى الحرم الذى جعله الله أمناً للعباد بعد تفرقها فى البلاد ، وتمزقها فى الجبال والمهاد

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعةُ بن حرام من عذرة ، وخرج بها وبه إلى بلاده ، ثم قدم قصى مكة وهو شاب فتزوج حُبَّى ابنة رئيس خزاعة حُلَيل بن حُبشِيَّة . فأمـا خزاعة فتزعم أن حليلاً أوصى إلى قصى بولاية البيت ؛ لما رأى من كثرة نسله من ابنته ، وقال أنت أحق بذلك منى . قال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم . وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استغاث بإخوته من أمه ، وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبنى كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم ، فأجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت [1] ، لأن إجازة [2] الحجيج كانت إلى صوفة ، وهم بنو الغوث بن مر بن أُدّ ابن طابخة بن إلياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من منى حتى ينفروا ، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، فكان أولهم صفوان بن الحارث بن شِجنة بن عطارد بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم . وكان ذلك فى بيته حتى قام على آخرهم الإسلام وهو كَرِب ابن صفوان ، وكانت الإجازة من المزدلفة فى عَدوان ، حتى قام الإسلام على آخرهم وهو أبو سيارة عُميلة بن الأعزل ، وقيل اسمه العاص واسم الأعزل خالد ، وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء ، مكث يدفع عليها فى الموقف أربعين سنة ، وهو أول من جعل الدية مائة ، وأول من كان يقول : أشرق ثبير كيما نغير ؛ حكاه السهيلى .

وكان عامر بن الظرب العدوانى لا يكون بين العرب نائرة إلا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضى به ، فتحاكموا إليه مرة فى ميراث خنثى ، فبات ليلته ساهراً يتروى ماذا يحكم به ،

---

(١) ذكر الطبرى عن ابن إسحاق : أنها لما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه ، وهلك حليل رأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر . فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم إلى مناصرته ، وإخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فأجابوه إلى ما طلب ، كما أجابه إلى ذلك أخوه من أمه رزاح ، وإخوته لأبيه .

(٢) أى الإفاضة بهم من عرفات ، وكان أحدهم يقوم فيقول : أجيزى صوفة ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم فى الإجازة .

فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها « سُخيلة » ، فقالت له مالك ـ لا أبا لك ـ الليلة ساهراً ؟ فذكر لها ما هو مفكر فيه ، وقال : لعلها يكون عندها فى ذلك شىء فقال : أتبع القضاء المبَال [١] فقال فرجتها والله يا سخيلة ، وحكم بذلك .

قال السهيلى : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات . وله أصل فى الشرع ، قال الله تعالى : (وجاءوا على قميصه بدم كذب) حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه ، وقال تعالى : (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وفى الحديث : ـ « أنظروها فإن جاءت به أورق [٢] جعداً جمالياً فهو للذى رميت به » . قال ابن إسحاق : وكان النسىء فى بنى فقيم ابن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر .

قال ابن إسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب القَلَمَّس ، وهو حذيفة بن عبد بن فُقَيم بن عدى ، ثم قام بعده ابنه عباد ، ثم قلع بن عباد ، ثم أمية بن قلع ، ثم عوف بن أمية ، ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قَلع بن عباد بن حذيفة وهو القَلَمَّس ، فعلى أبى ثمامة قام الإسلام ، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم ، فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم وجعل مكانه صفر ؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيقول : اللهم إنى أحللت أحد الصفرين : الصفر الأول وأنسأت الآخر للعام المقبل فتتبعه العرب فى ذلك . ففى ذلك يقول عمير بن قيس أحد بنى فراس بن غنيم بن مالك بن كنانة ، ويعرف عمير بن قيس هذا بجَذْل الطعان :

لقد علمت معدّ أن قومى ... كرامُ الناس أن لهم كرام
فأى الناس فاتونا بوتر ... وأى الناس لم نُعْلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد ... شهورَ الحل نجعلها حراما ؟

وكان قصى فى قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً . والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت ، وتسليمه إلى قصى ، فكان بينهم قتال كثير ، ودماء غزيرة . ثم تداعوا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن

---

(١) أى اجعله تابعاً له ؛ فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهى امرأة .

(٢) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد .

عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة ، وأن يخلى بين قصى وبين مكة والكعبة ، فسمى يعمر يومئذ : الشداخ [١] .

قال ابن إسحاق : فولى قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ؛ لأنه كان يرى ذلك ديناً فى نفسه لا ينبغى تغييره ، فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه . حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله . قال : فكان قصى أول بنى كعب أصاب ملكا أطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .

قلت : فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت بيتهم العتيق القديم ؛ لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ، ونحرهم لها وتضرعهم عندها ، واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها . وأنزل قصى قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ؛ فكان يقال : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . فكانت لقصى بن كلاب جميع الرئاسة ؛ من حجابة البيت وسدانته ، واللواء . وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة ؛ إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها . ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلا بها ، ولا تبلغ جارية أن تدرع [٢] فتدرع إلا بها ، وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام ، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد بنى عبد الدار ، فباعها فى زمن معاوية بمائة ألف درهم ، فلامه على بيعها معاوية وقال : بعت شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال إنما الشرف اليوم بالتقوى ، والله لقد ابتعتها فى الجاهلية بزق خمر ، وها أنا قد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها صدقة فى سبيل الله ، فأينا المغبون ؟ ذكره الدارقطنى فى أسماء رجال الموطأ . وكانت إليه سقاية الحجيج ؛ فلا يشربون إلا من ماء حياضه ، وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم ، قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ، ولا يهتدون إلى موضعها . قال الواقدى :

---

(١) وذلك لما شدخ من الدماء - أى أبطل ووضع منها .

(٢) ادرعت الجارية : لبست الدرع . ودرع المرأة : قميصها ، مذكر والجمع أدرع .

وكـان قصى أول من أحـدث وقيد النار بالمزدلفة ؛ ليهتدى إليها من يأتى من عرفات ، والرفادة ـ وهى إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم .

قال ابن إسحاق : وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم : يا معشر قريش ! إنكم جيران الله وأهـل مكـة وأهـل الحـرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافـة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم ـ ففعلوا ؛ فكانوا يخرجون لذلك فى كل عام من أموالهم خَرْجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية ، حتى قام الإسلام . ثم جرى فى الإسلام إلى يومك هذا ؛ فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج .

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق . ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف فى حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج ، وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها . ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحل ما فيه ، والأولى أن يكون من جوالى الذمة ؛ لأنهم لا يحجون البيت العتيق . وقد جاء فى الحديث : « من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » . وقال قائلهم فى مدح قصى وشرفه فى قومه :

قُصىٌّ لعمرى كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر
همو ملئوا البطحاء مجداً وسؤدداً ... وهم طردوا عنا غواة بنى بكر

قال ابن إسحاق : ولما فرغ قصى من حربه ، انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه وإخوته من أبيه الثلاثة ؛ وهم : حُنّ ومحمود وجُلْهمة . قال رزاح فى إجابته قصياً :

ولما أتى من قصى رسولٌ ... فقال الرسول : أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقود الجيا ... د ونطرح عنا الملول الثقيلا
نسير بها الليلَ حتى الصبا ... ح ونَكمى [1] النهار لئلا نزولا
فهن سراع كورد القطا ... يجبن بنا من قصى رسولا
جمعنا من السر من أشمذَين [2] ... ومن كل حى جمعنا قبيلا

---

(١) نكمى : نكمن ونستتر . يقال : كمى نفسه ـ سترها بالدرع .
(٢) اسم لجبلين : وقيل : اسم قبيلتين .

فيالــك حلبـةَ ما ليلة ... تزيد على الألــف سيبـاً رســيلا
فلما مررن على عسجـر[1] ... وأســهـلن من مستـنـاخ سبيلا
وجـاوزن بالــركــن من ورقـان ... وجـاوزن بالــعــرج حياً حلولا
مررن على الحـلى ما ذقـنـه ... وعـالجـن من مرّ ليلاً طويلا
ندنى من العُــوذ[2] أفـلاءهـا ... إرادة أن يسـترقـن الـصـهـيلا
فلما انـتـهـينـا إلى مكـة ... أبـحـنـا الـرجـالَ قبيلا قبـيلا
نعـاورهــم[3] ثَمَّ حد الـسيوف ... وفى كل أوْب خلسنـا الـعـقـولا
نخبّــزهـم[4] بصـلاب النسـو ... ر خَبـز الـقَـوى الـعـزيز الـذليلا
قتـلنـا خزاعــةَ فى دارهـا ... وبـكـراً قتـلنـا وجـيلا فجـيلا
نفـينـاهـم من بلاد المـليـ ... ـك كما لا يحُلون أرضـاً سهـولا
فأصـبـح سبـيهـم فى الحـديد ... ومــن كل حى شفـينـا الـغـليلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حُنًّا ، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم . قال ابن إسحاق : وقال قصى بن كلاب فى ذلك :

أنـا ابـن العـاصمـين بنى لؤىٍّ ... بمـكـة منـزلى وبهـا ربـيت
إلى البـطحـاء قد علمت معـد ... ومَـروتهـا رضـيت بها رضـيت
فلسـت لغـالــبٍ إن لم تأثّـل ... بها أولاد قَيذر والـنـبـيت
رزاح ناصرى وبـه أسـامـى ... فلسـت أخـاف ضيما ما حييت

وقد ذكر الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعد ما نفى قصى خزاعة ، والله أعلم .

فصـــــــل

ثم لما كبر قصى فوض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه ؛ من رئاسات قريش وشرفها ؛

---

(١) اسم موضع .
(٢) العوذ : الحديثات النتاج ـ جمع عائذ . والأفلاء جمع فلو ، وهو المهر العظيم ، والبالغ سنة .
(٣) نتعاون عليهم بالضرب واحداً بعد واحد .
(٤) نسوقهم سوقاً شديداً .

ومن الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده ، وإنما خصصه بها كلها لأن بقية إخوته : عبد مناف وعبد الشمس وعبدا كانوا قد شرفوا فى زمن أبيهم ، وبلغوا فى قوتهم شرفاً كبيراً ، فأحب قصى أن يلحق بهم عبد الدار فى السؤدد فخصصه بذلك ، فكان إخوته لا ينازعونه فى ذلك . فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك ، وقالوا إنما خصص قصى عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه . وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصى ، فنحن أحق به ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، وانقسمت بطون قريش فرقتين : ففرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم ، وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك ، ووضعوا أيديهم عند الحلف فى جفنة فيها طيب ، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيِّبين [1] وكان منهم من قبائل قريش : بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث ابن فهر . وكان مع بنى عبد الدار : بنو مخزوم وبنو سهم ، وبنو جمح ، وبنو عدى ، واعتزلت بنو عامر بن لؤى ومحارب بن فهر الجميع ، فلم يكونوا مع واحد منهما . ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف ، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة فى بنى عبد الدار ، فانبرم الأمر على ذلك واستمر .

وحكى الأموى عن الأشرم عن أبى عبيدة قال : وزعم قوم من خزاعة أن قصياً لما تزوج حبى بنت حليل ، ونقل حليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حبى ، واستناب عنها أبا غُبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان بن قصى بن حارثة بن عمرو بن عامر ، فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق خمر وبعَود [2] فكان يقال : أخسر من صفقة أبى غبشان . ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصى فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان . ثم فوض قصى هذه الجهات التى كانت إليه ؛ من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار كما سيأتى تفصيله وإيضاحه . وأقر الإجازة من مزدلفة فى بنى عدوان ، وأقر النسىء فى فُقيم ، وأقر الإجازة - وهى النَّفْر - فى صوفه ، كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قصى أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبدا ، وتخمر ، وبرة وأمهم كلهم حُبّى بنت حُليل بن حُبْشيّة بن سلول بن كعب

---

(١) وكان رسول الله ﷺ من المطيبين .

(٢) العود : المسن من الإبل .

ابن عمرو الخزاعى ، وهو آخر من ولى البيت من خزاعة ، ومن يده أخذ البيت قصى كلاب . قال ابن هشام : فولد عبد مناف بن قصى أربعة نفر : هاشماً ، وعبد شمس ، والمطلب ـ وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ـ ونوفل بن عبد مناف ـ وأمه وافدة بنت عمرو المازنية ـ قال ابن هشام : وولد لعبد مناف أيضاً : أبو عمرو ، وتماضر ، وقلابة ، وحية ، وريطة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان .

قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب وأسداً وأبا صيفى ونضلة ، والشفا وخالدة وضعيفة ورقية وحية . فأم عبد المطلب ورقية ـ سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار ـ من المدينة ، وذكر أمهات الباقين . قال : وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة ، وهم : العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف لا عمران ، والزبير والحارث وكان بكر أبيه وبه كان يكنى ، وجحل ـ ومنهم من يقول حجل ـ وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره ، والمقوم وضرار وأبو لهب واسمه عبد العزى ، وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة . وذكر أمهاتهم إلى أن قال : وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء ـ إلا صفية ـ فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان .

قال : فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، ثم ذكر أمهاتها فأغرق ـ إلى أن قال : فهو أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقد تقدم حديث الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم » ، رواه مسلم . وسيأتى بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست ههنا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر جمل من الأحداث الواقعة فى زمن الجاهلية

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بنى إسماعيل ؛ طمعوا فيهم لأنهم أبناء

بناتهم . وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم . ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصى وبنيه ، واستمرار ذلك فى أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ ، فأقر تلك الوظائف على ما كانت .

باب ذكر جماعة مشهورين كانوا فى الجاهلية
خبر خالد بن سنان العبسى الذى كان فى زمن الفترة وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً ، والله أعلم

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التسترى ، حدثنا يحيى بن المعلى ابن منصور الرازى ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبى ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : « بنت نبى ضيعه قومه » . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى ابن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس قال : ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبى ضيعه قومه » . ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه . وكان قيس بن الربيع ثقة فى نفسه ، إلا أنه كان ردىء الحفظ ، وكان له ابن يدخل فى أحاديثه ما ليس منها ، والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثورى عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلا ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا المعلى بن مهدى الموصلى قال : حدثنا أبو عوانة عن أبى يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحرتين ، فقال له رجل من قومه [1] والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها ؟ فخرج خالد ومعه أناس من قومه [2] فيهم عمارة بن زياد فأتوها ، فإذا هى تخرج من شق جبل ، فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها ، فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعونى باسمى ، فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول : بدا بدا بدا كل هدى ، زعم ابن راعية المعزى أنى لا أخرج منها وثيابى بيدى ، حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم .

---

(١) هو عمارة بن زياد كما صرح به فى بعض المصادر .

(٢) قيل كان عدتهم ثلاثين .

فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد . قالوا : فادعوه باسمه ، قال : فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه . فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه ، فقال : ألم أنهكم أن تدعونى باسمى ؟ فقد والله قتلتمونى فادفنونى ، فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فانبشونى ، فإنكم تجدونى حياً . فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر ، فقلنا انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه . فقال لهم عمارة لا تنبشوه ، لا والله ! لاتحدث مضر أنا ننبش موتانا . وقد كان قال لهم خالد : إن فى عكن امرأته لوحين ، فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما ، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه . قال ولا يمسها حائض . فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما ، فأخرجتهما إليهم وهى حائض ، فذهب ما كان فيهما من علم .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : سئل عنه النبى ﷺ فقال : « ذاك نبى أضاعه قومه » . قال أبو يونس : قال سماك بن حرب ؛ إن ابن خالد بن سنان أتى النبى ﷺ فقال : مرحباً بابن أخى . فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبياً . والمرسلات التى فيها أنه نبى لا يحتج بها هاهنا ، والأشبه أنه كان رجلا صالحاً له أحوال وكرامات ؛ فإنه إن كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أولى الناس بعيسى ابن مريم أنا ؛ لأنه ليس بينى وبينه نبى » . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً ؛ لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) ، وقد قال غير واحد من العلماء : إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً فى العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ، الذى دعا به إبراهيم الخليل بانى الكعبة المكرمة التى جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعاً ، وبشرت به الأنبياء لقومهم ، حتى كان آخر من بشر به عيسى ابن مريم عليه السلام .

وبهذا المسلك بعينه يردّ ما ذكره السهيلى وغيره ؛ من إرسال نبى من العرب يقال له : شعيب بن ذى مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ، وأنه بعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صفوان فكذبوهما ، فسلط الله على العرب بخت نصر ، فنال منهم من القتل والسبى نحو ما نال من بنى إسرائيل ، وذلك فى زمن معد بن عدنان . والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم . وقد تقدم ذكر عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف فى أخبار خزاعة بعد جرهم .

ذكر حاتم الطائى أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدى بن أحزم بن أبى أحزم - واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء ، أبو سفَّانة الطائى ، والد عدى بن حاتم الصحابى . كان جواداً ممدوحاً فى الجاهلية ، وكذلك كان ابنه فى الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة ، وأخبار مستغربة فى كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمعة والذكر ؛ قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا عبيد بن واقد القيسى ، حدثنا أبو نصر - هو الناجى ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : ذكر حاتم عند النبى ﷺ فقال : « ذاك أراد أمراً فأدركه » ، حديث غريب . قال الدراقطنى : تفرد به عبيد بن واقد عن أبى نصر الناجى - ويقال إن اسمه حماد .

وقال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبى نصر الناجى وبين أبى نصر حماد ولم يسم الناجى ، ووقع فى بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبى نصر : شيبة الناجى ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن إسماعيل ، حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مرى بن قطرى عن عدى بن حاتم قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن أبى كان يصل الرحم ويفعل ويفعل ، فهل له فى ذلك ؟ يعنى من أجر . قال : « إن أباك طلب شيئاً فأصابه » ، وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريرى عن غندر عن شعبة عن سماك به . وقال : « إن أباك أراد أمراً فأدركه » - يعنى الذكر . وهكذا رواه أبو القاسم البغوى عن على بن الجعد عن شعبة به سواء . وقد ثبت فى الصحيح فى الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم ؛ منهم الرجل الذى ينفق ليقال إنه كريم ، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك فى الدنيا ، وكذا فى العالم والمجاهد .

وفى الحديث الآخر فى الصحيح ، أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، فقالوا له : كان يقرى الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » هكذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً ، المطعمين فى السنين الممحلة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنى أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العمانى ، حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الله الكوفى ، حدثنا ضرار بن صرد ، حدثنا عاصم بن حميد عن أبى حمزة الثمالى ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كميل بن زياد النخعى قال : قال على بن أبى طالب : يا سبحان الله ! ما أزهد كثيراً من الناس فى خير ! عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ؛ فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ـ لكان ينبغى له أن يسارع فى مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبيل النجاح . فقام إليه رجل وقال : فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين ! أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم ! وما هو خير منه . لما أتى بسبايا طيىء وقعت جارية حمراء لعساء زلفاء عيطاء [1] ، شماء الأنف معتدلة القامة والهامة ، درماء [2] الكعبين خدلجة الساقين ، لفاء الفخذين خميصة الخصرين ، ضامرة الكشحين مصقولة المتنين . قال فلما رأيتها أعجبت بها ، وقلت لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها فى فيئى ، فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت : يا محمد ! إن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ؛ فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسى العارى ويقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم طيىء . فقال النبى ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق » . فقام أبو بردة بن نيار فقال يا رسول الله ! والله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى عمر بن بكر عن أبى عبد الرحمن الطائى ـ هو القاسم بن عدى ، عن عثمان عن عركى بن حليس الطائى عن أبيه عن جده ـ وكان أخا عدى بن حاتم لأمه ، قال : قيل لنوار امرأة حاتم : حدثينا عن حاتم ، قالت كل أمره كان عجباً ؛ أصابتنا سنة حصت كل شىء ، فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء ، وضنت المراضع عن أولادها ، وراحت الإبل حَدباً حدابير [3] ما تَبضّ بقطرة ، وحلقت

---

(١) أى طويلة العنق .

(٢) أى لا تستبين كعوبها من اللحم ، يقال درم الكعب : وواراه اللحم حتى لم يظهر له حجم .

(٣) الحدباء : الدابة التى بدت حراقفها من الهزال ، والحدباء : الناقة الضامرة والتى ذهب سنامها والجمع حدابير .

المال . وإنا لفى ليلة صِنَّبرة بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تَضاغى الأصبية من الجوع ؛ عبد الله وعدى وسفانة ، فوالله إن وجدنا شيئاً نعللهم به . فقام إلى أحد الصبيان فحمله ، وقمت إلى الصبيّة فعللتها ، فوالله إن سكتا إلا بعد هدأة من الليل . ثم عدنا إلى الصبى الآخر فعللناه حتى سكت ، وما كاد ؛ ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل ، فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو فى حجرة والصبيان بيننا ، ثم أقبل علىّ يعللنى لأنام ، وعرفت ما يريد فتناومت ، فقال مالك أنمت ؟ فسكت ، فقال ما أراها إلا قد نامت ، ومابى نوم . فلما ادلهمّ الليل وتهورت النجوم ، وهدأت الأصوات وسكنت الرجل - إذ جانب البيت قد رفع فقال من هذا ؟ فولى حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنا . ثم عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة يا أبا عدى ، ما وجدت على أحد معولاً غيرك ، أتيتك من عند أصبية يتعاوَون عواء الذئاب من الجوع ، قال : أعجليهم على ، قالت النوار : فوثبت فقلت ماذا صنعت ؟ اضطجع ؛ والله لقد تضاغى أصبيتك فما وجدت ما تعللهم فكيف بهذه وبولدها ؟ قال اسكتى ؛ فوالله لأشبعنك إن شاء الله ، قالت : فأقبلت تحمل اثنين وتمشى جنبتيها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه فوجأ بحربته فى لبته ، ثم قدح زنده وأورى ناره ، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ، ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال دونك ، ثم قال ابعثى صبيانك فبعثتهم ، ثم قال : سوأة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم ؟ فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه ، والتفع فى ثوبه ، ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا ، والله ما ذاق مُزعة ، وإنه لأحوجهم إليه ، فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم وحافر .

وقال الدراقطنى : حدثنى القاضى أبو عبد الله المحاملى ، حدثنا عبد الله بن أبى سعد ، وحدثنا عثيم بن ثوابة بن حاتم الطائى عن أبيه عن جده قال : قالت امرأة حاتم لحاتم : يا أبا سفانة ! أشتهى أن آكل أنا وأنت طعاماً وحدنا ليس عليه أحد ، فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ ، وأمر بالطعام فهيىء وهى مرخاة ستورها عليه وعليها ، فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال :

فلا تطبخى قِدْرى وسترك دونهَا ... علىَّ إذن ما تطبخين حرام
ولكن بهذاك اليفاعِ فأوقدى ... بجزلٍ إذا أوقدت لا بضرامِ

قال ثم كشف الستور ، وقدم الطعام ودعى الناس فأكل وأكلوا ، فقالت ما أتممت لى ما قلت ، فأجابها فإنى لا تطاوعنى نفسى ، ونفسى أكرم علىَّ من أن يثنى على هذا وقد سبق لى السخاء ، ثم أنشأ يقول :

أمارس نفسى البخل حتى أعزَّها ... وأترك نفسَ الجود ما أستثيرها

ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنها ... إذا غاب عنها بعلُها لا أزورها
سيبلغُها خيري ويرجعُ بعلُها ... إليها ولم تقصر عليها ستورها

ومن شعر حاتم :

إذا مابت أشربُ فوقَ ريٍّ ... لسكر في الشراب فلا رويت
إذا مابت أختلُ عرسَ جاري ... ليخفيني الظلامُ فلا خفيت
أأفضح جارتي وأخون جاري ؟ ... فلا والله أفعلُ ما حييتُ

ومن شعره أيضاً :

ماضر جاراً لي أجاوره ... أن لا يكون لبابه ستُر
أغضي إذا ما جارتي برزتْ ... حتى يواري جارتي الخِدْرُ

ومن شعر حاتم أيضاً :

وما من شيمتي شتمُ ابنِ عمي ... وما أنا مخلفٌ من يرتجيني
وكلمة حاسد من غيرِ جُرم ... سمعتُ وقلتُ مري فانقذيني
وعابوها عليّ فلم تعبني ... ولم يعرقْ لها يوماً جبيني
وذي وجهين يلقاني طليقاً ... وليس إذا تغيَّبَ يأتسيني
ظفرت بعيبِه فكففتُ عنه ... محافظةً على حبي وديني

ومن شعره :

سلى البائس المقرورَ يا أمَّ مالك ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري ؟
أأبسطُ وجهي إنه أولُ القِرَى ... وأبذلُ معروفي له دون منكري

وقال أيضاً :

وإنك إن أعطيتَ بطنَك سؤْلَه ... وفرجَك - نالا منتهى الذمِّ أجمعا

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريري : حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدثنا أبو العباس المبرد ، أخبرني الثوري عن أبي عبيدة قال : لما بلغ حاتم طيىء قول المتلمس :

قليلُ المال تصلحُه فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ
وحفظُ المالِ خيرٌ من فناه ... وعسفٌ في البلادِ بغيرِ زادِ

قال : ماله ؟ قطع الله لسانه ؛ حمل الناس على البخل ، فهلا قال :

فلا الجودُ يُفنى المالَ قبل فنائه ... ولا البخل فى مالِ الشحيحِ يزيدُ
فلا تلتمسْ مالاً بعيشٍ مقترٍ ... لكلِّ غدٍ رزقٌ يعود جديدُ
ألم ترَ أن المالَ غادٍ ورائحٌ ... وأن الذى يعطيك غير بعيدِ

قال القاضى أبو الفرج : ولقد أحسن فى قوله : وأن الذى يعطيك غير بعيد ، ولو كان مسلماً لرجى له الخير فى معاده ، وقد قال الله فى كتابه : (واسألوا الله من فضله [1]) . وقال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان [2]) .

وعن الوضاح بن معبد الطائى قال : وفد حاتم الطائى على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ، ثم زوده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً ـ غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل ، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيىء ، فقالت : يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر ، فقال حاتم : هلم ! فخذوا ما بين يدى فتوزعوه ، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه ، فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته ، فقالت له : اتق الله وأبق على نفسك فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ، فأنشأ يقول :

قالت طريفةُ ما تُبقى دراهمَنا ... وما بنا سرفٌ فيها ولا خرقُ
إن يُفْنَ ما عندَنا فالله يرزقُنا ... ممن سوانا ولسنا نحنُ نرتزقُ
ما يألف الدرهمُ الكارى خرقتَنا ... إلا يمرُّ عليها ثم ينطلقُ
إنا إذا اجتمعتْ يوماً دراهمُنا ... ظلت إلى سبلِ المعروف تستبق

وقال أبو بكر بن عياش : قيل لحاتم هل فى العرب أجود منك ؟ فقال : كل العرب أجود منى ، ثم أنشأ يحدث . قال : نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة ، وكانت له مائة من الغنم ، فذبح لى شاة منها وأتانى بها ، فلما قرب إلى دماغها قلت : ما أطيب هذا الدماغ ! قال فذهب فلم يزل يأتينى منه حتى قلت قد اكتفيت ، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقى لا شىء له ، قيل فما صنعت به ؟ فقال : ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شىء ؟ قال : على كل حال ـ أعطيته مائة ناقة من خيار إبلى .

وقال محمد بن جعفر الخرائطى فى كتاب مكارم الأخلاق : حدثنا العباس بن الفضل الربعى ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيىء ، قالوا : كانت غنية بنت عفيف بن عمرو بن امرىء القيس ـ أم حاتم طيىء ، لا تمسك

---

(١) الآية : ٣٢ من سورة النساء .

(٢) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

شيئاً سخاء وجوداً ، وكان إخوتها يمنعونها فتأبى . وكانت امرأة موسرة ، فحبسوها فى بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع . ثم أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق ، فدفعوا إليها صِرمة [1] من مالها ، وقالوا استمتعى بها ، فأتتها امرأة من هوازن - وكانت تغشاها - فسألتها فقالت : دونك هذه الصِّرمة ، فقد والله مسنى من الجوع ما آليت ألا أمنع سائلا ، ثم أنشأت تقول :

لعمرى لقدماً عضنى الجوعُ عضةً ... فآليت أن لا أمنع الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمىَّ اليوم أعفنى ... وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعَا
فماذا ترون اليوم إلا طبيعةً ... فكيف بتركى يا ابنَ أمى الطبائعا

وقال الهيثم بن عدى ، عن ملحان بن عركى بن عدى بن حاتم عن أبيه عن جده ، قال : شهدت حاتماً يكيد بنفسه ، فقال لى : أى بنى ! إنى أعهد من نفسى ثلاث خصال : والله ما خاتلت جارة لريبة قط ، ولا أؤتمنت على أمانة إلا أديتها ، ولا أوتِى أحد من قبلى بسوء . وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا على بن حرب ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوى ، حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبى مسكين - يعنى جُعفر ابن المحرر بن الوليد - عن المحرر مولى أبى هريرة قال : مرَّ نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيىء ، فنزلوا قريباً منه ، فقام إليه بعضهم - يقال له أبو الخيبرى - فجعل يركض قبره برجله ، ويقول : يا أبا جعد أقرنا ، فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رمة وقد بليت . وأجنهم الليل ، فناموا فقام صاحب القول فزعاً يقول يا قوم ! عليكم بمطيكم ؛ فإن حاتماً أتانى فى النوم وأنشدنى شعراً وقد حفظته يقول :

أبا الخيبرىَّ وأنت امرؤ ... ظلومُ العشيرةِ شتَّامُها
أتيت بصحبك تبغى القِرَى ... لدى حفرةٍ قد صدت هامُها
أتبغى لى الذنبَ عند المبيـ ... ـتِ وحولك طيىء وأنعامُها
وإنا لنشبع أضيافَنا ... وتأتى المطىُّ فنعتامها

قال وإذا ناقة صاحب القول تكون عقيراً فنحروها ، وقاموا يشتوون ويأكلون . وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حياً وميتاً . قال : وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا ، فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملا ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبرى ؟ قال أنا ، قال إن حاتماً أتانى فى النوم فأخبرنى أنه قرى أصحابك ناقتك ، وأمرنى أن أحملك ، وهذا بعير فخذه ودفعه إليه .

---

(١) هى القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين .

ذكر شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ـ سيد بنى تيم ، وهو ابن عم والد أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وكان من الكرماء الأجواد فى الجاهلية المطعمين للمسنتين . وكان فى بدء أمره فقيراً مملقاً ، وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته ، وأهله وقبيلته ، وأبغضوه حتى أبوه ، فخرج ذات يوم فى شعاب مكة حائراً بائراً ، فرأى شقاً فى جبل فظن أن يكون به شىء يؤذى ، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه . فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه ، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغنى شيئاً ، فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان ، فكسره وأخذه ودخل الغار ، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ، ومنهم الحارث بن مضاض الذى طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب . ووجد عند رءوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم ، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شىء كثير ، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلم باب الغار . ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه ، وسادهَم وجعل يطعم الناس . وكلما قَلَّ ما فى يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع فممن ذكر هذا ـ عبد الملك بن هشام فى كتاب : [التيجان] ، وذكره أحمد بن عمار فى كتاب : [رى العاطش وأنس الواحش] . وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره ، ووقع فيها صغير فغرق . وذكر ابن قتيبة وغيره ـ أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَىٍّ [1] » ـ أى وقت الظهيرة . وفى حديث مقتل أبى جهل ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة فى ركبته ؛ فإنى تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان ، فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت ، فأثرها باق فى ركبته » ، فوجدوه كذلك وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقى اللبن حتى سمع قول أمية بن أبى الصلت :

ولقد رأيتُ الفاعلين وفعلَهم ... فرأيتُ أكرمَهم بنى الديان
البرُّ يلبَكُ بالشِّهادِ طعامُهم ... لا ما يعلِّلُنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفى بعير تحمل البر والشهد والسمن ، وجعل منادياً ينادى كل ليلة على ظهر الكعبة : أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان . فقال أمية فى ذلك :

---

(١) الصكة : شدة الهاجرة ، وتضاف إلى عمى ، رجل من العمالقة أغار على قوم فى ظهيرة فاجتاحهم .

له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق كعبتها ينادى
إلى ردحٍ من الشِّيْزَى ملاء ... لبابُ البرِّ يلبك بالشّهادِ

ومع هذا كله فقد ثبت فى الصحيح لمسلم أن عائشة قالت : « يا رسول الله ! إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : « لا - إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

ذكر امرىء القيس بن حجر الكندى
صاحب إحدى المعلقات

وهى أفخرهن ، وأشهرهن التى أولها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذكرى حبيب ومنزل

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا أبو الجهم عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » . وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون ؛ منهم بشر بن الحكم ، والحسن بن عرفة ، وعبد الله بن هارون - أمير المؤمنين - المأمون أخو الأمين ، ويحيى بن معين ، وأخرجه ابن عدى من طريق عبد الرزاق عن الزهرى به ، وهذا منقطع ورديء من وجه آخر عن أبى هريرة ، ولا يصح من غير هذا الوجه .

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حُجر - آكل المرار ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثورة بن مرتع بن معاوية بن كندة - أبو يزيد - ويقال أبو وهب ، ويقال أبو الحارث الكندى ، كان بأعمال دمشق ، وقد ذكر مواضع منها فى شعره ؛ فمن ذلك قوله :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسقط اللوى بينَ الدَّخول فَحَوْملِ
فتوضِح فالمقراةُ لم يعفُ رسمُها ... لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ

قال : وهذه مواضع معروفة بحوران . ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبى : حدثنى فروة بن سعيد بن عفيف بن معدى كرب عن أبيه عن جده ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن ، فقالوا : يا رسول الله ! لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس ، قال : وكيف ذاك ؟ قالوا : أقبلنا نريدك ، حتى إذا كنا

ببعض الطريق أخطأنا الطريق ، فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء ، فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر ؛ ليموت كل رجل منا فى ظل شجرة ، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع [1] على بعير ، فلما رآه بعضنا قال ـ والراكب يسمع :

ولما رأت أن الشريعةَ همُّها ... وأن البياضَ من فرائضها دامى
تَيَمَّمَت العينَ التى عند ضارج ... بفىء عليها الظل عَرْمَضُها [2] طامى

فقال الراكب : ومن يقول هذا الشعر ؟ وقد رأى ما بنا من الجهد ، قال قلنا امرؤ القيس ابن حُجر ، قال والله ما كذب ـ هذا ضارج عندكم ، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو خمسين ذراعاً ، فحبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس ؛ عليه العرمض يفىء عليه الظل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة ، شريف فى الدنيا خامل فى الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار » .

وذكر الكلبى : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بنى أسد حين قتلوا أباه ، فمر بتَبالة [3] وبها ذو الخَلُصة [4] ـ وهو صنم ، وكانت العرب تستقسم عنده ، فاستقسم فخرج القدح الناهى ، ثم الثانية ثم الثالثة كذلك ، فكسر القداح وضرب بها وجه ذى الخلصة وقال : عضضت بأير أبيك ، لو كان أبوك المقتول لما عوقتنى ، ثم أغار على بنى أسد فقتلهم قتلا ذريعاً . قال ابن الكلبى : فلم يستقسم عند ذى الخلصة حتى جاء الإسلام .
وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده فى بعض الحروب ويسترفده ، فلم يجد ما يؤمله عنده ، فهجاه بعد ذلك . فيقال إنه سقاه سماً فقتله ، فألجاه الموت إلى جنب قبر امرأة، عند جبل يقال له عسيب ، فكتب هنالك :

أجارتَنا إن المزارَ قريبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أجارتَنا إنا غريبان هٰهنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش ؛ فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيما لشأنها .

---

(١) أى يسرع .
(٢) العرمض كجعفر : الطحلب ، وصغار السدر والأراك .
(٣) بلد باليمن .
(٤) الخلصة ـ بالتحريك وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة .

فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع . فالأولى ـ لامرىء القيس بن حجر الكندى كما تقدم ، وأولها :

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقطِ اللوى بين الدَّخولِ فحَوْمَلِ

والثانية ـ للنابغة [1] الذبيانى : واسمه زياد بن معاوية ، ويقال زياد بن عمرو بن معاوية ابن ضِباب بن جابر بن يربوع بن غَيظ بن مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذبيان بن بَغيض ، وأولها :

يا دار مَيّة بالعلياءِ فالسندِ   أقوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ

والثالثة ـ لزهير بن أبى سُلمى ـ ربيعة بن رِياح المزنى ، وأولها :

أمن أمِّ أوفىَ دِمنة لم تكلَّم   بحَومانة الدَّراج فالمُتثلَّم

والرابعة ـ لطَرَفَة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عُكابَة بن صَعب بن على بن بكر بن وائل ، وأولها :

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثَهْمدِ   تلوحُ كباقى الوشْمِ فى ظاهرِ اليدِ

والخامسة ـ لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب ابن قُطَيعةَ بن عبس العبسى وأولها :

هل غادر الشعراءُ من مُتردَّمِ   أم هل عَرَفْتَ الدارَ بعدَ توَهُّمِ ؟

والسادسة ـ لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بنى تميم ، وأولها :

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروب   بُعَيد الشبابِ عَصرَ حانَ مشيبُ

والسابعة ـ ومنهم من لا يثبتها فى المعلقات وهو قول الأصمعى وغيره ـ وهى للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعصَعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عَيلان بن مضر ، وأولها :

عفت الديار محلُّها فمُقامُها   بمنًى تأبَّد غَولها فرِجامُها

---

(١) لقب بذلك لأنه كان أحسن الشعراء ديباجة شعر وأجزلهم بيتاً . ومعلقته هذه قالها للنعمان بن المنذر يعتذر عن وشاية بلغته عنه ويتنصل منها :

فأما القصيدة التى لا يعرف قائلها ـ فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعى والمبرد وغيرهم ـ فهى قوله :

هل بالطلول لسائل ردُّ ... أم هل لها بتكلمٍ عهد ؟

وهى مطولة وفيها معانى حسنة كثيرة [١] .

ذكر شىء من أخبار أمية بن أبى الصلت الثقفى كان من شعراء الجاهلية وقد أدرك زمن الإسلام

قال الحافظ ابن عساكر : هو أمية بن أبى الصلت عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان ـ ويقال أبو الحكم الثقفى ـ شاعر جاهلى ، قدم دمشق قبل الإسلام ، وقيل إنه كان مستقيما ، وأنه كان فى أول أمره على الإيمان ، ثم زاغ عنه . وإنه هو الذى أراده الله تعالى بقوله : ﴿ **واتلُ عليهمْ نبأَ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوينَ** [٢] ﴾ .

قال الزبير بن بكار : فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ـ أمية الشاعر ابن أبى الصلت ، واسم أبى الصلت : ربيعة بن وهب بن علاج بن أبى سلمة بن ثقيف . وقال غيره : كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم ، وقال عبد الرزاق قال الثورى : أخبرنى حبيب بن أبى ثابت ، أن عبد الله بن عمرو قال فى قوله تعالى :

---

(١) المشهور أن المعلقات السبع هى : لامرىء القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة وعنترة بن شداد .

والسادسة ـ لعمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقى خمور الأندرينا

والسابعة ـ للحارث بن حلزة اليشكرى ومطلعها :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

وزاد بعضهم معلقة للنابغة الذبيانى ومطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ... ماذا تحيون من نعم وأحجار

وأخرى لأعشى بكر ؛ ميمون بن قيس ومطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى وما ترد سؤالى ؟

(٢) الآية : ١٧٥ من سورة الأعراف .

﴿ واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ﴾ ـ هو أمية بن أبى الصلت . وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبى بكر الشافعى عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبى عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود ، قال : إنى لفى حلقة فيها عبد الله بن عمرو ، فقرأ رجل من القوم الآية التى فى الأعراف : ﴿ واتـلُ عليهم نبـأَ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخَ منها ﴾ ـ فقال هل تدرون من هو؟ فقال بعضهم : هو صيفى بن الراهب ، وقال آخر : بل هو بلعم رجل من بنى إسرائيل ، فقال : لا ! قال فمن ؟ قال هو أمية بن أبى الصلت . وهكذا قال أبو صالح الكلبى ، وحكاه قتادة عن بعضهم .

وقال الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا عبد الله بن شبيب الربعى ، حدثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومى ، حدثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفى ، حدثنى أبى عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه ، قال : خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجاراً إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سِفراً له يقرؤه علينا ، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فجاءوه وأكرموه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، وقال لى : هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى ، إليه يتناهى علم الكتـاب نسـأله ؟ قلت : لا إرب لى فيه ، والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره لأجدنّ منه . قال : فذهب وخالفه شيخ من النصارى ، فدخل علىَّ فقال ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ قلت لست على دينه ، قال وإن ؛ فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لى : أثقفى أنت ؟ قلت : لا ـ ولكن قرشى . قال فما يمنعك من الشيخ ؟ فوالله إنه ليحبكم ويوصى بكم . قال : فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه . فوالله ما نام ولا قام حتى أصبـح كئيبـاً حزيناً ، ساقطاً غبوقه على صبوحه ، ما يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت وهل بك من رحيل ؟ قال نعم ! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ، ثم قال فى الليلة الثالثة : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟ قلت وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك ؟ قال : أما إن ذلك لشىء لست فيه ؛ إنما ذلك لشىء وجلت منه من منقلبى . قلت وهل لك من منقلب ؟ قال : إى والله لأموتن ثم لأحيين . قلت : هل أنت قابل أمانتى ؟ قال على ماذا ؛ قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب . قال فضحك ثم قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق فى الجنة وفريق فى النار . قلت : ففى أيها أنت أخبرك صاحبك ؟ قال لا علم لصاحبى بذلك لا فىَّ ولا فى

نفسه . قال فكنا فى ذلك ليلتين يعجب منى وأضحك منه ، حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم ، فما جاء إلا بعد منتصف النهار . فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه ، فوالله ما نام ولا قام ، وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت بلى إن شئت ! فرحلنا كذلك وهو فى بثه وحزنه ليالى . ثم قال لى : يا أبا سفيان ! هل لك فى المسير لنتقدم أصحابنا ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيا صحر [1] . فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدثنى عن عتبة بن ربيعة ! أيجتنب المظالم والمحارم ؟ قلت : إى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إى والله ! قال وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟ قلت نعم ! قال فهل تعلم قريشاً أشرف منه ؟ قلت - لا والله لا أعلم ، قال أمحوج هو ؟ قلت لا - بل هو ذو مال كثير ، قال وكم أتى عليه من السن ؟ فقلت قد زاد على المائة ، قال فالشرف والسن والمال أزرين به ؟ قلت ولم ذاك يزرى به ؟ لا - والله بل يزيده خيراً ، قال هو ذاك . هل لك فى المبيت ؟ قلت لى فيه ، قال فاضطجعنا حتى مر الثقل [2] قال فسرنا حتى نزلنا فى المنزل وبتنا به ، ثم ارتحلنا منه . فلما كان الليل قال لى يا أبا سفيان ! قلت ما تشاء ؟ قال هل لك فى مثل البارحة ؟ قلت هل لك فيه ؟ قال : نعم . فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هيا صحر ، هيه عن عتبة بن ربيعة . قال قلن هيهاً فيه ، قال أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إى والله إنه ليفعل ، قال وذو مال ؟ قلت وذو مال ، قال أتعلم قرشياً أسود منه ؟ قلت : لا - والله ما أعلم . قال كم أتى له من السن ؟ قلت قد زاد على المائة ، قال فإن السن والشرف والمال أزرين به ؟ قلت كلا - والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئاً فقله ، قال لا تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت . ثم قال : فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر ، قال هو رجل من العرب . قلت قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال من أهل بيت تحجه العرب . قلت وفينا بيت تحجه العرب ، قال هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت فإذا كان ما كان فصفه لى ، قال رجل شاب حين دخل فى الكهولة ؛

---

(١) أى نتحدث جهاراً ليس معنا أحد .

(٢) الثقل - محركة : متاع المسافر وحشمه .

بدو أمره ، يجتنب المظالم والمحارم ، ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة . أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة ، كلها فيها مصيبة ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

قال أبو سفيان : فقلت هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسناً شريفاً . قال أمية : والذى حلفت به ! إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول إن قول النصرانى حق . هل لك فى المبيت ؟ قلت نعم لى فيه ، قال فبتنا حتى جاءنا الثقل ، ثم خرجنا . حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان أدركنا راكب من خلفنا ، فسألناه فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

قال أبو سفيان : فأقبل على أمية فقال : كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟ قلت أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق . قال أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معى ، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ، ثم قدمت مكة فبينما أنا فى منزلى جاءنى الناس يسلمون علىّ ويسألون عن بضائعهم ، حتى جاءنى محمد بن عبد الله وهند عندى تلاعب صبيانها ، فسلم علىّ ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقامى ، ولم يسألنى عن بضاعته ، ثم قام . فقلت لهند : والله إن هذا ليعجبنى ، ما من أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها ، وما سألنى هذا عن بضاعته . فقالت لى هند : أو ما علمت شأنه ؟ فقلت وأنا فزع : ما شأنه ؟ قالت يزعم أنه رسول الله ، فوقذتنى وتذكرت قول النصرانى ، فرجفت حتى قالت لى هند مالك ؟ فانتبهت فقلت إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه ، قلت هذا هو الباطل . قال : وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بى قد لقيته ، فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا ، وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى ، فأبى علىّ ، وقال : إذن لا آخذها ، قلت فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومى ، فأرسل إلى بضاعته فأخذها ، وأخذت منه ماكنت آخذ من غيره .

قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية ابن أبى الصلت ، فقال لى يا أبا سفيان ما تشاء ؟ هل تذكر قول النصرانى ؟ فقلت أذكره وقد كان . فقال : ومن ؟ قلت محمد بن عبد الله ، قال ابن عبد المطلب ؟ قلت ابن عبد المطلب ثم قصصت عليه خبر هند ، قال فالله يعلم . وأخذ يتصبب عرقاً ثم قال : والله

يا أبا سفيان لعله ؛ إن صفته لهي . ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذراً . قال : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله ، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف ، فقلت يا أبا عثمان ! قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته ، فقال قد كان لعمري . قلت فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟ فقال والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً . قال أبو سفيان : وأقبلت إلى مكة ، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويُحقرون . قال أبو سفيان : فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة ؟ قال فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة .

وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به ، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول ، والله أعلم .

وقال الطبراني : حدثنا بكر بن أحمد بن نفيل ، حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري ، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدي ، حدثنا ليث بن سعد عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبي سفيان عن أبي سفيان ابن حرب : أن أمية بن أبي الصلت كان بغزة أو بإيلياء ، فلما قفلنا قال لي أمية : يا أبا سفيان هل لك أن نتقدم على الرفقة فنتحدث ؟ قلت نعم ! قال ففعلنا ، فقال لي يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة ، قلت : كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم ، قال وشريف مسن ؟ قلت : وشريف مسن . قال : السن والشرف أزريا به . فقلت له : كذبت ؛ ما ازداد سنا إلا ازداد شرفا . قال : يا أبا سفيان : إنها كلمة ما سمعت أحداً يقولها لي منذ تبصرت ، فلا تعجل علي حتى أخبرك . قال قلت هات ، قال إني كنت أجد في كتبي نبياً يبعث من حرتنا هذه ، فكنت أظن - بل كنت لا أشك - أني أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة . فلما أخبرتني بسنة عرفت أنه ليس به ؛ حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه . قال أبو سفيان : فضرب الدهر ضربته فأوحى إلى رسول الله ﷺ ، وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة ، فمررت بأمية فقلت له كالمستهزىء به : يا أمية ، قد خرج النبي الذي كنت تنعته ، قال أما إنه حق فاتبعه ، قلت ما يمنعك من اتباعه ؟ قال ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف ؛ إني كنت أحدثهن أني هو ، ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف . ثم قال أمية : كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته ، ثم قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الكلبي قال : بينا أمية راقد ومعه ابنتان له ، إذ

فزعت إحـداهما فصاحت عليه ، فقال لها ما شأنك ؟ قالت رأيت نسرين كشطا سقف البيت ، فنزل أحدهما إليك فشق بطنك ، والآخر واقف على ظهر البيت ، فناداه فقال أوَعَى ؟ قال نعم : قال أَزَكى ؟ قال لا . فقال ذاك خير أريد بأبيكما فلم يفعله .

وقد روى من وجه آخر بسياق آخر ؛ فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة ـ أخت أمية بن أبى الصلت ـ على رسول الله ﷺ بعد فتح الطائف ، وكانت ذات لب وعقل وجمال ، وكان رسول الله ﷺ بها معجباً ، فقال لها ذات يوم : يا فارعة ! هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فقال نعم ، وأعجب من ذلك ما قد رأيت .

قالت : كان أخى فى سفر ، فلما انصرف بدأنى فدخل علىّ ، فرقد على سريرى وأنا أحلق أديماً فى يدى ، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين ، فوقع أحدهما على الكوة ودخل الآخر فوقع عليه ، فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته ، ثم أدخل يده فى جوفه فأخرج قلبه فوضعه فى كفه ثم شمه ، فقال له الطائر الآخر : أوعَى ؟ قال وعَى ، قال أزَكَى ؟ قال أبى ، ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين ، ثم ذهبا ، فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته ، فقلت هل تجد شيئاً ؟ قال : لا ، إلا توهيناً فى جسدى ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال مالى أراكِ مرتاعة ؟ قالت فأخبرته الخبر ، فقال خير أريد بى ، ثم صرف عنى . ثم أنشأ يقول :

باتت همومى تسرى طوارقُها ... أكفُّ عينى والدمعُ سابقُها
مما أتانى من اليقين ولم ... أوت براة يقص ناطقُها
أم من تلظىَّ عليه واقدةُ النـ ... ـار محيطٌ بهم سرادقُها
أم أسكن الجنةَ التى وعد الـ ... ـأبرارَ مصفوفة نمارقُها
لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ ... ـأعمالُ لا تستوى طرائقها
هما فريقان فرقة تدخل الجنـ ... ـنةَ حفَّت بهم حدائقُها
وفرقة منهم قد أُدخلت النـ ... ـارَ فساءتهم مرافقُها
تعاهدت هذه القلوبُ إذا ... همت بخيرٍ عاقت عوائقُها
وصدها للشقاءِ عن طلب الـ ... ـجنةِ دنيا الله ماحقُها
عبد دعا نفسَه فعاتَبها ... يعلمُ أن البصيرَ رامقُها
ما رغّب النفس فى الحياة وإن ... تحيا قليلا فالموتُ لاحقُها

يوشك من فرَّ من منيته ... يوماً على غرةٍ يوافقُها
إن لم تمتْ عبطةً تَمُت هرماً ... للموتِ كأسٌ والمرءُ ذائقُها

قالت : ثم انصرف إلى رحله ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى طعن فى حيازته ، فأتانى الخبر فانصرفت إليه فوجدته منعوشاً قد سجى عليه ، فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره ، ونظر نحو السقف ورفع صوته وقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما ؛ لا ذو مال فيفدينى ، ولا ذو أهل فيحمينى . ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقلت قد هلك الرجل ، فشق بصره نحو السقف فرفع صوته فقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما ؛ لا ذو براءة فأعتذر ، ولا ذو عشيرة فأنتصر . ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف فقال : لبيكما لبيكما ، ها أنا ذا لديكما ؛ بالنعم محفود وبالذنب محصود . ثم أعمى عليه إذ شهق شهقة فقال : لبيكما لبيكما . ها أنا ذا لديكما .

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأى عبد لك لا ألـمَّا

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاول دهراً ... صائر مرةً إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى قلال الجبال أرعى الوعولا

قالت ثم مات فقال رسول الله ﷺ : يا فارعة إن مثل أخيك « كمثل الذى آتاه الله آيته فانسلخ ، منها . . » . وقد تكلم الخطابى على غريب هذا الحديث ، وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهرى أنه قال : قال أمية بن أبى الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرُنا ... ما بعدَ غايتنا من رأسِ مجرانا ؟

قال : ثم خرج أمية بن أبى الصلت إلى البحرين ، وتنبأ رسول الله ﷺ ، وأقام أمية بالبحرين ثمانى سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله ؟ قالوا يزعم : أنه نبى وهو الذى كنت تتمنى ، قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه ، فقال : يا بن عبد المطلب ، ما هذا الذى تقول ؟ قال أقول : إنى رسول الله وأن لا إله إلا هو . قال : إنى أريد أن أكلمك فعدنى غداً ، قال فموعدك غداً . قال فتحب أن آتيك وحدى أو فى جماعة من أصحابى ؟ وتأتينى وحدك أو فى جماعة من أصحابك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أى ذلك شئت » قال : فإنى آتيك فى جماعة ، فأت فى جماعة . قال فلما كان الغد غدا أمية فى جماعة من قريش ، قال وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا فى

ظل الكعبة . قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر ، حتى إذا فرغ الشعر ، قال أجبني يا ابن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : (**بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والْقُرآنِ الْحَكِيم**) ، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه ، قال فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية ؟ قال أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتبعه ؟ قال حتى أنظر فى أمره . قال : ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً ، ثم ترجل يريد رسول الله ﷺ ، فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريد ؟ قال أريد محمداً ، قال وما تصنع ؟ قال أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر ، قال : أتدرى من فى القليب ؟ قال لا . قال : فيه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال : فجدع أذنى ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

ما ذا ببدرٍ فالعقنـ ـقلِ من مرازبةٍ جَحَاجِحْ ؟ [1]

القصيدة إلى آخرها كما سيأتى ذكرها بتمامها فى قصة بدر إن شاء الله . ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام . ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم ، وأنشد شعره عند الوفاة .

كلُّ عيشٍ وإن تطاولَ دهراً صائرٌ مرةً إلى أن يزولاَ
ليتنى كنتُ قبلَ ما قد بدا لى فى قلالِ الجبالِ أرعَى الوُعولاَ
فاجعلْ الموتَ نصبَ عينيك واحذرْ غَوْلَةَ الدهرِ إن للدهرِ غُولاَ
نائلا ظفرها القساور والصد عان والطفلَ فى المنارِ الشكيلا
وبغاث النيافِ واليعفر النا فر والعوهج البرام الضَّئيلا

فقوله : القساور ـ جمع قسورة وهو الأسد ، والصدعان : ثيران الوحش ـ واحدهما صدع ، والطفل الشكل : ما فيه حمرة العين ، والبغاث : الرخم ، والنياف : الجبال ، واليعفر : الظبى ، والعوهج : ولد النعامة . يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحوش فى البرارى ، ولا الرخم الساكنة فى رءوس الجبال ، ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره . وقد تكلم الخطابى وغيره على غريب هذه الأحاديث .

---

(١) العقنقل : الوادى العظيم المتسع ، والكثيب المتراكم . والجحاجح جمع جحجح : وهو السيد .

وقد ذكر السهيلى فى كتابه [التعريف والإعلام] : أن أمية بن أبى الصلت أول من قال باسمك اللهم ، وذكر عند ذلك قصة غريبة ؛ وهى أنهم خرجوا فى جماعة من قريش فى سفر ، فيهم حرب بن أمية والد أبى سفيان ، قال فمروا فى مسيرهم بحية فقتلوها ، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم فى قتل تلك الحية ، ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها ، فذهبت وشردت كل مذهب ، وقاموا فلم يزالوا فى طلبها حتى ردوها . فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل ، فذهبوا فى طلبها ، فلما أعياهم ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج ؟ فقال : لا والله ، ولكن سأنظر فى ذلك . قال فساروا فى تلك المحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء ، إذا نار تلوح على بعد . فجاءوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً ، وإذا هو من الجان فى غاية الضآلة والدمامة ، فسلموا عليه ، فسألهم عما هم فيه ، فقال إذا جاءتكم فقولوا باسمك اللهم فإنها تهرب ، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال فى وجهها أمية : باسمك اللهم ، فشردت ولم يقر لها قرار . لكن عدت الجن على حرب ابن أمية فقتلوه بتلك الحية ، فقبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار . ففى ذلك يقول الجان :

وقـبـرُ حربٍ بمـكـانٍ قَفْـرِ ولـيسَ قُرْبَ قبـرِ حربٍ قبـرُ

وذكر بعضهم : أنه كان يتفرس فى بعض الأحيان فى لغات الحيوانات ؛ فكان يمر فى السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا ، فيقولون لا نعلم صدق ما تقول ، حتى مروا على قطيع قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها ، فالتفتت إليه فثغت كأنها تستحثه ، فقال : أتدرون ما تقول له ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول أسرع بنا لا يجىء الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول ، فأسرعوا حتى سألوا الراعى : هل أكل له الذئب عام أول حملا بتلك البقعة ؟ فقال نعم . قال : ومر يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو ، فقال : إنه يقول لها إنك رحلتينى وفى الحِداجة مخيط ، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال .

وذكر ابن السكيت : أن أمية بن أبى الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب ، فقال له : بفيك التراب ـ مرتين ، فقيل له ما يقول ؟ فقال : إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذى فى يدك ثم تموت . ثم نعب الغراب فقال إنه يقول : وآية ذلك أنى أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم فى حلقى فأموت . ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق فى حلقة عظم فمات . فقال أمية : أما هذا فقد صدق فى نفسه ، ولكن سأنظر هل

صدق فىّ أم لا ؟ ثم شرب ذلك الكأس الذى فى يده ثم اتكأ فمات . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مهدى عن الثورى عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

* ألا كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ *

وكاد أمية بن بى الصلت أن يسلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا زكرياء بن إسحاق ، حدثنا إبراهيم بن ميسرة ـ أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لى : « أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت : نعم ! قال فأنشدنى » ، فأنشدته بيتاً ، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتاً ـ إيه ، حتى : أنشدته مائة بيت قال ثم سكت النبى ﷺ وسكت » . وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبى تميم بن ميسرة به . ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفى عن النبى ﷺ . وفى بعض الروايات ـ فقال رسول الله ﷺ : « إن كاد يسلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا حاتم بن أبى صفرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع ، عن الشريد الهمدانى وأخواله ثقيف قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ، فبينا أنا أمشى ذات يوم إذا وقع ناقة خلفى ، فإذا رسول الله ﷺ فقال : « الشريد ؟ فقلت : نعم ، قال ألا أحملك ؟ قلت بلى . وما بى من إعياء ، ولكنى أردت البركة فى ركوبى مع رسول الله ﷺ . فأناخ فحملنى فقال : أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ قلت نعم ! قال هات ، فأنشدته ـ قال أظنه قال ـ مائة بيت ، فقال عند الله علم أمية بن أبى الصلت » . ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب . فأما الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال فى أمية : « آمن شعره وكفر قلبه » ـ فلا أعرفه ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة ابن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شىء من شعره قال :

رجلٌ وثورٌ تحتَ رجلِ يمينِه ... والنَّسرُ للأخرى وليثٌ مُرصدُ
والشمسُ تبدو كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبحُ لونُها يَعتوِرَّدُ
تأبى فما تطلع لنا فى رِسْلِها ... إلا مُعذَّبةً وإلا تُجلدُ

فقال رسول الله ﷺ : صدق وفى رواية أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، يقول لها اطلعى اطلعى ، فتقول لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فإذا همت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها ، فتطلع بين قرنيه وتحرقه . فإذا تضيفت للغروب عزمت لله عز وجل ، فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود ، فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولا .

ومن شعره فى حملة العرش :

فمن حامل إحدى قوائم عرشِه ... ولولا إلهُ الخلق كَلُّوا وأبلدوا

قيامٌ على الأقدامِ عانونَ تحته ... فرائصُهم من شدةِ الخوفِ ترعدُ

رواه ابن عساكر . وروى عن الأصمعى أنه كان ينشد من شعر أمية :

مجدوا الله فهو للمجدِ أهلٌ ... ربنا فى السماءِ أمسى كبيرا

بالبناءِ الأعلى الذى سبق النـ ... ـاسَ وسَوَّى فوقَ السماءِ سريرا

شَرجَعاً يناله بصرُ العيـ ... ـنِ ترى دونَه الملائكَ صُورَا

ثم يقول الأصمعى : الملائك ـ جمع ملك ، والصور ـ جمع أصور ، وهو المائل العنق . وهؤلاء حملة العرش . ومن شعر أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمى :

أأذكرُ حاجتى أم قد كفانى ... حياؤُك إن شيمتَك الحياءُ

وعلمك بالحقوقِ وأنت فرعٌ ... لك الحسبُ المهذبُ والسناءُ

كريمٌ لا يغيره صباحٌ ... عن الخلقِ الجميلِ ولامساءُ

يبارى الريحَ مكرمةً وجوداً ... إذا ما الكلبُ أجحره الشتاءُ

وأرضُك أرض مكرمةٍ بنتها ... بنو تيْمٍ وأنت لها سماءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه منْ تَعَرُّضِه الثناءُ

وله فيه مدائح أخر . وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدَّحين المشهورين ، وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره ؛ من عرض حافتها وكثرة طعامها . وكان يملؤها لباب البر يلبك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب . وقد سألت عائشة النبى ﷺ أينفعه ذلك ؟ فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » ومن شعر أمية البديع :

لا ينكثون الأرضَ عند سؤالِهم ... كتطلب العلاتِ بالعيدانِ

بل يسفرون وجوهَهم فترى لَها ... عندَ السؤالِ كأحسنِ الألوانِ

وإذا المقلُّ أقام وسطَ رحالِهم ردوه رَبَّ صواهلٍ وقيانِ
وإذا دعوتهمُ لكلِّ مُلِمَّةٍ سدوا شعاعَ الشمسِ بالفرسانِ

بحيـــــرا الراهـــــب

هو الذى توسم فى رسول الله ﷺ النبوة ، وهو مع عمه أبى طالب حين قدم الشام فى تجار من أهل مكة ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ؛ فرأى الغمامة تظله من بينهم ، فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتى بيان ذلك فى السيرة . وقد روى الترمذى فى ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك ، وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات فى ترجمة بحيرا . ولم يورد ما رواه الترمذى وهذا عجب .

وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفر [1] بينها وبين بصرى ستة أميال ، وهى التى يقال لها : « دير بحيرا » . قال ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها « منفعة » بالبلقاء وراء زيرا ، والله أعلم .

ذكـر قـس بـن سـاعـدة الإيـادى

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى ـ فى كتاب هواتف الجان : حدثنا داود القنطرى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى أبو عبد الله المشرقى عن أبى الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلى عن عبادة بن الصامت ، قال : لما قدم وفد إياد على النبى ﷺ قال : « يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادى ؟ » ؟ قالوا : هلك يا رسول الله . قال : « لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدنى أحفظه » . فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فسر النبى ﷺ بذلك ، قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكل شىء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج . نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم . تُركوا فناموا ؟ أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه ؛ إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا.. ثم أنشأ يقول :

---

(١) فى القاموس ـ كفرية كطبرية : بلد بالشام .

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مواردا للموتِ ليس لها مصادرْ
ورأيتُ قومي نحوَها يمضي الأصاغرُ والأكابرْ
لا من مضَى يأتي إليك ولا من الباقين غابرْ
أيقنتُ أني لا محالة حيثُ صارَ القومُ صائرْ

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه . وقد رواه الطبراني من وجه آخر ، فقال في كتابه المعجم الكبير : حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي ، حدثنا محمد بن حسان السهمي ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس . قال : قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي ؟ » قالوا : كلنا يعرفه يا رسول الله . قال « فما فعل ؟ » قالوا هلك قال : « فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر ، وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس : اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقاً ؛ لئن كان في الأمر رضى ليكونن بعده سخط . إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُركوا فناموا ؟ » . ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟ فأنشده بعضهم :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مواردا للموتِ ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوَها يسعى الأصاغرُ والأكابرْ
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غابرْ
أيقنتُ أني لا محالة حيثُ صارَ القومُ صائرْ

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتاب دلائل النبوة ؛ من طريق محمد بن حسان السلمي به وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستوريه في أخبار قس . قال : حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعاقولي عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج عن إبراهيم الواسطي نزيل بغداد ـ ويعرف بصاحب الفريسة ، وقد كذبه يحيى بن معين ، وأبو حاتم الرازي والدارقطني ، واتهمه غير واحد ؛ منهم ابن عدي ـ بوضع الحديث . وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج . هذا ورواه ابن

درستوريه وأبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وهذه الطريق أمثل من التى قبلها ، وفيه أن أبا بكر هو الذى أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدى رسول الله ﷺ . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الحطمى ، حدثنا على بن الحسين بن محمد المخزومى ، حدثنا أبو حاتم السجستانى ، حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس ، قال : قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعل حليف لكم يقال له قس بن ساعدة الأيادى ؟ » ، وذكر القصة مطولة .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبى طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً قال : أجاز لنا جعفر بن على الهمدانى قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى سماعاً ، وقرأت على شيخنا الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، أخبرنا أبو على الحسن بن على بن أبى بكر الخلال سماعاً قال : ثنا جعفر بن على سماعاً ، قال ثنا السلفى سماعاً ، ثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد إبراهيم الرازى ، ثنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدى ، ثنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن على المقرىء ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستوريه النحوى قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدى ـ قاضى فارس ـ حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائى من أهل حران ، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن إسحاق حدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدى نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالماً بسير الفرس وأقاويلها ، بصيراً بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال . وإنه قدم على النبى ﷺ وافداً فى رجال من عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان . فلما قدم على النبى ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبىَّ الهُدَى أتتك رجالٌ ... قطعتْ فدفداً وآلاً فآلا
وطوت نحوَك الصحاصحُ تهوى ... لا تعد الكلالَ فيك كلالا
كل بهماء قَصُرَ الطرفُ عنها ... أرقلتها قلاصُنا إرقالا
وطوتها العِتاقُ يجمحُ فيها ... بكماةٍ كأنجُمٍ تتلالا
تبتغى دفعَ بأسِ يومٍ عظيمٍ ... هائلٍ أوجع القلوبَ وهالا
ومزاداً لمحشر الخلق طُراً ... وفراقاً لمن تمادَى ضلالا
نحوَ نورٍ من الإله وبرهانٍ ... وبرٍّ ونعمةٍ أن تنالا

خصـك الله يا بنَ آمنـة الـخـ ـير بهـا إذ أتـت سِجَـالاً سِجَـالاَ
فاجعـلْ الحظَّ منـك يا حجةَ اللـ ـه جزيلاً لا حظ خلفَ أحـالا

قال فأدناه النبى ﷺ وقرب مجلسه ، وقال له : « يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك » . فقال الجارود : فداك أبى وأمى . أما من تأخر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة . وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك ، وإنى الآن على دين قد علمت به قد جئتك وأنا تاركه لدينك ، أفذلك مما يمحص الذنوب ، والمآثم والحوب ؟ ويرضى الرب عن المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية » . فقال الجارود : فداك أبى وأمى ! مد يدك ، فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم وأسلم معه أناس من قومه . فسر النبى ﷺ بإسلامهم . وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به .

ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال : « أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادى ؟ فقال الجارود : فداك أبى وأمى ! كلنا نعرفه ، وإنى من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يا رسول سبطاً من أسباط العرب ، عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار فى البرارى والقفار . يضج بالتسبيح على مثال المسيح ، لا يقره قرار ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمساح ويفوق السياح . ولا يفتر من رهبانيته ؛ يتحسى فى سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام . يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال . أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب . وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر فى الأقدار . وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء . ووصف البحار وعرف الآثار . وخطب راكباً ، ووعظ دائباً . وحذر من الكرب ، ومن شدة الغضب . ورسَّل الرسائل ، وذكر كل هائل . وأرغم فى خطبه ، وبين فى كتبه . وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفر . وشوق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية .

وهـو القـائل فى يوم عكاظ : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب . وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار . وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات . ونور

وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء ، تبًّا لأرباب الغفلة ؛ ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله . كلا بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ؛ أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيامعشر إياد ! أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ؛ إذا نفخ فى الصور ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهو القائل :

ذكر القلبُ من جواه ادِّكار ... وليال خلالهن نهارُ
وسجال هواطل من غمام ... ثُرن ماءً وفى جواهن نارُ
ضوؤها يطمسُ العيونَ وأرعا ... د شداد فى الخافقين تُطارُ
وقصور مشيدة حوت الخـ ... ـيرَ وأخرى خلتْ بهن قِفارُ
وجبالٌ شوامخ راسيات ... وبحار مياههنَّ غِزارُ
ونجوم تلوحُ فى ظُلم الليـ ... ـل نراها فى كلِّ يومٍ تدارُ
ثم شمس يحثها قمر الليـ ... ـل وكل متابع موَّار
وصغير وأشمط وكبير ... كلهم فى الصعيدِ يوماً مزار
وكبير مما يقصرُ عنه ... حدسه الخاطر الذى لا يُحارُ
فالذى قد ذكرت دلَّ على اللـ ... ـهِ نفوساً لها هُدًى واعتبارُ

قال : فقال رسول الله ﷺ : « مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا . وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ؛ من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام . إن فى السماء خبراً ، وإن فى الأرض عبراً ، يحار فيهن البصر . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تفور . ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ، ووزن القسطاس . أقسم قس قسما . لا كاذباً فيه ولا آثماً ؛ لئن كان فى هذا الأمر رضى ـ ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس ! إن لله ديناً

هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ » والتفت رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه قال : « أيكم يروى شعره لنا » ؟ فقال أبو بكر الصديق : فداك أبى وأمى ! أنا شاهد له فى ذلك اليوم حيث يقول :

فى الذاهبين الأوليـ ـن من القرونِ لها بصائرْ
لما رأيت مواردًا للموتِ ليس لها مصادرْ
ورأيتُ قومى نحوَها يمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لا يرجع الماضى إلـ ـىَّ ولا من الباقين غابرْ
أيقنتُ أنى لا محا لةَ حيث صار القومُ صائرْ

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ؛ عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد ما بين المنكبين فقال : فداك أبى وأمى ! وأنا رأيت من قس عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : « ما الذى رأيت يا أخا بنى عبد القيس ؟ » . فقال : خرجت فى شبيبتى أربع بعيراً لى ند عنى ، أقفو أثره فى تنائف قفاف [1] ذات ضغابيس [2] ، وعرصات جثجاث [3] بين صدور جذعان ، وغمير حَوذان [4] ، ومهمه ظلمان ، ورصيع أيهقان [5] ، فبينا أنا فى تلك الفلوات أجول بسهسبها ، وأرنق فدفدها ـ إذا أنا بهضبة فى نشزاتها أراك كباث مخضوضلة ، وأغصانها متهدلة ، كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان ، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة فى أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحاً ! فقال : وأنت فنعم صباحك . وقد وردت العين سباع كثيرة ، فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذى بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذى قبلك ، فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إلىّ فقال لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت ما هذان القبران ؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل بهذا

---

(١) أى مفازات ذات أحجار لا تخالطها سهولة .

(٢) أى حشائش وأشواك ، جمع ضغبوس .

(٣) الجثجاث : نبات ينبت فى السهول فى الربيع فإذا جاء الصيف جف ، والإبل تأكله إذا لم تجد غيره .

(٤) جذعان الجبل : صغارها ، والحوذان : نبت .

(٥) عشب يطول ، عريض الورق يؤكل ، وقيل هو الجرجير البرى .

الموضع ، فأنا مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم فى خيرهم وتباينهم على شرهم ؟ فقال لى : ثكلتك أمك ، أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ؟ ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول :

خليليَّ هبّا طالماً قد رقدْتُما ... أجدكما لا تقضيان كراكما
أرى النومَ بين الجلدِ والعظمِ منكما ... كأن الذى يُسقى العقارَ سَقَاكُمَا
أمن طولِ نومٍ لا تجيبان داعياً ؟ ... كأن الذى يسقى العقارَ سقاكما
ألم تعلما أنى بنجرانَ مفرداً ... ومالى فيه من حبيب سواكُما ؟
مقيم على قبريْكما لستُ بارحاً ... إياب الليالى أو يجيبُ صداكما
أبكيكما طولَ الحياة وما الذى ... يرد على ذى لوعةٍ أن بكاكما
فلو جُعلت نفسٌ لنفسِ امرىءٍ فِدًى ... لجدتُ بنفسى أن تكونَ فداكُمَا
كأنما والموتُ أقربُ غايةٍ ... بروحى فى قبريْكما قد أتاكما

قال : فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله قساً ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده » . وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه ، وهو مرسل ـ إلا أن يكون الحسن سمعه من الجارود ، والله أعلم .

وقد رواه البيهقى والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر ، من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن سعيد القرشى الإخبارى ، ثنا أبى ، ثنا على بن سليمان بن على عن على بن عبد الله عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : قدم الجارود بن المعلى ، فذكر مثله أو نحوه مطولا بزيادات كثيرة فى نظمه ونثره ، وفيه ما ذكره عن الذى ضل بعيره فذهب فى طلبه قال : فبت فى واد لا آمن فيه حتفى ، ولا أركن إلى غير سيفى ، أرقب الكوكب ، وأرمق الغيهب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بى هاتف يقول :

يا أيها الراقدُ فى الليلِ الأجمْ ... قد بعث الله نبياً فى الحرمْ
من هاشمٍ أهلَ الوفاءِ والكرمْ ... يجلو دجياتِ الدياجى والبهم

قال فأدرتُ طرفى فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً ، قال فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتفُ فى داجى الظلمْ ... أهلا وسهلا بك من طيفٍ أَلَمْ
بيِّن هداك الله فى لحنِ الكلمْ ... ماذا الذى تدعو إليه يغتنمْ

قال : فإذا أنا بنحنحة وقائل يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، وبعث الله محمداً بالحبور ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطرف الأحور ، صاحب قول شهادة أن لا إله إلا الله . وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض ، أهل المدر والوبر . ثم أنشأ يقول :

الحمدُ لله الذى لم يخلق الخلقَ عَبَثْ
لم يخلنا يوما سُدًى من بعدِ عيسى واكترثْ
أرسل فينا أحمداً خيرَ نبىٍّ قد بُعثْ
صلى عليه الله ما حج له ركب وحث

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة :

يا ناعىَ الموت والملحود فى جَدَثٍ عليهم من بقايا قولهم خرقُ
دعهم فإن لهمْ يوماً يُصَاحُ بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم أرقوا
حتى يعودوا بحالٍ غيرِ حالِهِمُ خلقاً جديداً كما من قبله خَلقوا
منهم عراةٌ ومنهم فى ثيابهم منها الجديد ومنها المنهج الخَلِقُ

ثم رواه البيهقى عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهانى ، حدثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الأخميمى بمكة . حدثنا القاسم بن عبد الله بن مهدى ، حدثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومى ، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى حمزة الثمالى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، فذكر القصة وذكر الإنشاد . قال : فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها :

يا ناعى الموت والأموات فى جدثٍ عليهمُ من بقايا نومهم خرقُ
دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم كما تنبه من نوماته الصَّعِقُ
منهم عراةٌ وموتى فى ثيابهم منها الجديدُ ومنها الأزرقُ الخَلِقُ

فقال رسول الله ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لقد آمن قس بالبعث » . وأصله مشهور ، وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقد تكلم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع فى هذا الحديث ، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى ، وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه فى الحواشى .

وقال البيهقى : أنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعيثى ، حدثنا أبو عمرو بن أبى طاهر

المحمد آباذي لفظا ، حدثنا أبو لبابة محمد بن المهدى الأموردى ، حدثنا أبى ، حدثنا سعيد ابن هبيرة ، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس بن مالك قال : قدم وفد إياد على النبى ﷺ فقال : « ما فعل قس بن ساعدة ؟ » قالوا : هلك . قال : « أما إنى سمعت منه كلاماً أرى أنى أحفظه » ، فقال بعض القوم : نحن نحفظه يا رسول الله ، قال هاتوا : فقال قائلهم : إنى واقف بسوق عكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، أرى الناس يموتون ولا يرجعون . أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم قس قسما بالله لا آثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولـــين من القرونِ لنا بصائرْ
لما رأيتُ مصارعًا للقومِ ليس لها مصادرْ
ورأيتُ قومى نحوَها يمضى الأكابرُ والأصاغرْ
أيقنتُ أنى لا محالَةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ

ثم ساقه البيهقى من طرق أخر قد نبهنا عليها فيما تقدم ، ثم قال بعد ذلك كله : وقد روى هذا الحديث عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان . وروى من وجه آخر عن الحسن البصرى منقطعاً ، وروى مختصراً من حديث سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة . قلت : وعبادة بن الصامت كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم فى كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطى عن أبى الوليد طريف بن عبيد الله مولى على بن أبى طالب بالموصل ، عن يحيى بن عبد الحميد الحمانى عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره . وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبى وقاص . ثم قال البيهقى : وإذا روى الحديث من أوجه أخر ـ وإن كان بعضها ضعيفاً ـ دل على أن للحديث أصلا ، والله أعلم .

ذِكْر زيدِ بن عمرو بن نُفَيْل رضى الله عنــه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى . وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه ؛ وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نفيل

أخوه الخطاب ، قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق . وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم ، وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده . قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيدَ بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ! والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم إنى لو أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على راحلته . وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به ، وزاد : وكان يصلى إلى الكعبة ويقول : إلـهى إلـه إبراهيم ، ودينى دين إبراهيم . وكان يحيى الموءودة ، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ؛ ادفعها إلىَّ أكفلها ، فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها . أخرجه النسائى من طريق أبى أسامة وعلقه البخارى فقال : وقال الليث : كتب إلى هشام ابن عروة عن أبيه به .

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش : زيد بن عمرو ابن نفيل ، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان ابن أسعد بن أسد بن خزيمة ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب ، وأخته زينب بنت جحش التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتى بيانه - حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم : تعلمنّ والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم ، فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها ليهتدوا إلى الحنيفية دين إبراهيم .

فأما وَرقة بن نوفل فتنصر واستحكم فى النصرانية ، وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها ، إلا دين الحنيفية دين إبراهيم ؛ يوحد الله ويخلع من دونه ، ولا يأكل ذبائح قومه . فأذاهم بالفراق لما هم فيه . قال : وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ، ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم ، فقال لهم لا تتركوه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم . فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم ، أو

يتابعه أحد إلى ما هو عليه . وقال موسى بن عقبة : سمعت من أرضى يحدث عن زيد ابن عمرو بن نفيل ، كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ؛ لم تذبحوها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

وقال يونس عن ابن إسحاق : وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل ، قد عزم على الخروج من مكة ، فضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم ، وكانت امرأته صفية بنت الحضرمى كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل . فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه ، ولم يزل فى ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها ، حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ؛ لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه . وقد كان شامَ اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما ، فخرج سريعاً ـ حين قال له الراهب ما قال ـ يريد مكة ، حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقة يرثيه :

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرٍو وإنما ... تجنبْت تنُّوراً من النارِ حَامِيَا
بدينك ربًّا ليس ربٌّ كمثله ... وتركك أوثانَ الطواغى كما هيا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربِّه ... ولو كان تحتَ الأرضِ سبعين وَادِيَا

وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الوابشى ، حدثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل ، أنه كان يتأله فى الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلا من اليهود ، فقال له : أحب أن تدخلنى معك فى دينك ، فقال له اليهودى : لا أدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من غضب الله ، فقال من غضب الله أفر ؟ فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له أحب أن تدخلنى معك فى دينك ، فقال : لست أدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من الضلالة ، فقال من الضلالة أفر ؟ قال له النصرانى فإنى أدلك على دين إن تبعته اهتديت ، قال أى دين ؟ قال دين إبراهيم . قال : فقال اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم ؛ عليه أحيا وعليه أموت . قال فذكر شأنه للنبى ﷺ فقال : « هو أمة وحده يوم القيامة » .

وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا ، وقال محمد بن سعد : حدثنا

على بن محمد بن عبد الله بن سيف القرشى عن إسماعيل عن مجالد عن الشعبى عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما ، فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيت راهباً فى صومعة ، فذكرت له اغترابى عن قومى وكراهتى عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية فقال لى : أراك تريد دين إبراهيم ، يا أخا أهل مكة ! إنك لتطلب ديناً ما يوجد اليوم أحد يدين به ، وهو دين أبيك إبراهيم ؛ كان حنيفاً ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلادك ، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله . وقال يونس عن ابن إسحاق : حدثنى بعض آل زيد بن عمرو ابن نفيل : أن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال : لبيك حقاً حقا : تعبداً ورقا .

عُذتُ بما عاذَ به إبراهمْ مستقبل القبلةِ وهو قائمْ

إذ قال :

إلٰهى أنفى لك عان راغِمْ مهما تجشِّمنى فإنى جاشِمْ
البر أبغى لا الخالْ ليس مهجِّرٌ كمنْ قَالْ [١]

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى عن أبيه عن جده : أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو : من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال وما تلتمس ؟ قال ألتمس الدين . قال ارجع فإنه يوشك أن يظهر فى أرضك . قال : فأما ورقة فتنصر ، وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقنى فرجع وهو يقول :

لبيك حقّاً حَقّا ، تعبداً ورِقّا البر أبغى لا الخالْ ، فهل مهجّرٌ كمن قَالْ [١]

آمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول : أنفى لك عان راغم ، مهما تجشمنى فإنى جاشم ، ثم يخر فيسجد . قال : وجاء ابنه ـ يعنى سعيد بن زيد ـ أحد العشرة رضى الله عنه فقال : يا رسول الله : إن أبى كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال : « نعم ـ فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » . قال وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو : يا بن أخى ! أنا

---

(١) الخال : الخيلاء والكبر . والمهجر ـ من الهجر : وهو أشد الحر . وقال : من القيلولة .

لا آكل مما ذبح على النصب . وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمرو حدثنى أبو بكر ابن أبى سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبى مليكة عن حجر بن أبى أهاب ، قال : رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بُوَانة [١] بعد ما رجع من الشام وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدتين ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ولا أصلى له ، ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم بالأزلام ، وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبى فيقول : لبيك لا شريك لك ولا ند لك ، ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً .

وقال الواقدى : حدثنى على بن عيسى الحكمى عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ، ولا أرانى أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبى ، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه منى السلام ، وسأخبرك ما نعتُه حتى لا يخفى عليك . قلت : هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منها ، ويكرهون ما جاء به ، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره . فإياك أن تخدع عنه ، فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك وينعتونه مثل مانعته لك ، ويقولون لم يبق نبى غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وإقراءه منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا » . وقال البخارى فى صحيحه : [ذكر زيد بن عمرو بن نفيل] حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا فُضيل بن سليمان ، حدثنا موسى بن عقبة ، حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح [٢] قبل أن ينزل على النبى ﷺ الوحى ، فَقُدِّمت إلى النبى ﷺ سُفرة فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إنى لَستُ آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاةُ خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له .

---

(١) بوانة : هضبة وراء ينبع ، وماء لبنى عقيل .

(٢) واد غربى مكة لبنى فزارة .

قال موسى بن عقبة : حدثنى سالم بن عبد الله ـ ولا أعلمه إلا يحدث به عن ابن عمر ـ أن زيد بن عَمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتّبعه ، فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لَعلّى أن أدين دينكم فأخبرنى ، فقال إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله تعالى ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنَّى أستطيعه ؟ فهل تدلنى على غيره ؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد : وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم عليه السلام ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى ، فذكر مثله ، فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنَّى أستطيع ؟ فهل تدلنى على غيره ؟ قال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً ، قال وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . قال : وقال الليث : كتب إلىّ هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ! والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يحيى الموءودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها . انتهى ما ذكره البخارى .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبى بكر بن أبى داود عن عيسى بن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن أسماء ، فذكر نحوه . وقال عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء ، قالت : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش : إياكم والزنا فإنه يورث الفقر . وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جداً وفى بعضها نكارة شديدة . ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يبعث يوم القيامة أمة وحده » . فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى عن مجالد عن الشعبى عن جابر قال : سئل رسولِ الله ﷺ عن زيد بن عمرو ابن نفيل ـ أنه كان يستقبل القبلة فى الجاهلية ، ويقول : إلـهى إلـه إبراهيم ودينى دين إبـراهيم ويسجد . فقال رسول الله ﷺ : « يحشر ذاك أمة وحده بينى وبين عيسى ابن مريم » ، إسناده جيد حسن .

وقال الواقدى : حدثنى موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك

قال : سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال : توفى وقريش تبنى الكعبة قبل أن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ بخمس سنين ، ولقد نزل به وإنه ليقول : أنا على دين إبراهيم ، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله ﷺ . وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ ، فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل . فقال : « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم » ، قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه واستغفر له ، ثم يقول سعيد بن المسيب : رحمه الله وغفر له .

وقال محمد بن سعد عن الواقدى : حدثنى زكريا بن يحيى السعدى عن أبيه قال : مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بنى لخم فقتلوه بمكان يقال له « مَيفعة » ، والله أعلم .

وقال الباغندى عن أبى سعيد الأشج عن أبى معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين » : وهذا إسناد جيد وليس هو فى شىء من الكتب . ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ـ ما قدمناه فى بدء الخلق من تلك القصيدة :

إلى اللهِ أهدى مِدْحَتى وثنائِيَا ... وقَوْلاً رَضِيًّا لايَنِى الدهر باقِيَا
إلى الملكِ الأعْلَى الذى ليس فوقَه ... إلٰهٌ ولا ربٌّ يكونُ مُدانِيَا

وقد قيل إنها لأمية بن أبى الصلت [1] والله أعلم .

ومن شعره فى التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما :

وأسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحمل صَخْراً ثِقالاً
دَحَاها فلما استوتْ شدَّها ... سواءً وأرسى عليها الجبالاً
وأسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ ... له المُزْنُ تحملُ عَذْباً زُلالاً
إذا هى سِيقَتْ إلى بلدةٍ ... أطاعت فصبَّتْ عليها سِجَالاً
وأسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ ... له الريحُ تصرفُ حالاً فحالاً

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى هشام بن عروة قال : روى أبى أن زيد بن عمرو قال :

---

(١) ذكر ذلك ابن هشام وأتى على القصيدة .

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ ... أدينُ إذا تقسَّمتِ الأمورُ
عزلتُ اللاتَ والعُزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلِدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ... ولا صنمَىْ بنى عمرٍو أزورُ
ولا غنما[1] أدينُ وكان ربًّا ... لنا فى الدهرِ إذ حِلمى يسيرُ
عجبتُ وفى الليالى معجباتٌ ... وفى الأيام يعرِفُها البصيرُ
بأنّ الله قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنَهم الفجورُ
وأبقى آخرينَ ببرِّ قوم ... فيربلُ[2] منهمُ الطفلُ الصغيرُ
وبَيْنَا المرءُ يعثرُ ثابَ يوماً ... كما يتروَّحُ الغصنُ النضيرُ
ولكن أعبدُ الرحمنَ ربِّى ... ليغفرَ ذنبِىَ الربُّ الغفورُ
فتقوى الله ربِّكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبورُوا
ترى الأبرارَ دارَهم جِنانٌ ... وللكفارِ حاميةٌ سعيرُ
وخِزْى فى الحياةِ وإن يموتوا ... يُلاقَوْا ما تضيقُ به الصدورُ

هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة وقد رواه أبو القاسم البغوى عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبى الزناد قال : قال هشام ابن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عزلت الجنَّ والجنّانَ عنى ... كذلك يفعلُ الجَلِدُ الصبورُ
فلا العُزَّى أدينُ ولا ابنتَيْها ... ولا صَنَمَىْ بنى طسم أديرُ
ولا غنما أدينُ وكان رَبًّا ... لنا فى الدهر إذ حلمى صغيرُ
أربًّا واحداً أم ألفَ ربٍّ ... أدينُ إذا تقسَّمتِ الأمورُ
ألم تعلمْ بأن الله أفنَى ... رجالا كان شأنَهْم الفجورُ
وأبقى آخرين ببرِّ قوم ... فيربو منهمُ الطفلُ الصغيرُ
وبَيْنَا المرءُ يعثر ثابَ يوماً ... كما يتروَّحُ الغصنُ النضيرُ

قالت : فقال ورقة بن نوفل :

رشدْتَ وأنعمْتَ ابنَ عمرو وإنما ... تجنبتَ تَنُّوراً من النارِ حَامِيَا

---

(١) فى نسخة : ولا هبلا .

(٢) فيشب ويكبر ، وفى رواية : فيربو كما سيأتى .

لدينك رَبًّا ليس رب كمثله ... وتركك جنان الجبال كما هيا
أقول إذا أهبطت أرضاً مخوفةً ... حَنَانَيْكَ لا تُظهرْ عليَّ الأعَادِيَا
حَنَانَيْكَ إن الجنَّ كانت رجاءهم ... وأنتَ إلهى ربَّنا ورَجَائِيَا
لتدركن المرءَ رحمةُ ربِّه ... وإن كان تحتَ الأرضِ سبعين وَادِيا
أدين لربٍّ يستجيب ولا أرى ... أدين لمن لا يسمع الدهرَ واعيا
أقولُ إذا صلَّيت فى كلِّ بَيْعَةٍ ... تباركتَ قد أكثرتَ باسمِك دَاعِيَا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام ، هو وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش - فتنصروا - إلا زيدا فإنه لم يدخل فى شىء من الأديان ، بل بقى على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له ؛ متبعا ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه . وأما ورقة بن نوفل فسيأتى خبره فى أول المبعث . وأما عثمان ابن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر . وله خبر عجيب ذكره الأموى ؛ ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه ما لقى من قومه ، كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشا لحرب قريش ، فعزم على ذلك ، فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك ، لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل ، فكساه ابن جفنة قميصا مصبوغا مسموما فمات من سمه ، فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموى ، تركناه اختصارا . وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر شىء مما وقع من الحوادث فى زمن الفترة

فمن ذلك : بنيان الكعبة . وقد قيل : إن أول من بناه آدم ، وجاء فى ذلك حديث مرفوع عن عبد الله بن عمرو- وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف . وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام كما تقدم ، وكذلك رواه سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب قال : ثم تهدم فبنته العمالقة ، ثم تهدم فبنته جرهم ، ثم تهدم فبنته قريش . قلت : وسيأتى بناء قريش له ، وذلك قبل المبعث بخمس سنين ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقال الزهرى : كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم . وسيأتى ذلك كله فى موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة .

ذكر كعب بن لـــــــؤى

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة ، عن محمد بن طلحة التيمى ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبى سلمة ، قال : كان كعب بن لؤى يجمع قومه يوم الجمعة ، وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول : أما بعد فاسمعوا وتعلموا ، وافهمـوا واعلمـوا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتـاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر ، والروح وما يهيج إلى بلًى ، فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . فهل رأيتم من هالك رجع ؟ أو ميت نشر ؟ الدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم ، ثم يقول :

نهـار ولـيل كل يوم بحـادثٍ   سواء علينـا ليلُهـا ونـهـارُهَـا
يؤوبـان بالأحـداثِ حتى تَأَوَّبَـا   وبـالنعم الضـافى علينـا ستورُهـا
على غفلةٍ يأتـى الـنبىُّ محمـدٌ   فيخـبـر أخبـاراً صَدوقـاً خبيرُهَـا

ثم يقـول : والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر ، ويد ورجل لتنصبت [1] فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت بها إرقال العجل . ثم يقول :

يا ليتنى شاهـداً نجـواءَ دعوتـه   حين الـعشيرة تبغى الحقَّ خُذْلاَنَـا

قال : وكان بين موت كعب بن لؤى ومبعث رسول الله ﷺ ستون سنة .

ذكر تجديد حفر زمزم على يدى عبد المطلب بن هاشم وكان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه

قال محمد بن إسحق : ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى الحجر ، إذ أُتى فأمر بحفر زمزم . وكان أول ما ابتدىء به عبد المطلب من حفرها ـ كما حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى عن مرثد بن عبد الله المزنى عن عبد الله بن رزين الغافقى ـ أنه سمع على بن أبى طالب يحدث حديث زمزم ، حين أمر عبد المطلب بحفرها . قال : قال عبد المطلب : إنى

---

(١) تنصبت : وقفت وحمدت مرفوع الرأس . وأرقلت : أسرعت .

لنائم فى الحجر إذا أتانى آت فقال لى احفر طيبة . قال : قلت وما طيبة ؟ قال ثم ذهب عنى ، قال : فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر بَرَّة [1] . قال : قلت وما بَرة ؟ قال ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر المضنونة . قال : قلت وما المضنونة ؛ قال ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال احفر زمزم . قال : قلت وما زمزم ؟ قال : لا تُنزف [2] أبداً ولاتُذَم [3] ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .

قال : فلما بين لى شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صُدق ـ غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها . فلما بدا لعبد المطلب الطى كبرّ ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ! إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا فاعل ؛ إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم ، قالوا له فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أمية [4] وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز ، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه ، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم ، وقالوا إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت . فقال عبد المطلب : إنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا واحداً ؛ فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه . فقالوا : نعم ما أمرت به . فحفر كل رجل لنفسه حفرة ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى

---

(١) قيل : سميت طيبة ؛ لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم . وبرة ، لأنها فاضت على الأبرار . ومضنونة ؛ لأنه ضن بها على غير المؤمنين .

(٢) أى لا يفرغ ماؤها ولا تنزح .

(٣) أى لا يقل ماؤها . من قولهم : بئر ذمة وذميم وذميمة ـ قليلة الماء .

(٤) فى ابن هشام : من بنى أبيه من بنى عبد مناف .

لأنفسنا لعجز ، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد . فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبّر عبد المطلب وكبر أصحابه . ثم نزل فشرب وشرب أصحـابه ، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا قبائل قريش - وهم ينظرون إليهم فى جميع هذه الأحوال - فقال هلموا إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فجاءوا فشربوا واستقوا كلهم ، ثم قالوا قد والله قضى لك علينا ، والله ما نخاصمك فى زمزم أبداً . إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة - هو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبين زمزم .

قال ابن إسحـاق فهـذا ما بلغنى من حديث على بن أبى طالب فى زمزم . قال ابن إسحاق : وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادْعُ بالمـاءِ الـرِّوَى غيرِ الكَدِرْ يُسْقِـى حجيجَ الله فى كُلِّ مكبـر

ليس يُخاف منه شـىءٌ ما عمر

فقال : فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تعلموا أنى قد أمرت أن أحفر زمزم ، قالوا فهل بُيِّن لك أين هى ؟ قال : لا ! قالوا فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فإن يك حقاً من الله يبين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع ونام فأتى فقيل له : احفر زمزم ؛ إنك إن حفرتها لن تندم ، وهى من تراث أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تذم . تسقى الحجيج الأعظم مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لُمنعِم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفرث والدم .

قال ابن إسحاق : فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك - قال وأين هى ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدا ، فالله أعلم أى ذلك كان ؟ قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره - زاد الأموى - ومولاه أصرم ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين : إساف ونائلة ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها ، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش وقالت : والله لا نتركك تحفـر بين وثنينـا اللذين ننحر عندهما ، فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُدْ عنى حتى أحفر ، والله لأمضين لما أمرت به . فلما عرفوا أنه غير نازع - خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطى ، فكبر وعرف أنه قد صدق ، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب ، وهما اللتان كانت جرهم قد دفنتها ، ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعا . فقالت له قريش : يا عبد المطلب ! لنا معك فى هذا شرك وحق ، قال :

لا . ولكن هلم إلى أمر نصَف بينى وبينكم ؛ نضرب عليها بالقداح . قالوا وكيف نصنع ؟ قال أجعل للكعبة قِدْحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له . قالوا : أنصفت فجعل للكعبة قدحين أصفرين ، وله أسودين ، ولهم أبيضين . ثم أعطوا القداح للذى يضرب عند هبل ، وهبل أكبر أصنامهم . ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : أَعْلِ هُبَل [1] ـ يعنى هذا الصنم . وقام عبد المطلب يدعو الله . وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

اللهمَّ أنت الملكُ المحمودْ ربى أنت المبدىءُ المعيدْ
وممسك الراسيةَ الجلمودْ من عندك الطارفُ والتليدْ
إن شئتَ ألهمتَ كما تُريدْ لموضع الحليةِ والحديد
فبين اليوم لما تريد إنى نذرت العاهدَ المعهودْ

اجعله ربِّ لى فلا أعود

قال وضرب صاحب القداح [2] ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب . فكان أول ذهب حلية للكعبة ـ فيما يزعمون . ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج . وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم فى زمن عبد المطلب ، ثم عددها ابن إسحاق وسماها ، وذكر أماكنها من مكة وحافريها ـ إلى أن قال : فعفت زمزم على البئار كلها ، وانصرف الناس كلهم إليه لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم . وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب . وقد ثبت فى صحيح مسلم فى حديث إسلام أبى ذر : أن رسول الله ﷺ قال فى زمزم : « إنها لطعام طُعْم [3] وشفاء سقم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب منه » . وقد رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن المؤمل ، وقد تكلموا فيه ولفظه : « ماء زمزم لما شرب له » .

---

(١) أى أظهر دينك .

(٢) جمع قدح بكسر القاف وسكون الدال ـ وهو السهم الذى كانوا يستقسمون به .

(٣) أى طعام مشبع جيد .

ورواه سويد بن سعيد عن عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له » . ولكن سويد بن سعيد ضعيف ، والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد الله بن المؤمل كما تقدم . وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له » ، وفيه نظر ، والله أعلم .

وهكذا روى ابن ماجه أيضاً والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل : إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة ، واذكر اسم الله وتنفس ثلاثاً وتضلع منها ، فإذا فرغت فاحمد الله ؛ فإن رسول الله ﷺ قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم » . وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال : اللهم إنى لاأحلها لمغتسل وهى لشارب حلّ وبِل [1] . وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب ، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه ؛ فإنه هو الذى جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم .

وقد قال الأموى فى مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرنى يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن ابن حرملة ، سمعت سعيد بن المسيب يحدث : أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم ، قال : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبلّ . وذلك أنه جعل لها حوضين : حوضاً للشرب ، وحوضاً للوضوء . فعند ذلك قال : لا أحلها لمغتسل ؛ لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه . قال أبو عبيد قال الأصمعى : قوله : وبلّ - إتباع ، قال أبو عبيد والإتباع لا يكون بواو العطف ، وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان : إن « بل » بلغة حمير- مباح ، ثم قال أبو عبيد : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود - أنه سمع ذراً أنه سمع العباس يقول : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل ، وحدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة أنه سمع ابن عباس يقول ذلك ، وهذا صحيح إليهما ، وكأنهما يقولان ذلك فى أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام ، بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها ؛ فلا ينافى ما تقدم ، والله أعلم .

وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته ، ثم صارت إلى ابنه أبى طالب مدة . ثم اتفق أنه أملق فى بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر ، وصرفها أبو طالب فى الحجيج فى عامه فيما يتعلق بالسقاية ، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شىء ، فقال لأخيه العباس : أسلفنى أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام

---

(١) فى القاموس : والبل بالكسر : الشفاء والمباح ، ويقال : حل وبل ، أو هو إتباع .

المقبل أعطك جميع مالك ، فقال له العباس : بشرط إن لم تعطنى تترك السقاية لى أكفيكها ، فقال : نعم . فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب ما يعطى العباس ، فترك له السقاية فصارت إليه ، ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ، ثم إلى على بن عبد الله بن عباس ، ثم إلى داود بن على ، ثم إلى سليمان بن على ، ثم إلى عيسى بن على ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين ، ذكره الأموى .

ذكر نذر عبد المطلب ذَبْح أحد ولده

قال ابن إسحق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر ـ حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم ـ لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ـ ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم : الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو لهب ، والعباس ، وحمزة ، وأبو طالب ، وعبد الله ـ جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك فأطاعوه ، وقالوا كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قِدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل وكان على بئر فى جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان عند هبل قداح سبعة ؛ وهى الأزلام التى يتحاكمون إليها . إذا أعضل عليهم أمر ؛ من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاءوه فاستقسموا بها ، فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه .

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل ، خرج القدح على ابنه عبد الله ، وكان أصغر ولده وأحبهم إليه ، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله ، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ما تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه إخوة عبد الله : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ . وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق : أن العباس هو الذى اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه ، فيقال إنه شج وجهه شجًّا لم يزل فى وجهه إلى أن مات . ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز ؛ فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ، ثم أنت على رأس أمرك ؛ إن أمرتك بذبحه فاذبحه ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . فانطلقوا حتى أتوا المدينة ، فوجدوا العرافة وهى

سَجاح - فيما ذكره يونس عن بكير عن ابن إسحاق - بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ؛ فرجعوا من عندها . فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الإبل - وكانت كذلك - قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ؛ فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً ، فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله - حتى بلغت الإبل مائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب - وهو قائم عند هبل يدعو الله : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب .

فعندها زعموا أنه قال : لا - حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات ، فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل فنحرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع . قال ابن هشام : ويقال ولا سبع . وقد روى أنه لما بلغت الإبل مائة ، خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين ، فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب . والصحيح الأول ، والله أعلم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب : أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة ، فأمرها بذبح مائة من الإبل ، وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب . وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشىء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم - وهو أمير على المدينة - فقال إنهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ، ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان بذلك ، والله أعلم .

ذكر تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزُّهْرية

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله ، فمر به - فيما

يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهى أم قَتّال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ـ وهى عند الكعبة ، فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب يا عبد الله ؟ قال مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقَعْ عليَّ الآن . قال أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ، فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ـ وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ـ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ سيدة نساء قومها ، فزعموا أنه دخل عليها حين أُمْلِكها مكانه فوقع عليها ، فحملت منه برسول الله ﷺ . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عَرضت ، فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة . وكانت تسمع من أخيها ، ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكتب ـ أنه كائن فى هذه الأمة نبى ، فطمعت أن يكون منها ، فجعله الله تعالى فى أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل ، كما قال تعالى : ﴿ **اللهُ أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه** ﴾ (1) وسنذكر المولد مفصلا .

ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذى رامته ـ وذلك فيما رواه البيهقى من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله :

عليكَ بآلِ زُهْرَةَ حيث كانوا ... وآمنةَ التى حَمَلَتْ غُلَامَا
ترى المهدِيَّ حين نزا عليها ... ونوراً قد تقدمه أمامَا

إلى أن قالت :

فكلُّ الخلقِ يرجوه جميعاً ... يسودُ الناسَ مهتدياً إمَامَا
يراه اللهُ مَن نورٍ صفاه ... فأذهبَ نورُه عنا الظلامَا
وذلك صُنْعُ ربِّكَ إذ حباه ... إذا ما سار يوماً أو أَقَامَا
فيهدى أهلَ مكةَ بعد كفرٍ ... ويفرض بعد ذلكُمُ الصِّيَامَا

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى : حدثنا على بن حرب ، حدثنا محمد ابن عمارة القرشى ، حدثنا مسلم بن خالد الزنجى ، حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه ، مر به على كاهنة

---

(1) من الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام .

من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب ؛ يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله فقالت : يا فتى ! هل لك أن تقع علىَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله :

أمـا الحـرامُ فالممـاتُ دونَـهْ   والحِـلُّ لا حلّ فأستـبـينـهْ
فكيفَ بالأمـرِ الـذى تبغينَـهْ ؟   يَحمـى الكـريمَ عِرْضَـهُ ودينَـهْ

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فأقام عندها ثلاثاً . ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة ، فأتاها فقالت : ما صنعت بعدى ؟ فأخبرها ، فقالت : والله ما أنا بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت فى وجهك نوراً ، فأردت أن يكون فىّ وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد . ثم أنشأت فاطمة تقول :

إنـى رأيتُ مَخـيلةً لمـعـت   فتـلألأتْ بحـنـاتـم [١] القَـطرِ
فلَمـأتُـهـا [٢] نوراً يُضـىءُ له   ما حولَـه كإضـاءةِ البَـدْرِ
ورجـوتُـهـا فخـراً أبـوءُ به   ما كلُّ قادح زنـدَه يُورى
للهِ ما زُهـريّـةٌ سلبـتْ   ثَوبَـيْك ما استـلَبتْ ومـا تدرى !

وقالت فاطمة أيضاً :

بنى هاشم قد غادرتْ من أخيكُم   أمـينـةُ إذ للبـاهِ تعـتـركـانِ
كمـا غادر المصباح عندَ خموده   فَتـائـلَ قد مِيثتْ له بدِهَـانِ
وما كلُّ ما يحوى الفتى من تلادِه   بحـزمٍ ولا ما فاتَـه لِتـوانِـى
فأجمـلْ إذا طالبتَ أمـراً فإنـه   سيكـفـيه جدّان يعـتـلجَـانِ
سيكـفيكـه إمـا يد مُقـفعِلّة [٣]   وإمـا يد مبـسـوطـة ببـنـان
ولمـا حوت منـه أمينة ما حوت   حوت منـه فخـراً ما لذلـك ثان

وروى الإمام أبو نعيم الحافظ فى كتاب : [دلائل النبوة] من طريق يعقوب بن محمد الزهرى عن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون عن المسور بن مخرمة عن ابن عباس قال : إن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من

---

(١) الحناتم : السحائب السود .
(٢) لمأتها : أبصرتها ولمحتها .
(٣) قفعلت يده : تشنجت وتقبضت .

اليهود ، قال : فقال لى رجل من أهل الديور ـ يعنى أهل الكتاب ـ يا عبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم ـ إذا لم يكن عورة . قال ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ، ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكاً وفى الأخرى نبوة ، وإنا نجد ذلـك فى بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ، قال هل لك من شاعة ؟ قلت وما الشاعة ؟ قال زوجة [١] . قلت أما اليوم فلا ، قال فإذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب ، فولدت رسول الله ﷺ ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فَلَج [٢] ـ أى فاز وغلب ـ عبد الله على أبيه عبد المطلب .

---

(١) فى القاموس ـ الشاعة : الزوجة لمشايعتها الزوج .

(٢) الفلج بسكون اللام : الظفر والفوز .

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

كتـاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه وشمائله وفضائله ودلائله الدالة عليه

باب ذكر نسبه الشريف وطيب أصله المنيف

قال الله تعـالى : ﴿ اللهُ أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها - يعنى فى أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

فهـو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة : أبو القاسم وأبو إبراهيم ، محمد ، وأحمد ، والماحى الذى يمحي به الكفر ، والعاقب الذى ما بعده نبى ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، ونبى التوبة ، ونبى الملحمة ، وخاتم النبيين ، والفاتح ، وطه ، ويس ، وعبد الله .

قال البيهقى : وزاد بعض العلماء فقال : سماه الله فى القرآن رسولا ، نبياً ، أميناً ، شاهداً ، مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ورءوفاً رحيما ، ومذكراً ، وجعله رحمة ونعمة وهادياً .

وسنورد الأحاديث المروية فى أسمائه عليه الصلاة والسلام فى باب نعقده بعد فراغ السيرة ؛ فإنه قد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك ، اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران : أبو بكر البيهقى وأبو القاسم بن عساكر . وأفرد الناس فى ذلك مؤلفات ، حتى رام بعضهم أن يجمع له - عليه الصلاة والسلام - ألف اسم . وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربى المـالكى شارح الترمذى بكتابه الذى سماه الأحوذى ؛ فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسما ، والله أعلم .

وهو ابن عبد الله ، وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب ، وهو الذبيح الثانى المفدى بمائة من الإبل كما تقدم . قال الزهرى : وكان أجمل رجال قريش ، وهو أخو الحارث

والزبير وحمزة وضرار وأبى طالب ـ واسمه عبد مناف ، وأبى لهب ـ واسمه عبد العزى ، والمقوم ـ واسمه عبد الكعبة ، وقيل هما اثنان ، وحجل ـ واسمه المغيرة ، والغيداق وهو كبير الجود ـ واسمه نوفل ، ويقال إنه حجل . فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام . وعماته ست وهن : أروى ، وبرة ، وأميمة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم ـ وهى البيضاء . وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى . كلهم أولاد عبد المطلب ـ واسمه شيبة ؛ يقال لشيبة كانت فى رأسه ، ويقال له شيبة الحمد لجوده . وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة فى تجارته إلى الشام ، نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن جندب بن عدى ابن النجار الخزرجى النجارى ـ وكان سيد قومه ـ فأعجبته ابنته سلمى ، فخطبها إلى أبيها فزوجها منه ، واشترط عليه مقامها عنده ، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة . فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة ، فلما خرج فى تجارة أخذها معه وهى حبلى فتركها بالمدينة . ودخل الشام فمات بغزة ، ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة ، فأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين ، ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف ، فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة . فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة ، قالوا من هذا معك ؟ فقال عبدى . ثم جاءوا فهنأوه به وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه ، وساد فى قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورآستهم ، فكان جماع أمرهم عليه .

وكانت إليه السقاية والرفادة [1] بعد المطلب ، وهو الذى جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم ، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها ، من تينك الغزالتين من ذهب اللتين وجدهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية . قال ابن هشام : وعبد المطلب أخو أسد ونضلة وأبى صيفى وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة ، كلهم أولاد هاشم ـ واسمه عمرو . وإنما سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل ، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته ، وقيل للزبعرى والد عبد الله :

عمرُو الذى هَشَمَ الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتونَ [2] عِجَافُ
سنَّتْ إليه الرحلتان كِلاَهُما سفرُ الشتاءِ ورحلةُ الأصيافِ

---

(١) إطعام الحجيج .

(٢) المستون : الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة . وأسنتوا ـ أجدبوا . وأرض سنتة ومسنتة ـ لم تنبت .

وذلك لأنه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف ، وكان أكبر ولد أبيه . وحكى ابن جرير أنه كان توأم أخيه عبد شمس ، وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس ، فما تخلصت حتى سال بينهما دم ، فقال الناس بذلك يكون بين أولادهما حروب ، فكانت وقعة بنى العباس مع بنى أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة . وشقيقهم الثالث المطلب ، وكان المطلب أصغر ولد أبيه ـ وأمهم عاتكة بنت مرة بن علال . ورابعهم نوفل من أم أخرى ـ وهى واقدة بنت عمرو المازنية ، وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المَجَبرِّون ، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ، ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم ؛ فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشى الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة ، وأخذ لهم المطلب أماناً من ملوك حمير . ولهم يقول الشاعر :

يا أيهـا الـرجـلُ المحوِّل رَحْلَه ألا نزلـتَ بآلِ عبـدِ مَنـافِ ؟

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه ، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوى القربى ، وقد كانوا شيئاً واحداً فى حالتى الجاهلية والإسلام لم يفترقوا ، ودخلوا معهم فى الشعب وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل . ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته :

جزى الله عنـا عَبْدَ شمسٍ ونَوْفَلا عقـوبـةَ شرٍّ عاجـلاً غيرَ آجـلِ

ولا يعرف بنو أب تباينوا فى الوفاة مثلهم ؛ فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام ، وعبد شمس مات بمكة ، ونوفل مات بسلمان من أرض العراق ، ومات المطلب ـ وكان يقال له القمر لحسنه ـ برَدْمان من طريق اليمن . فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم : هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب . ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو ـ واسمه عبد ، وأصل اسمه عبد قصى . فقال الناس عبد بن قصى دَرَج ولا عقب له ، قاله الزبير ابن بكار وغيره . وأخوات ست وهن : تماضر ، وحية ، وريطة ، وقلابة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان ـ كل هؤلاء أولاد عبـد مناف ـ ومناف اسم صنم ، وأصل اسم عبد مناف ـ المغيرة . وكان قد رأس فى زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب ، وهو أخو عبد الدار الذى كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصى بالمناصب كما تقدم ، وعبد العزى وعبد قصى ، وبرة وتخمر ـ وأمهم كلهم حُبّى بنت حُليل بن حُبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى ، وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم ، وكلهم أولاد قصى ـ واسمه زيد . وإنما سمى بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حرام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمى قصياً لذلـك . ثم عاد إلى مكـة وهـو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات

البلاد ، وأزاح يد خزاعة عن البيت ، وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه ، وصار رئيس قريش على الإطلاق . وكانت إليه الرفادة والسقاية - وهو سنها - والسدانة [1] والحجابة واللواء ، وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله ؛ ولهذا قال الشاعر :

قُصَيٌّ ، لَعمرِى كان يُدْعَى مُجَمِّعاً   به جمع الله القبائلَ مِنْ فهرِ

وهو أخو زهرة ، كلاهما ابنا كلاب أخى تَيم ، ويقظة أبى مخزوم ، ثلاثتهم أبناء مرة أخىَ عدى ، وهُصَيص - وهم أبناء كعب ، وهو الذى كان يخطب قومه كل جمعة ، ويبشرهم بمبعث رسول الله ﷺ وينشد فى ذلك أشعاراً كما قدمنا ، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف - سبعتهم أبناء لؤى أخى تَيم الأدرم [2] ، وهما أبناء غالب أخى الحارث ومحارب - ثلاثتهم أبناء فهر ، وهو أخو الحارث ، وكلاهما ابن مالك . وهو أخو الصلت ويخلد ، وهم بنو النّضر الذى إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه ، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم - كلهم أولاد كنانة ، أخى أسَد وأسَدة والهُون - أولاد خزيمة ، وهو أخو هُذيل وهما ابنا مدركة - واسمه عامر ، وأخو طابخة - واسمه عمرو ، وقمعة [3] وثلاثتهم أبناء إلياس ، وأخو إلياس هو عَيلان والد قيس كلها وهما ولدا مضر أخى ربيعة ، ويقال لهما الصريحان من ولد إسماعيل ، وأخواهما أنمار وإياد تيامنا- أربعتهم أبناء نزار أخى قضاعة ؛ فى قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية ، وقد تقدم بيانه ، كلاهما أبناء معد بن عدنان .

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء ، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس وغيره فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لا أسألُكم عليه أجْراً إلا المودَّة فى القُرْبَى** ﴾ [4] لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم ، وصدق ابن عباس رضى الله عنه فيما قال وأزيد مما قال ؛ وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهى إليه بالآباء ، وكثيرمنهم بالأمهات أيضاً . كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره فى أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مما يطول ذكره وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر . وقد ذكرنا فى ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه ، وأنه من ولد إسماعيل لا محالة ، وإن اختلف فى كم بينهما أباً ؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم ، والله أعلم .

---

(١) خدمة الكعبة .

(٢) الدرم : نقصان فى الذقن . قيل سمى بذلك لأنه كان ناقص اللحى .

(٣) سمى بذلك لأنه انقمع فى الخباء فلم يخرج .

(٤) من الآية : ٢٣ من سورة الشورى .

وقـد ذكـرنـا بقية النسب من عدنـان إلى آدم ، وأوردنا قصيدة أبى العباس الناشىء المتضمنة ذلك ، كل ذلك فى أخبار عرب الحجاز ، ولله الحمد .

وقد تكلم الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى أول تاريخه على ذلك كلاماً مبسوطاً جيداً محرراً نافعاً . وقد ورد حديث فى انتسابه ﷺ إلى عدنان وهو على المنبر ، ولكن الله أعلم بصحتـه . كما قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو الحسن على بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء ـ ببغداد ـ حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار ، حدثنا أبو جعفر أحمد ابن موسى بن سعد ـ إملاء ، سنة ست وتسعين ومائتين ـ حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسى ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامى ، حدثنا مالك بن أنس عن الزهرى ، عن أنس وعن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : بلغ النبى ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم ، فقال : « إنما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك ، وإنا لن ننتفى من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » . قال : وخطب النبى ﷺ فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عَهر[1] الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » ، وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك ، تفرد به القدامى وهو ضعيف .

ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر ؛ فمن ذلك قوله : « خرجت من نكاح لا من سفاح » . قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبى جعفر الباقر فى قولـه تعـالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[2] ـ قال لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية ، قال : وقال رسول الله ﷺ : « إنى خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » ، وهـذا مرسل جيد . وهكذا رواه البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعانى عن يحيى بن أبى بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أخرجنى من النكاح ولم يخرجنى من السفاح » . وقد

---

(١) أى فجور وفسق .

(٢) من الآية : ١٢٨ من سورة التوبة .

رواه ابن عدى موصولا فقال : حدثنا أحمد بن حفص ، حدثنا محمد بن أبى عمرو العدنى المكى ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين قال : أشهد على أبى حدثنى عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب أن النبى ﷺ قال : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء » ، هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح . وقال هشيم : حدثنا المدينى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ولدنى من نكاح أهل الجاهلية شىء ، ما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام » . وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر ، ثم أسنده من حديث أبى هريرة ، وفى إسناده ضعف والله أعلم . وقال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ؛ حدثنى محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ولدت من نكاح غير سفاح » ، ثم أورد ابن عساكر من حديث أبى عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وتَقَلبكَ فِى الساجِدِينَ ﴾ [1] قال من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبياً ، ورواه عن عطاء .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا هشام بن محمد الكلبى عن أبيه قال : كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية . وثبت فى صحيح البخارى من حديث عمرو بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » ، وفى صحيح مسلم من حديث الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبى وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : « من أنا ؟ » قالوا أنت رسول الله ، قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً .فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم

---

(١) الآية : ٢١٩ من سورة الشعراء .

الدين . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبى خالد عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله : إن قريشاً إذا التقوا لقى بعضهم بعضاً بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال : « والذى نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله » ، فقلت : يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كَبوة [1] من الأرض . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يوم خلق الخلق جعلنى فى خيرهم ، ثم لما فرقهم قبائل جعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم حين جعل البيوت جعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . ورواه أبو بكر بن أبى شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبى ﷺ فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى يحيى بن عبد الحميد ، حدثنى قيس بن عبد الله عن الأعمش عن عليلة بن ربعى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسماً ، فذلك قوله : ﴿ **وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمالِ** ﴾ ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين . ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرها ثلثاً ، فذلك قوله : ﴿ **فأصحاب الميمنةِ ، والسابقون السابقونَ** ﴾ [2] فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين . ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة ، فذلك قوله : ﴿ **وجعلناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لتعَارفُوا إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم إن اللهَ عليمٌ خبيرٌ** ﴾ [3] ، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر . ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً ، وذلك قوله : ﴿ **إنما يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهركم تَطْهيراً** ﴾ [4] فأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب . وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة .

وروى الحاكم والبيهقى من حديث محمد بن ذكوان ـ خال ولد حماد بن زيد ـ عن عمرو ابن دينار عن ابن عمر قال : إنا لقعود بفناء النبى ﷺ إذ مرت به امرأة ، فقال بعض القوم

---

(١) قال فى القاموس : الكبوة بالفتح : الوقفة منك لرجل عند الشىء تكرهه ، وبالضم : المجمرة ، وهى ما يوضع فيه الجمر .

(٢) من سورة الواقعة الآية ٨ ، ١٠

(٣) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

هذه ابنة رسول الله ﷺ ، قال أبو سفيان : مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط النتن فانطلقت المرأة فأخبرت النبى ﷺ فجاء رسول الله ﷺ يعرف فى وجهه الغضب ، فقال : « ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام ! إن الله خلق السموات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم . فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » . هذا أيضاً حديث غريب .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » ، وروى الحاكم والبيهقى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة ، حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهرى عن أبى أسامة أو أبى سلمة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لى جبريل قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » ، قال الحافظ البيهقى : وهذه الأحاديث وإن كان فى رواتها من لا يحتج به ـ فبعضها يؤكد بعضاً ، ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع ، والله أعلم .

قلت وفى هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبى ﷺ :

إذا اجتمعتْ يوماً قريشٌ لمَفْخر ... فعبدُ منافٍ سرّها وصميمُها
وإن حُصّلت أشرافُ عبد منافها ... ففى هاشم أشرافُها وقديمُها
وإن فخرتْ يوماً فإنّ محمداً ... هو المصطفى من سرِّها وكريمها
تداعت قريشٌ غَثُّها وسمينُها ... علينا فلم تظفرْ وطاشتْ حُلومُها
وكنّا قديماً لا نُقِرُّ ظلامةً ... إذا ما ثَنوا صُعرَ الخدودِ نقيمُها
ونحمى حماها كلَّ يومِ كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومُها
بنا انتعش العود الذَّواء وإنما ... بأكنافنا تَنْدَى وتنمى أرومُها

وقال أبو السكن ـ زكريا بن يحيى الطائى ـ فى الجزء المنسوب إليه المشهور : حدثنى عمر ابن أبى زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب قال : قال جدى خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه عند منصرفه من تبوك ، فأسلمت فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » ، فأنشأ يقول :

قبلهـا طبتَ فى الـظلال وفى	مستـودع حيث يخْصفُ الـورقُ
ثم هبـطتَ البـلادَ لا بشـرٌ أنـ	ـت ولاً مضـغـةٌ ولا علقُ
بل نطفـةٌ تركبُ السَّفينَ وقـد	ألـجـمَ نسـراً وأهـلَه الـغـرقُ
تنـقَّـل من صلب إلـى رحـمٍ	إذا مضـى عالـمٌ بدا طبـقٌ
حتى احتوى بيتَكَ المهيمن من	خنـدف علياء تحتـهـا الـنطقُ
وأنت لمـا وُلِـدتَّ أشـرقت الأ	رض وضـاءت بنـورك الأفـقُ
فنحن فى ذلـك الضياءُ وفى الـ	ـنـور وسـبـل الـرشـاد نختـرقُ

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت ؛ فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبى الحسن بن أبى الحديد ، أخبرنا محمد بن أبى نصر ، حدثنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشى ، حدثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمى ، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراسانى ، حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن سنان ، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائنى ، حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبى نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبى وأمى ! أين كنت وآدم فى الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال « كنت فى صلبه وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح وقذف بى فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى على سفاح قط ، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صفتى مهدى ، لا ينشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسلام عهدى ، ونشر فى التوراة والإنجيل ذكرى ، وبين كل نبى صفتى ، تشرق الأرض بنورى والغمام بوجهى ، وعلمنى كتابه ، وزادنى شرفاً فى سمائه ، وشق لى اسماً من أسمائه ، فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد ، ووعدنى أن يحبونى بالحوض والكوثر ، وأن يجعلنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرون لأمتى ، وهم الحمادون ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . قال ابن عباس : فقال حسان بن ثابت فى النبى ﷺ :

قبـلهـا طبتَ فى الـظلالِ وفى	مسـتـودعٍ يوم يخصـف الـورق
ثم سكـنْـتَ الـبـلادَ لا بشرٌ أنـ	ـت ولاً نطفـةٌ ولا علقُ
مُطَهَّـرٌ تركـبُ السـفـينَ وقـد	ألجـم نسراً وأهـلَهُ الـغـرقُ
تَنَـقَّـلُ من صلبٍ إلى رحـمٍ	إذا مضـى طبـقٌ بدا طبـقٌ

فقال النبى ﷺ : « يرحم الله حساناً » ، فقال على بن أبى طالب : وجبت الجنة لحسان

ورب الكعبة . ثم قال الحافظ ابن عساكر : هذا حديث غريب جداً . قلت : بل منكر جداً ، والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضى الله عنه ، ثم أوردها من حديث أبى السكن ـ زكريا بن يحيى الطائى ـ كما تقدم . قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس ابن مرداس السلمى ، فالله أعلم .

تنبيه : قال القاضى عياض ـ فى كتاب الشفاء ـ وأما أحمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء ، فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ، وألا يدعى به مدعو قبله ؛ حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك . وكذلك محمد ؛ لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ؛ فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ؛ رجاء أن يكون أحدهم هُوَ و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن سلمة الأنصارى ، ومحمد بن البراء الكندى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعة السلمى ـ لا سابع لهم . ويقال : إن أول من سمى محمداً ـ محمد بن سفيان بن مجاشع . واليمن تقول : بل محمد بن ليحمد من الأزد . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل أحداً فى أمره ، حتى تحققت الشيمتان له ﷺ لم ينازع فيهما . هذا لفظه .

باب مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ يوم الاثنين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث غيلان بن جرير بن عبد الله بن معبد الزمانى عن أبى قتادة : أن أعرابياً قال يا رسول الله ، ما تقول فى صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه وأنزل علىّ فيه » . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن حنش الصنعانى عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، واستنبىء يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين . تفرد به أحمد ، ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد : ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين : (اليوم أكملت لكم دينكم) . وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به ، وزاد أيضاً : وكانت وقعة بدر يوم الاثنين . وممن قال هذا ـ يزيد بن حبيب ، وهذا منكر جداً . قال ابن عساكر : والمحفوظ أن بدراً ونزول (اليوم

أكملت لكم دينكم) ـ يوم الجمعة ، وصدق ابن عساكر . وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفى يوم الاثنين ، وهكذا روى من غير هذا الوجه عن ابن عباس ـ أنه ولد يوم الاثنين ، وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين . وأبعد بل أخطأ من قال : ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول ، نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه فى كتاب [أعلام الروى بأعلام الهدى] لبعض الشيعة . ثم شرع ابن دحية فى تضعيفه ، وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص .

ثم الجمهور على أن ذلك كان فى شهر ربيع الأول ؛ فقيل لليلتين خلتا منه ، قاله ابن عبد البر فى الاستيعاب ، ورواه الواقدى عن أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى . وقيل لثمان خلون منه ؛ حكاه الحميدى عن ابن حزم ، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم ، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه ، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمى ، ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية فى كتابه : [التنوير فى مولد البشير النذير) . وقيل لعشر خلون منه ، نقله ابن دحية فى كتابه ، ورواه ابن عساكر عن أبى جعفر الباقر ، ورواه مجالد عن الشعبى كما مر . وقيل لثنتى عشرة خلت منه ، نص عليه ابن إسحاق ، ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات . وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم . وقيل لسبعة عشر خلت منه ؛ كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة . وقيل لثمان بقين منه ، نقله ابن دحية من خط الوزير أبى رافع بن الحافظ أبى محمد بن حزم عن أبيه . والصحيح عن ابن حزم الأول ـ أنه لثمان مضين منه كما نقله عن الحميدى وهو أثبت .

والقول الثانى : أنه ولد فى رمضان ، نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً ، وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحى إليه فى رمضان بلا خلاف ، وذلك على رأس أربعين سنة من عمره ، فيكون مولده فى رمضان ، وهذا فيه نظر والله أعلم ، وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطى ، عن المعلى بن عبد الرحمن ، عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين فى ربيع الأول ، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين فى أول شهر ربيع الأول ، وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين فى ربيع الأول . وهذا غريب جداً ، رواه ابن عساكر . قال الزبير بن بكار : حملت به أمه فى أيام التشريق فى

شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى ، وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ـ لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : حمل برسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء فى المحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . وذكر غيره أن الخيزران ـ وهى أم هارون الرشيد ـ لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً ، فهو يعرف بها اليوم . وذكر السهيلى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى العشرين من نيسان ، وهذا أعدل الزمان والفصول ، وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذى القرنين ـ فيما ذكره أصحاب الزيج .

وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشترى وزحل مقترنين فى ثلاث درج من العقرب ـ وهى درجة وسط السماء ، وكان موافقاً من البروج الحمل ، وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل . نقله كله ابن دحية ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل . وهذا هو المشهور عن الجمهور . قال إبراهيم بن المنذر الحزامى ـ وهو الذى لا يشك فيه أحد من علمائنا ـ إنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل ، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل . وقد رواه البيهقى من حديث أبى إسحاق السبيعى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل . وقال محمد بن إسحاق : حدثنى المطلب بن عبد الله بن قيس ابن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، فنحن لدتان [1] قال : وسأل عثمان رضى الله عنه قُباث بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد . ورأيت خَذْق [2] الفيل أخضر محيلا . ورواه الترمذى والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به .

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة. وقال ابن إسحاق: كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة ، وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمس عشرة سنة ،

---

(١) مثنى لدة ، واللدة : الترب ـ وهو من ولد معك .

(٢) الخذق : الروث .

والمبعث بعد بنائها بخمس سنين . وقال محمد بن جبير بن مطعم : كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين ، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة .

وروى الحافظ البيهقى من حديث عبد العزيز بن أبى ثابت المدينى ، حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكنانى ثم الليثى : يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله ﷺ أكبر منى ، وأنا أسن ؛ ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بى أمى على روث الفيل محيلا أعقله ، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا يحيى بن عبد الله ابن بكير ، حدثنا نعيم - يعنى ابن ميسرة - عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا لِدة رسول الله ﷺ ؛ ولدت عام الفيل . قال البيهقى : وقد روى عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا أصغر من رسول الله ﷺ ﷺ بسنتين . قال يعقوب : وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت ، حدثنى عبد الله بن عثمان بن أبى سليمان النوفلى عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ، قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة ، وبنى البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل .

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور ؛ فقيل بعده بشهر ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمسين يوماً وهو أشهر . وعن أبى جعفر الباقر : كان قدوم الفيل للنصف من المحرم ، ومولد رسول الله ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة . وقال آخرون بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله ﷺ بعشر سنين ، قاله ابن أبزى . وقيل بثلاث وعشرين سنة ، رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم ، وقيل بعد الفيل . بثلاثين سنة ، قاله موسى بن عقبة عن الزهرى رحمه الله ، واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله . وقال أبو زكريا العجلانى : بعد الفيل بأربعين عاماً ، رواه ابن عساكر وهذا غريب جداً ، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط : حدثنى شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبى عمرو عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، قال : ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً . وقال خليفة بن خياط : والمجتمع عليه أنه ﷺ ولد عام الفيل .

صفة مولده الشـــريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله ، حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى ؛ لما كان قدر فى الأزل من ظهور النبى الأمى ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه ، فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة فى قريش ـ آمنة ـ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية ، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ ، وقد كانت أم قتال ـ رقيقة بنت نوفل ـ أخت ورقة بن نوفل ، توسمت ما كان بين عينى عبد الله ـ قبل أن يجامع آمنة ـ من النور ، فودت أن يكون ذلك متصلا بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ ، وأنه قد أزف زمانه ، فعرضت نفسها عليه . قال بعضهم : ليتزوجها ، وهو أظهر والله أعلم ، فامتنع عليها . فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها ، كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه ، فتعرض لها لتعاوده ، فقالت لا حاجة لى فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت فى ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ . وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هى لرسول الله ﷺ ، فإنه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته ﴾ [1] وقد تقدم الحديث المروى من طريق جيد ـ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولدت من نكاح لا من سفاح » .

والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور . قال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدى ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى ، حدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة . قال : خرج عبد الله ابن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة فى عير من عيران قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفـوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقـدمـوا مكـة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله ، فقالوا خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة [1] فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً

---

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام .

(٢) النابغة بالغين : أما دار التبابعة فهى بمكة وهى التى ولد بها النبى عليه السلام .

شديداً ، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدى : هذا هو أثبت الأقاويل فى وفاة عبد الله وسنه عندنا . قال الواقدى : وحدثنى معمر عن الزهرى أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات . قال محمد بن سعد : وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه وعن عوانة بن الحكم ـ قالا : توفى عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل سبعة أشهر . وقال محمد بن سعد : والأول أثبت وهو أنه توفى ورسول الله ﷺ حمل . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ، قال : توفى عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جده وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبى طالب . والذى رجحه الواقدى وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه ، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه . وقد تقدم فى الحديث : « ورؤيا أمى التى رأت حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقال محمد بن إسحاق : فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ ، فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، [وكل عبد رائد ، يذود عنى ذائد ، فإنه عند الحميد الماجد ، حتى أراه قد أتى المشاهد] [1] وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه محمداً ؛ فإن اسمه فى التوراة أحمد ، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه فى الإنجيل أحمد ؛ يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه فى القرآن محمد .

وهذا وذاك يقتضى أنها رأت حين حملت به ﷺ كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك ، كما رأته قبل ذلك هاهنا ، والله علم .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر ـ هو الواقدى ـ حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى . وقال الواقدى : حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظى ، وحدثنى عبد الله بن جعفر الزهرى عن عمته أم بكر بنت المسود عن أبيها ، وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المزنى وزياد بن حشرج عن أبى وجزة ، وحدثنا معمر عن

---

(١) [ ] ما بين هذين القوسين غير مثبت فى رواية الطبرى عن ابن إسحاق ولم يذكره ابن هشام كذلك .

أبى نجيح عن مجاهد ، وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به ـ تعنى رسول الله ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء ، وقال بعضهم : وقع جاثياً على ركبتيه ، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى ، رافعاً رأسه إلى السماء .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ ، أنبأنا محمد بن إسماعيل ، أنبأنا محمد بن إسحاق ، حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبى سويد الثقفى عن عثمان بن أبى العاص ، قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ ليلة ولدته ، قالت : فما شىء أنظره فى البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقعن علىّ [1] .

وذكر القاضى عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل ، وأنها سمعت قائلا يقول : يرحمك الله ، وإنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم .

قال محمد بن إسحاق : فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها ـ وقد هلك أبوه وهى حبلى ، ويقال إن عبد الله هلك والنبى ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً ، فالله أعلم أى ذلك كان ـ فقالت قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه ، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه . فأخذه عبد المطلب فأدخله على هُبَل فى جوف الكعبة ، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عز وجل ويقول :

الحمدُ لله الذى أعطانى ... هذا الغلامَ الطَّيِّبَ الأَرْدانِ
قد ساد فى المهدِ على الغلمان ... أُعِيذه بالبيتِ ذى الأركانِ
حتى يكون بلغة الفتيان ... حتى أراه بالغ البنيانِ
أُعِيذه من كل ذى شَنآنِ ... من حاسدٍ مضطربِ العَنانِ

---

(١) ذكر ابن جرير : أن النبى ولد فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف وكان الرسول ﷺ وهبها لعقيل بن أبى طالب فلما توفى باعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف .

ذى هِمَّـة ليس له عينـانِ   حتـى أراه رافـعَ الـلسـانِ[٢]
أنـت الـذى سُمِّيتَ فى القـرآنِ   فى كُتُـبٍ ثابـتـةِ الـمـثـانـى

أحمــــد مكتــــوب على اللســـانِ

وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الـدراوردى ـ بمرو ـ حدثنا أبو عبد الله البوشنجى ، حدثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائرى ، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائى ـ بمصر ـ حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قال : ولـد رسـول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، قال فأعجب ذلك جده عبـد المـطلب وحظى عنده ، وقال : ليكونن لابنى هذا شأن ، فكان له شأن ، وهذا الحديث فى صحته نظر .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصى عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من كرامتى على الله أنى ولدت مختوناً ولم ير سوأتى أحد » . ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به . ثم أورده من طريق محمـد بن محمـد بن سليمـان ـ هو البـاغنـدى ـ حدثنـا عبد الرحمن بن أيوب الحمصى ، حدثنا موسى بن أبى موسى المقدسى ، حدثنى خالد ابن سلمة عن نافع عن ابن عمر قال : ولد رسول الله ﷺ مسروراً مختوناً ، وقال أبو نعيم : حدثنـا أبـو أحمـد محمد بن أحمد الغطريفى ، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المـالكى ، حدثنـا سليمـان بن سلمـة الخبـائرى ، حدثنـا يونس بن عطاء ، حدثنـا الحكم بن أبان ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس قال : ولـد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظى عنده ، وقال ليكونن لابنى هذا شأن ، فكان له شأن .

وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق ، حتى زعم بعضهم أنه متواتر ، وفى هذا كله نظر . ومعنى مختوناً : أى مقطوع الختان ، ومسروراً : أى مقطوع السرة من بطن أمـه . وقد روى الحافظ ابن عساكر عن طريق عبد الرحمن بن عيينة البصرى ،

---

(٢) فى نسخة رافع السان . قيل ولعلها :
حتى أرى منه رفيع الشـــان

حدثنا علىّ بن محمد المدائنى السلمى ، حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبى بكرة - أن جبريل ختن النبى ﷺ حين طهر قلبه ، وهذا غريب جداً . وقد روى أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها ، والله أعلم .

وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنى محمد بن كامل القاضى - شفاهاً - أن محمد بن إسماعيل حدثه - يعنى السلمى - حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثنى معاوية بن صالح عن أبى الحكم التنوخى قال : كان المولود إذا ولد فى قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ، ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء ، فأتاهن عبد المطلب فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله ؛ وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال احفظنه فإنى أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً . فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ؟ ما سميته ؟ قال سميته محمداً ، قالوا فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض . قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يسمى محمداً ، كما قال بعضهم :

إليك - أبيت اللعن - أعملتُ ناقتى ... إلى الماجدِ القرمِ الكريمِ المُحمَّدِ

وقال بعض العلماء : ألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ؛ ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى ؛ كما قال عمه أبو طالب ، ويروى لحسان :

وشقَّ له من اسمه ليُجِلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله - وهى صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة - ودلائل نبوته ، وفضائل منزلته - فى آخر السيرة إن شاء الله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن شيبان الرملى ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الحبلى ، حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا زهير عن محارب بن دثار عن عمرو بن يثربى عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ! دعانى إلى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك ؛ رأيتك فى المهد

تنـاغى القمر وتشير إليه بأصبعك ، فحيث أشرت إليه مال . قال : « إنى كنت أحدثه ويحدثنى ويلهينى عن البكاء ، وأسمع وجيبه حين يسجد تحت العرش » . ثم قال : تفرد به الليثى ، وهو مجهول .

« فصــــــل »

فيما وقع من الآيات ليلـــة مولده عليه الصلاة والسلام

قد ذكرنا فى باب هواتف الجان ما تقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ ـ لوجوهها ، وسقوطها عن أماكنها ، وما رآه النجاشى ملك الحبشة ، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد ، وما كان من سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء ، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم ، وما شوهد من النور فى المنزل الذى ولد فيه ، ودنو النجوم منهم وغير ذلك .

حكى السهيلى عن تفسير بقى بن مخلد الحافظ ـ أن إبليس رن أربع رنات : حين لعن ، وحين أهبط ، وحين ولد رسول الله ﷺ ، وحين أنزلت الفاتحة . قال محمد بن إسحاق : وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودى قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس من قريش : يا معشر قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال : الله أكبر ! أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ، لا يرضع ليلتين ، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه فى فمه فمنعه الرضاع . فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً . فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودى ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى فأخبروه الخبر . قال فاذهبوا معى حتى أنظر إليه ، فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة ، فقالوا : أخرجى إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودى مغشياً عليه . فلما أفاق قالوا له : مالك ويلك ؟ قال قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يا معشر قريش ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال : حدثنى من شئت من رجال قومى - ممن لا أتهم ، عن حسان بن ثابت قال : إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين - أو ثمان سنين - أعقل ما رأيت وسمعت ، إذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة ، يا معشر يهود ! فاجتمعوا إليه - وأنا أسمع - فقالوا ويلك مالك ؟ قال قد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة . وروى الحافظ أبو نعيم فى كتاب : [دلائل النبوة] - من حديث أبى بكر بن عبد الله العامرى ، عن سليمان بن سحيم وذريح بن عبد الرحمن - كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال : سمعت أبى ، مالك بن سنان يقول : جئت بنى عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ، ونحن يومئذ فى هدنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودى يقول : أظل خروج نبى يقال له : « أحمد » ، يخرج من الحرم . فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلى - كالمستهزىء به - ما صفته ؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ، فى عينية حمرة ، يلبس الشملة ويركب الحمار ، سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره . قال فرجعت إلى قومى بنى خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع ؛ فأسمع رجلا منا يقول : ويوشع يقول هذا وحده ؟ كل يهود يثرب يقولون هذا . قال أبى ، مالك بن سنان ، فخرجت حتى جئت بنى قريظة فأجد جمعاً ، فتذاكروا النبى ﷺ ، فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره ، ولم يبق أحد إلا « أحمد » وهذا مهاجره . قال أبو سعيد : فلما قدم النبى ﷺ أخبره أبى هذا الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود إنما هم له تبع » .

وقال أبو نعيم : حدثنا عمر بن محمد ، حدثنا إبراهيم بن السندى ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، سمعت زيد بن ثابت يقول : كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبى ﷺ ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى ، وأنه لا نبى بعده ، واسمه « أحمد » ومهاجره إلى يثرب . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا . وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم فى كتابه من طرق أخرى ، ولله الحمد .

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبى عاصم ، حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد ، قال : قال زيد بن عمرو بن نفيل : قال لى حبر من أحبار الشام : قد خرج فى بلدك نبى - أو هو خارج ، قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه .

ذكـــر ارتجـاس الإيــوان
وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان
وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب [هواتف الجان] : حدثنا على بن حرب ، حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبد الله البجلى ـ حدثنى مخزوم بن هانى المخزومى عن أبيه ـ وأتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال : لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس [١] إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة . وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك مائة عام ، وغاضت بحيرة ساوة . ورأى الموبذان [٢] إبلا صعاباً تقود خيلا عِراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته ؛ فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم . فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان : وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ، ثم قص عليه رؤياه فى الإبل ، فقال : أى شىء يكون هذا يا موبذان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد ؛ فوجه إلىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه . فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حَيَّان بن بُقيلة الغسانى ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال ليخبرنى أو ليسألنى الملك عما أحب ؛ فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم . فأخبره بالذى وجه به إليه فيه ، فقـال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سَطيح ، قال فائته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره . فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح . فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً ، فأنشأ يقول :

أصمُّ أم يسمـعُ غِطريفَ اليمن ؟ أم فاد فازلَـمَّ له شأْوُ الـعَنَن [٣] ؟

---

(١) أى رجف وزلزل .

(٢) الموبذان : فقيه الفرس وحاكم المجوس . وفى اللسان : هو كقاضى القضاة للمسلمين .

(٣) فاد : مات . ازلم : ولى .

يا فاصلَ الخطةِ أعيتْ مَن ومَن	أتاك شيخُ الحىِّ من آل سَنن
وأمّه من آل ذئب بن حَجن	أزرق نهم الناب صَرّار الأُذُن
أبيض فضفاض الرداء والبدن	رسول قَيل العجم يَسرى للوسن
يجوبُ بى الأرض عَلَنْداة شزَن (١)	لا يرهبُ الرعدَ ولا ريبَ الزمن
ترفعنى وَجْن وتهوى بن وجَن (٢)	حتى أتى عارى الجآجى والقَطن
تَلُفُّه فى الرِّيح بَوغاء الدِّمن	كأنما حُثحِث من حِضنَى ثَكَن (٣)

قال فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ؛ لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ؛ رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت فى بلادها . يا عبد المسيح ! إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاما . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه ، فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شمِّر فإنك ماضى العزم شِمِّير	لا يُفزعَنك تفريقٌ وتغييرُ
إن يُمس مُلْكُ بنى ساسان أفرطهم	فإن ذا الدهر أطوار دهاريرُ
فربما ربما أضحَوا بمنزلةٍ	تخاف صولهم الأُسْدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصرح بهرام وإخوته	والهرمُزان وسابور وسابورُ
والناس أولاد عَلات فمن علموا	أن قد أقلّ فمَحْقُورٌ ومهجور
ورُبَّ قومٍ لهم صُحْبانُ ذى أذن	بدت تُلْهيهم فيه المزاميرُ
وهم بنو الأمِّ لَمّا أن رأوْا نشباً	فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخير والشر مقرونان فى قَرَن	فالخير متَّبَع والشر محذورُ

قال : فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح ، فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا تكون أمور وأمور ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك

---

(١) العلندى : الشديد والتاء للمبالغة . والشزن : النشيط .

(٢) الوجن ـ بفتح فسكون وبفتحتين : الغليظ الصلب من الأرض .

(٣) البوغاء : دقاق التراب . الدمن ـ جمع دمنة : ما تدمن أى تجمع وتلبد ، حثحث : حث وأسرع . ثكن : اسم جبل .

الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه . ورواه البيهقى من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن على بن حرب الموصلى بنحوه .

قلت : كان آخر ملوكهم ـ الذى سلب منه الملك ـ يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وهو الذى انشق الإيوان فى زمانه . وكان لأسلافه فى الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة . وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح .

[[1] أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر فى تاريخه : هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن الأزد . ويقال الربيع بن مسعود ، وأمه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجورى ، وذكر غير ذلك فى نسبه . قال : وكان يسكن الجابية ، ثم روى عن أبى حاتم السجستانى ، قال : سمعت المشيخة ـ منهم أبو عبيدة وغيره ـ قالوا : وكان من بعد لقمان بن عاد ، ولد فى زمن سيل العرم ، وعاش إلى ملك ذى نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً ، وكان مسكنه البحرين ، وزعمت عبد القيس أنه منهم ، وتزعم الأزد أنه منهم . وأكثر المحدثين يقولون هو من الأزد ، ولا ندرى ممن هو؟ غير أن ولده يقولون إنه من الأزد . وروى عن ابن عباس أنه قال : لم يكن شىء من بنى آدم يشبه سطيحاً ؛ إنما كان لحماً على وضم ، ليس فيه عظم ولا عصب إلا فى رأسه وعينيه وكفيه ، وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه ، ولم يكن فيه شىء يتحرك إلا لسانه . وقال غيره : إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس .

ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم ؛ منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصى ، فامتحنوه فى أشياء فأجابهم فيها بالصدق ، فسألوه عما يكون فى آخر الزمان فقال : خذوا منى ومن إلهام الله إياى : أنتم الآن يا معشر العرب فى زمان الهرم ، سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ؛ فيكسرون الصنم ، ويتبعون الردم ، ويقتلون العجم ، يطلبون الغنم . ثم قال : والباقى الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذى البلد ، نبى مهتد ، يهدى إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ عن عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله بخير دار ، محموداً من الأرض مفقوداً ، وفى السماء مشهوداً . ثم يلى أمره الصديق إذا

---

(١) من هنا إلى آخر القوس فى صفحة ٧٠٥ ـ غير مثبت فى بعض النسخ .

قضى صدق ، وفى رد الحقوق لا خرق ولا نزق . ثم يلى أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، قد أضاف الضيف ، وأحكم التحنيف .

ثم ذكر عثمان ومقتله ، وما يكون بعد ذلك من أيام بنى أمية ثم بنى العباس ، وما بعد ذلك من الفتن والملاحم . ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله . وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها ، ثم ما يكون فى بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول ، حتى يعود إلى سيف بن ذى يزن . فقال له : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى . قال وممن هذا النبى ؟ قال : من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر . قال وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحق ما تخبرنى ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق ، والقمر إذا اتسق ، إن ما أنبأتك عليه لحق . ووافقه على ذلك شق سواء بسواء ، بعبارة أخرى كما تقدم ، ومن شعر سطيح قوله :

عليكم بتقوى الله فى السر والجهر ... ولا تَلْبسوا صدقَ الأمانةِ بالغدرِ
وكونوا لجار الجنب حِصْناً وجُنَّةً ... إذا ما عرتْهُ النائباتُ من الدهرِ

وروى ذلك الحافظ ابن عساكر ، ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريرى فقال : وأخبار سطيح كثيرة ، وقد جمعها غير واحد من أهل العلم . والمشهور أنه كان كاهناً ، وقد أخبر عن النبى ﷺ وعن نعته ومبعثه . وروى لنا بإسناد ـ الله به أعلم ـ أن النبى ﷺ سئل عن سطيح فقال : « نبى ضيعه قومه » .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له فى شىء من كتب الإسلام المعهودة ، ولم أره بإسناد أصلاً . ويروى مثله فى خبر خالد بن سنان العبسى ولا يصح أيضاً . وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح ، وفيها روائح التصديق ، لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريرى ؛ فإنه قد ذكر فى هذا الأثر أنه قال لابن أخته : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ـ فليس الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر أو شية ـ أى أقل منه ، وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلى أرض العراق ، فالله أعلم بأمره وما صار إليه . وذكر المعافى بن زكريا الجريرى أنه عاش سبعمائة سنة ، وقال : غيره خمسمائة سنة ، وقيل ثلاثمائة سنة والله أعلم .

وقد روى ابن عساكر أن ملكا سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه ، فأخبره على الجلية فى كلام طويل مليح فصيح . فقال له الملك : يا سطيح ! ألا تخبرنى عن علمك هذا ؟ فقال إن علمى هذا ليس منى ولا بجزم ولا بظن ، ولكن أخذته عن أخ لى قد سمع الوحى بطور سيناء . فقال له : أرأيت أخاك هذا الجنى أهو معك لا يفارقك ؟ فقال إنه ليزول حيث أزول ، ولا أنطق إلا بما يقول .

وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر- ولـدا فى يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية ، فتفلت فى أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها . وكان نصف إنسان ، ويقال إن خالد بن عبد الله القسرى من سلالته ، وقد مات شق قبل سطيح بدهر .

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغسانى النصرانى فكان من المعمرين . وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه وقال : هو الذى صالح خالد بن الوليد على [1] . وذكر له معه قصة طويلة ، وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء ؛ لأنـه لما أخذه قال : باسم الله وبالله ، رب الأرض والسماء ، الذى لا يضر مع اسمه أذى . ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضى الله عنه ، وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم] .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا المسيب بن شريك ، حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان بمـر الظهران راهب من الرهبان يدعى « عيصا » من أهل الشام ، وكان متخفراً [2] بالعاص بن وائل . وكان الله قد آتاه علماً كثيراً ، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة ؛ من طيب ورفق وعلم ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فى كل سنة ، فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة ، يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ، ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن

---

(١) كذا فى الأصل بياض . والذى نعلمه أن عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة هو وآخرين من نقباء الحيرة ، لما حاصرهم خالد بن الوليد ورأوا ألا طاقة لهم به ـ صالحوه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا ، فاعتدها من الجزية بأمر أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أول من طلب الصلح عمرو بن عبد المسيح .

(٢) أى مستجيراً ، يقال خفره وتخفر به : أجاره ومنعه ، والاسم الخفرة بالضم .

أدركه فخالفه أخطأ حاجته ، وبالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ، ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف ـ إلا فى طلبه .

وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد ، فيقال له فصفه فيقول : لا . ويكتم ذلك للذى قد علم أنه لاق من قومه ، مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً . ولما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله بن عبد المطلب ، حتى أتى « عيصا » فوقف فى أصل صومعته ، ثم نادى : يا عيصاه ! فناداه من هذا ؟ فقال : أنا عبد الله ، فأشرف عليه فقال كن أباه ، فقد ولد المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ، ويبعث يوم الاثنين ، ويموت يوم الاثنين . قال فإنه قد ولد لى مع الصبح مولود ، قال فما سميته ؟ قال محمداً ، قال والله لقد كنت أشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها ؛ منها أن نجمه طلع البارحة ، وأنه ولد اليوم ، وأن اسمه محمد . انطلق إليه فإن الذى كنت أخبركم عنه ابنك . قال فما يدريك أنه ابنى ؟ ولعله أن يولد فى هذا اليوم مولود غيره ؟ قال قد وافق ابنك الاسم ، ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فإنه حجة . وآية ذلك أنه الآن به وجع فيشتكى أياماً ثلاثة ، فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافى . فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد أحد حسده قط ، ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . إن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو ـ لظهر لك من قومك مالا تحتمله إلا على صبر وعلى ذل ، فاحفظ لسانك ودار عنه . قال فما عمره ؟ قال : إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين ، يموت فى وتر دونها من الستين ، فى إحدى وستين أو ثلاث وستين فى أعمار جل أمته . قال وحمل برسول الله ﷺ فى عاشر المحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة .

ذكر حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن ـ واسمها بركة ـ تحضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه ، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد رضى الله عنهم . وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام ـ مولاة عمه أبى لهب ؛ ثويبه قبل حليمة السعدية . أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبى سفيان قالت : يا رسول الله ! أنكح أختى

بنتَ أبى سفيان ـ ولمسلم عزة بنت أبى سفيان ـ فقــال رســول الله ﷺ : « أوتحبين ذلك ؟ » قلت : نعم ! لست لك بُمخلية [١] ، وأحبُّ مَن شاركنى فى خير أختى ، فقال النبى ﷺ : « فإن ذلك لا يحل لى » ، قلت : فإنا نُحدِّث أنك تريد أن تَنكح بنت أبى سلمة ـ وفى رواية درة بنت أبى سلمة ـ قال : « بنت أم سلمة ؟ » قلت : نعم ، قال : « إنهـا لو لم تكن ربيبتى فى حجـرى ما حَلت لى ، إنهـا لابنـة أخى من الرضاعة ، أرضعتنى وأبا سلمة ـ ثُوَيبة ، فلا تعرضْن علىّ بناتكن ولا أخواتكن » . زاد البخارى : قال عروة : وثُويبة مولاة لأبى لهب ، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ ، فلما مات أبو لهب أُريَه بعضُ أهله بشر حِيبة [٢] . فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيراً ، غير أنى سقيت فى هذه بعتاقتى [٣] ثويبة ـ وأشار إلى النقرة التى بين الإبهام والتى تليها من الأصابع .

وذكر السهيلى وغيره : أن الرائى له هو أخوه العباس . وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبى لهب بعد وقعة بدر . وفيه أن أبا لهب قال للعباس : إنه ليخفف علىّ فى مثل يوم الاثنين ، قالـوا لأنـه لمـا بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله ـ أعتقها من ساعته ، فجوزى بذلك لذلك .

ذكر رضاعه عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمـد بن إسحـاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر . قال : واسم أبى رسول الله ﷺ الذى أرضعه ـ يعنى زوج حليمة ـ الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن مِلّان بن ناصـرة بن سعد بن بكر بن هوازن . وإخوته عليه الصلاة والسلام ـ يعنى من الـرضـاعـة ـ عبـد الله بن الحـارث وأنيسة بنت الحارث وحُذافة [٤] بنت الحارث وهى الشيماء ، وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم .

---

(١) أى لست بمنفردة بك حتى أغار منها فإن لى ضرائر .

(٢) معناه : بسوء حال ، والحيبة : الهم والحاجة والحالة .

(٣) أى بعتقى لها .

(٤) فى الطبرى : خذامة بكسر الخاء المنقوطة .

قال ابن إسحاق : حدثنى جهم بن أبى جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ، ويقال له مولى الحارث بن حاطب ، قال : حدثنى من سمع عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة فى نسوة ـ وذكر الواقدى بإسناده أنهن كن عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء ـ من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء [١] فى سنة شهباء فقدمت على أتان لى قمراء كانت أذمّت [٢] بالركب ، ومعى صبى لنا وشارف [٣] لنا والله ما تَبِضّ بقطرة ، وما ننام ليلنا ذلك أجمع من صبينا ذاك ، ما نجد فى ثديى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجَفاً ، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل إنه يتيم تركناه ، وقلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً ـ غيرى . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق ـ قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال : لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوِى وشرب أخوه حتى رَوِى . وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة فقال صاحبى حين أصبحنا : يا حليمة ! والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً .

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقَطعَت أتانى بنا الركب حتى ما يتعلق بها حمار ، حتى إن صواحبى ليقلن : ويلك يا بنت أبى ذؤيب ! أهـذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟ فأقول نعم والله إنها لهى ، فقلن والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بنى سعد ،

---

(١) فى ابن هشام : المراضع ، وهو واضح ؛ لأن المراضع جمع مرضع . أما الرضعاء فجمع رضيع . ولعله أريد ذوات الرضعاء على حذف مضاف ، أو أنه متى وجدت له مرضعة فقد وجد الرضيع الذى يرضع معه .

(٢) أتت بما يذم عليه من تخلف وتمهل ، والقمراء : لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة .

(٣) الشارف من النوق : المسنة الهرمة .

وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ؛ فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لُبّناً فنحلب ما شئنا ، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ـ أو لرعيانهم ـ ويحكم ! انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح ، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن ، وتروح أغنامى شباعاً لبناً تحلب ما شئنا . فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين ، فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان . فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً [١] فقدمنا به على أمه ونحن أضن شىء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فإنا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهَم [٢] لنا ـ جاء أخوه ذلك يشتد ، فقال ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال يا بنى ما شأنك ؟ قال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، أضجعانى وشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا .

فقال أبوه يا حليمة ! لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب ، فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت حليمة : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به ، فقدمنا به عليها ، فقالت ما ردكما به يا ظئر فقد كنتما عليه حريصين ؟ فقالا : لا والله ؛ إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا ، وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله . فقالت ما ذاك بكما ؟ فأصدقانى شأنكما . فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت أخشيتما عليه الشيطان ؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل . والله إنه لكائن لابنى هذا شأن ، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه ، فأريت فى النوم حين حملت به ـ كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود ؛ معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما .

وهذا الحديث قد روى من طرق أخر ، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى .

---

(١) أى شديداً ، يقال جفر الصبى واستجفر : انتفخ لحمه وقوى على الأكل .

(٢) جمع بهمة ، وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . ولعل المراد هنا ـ صغار الغنم .

وقال الواقدى : حدثنى معاذ بن محمد عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : خرجت حليمة تطلب النبى ﷺ وقد وجدت البهم تقيل ، فوجدته مع أخته ، فقالت فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ! ما وجد أخى حراً ؛ رأيت غمامة تظلل عليه ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع .

وقال ابن إسحاق : حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك . قال : « نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترُضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا فى بَهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج ، حتى إذا أنقياه رداه كما كان . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بعشرة فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزننى بمائة فوزنتهم . ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى بألف فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم » . وهذا إسناد جيد قوى .

وقد روى أبو نعيم الحافظ فى الدلائل من طريق عمر بن الصبح - وهو أبو نعيم - عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس هذه القصة مطولة جداً ، ولكن عمر بن الصبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع . فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به . ثم قال : وحدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن نفير ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى عن عتبة بن عبد الله - أنه حدثه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : « كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها فى بَهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخى اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخى ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ فقال : نعم ! فأقبلا يبتدرانى ، فأخذانى فبطحانى للقفا فشقا بطنى ، ثم استخرجا قلبى فشقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتنى بماء ثلج فغسلا به جوفى ، ثم قال : ائتنى بماء برد فغسلا به قلبى ، ثم قال : ائتنى بالسكينة فذرها فى قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه فخاطه ، وختم على قلبى بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله فى كفة واجعل ألفاً من أمته فى كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر على بعضهم . فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم . ثم انطلقا فتركانى وفرقت

فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمى فأخبرتها بالذى لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بى ، فقالت أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها وحملتنى على الرحل وركبت خلفى حتى بلغنا إلى أمى ، فقالت أديت أمانتى وذمتى ، وحدثتها بالذى لقيت فلم يرعها ، وقالت إنى رأيت حين حملت به ـ أنه خرج منى نور أضاءت منه قصور الشام » .

ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به . وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبى داود الطيالسى : حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشى ، أخبرنى عمير بن عمر بن عروة بن الزبير قال : سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يا رسول الله ! كيف علمت أنك نبى حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبى ؟ قال : « يا أبا ذر ! أتانى ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال هو هو ، قال زنه برجل ، فوزننى برجل فرجحته » ، وذكر تمامه ، وذكر شق صدره وخياطته ، وجعل الخاتم بين كتفيه ، قال : « فما هو إلا أن وليا عنى فكأنما أعاين الأمر معاينة » . ثم أورد ابن عساكر عن أبى بن كعب بنحو ذلك . ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك .

وثبت فى صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعنى ظئره ـ فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البنانى عن أنس : أن الصلاة فرضت بالمدينة ، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ ، فذهبا إلى زمزم فشقا بطنه ، فأخرجا حشوته فى طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ، ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً .

ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهرى عن أبيه عن عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبى وقاص عن أنس ، قال : أتى رسول الله ﷺ ثلاث ليال [1]

---

(١) هكذا بالأصل . ولعله ثلاثة رجال فقال أحدهم خذوا خيرهم . . الخ . ويعضده ما أنبأ به النبى ﷺ عن نفسه قال : بينما أنا ذات يوم مع أتراب لى إذ أتانا رهط ثلاثة . . الخ .

قال خذوا خيرهم وسيدهم ، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ، ثم أتى بتَور [١] من ذهب فغسل جوفه ثم ملىء حكمة وإيماناً ، وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، وفى الصحيحين من طريق شريك بن أبى نمر عن أنس ، وعن الزهرى عن أنس عن أبى ذر وقتادة عن أنس ، وعن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ فى حديث الإسراء كما سيأتى قصة شرح الصدر ليلتئذ ، وإنه غسل بماء زمزم . ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين ، مرة وهو صغير ، ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى ، ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى .

وقال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » . وذكر ابن إسحاق : أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه ـ مرت به على ركب من النصارى ، فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقبلوه ، وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن ، فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد . وذكر أنها لماردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض ، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده ، فجاءت جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة فى طلبه ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده ، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ، ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر الأموى من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى ـ وهو ضعيف ـ عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قصة مولده عليه الصلاة والسلام ، ورضاعه من حليمة ـ على غير سياق محمد بن إسحاق ، وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به فى أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه . وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جده فى كل عام ، فلما كان من شق صدره عندهم ما كان ـ ردته إليهم ، فأقام عند أمه حتى إذا كان عمرة ثمانى سنين ماتت ، فكفله جده عبد المطلب ، فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عماه شقيقا أبيه : الزبير وأبو طالب . فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن . فذكر أنهم رأوا منه آيات فى تلك السفرة ؛ منها أن فحلاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق فى واد ممرهم عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام . ومنها أنه خاض بهم سيلا عرماً فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوه . ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة ، فانفرد به أبو طالب .

---

(١) التور : إناء يشرب فيه .

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ، ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر ، فمتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم ؛ كما سيأتى مفصلا فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال محمد بن إسحاق ـ فى وقعة هوازن ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة [١] وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ! إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك . فقام خطيبهم زهير بن صرد فقال : يا رسول الله ! إن ما فى الحظائر [٢] من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك [٣] ، فلو أنا ملحنا [٤] ابن أبى شمر ، أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك ـ رجونا عائدتهما وعطفهما ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشد :

اُمْنُنْ علينا رسولَ اللهِ فى كرمٍ	فإنك المرءُ نرجوه وندَّخِرُ
اُمنن على بَيضةٍ قد عاقها قَدَرٌ	ممزَّقٌ شملُها فى دهرها غِيَرُ
أبقت لنا الدهر هتّافاً على حَزَنٍ	على قلوبهم الغماء والغمرُ
إن لم تداركْها نعماءُ تنشرها	يا أرجحَ الناس حلماً حين يُخْتَبَرُ
اُمنن على نِسوةٍ قد كنتُ تَرْضَعُها	إذ فوكَ يملؤه من محضها دُرَرُ
اُمنن على نسوة قد كنت ترضعها	وإذ يَزِينُك ما تأتى وما تَذَرُ
لا تجعلنا كمن شالت نعامتُه	واستبقِ منّا فإنَّا معشرٌ زهرُ
إنَّا لنشكرُ للنُّعْمَى وإن كُفِرَتْ	وعندنا بعدَ هذا اليوم مُدَّخَرُ

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبى الرملى عن زياد بن طارق الجشمى عن أبى صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال : لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ، فبينا هو يميز بين الرجال والنساء ـ وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً ، أذكره حين شب ونشأ فى هوازن حيث أرضعوه :

---

(١) موضع بين مكة والطائف .

(٢) جمع حظيرة ، وهى الزرب الذى يصنع للإبل والغنم ، وكان السبى فى حظائر مثلها .

(٣) فقد كانت حاضنته ﷺ من بنى سعد بن بكر .

(٤) أى أرضعنا . والملح هنا : الرضاع . وابن أبى شمر هو الحارث الغسانى .

آمنن علينا رسولَ الله فى دعةٍ فإنك المرءُ نرجوه وننتظرُ
آمنن على بيضةٍ قد عافها قدَرٌ مُمزَّق شملُها فى دهرها غِيَرُ
أبقت لنا الحرب هتافاً على حَزَنٍ على قلوبهم الغماء والغمرُ
إن لم تداركها نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلماً حين يُختَبَرُ
آمنن على نسوة قد كنت ترضعُها إذ فوك تملؤه من محضها الدُّرَرُ
إذا أنت طفلٌ صغيرٌ كنت ترضعُها وإذ يزينكَ ما تأتى وما تَذَرُ
لا تجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منَّا فإنَّا معشرُ زهرُ
إنَّا لنشكرُ للنَّعْمَى وإن كُفِرَتْ وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألبس العفوَ مَنْ قد كنتَ تَرْضَعُهُ مِنْ أمهاتِكَ إنَّ العفوَ مُشْتَهَرُ
إنَّا نُؤَمِلُ عفواً منكَ تلبسهُ هذى البرية إذ تعفو وتنتصرُ
فاغفرْ عفا الله عما أنت راهبهُ يوم القيامةِ إذ يُهدَى لك الظفرُ

قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم » ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله ﷺ . وسيأتى أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبى وامرأة ، وأعطاهم أنعاماً وأناسى كثيراً ، حتى قال أبو الحسين بن فارس : فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم . فهذا كله من بركته العاجلة فى الدنيا ، فكيف ببركته على من اتبعه فى الدار الآخرة ؟

فصل

فى وفاة أمه ﷺ وزيارة قبرها وحزنه عليها

قال ابن إسحاق ـ بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له ـ فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ؛ لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة . وذكر الواقدى بأسانيده أن النبى ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين ، فزارت أخواله . قالت أم أيمن : فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى :

أخرجى إلينا أحمد ننظر إليه ، فنظرا إليه وقلباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبى هذه الأمة وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم . فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالأبـواء وهى راجعـة . وقـد قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنـا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بوَدَّان قال : « مكانكم حتى آتيكم » ، فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل ، فقال : « إنى أتيت قبر أم محمد فسألت ربى الشفاعة ـ يعنى لها ـ فمنعنيها ، وإنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاثة أيام فكلوا وأمسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن الأشربة فى هذه الأوعية فاشربوا ما بدا لكم » .

وقد رواه البيهقى من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : انتهى النبى ﷺ إلى رسم قبر ، فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى ، فاستقبله عمر فقال : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فأبى علىَّ ، وأدركتنى رقتها فبكيت » . قال فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه . ثم روى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب : حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هانى عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر فى المقابر ، وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها ـ فناجاه طويلا ، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً ، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ . ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله ، ما الذى أبكاك ؟ لقد أبكانا وأفزعنا . فجاء فجلس إلينا فقال : « أفزعكم بكائى ؟ » قلنا نعم ! قال : « إن القبر الذى رأيتمونى أناجى قبر آمنة بنت وهب ، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ، واستأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه ، ونـزل علىّ : ﴿ **ما كان للنبىِّ والـذين آمنـوا أن يستغفـروا للمشركينَ ولو كانوا أولى قُربَى من بعدِ ما تبين لهم أنهم أصحابُ الجحيم . وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه إن إبـراهيمَ لأواهٌ حليم** ﴾ [1] فأخـذنى ما يأخـذ الـولـد للوالـدة من الـرقة ، فذلك الذى أبكانى » . غريب ولم يخرجوه .

---

(١) الآيتان : ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : « استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فزوروا القبور تذكركم الموت » . وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله أين أبى ؟ قال : « فى النار » ، فلما قفا دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » . وقد روى البيهقى من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى كان يصل الرحم ، وكان وكان ، فأين هو؟ قال : « فى النار » قال : فكأن الأعرابى وجد من ذلك ، فقال يا رسول الله أين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » ، قال فأسلم الأعرابى بعد ذلك ، فقال : لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعباً ، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ـ هو ابن أبى أيوب ـ حدثنا ربيعة بن سيف المعافرى عن أبى عبد الرحن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال : بينما نحن نمشى مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه ، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ما أخرجك من بيتك يا فاطمة ؟ » فقالت أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم ميتهم وعزيتهم . قال : « لعلك بلغت معهم الكدى [(١)] » قالت : معاذ الله أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر فى ذلك ما تذكر » [(٢)] ، قال « لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » . ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافرى الصنمى الإسكندرى ، وقد قال البخارى عنده مناكير ، وقال النسائى ليس به بأس ، وقال مرة صدوق ، وفى نسخة ضعيف . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان يخطىء كثيراً ، وقال الدارقطنى صالح ، وقال ابن يونس فى تاريخ مصر : فى حديثه مناكير . توفى قريباً من سنة عشرين ومائة . والمراد بالكدى : القبور ـ وقيل النوح .

---

(١) جمع كدية وهى القطعة الغليظة من الأرض ـ يريد المقابر ، وكانت مقابرهم فيها .

(٢) تشير إلى قوله ﷺ : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية ، خلافاً لفرقة الشيعة فيه وفى ابنه أبى طالب على ما سيأتى فى وفاة أبى طالب ، وقد قال البيهقى - بعد روايته هذه الأحاديث فى كتابه دلائل النبوة : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة فى الآخرة ؟ وقد كانوا يعبدون الوثن ، حتى ماتوا ولم يدينوا بدين عيسى ابن مريم عليه السلام ، وكفرهم لا يقدح فى نسبه عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة . ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهم ؟ إذا كان مثله يجوز فى الإسلام وبالله التوفيق ، انتهى كلامه .

قلت : وإخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار - لا ينافى الحديث الوارد عنه من طرق متعددة : أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون فى العرصات يوم القيامة ، كما بسطناه سنداً ومتناً فى تفسيرنا عند قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب ، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب ، فلا منافاة ولله الحمد والمنة .

وأما الحديث الذى ذكره السهيلى - وذكر أن فى إسناده مجهولين - إلى ابن أبى الزناد ، عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيى أبويه ، فأحياهما وآمنا به - فإنه حديث منكر جداً ، وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى . لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه ، والله أعلم .

فصـــــل
فى عناية جده عبد المطلب وعمه أبى طالب به ﷺ

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم - يعنى بعد موت أمه آمنة بنت وهب - فكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له . قال : فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جَفْر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع ، وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى ، وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله ، وحدثنا

هاشم بن عاصم الأسلمى عن المنذر بن جهم ، وحدثنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبى الحويرث ، وحدثنا ابن أبى سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير ـ دخل حديث بعضهم فى بعض ـ قالوا : كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورقّ عليه رِقّةً لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام . وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك : دعوا ابنى إنه يؤسس ملكاً .

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذى فى المقام منه ، فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال عبد المطلب لأم أيمن [1] ـ وكانت تحضنه ـ يا بركة ! لا تغفلى عن ابنى ، فإنى وجدته مع غلمان قريب من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة . وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول : علىَّ بابنى فيؤتى به إليه . فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون .

وقال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين هلك جدّه عبدُ المطلب بن هاشم . ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه ؛ وهن : أروى ، وأميمة ، وبرة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء . وذكر أشعارهن وما قلن فى رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح ، وبسط القول فى ذلك . وقد قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر .

قال ابن إسحاق : فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولى السقايةَ وزمزم بعده ـ ابنُه العباسْ ، وهو من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام فأقرها فى يده رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب ـ مع عمه أبى طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم . قال فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله ﷺ وكان إليه ومعه . وقال الواقدى : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد ، وحدثنا معاذ بن محمد الأنصارى عن عطاء عن ابن عباس ، وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن

---

(١) أمة حبشية كانت لأبيه عبد الله ، وكانت حاضنته بعد وفاة أمه السيدة آمنة ، وكان ﷺ يعزها كثيراً ويقول لها : أنت أمى بعد أمى .

إسماعيل بن أبى حبيبة ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ـ قالوا : لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب[1] به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط . وكان يخصه بالطعام . وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ؛ فكان إذا أراد أن يغديهم قال : كما أنتم حتى يأتى ولدى . فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب: إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً[2] شعثاً ، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا على بن ثابت عن طلحة بن عمرو ، سمعت عطاء بن أبى رباح ، سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبى طالب يصبحون رمصاً عمصاً ، ويصبح رسول الله ﷺ صقيلا دهيناً . وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أو البكرة ، فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسول الله ﷺ يده فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة .

وقال ابن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ـ أن أباه حدثه : أن رجلا من لهب كان عائفاً[3] فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . قال فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه . قال فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شىء . فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ علىّ به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذى رأيته آنفاً . فوالله ليكونن له شأن . قال : فانطلق به أبو طالب .

---

(١) المراد : أحبه حباً شديداً ، والصبابة بالفتح : حرارة الشوق ورقته .

(٢) الرمص ـ بفتحين : وسخ يجتمع فى موق العين ، وقد رمصت عينه من باب طرب ، فإن سال فهو غمص .

(٣) العائف : المتكهن بالطير أو غيرها ؛ بان يعتبر باسمائها ومساقطها وأنوائها فيتسعد أو يتشاءم .

فصـــــل
فى خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبى طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام . فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صَبَّ به رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً - أو كما قال - فخرج به معه ، فلما نزل الركب بُصرَى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له . وكان إليه عِلم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قطّ راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها - فيما يزعمون - يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرى - وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك - فيما يزعمون - عن شىء رآه وهو فى صومعته ؛ يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب حين أقبل وغمامة تظلله من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وانهصرت [1] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها . فلما رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع . ثم أرسل إليهم فقال : إنى صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ؛ كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم : والله يا بَحيرى إن لك لشأناً اليوم ! . ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بَحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضَيفٌ وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم . فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه - فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما رآهم بَحيرى لم ير الصفة التى يعرف ويجِدُ عنده ، فقال يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى ، قالوا يا بَحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدثنا سناً ، فتخلف فى رحالنا . قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ! إن كان للؤمٌ بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع

(١) أى اندفعت ومالت .

القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بَحيرى وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؛ وإنما قال له بَحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لا تسألنى باللات والعزى شيئاً ؛ فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضَهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له سلنى عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء ؛ من حاله فى نومه وهيئته وأموره ؛ فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده . فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال ابنى ، قال بحيرى ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أخى ، قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ؛ ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ؛ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شراً ؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

قال ابن إسحاق : فزعموا ـ فيما روى الناس أن زُرَيراً ، وتمّاما ، ودَريساً ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رآه بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردّهم عنه بَحيرى . وذكّرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يَزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه . وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، أن أبا طالب قال فى ذلك ثلاث قصائد . هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عباس بن محمد الدورى ، حدثنا قراد أبو نوح ، حدثنا يونس عن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ فى أشياخ من قريش . فلما أشرفوا على الراهب ـ يعنى بَحيرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم ، قال : فنزل وهم يحلون رحالهم . فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبى ﷺ فقال : هذا سيد العالمين . وفى رواية البيهقى زيادة : هذا رسول رب العالمين : بعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ من قريش : وما علمك ؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خر ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبى ، وإنى أعرفه

بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه . ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به ـ وكان هو فى رعية الإبل ـ قال أرسلوا إليه ، فأقبل وغمامة تظله ، فلما دنا من القوم قال : انظروا إليه عليه غمامة ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، قال انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه . قال : فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه ـ التفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا . قال : فاستقبلهم فقال ما جاء بكم ؟ قالوا جئنا لأن هذا النبى خارج فى هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس ، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال : فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا : لا ، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ فقالوا : لا . قال فبايعوه وأقاموا معه عنده .

قال : فقال الرهب : أنشدكم الله ! أيكم وليه ؟ قالوا أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالاً ، وزوده الراهب من الكعك والزيت .

هكذا رواه الترمذى عن أبى العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبى نوح به ، والحاكم والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس ابن محمد الدورى به . وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعى مولاهم ـ ويقال له الضبى ويعرف بقراد ـ سكن بغداد ، وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ، ولم أر أحداً جرحه ، ومع هذا فى حديثه هذا غرابة ؛ قال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح ، وقد سمعه منه أحمد ابن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده . حكاه البيهقى وابن عساكر .

قلت : فيه من الغرائب : أنه من مرسلات الصحابة ؛ فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل ؛ فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر ـ فيما ذكره بعضهم ـ اثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبى ﷺ فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة .

الثانى : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا .

الثالث : أن قوله : وبعث معه أبو بكر بلالاً ؛ إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتى عشرة سنةً ، فقد كان عمر أبى بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة ، وعمر بلال أقل من ذلك ، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريبٌ ، اللهم إلا أن يقال إن هذا وكان رسول الله ﷺ كبيراً ؛ إما بأن يكون سفره بعد هذا ، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتى عشرة سنة غير محفوظ ـ فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا . وحكى السهيلى عن بعضهم ، أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم .

قال الوقدى : حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ، ونزلوا بالراهب بحيرى . فقال لأبى طالب بالسر ما قال ، وأمره أن يحتفظ به ، فرده معه أبو طالب إلى مكة .

وشب رسول الله ﷺ مع أبى طالب يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها ، لما يريد من كرامته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى . ما رؤى ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سماه قومه الأمين ؛ لما جمعَ الله فيه من الأمور الصالحة ، فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبى يحدث عن أبى مجلز : أن عبد المطلب ـ أو أبا طالب شك خالد ـ قال : لما مات عبد الله عطف على محمد ، فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه ، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأتاه فيه راهب ، فقال إن فيكم رجلا صالحاً . ثم قال : أين أبو هذا الغلام ؟ قال : فقال ها أنا ذا وليه ـ أو قيل هذا وليه ـ قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام ؛ إن اليهود حُسد وإنى أخشاهم عليه . قال : ما أنت تقول ذلك ، ولكن الله يقوله ، فرده وقال : اللهم إنى أستودعك محمداً ، ثم إنه مات .

قصة بحيرى

حكى السهيلى عن سير الزهرى ـ أن بحيرى كان حبراً من أحبار اليهود .

قلت : والذى يظهر من سياق القصة : أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم . وعن

المسعودى أنه كان من عبد القيس ، وكان اسمه جرجيس . وفى كتاب المعارف لابن قتيبة : سُمع هاتف فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : بحيرى ، ورئاب بن البراء الشنى ، والثالث المنتظر . وكان الثالث المنتظر ، هو الرسول ﷺ . قال ابن قتيبة : وكان قبر رئاب الشنى وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طَشّ - وهو المطر الخفيف .

فصـــــل
فى منشئه عليه الصلاة والســـــلام ومرباه
وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيما فآواه ، وعائلا فأغناه

قال محمـد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقذار الجاهلية ؛ لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمَهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تُدنّس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسُمه فى قومه إلا الأمين ؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة . وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لى - يحدّث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتُنى فى غِلمان من قريش ننقُل الحجارة لبعض ما يلعب الغِلمان ، كلّنا قد تعرّى ، وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ؛ فإنى لأُقبل معهم كذلك وأُدبر ، إذ لكمنى لاكِمٌ ما أراه - لكمةً وجيعة ، ثم قال : شدَّ عليك إزارك . قال فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ من بين أصحابى » . وهذه القصة شبيهة بما فى الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس ، فإن لم تكنها فهى متقدمة عليها كالتوطئة لها ، والله أعلم .

قال عبـد الرزاق : أخبرنا ابن جريج ، أخبرنى عمرو بن دينار : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة . فقال العباس لرسول الله ﷺ : اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « إزارى » فشد عليه إزاره . أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق ؛ وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن أبى إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه .

وقال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبى عمرو قالا : أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى ، حدثنا محمد بن بكير الحضرمى ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس عن سماك عن عكرمة ، حدثنى ابن عباس عن أبيه : أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال : وأفردت قريش رجلين رجلين ؛ الرجال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد . قال فكنا أنا وابن أخى ، وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فإذا غشينا الناس ائتزرنا . فبينما أنا أمشى ومحمد أمامى ـ قال : فخر وانبطح على وجهه ، فجئت أسعى وألقيت حجرى وهو ينظر إلى السماء ، فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره وقال : « إنى نهيت أن أمشى عرياناً » . قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون .

وروى البيهقى من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده على بن أبى طالب ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين ؛ كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن فى رعاء غنم أهلها ـ فقلت لصاحبى : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى . قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عَزفاً بالغرابيل والمزامير فقلت ما هذا ؟ قالوا تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ففعل ، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال ما فعلت ؟ فقلت لا شىء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشىء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » . وهذا حديث غريب جداً ، وقد يكون عن على نفسه ، ويكون قوله فى آخره : « حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » ـ مقحماً ، والله أعلم .

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان فى الثقات . (وزعم) بعضهم أنه من رجال الصحيح . قال شيخنا فى تهذيبه ، ولم أقف على ذلك والله أعلم .

وقال الحافظ البيهقى : حدثنى أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن

يعقوب ، حدثنا الحسن بن على بن عفان العامرى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة ، قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة ، يتمسح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه ، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ : « لا تمسه » . قال زيد : فطفنا فقلت فى نفسى لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله ﷺ : « ألم تنه ؟ » ، قال البيهقى : زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده ـ قال زيد : فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه .

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى : « لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » ، فأما الحديث الذى قاله الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو سعد المالينى ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا إبراهيم بن أسباط ، حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير عن سفيان الثورى عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم ، قال : فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ ، قال كيف نقوم خلفه ، وإنما عهده باستلام الأصنام ؟ . قال فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم [1] ـ فهو حديث أنكره غيره واحد من الأئمة على عثمان بن أبى شيبة ، حتى قال الإمام أحمد فيه : لم يكن أخوه يتلفظ بشىء من هذا . وقد حكى البيهقى عن بعضهم ـ أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، والله أعلم .

وقد تقدم فى حديث زيد بن حارثة أنه ـ اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته . وثبت فى الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة ، بل كان يقف مع الناس بعرفات ، كما قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن عثمان بن أبى سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير . قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه ، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم ، توفيقاً من الله عز وجل له . قال البيهقى : معنى قوله : على دين قومه ـ ما كان بقى من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً .

---

(١) قوله : فهو حديث منكر ـ جواب قوله : فأما الحديث الذى قاله الحافظ .

قلت : ويفهم من قوله هذا أيضاً : أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه ، وهذا توفيق من الله له . ورواه الإمام أحمد عن يعقوب عن محمد بن إسحاق به . ولفظه : رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه ، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أضللت بعيراً لى بعرفة ، فذهبت أطلبه فإذا النبى ﷺ واقف ، فقلت إن هذا من الحُمس [1] ما شأنه هٰهنا ؟ وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به .

ذكر شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وإنما سمى يوم الفجار ؛ بما استحل هذان الحيان ـ كنانة وقيس عَيلان ـ فيه من المحارم بينهم . وكان قائدَ قريش وكنانة حربُ بن أمية بن عبد شمس . وكان الظفر فى أول النهار لقَيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة ـ فيما حدثنى به أبو عُبيدة النحوى عن أبى عمرو بن العلاء ـ هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عَيلان . وكان الذى هاجها : أن عُروة الرّحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، أجارَ لَطيمةً [2] ـ أى تجارة ـ للنعمان بن المنذر . فقال البرّاض بن قيس ـ أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة : أتجيرُها على كنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلق كله . فخرج فيها عروة الرَّحال وخرج البرّاض يطلب غفلته . حتى إذا كان بتَيْمَن ذى طِلال [3] بالعالية ، غفل عروة فوثب عليه البرّاض فقتله فى الشهر الحرام ، فلذلك سُمّى « الفجار » ، وقال البراض فى ذلك :

وداهيةٍ تُهِمّ الناسَ قبلى ... شددتُ لها بنى بكر ضلوعى

---

(١) الحمس جمع أحمس . وهم قريش ومن ولدت ، وكنانة . وجديلة ، سموا حمساً . لأنهم تحمسوا فى دينهم أى تشددوا . والحماسة ـ الشجاعة . كانو يقفون فى المزدلفة ، ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم .

(٢) اللطيمة : الجمال التى تحمل البز والعطر .

(٣) ذو طلال ككتاب : ماء أو موضع ببلاد بنى مرة .

هدمـتُ بهـا بيوتَ بنـى كلاب　　وأرضعـتُ المـوالى بالضـروع [1]
رفـعـتُ له بذى طلّال كَفّى [2]　　فخـرّ يميدُ كالْجِـذعِ الصـرَيعِ

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كِلاب :

وأَبـلغْ ـ إن عرضت ـ بنى كلاب　　وعـامـرَ ، والـخـطوبُ لهـا موالى
وبَـلّغ ـ إن عرضت ـ بنى نُمير　　وأخـوالَ الـقـتـيلِ بنـى هلالِ
بأنّ الـوافـدَ الـرَّحـال أمسى　　مُقـيمـاً عنـد تَيمَـن ذى طِلالِ

قال ابن هشام : فأتى آت قريشاً فقال : إن البرّاض قد قتل عُروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوازنُ لا تشعر بهم . ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون على كل قَبيل من قريش وكنانة رئيسٌ منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . قال وشهد رسول الله ﷺ بعضَ أيامهم ، أخرجه أعمامُه معهم . وقال رسول الله ﷺ : « كنت أُنَبِّل على أعمامى » ـ أى أرد عليهم نَبل عدوهم إذا رموهم بها . قال ابن هشام : وحديث الفجار أطول مما ذكرت ، وإنما منعنى من استقصائه قطعُه حديث سيرة رسول الله ﷺ .

وقـال السهيلى : والفِجـار بكسر الفاء على وزن قتال . وكانت الفجارات فى العرب أربعة ، ذكرهن المسعودى ، وآخرهن فجار البرّاض هذا . وكان القتال فيه فى أربعة أيام ؛ يوم شمطة ، ويوم العبلاء ـ وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب ـ وهو أعظمها يوماً ـ وهو الذى حضره رسـول الله ﷺ ، وفيه قيدا رئيس قريش وبنى كنانة ـ وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان ـ أنفسهما لئلا يفروا ، وانهزمت يومئذ قيس إلا بنى نضر منهم فإنهم ثبتوا . ويوم الحريرة عند نخلة . ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ ، فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعـة جمله [3] . ونادى : يا معشر مُضر ! علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال نَدِى قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دمائنا . قالوا : ومن لنا بذلك ؟ قال : أنا ، قالوا : ومن أنت ؟ قال : عتبة بن ربيعة ،

---

(١) ألحقت الموالى بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع ، وهتكت بيوت أشراف بنى كلاب .

(٢) روى : رفعت له يدى بذى طلال .

(٣) وكان عتبة يتيماً فى حجر حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة ، وأشفق عليه من خروجه معه ، فخرج بغير إذنه وفعل ما ذكر .

فوقع الصلح على ذلك ، وبعثوا إليهم أربعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام . فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهنَ فى أيديهم عفوا عن دِمائهم ، وانقضت حرب الفجار . وقد ذكر الأموى حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولا فيما رواه عن الأثرم ـ وهو المغيرة بن على ـ عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، فذكر ذلك .

فصـــــل
فى شهوده عليه الصلاة والسلام حلف الفضول

قال الحافظ البيهقى : أخبرنا أبو سعد المالينى ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا يحيى بن على بن هاشم الخفاف ، حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدى ، حدثنا إسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شهدت مع عمومتى حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه ـ أو كلمة نحوها ـ وأن لى حمر النعم » . قال : وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن ، قال : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، حدثنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمنانى ، حدثنا معلى بن مهدى ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شهدتُ حِلفاً لقريش إلا حِلف المُطيبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وأنى كنت نَقضتُه » . قال : والمطيبون : هاشم ، وأُمية ، وزهرة ، ومخزوم . قال البيهقى : كذا روى هذا التفسير مدرجاً فى الحديث ولا أدرى قائله ، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول ؛ فإن النبى ﷺ لم يدرك المُطيِّبين .

قلت : هذا لا شك فيه ؛ وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصىّ ، وتنازعوا فى الذى كان جعله قصىّ لابنه عبد الدار ؛ من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كلّ طائفة قبائل من قريش ، وتحالفوا على النصرة لحزبهم ؛ فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جَفنةً فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا ، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت ، فسموا المطَيِّبين كما تقدم . وكان هذا قديماً ، ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول ، وكان فى دار عبد الله بن جُدعان ، كما رواه الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر قالا : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حِلفاً

لو دُعيت به فى الإسلام لأجبت ؛ تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد ظالم مظلوماً » . قالوا : وكان حلف الفضول قبل البعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ؛ وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة .

وكان حلف الفضول أكرم حِلف سمع به وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه ـ الزّبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زَبيد [1] قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزّبيدى الأحلاف : عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزَبَروه ـ أى انتهروه ، فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ـ فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهر لمظلومٍ بضاعتُهُ ... ببطنِ مكةَ نائِى الدارِ والنفرِ
ومُحرمٌ أشعث لم يقضِ عُمْرَتَهُ ... يا للرجَال وبين الْحِجرِ والحجرِ
إنَّ الحرام لمن تمت كرامتُهُ ... ولا حرام لثوب الفاجرِ الغدرِ

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جُدعان ، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه ؛ ما بَلّ بحر صوفة ، ومارسى ثبير وحراء مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول [2] ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه . وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك :

حلفتُ لَنَعْقِدَنَّ حِلْفاً عليهم ... وإنْ كنَّا جميعاً أهلَ دارِ
نُسمِّيهِ الفضولَ إذا عقدنا ... يُعَزُّ به الغريبُ لذى الجوارِ
ويعلمُ من حوال البيتِ أنَّا ... أُبَاةُ الضَّيْمِ نمنعُ كل عارِ

وقال الزبير أيضاً :

---

(١) بلد باليمن ، منه موسى بن طارق .

(٢) قيل : إنما سمى حلف الفضول ؛ لأنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها .

إن الفضـــولَ تعـاقـدوا وتحـالفـوا ألا يُقِـيمُ ببـطنِ مكـةَ ظالـمُ
أمْـرٌ عليه تعـاقـدوا وتـواثقـوا فالـجـارُ والـمـعـتَـرُّ فيهم سالـمُ

وذكر قاسم بن ثابت ـ فى غريب الحديث ـ : أن رجلا من خثعم قدم مكة حاجاً ـ أو معتمراً ـ ومعه ابنة له يقال لها القتول ، من أوضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه . فقال الخثعمى : من يعدينى على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى يا آل حلف الفضول ! فإذا هم يُعنِقون إليه [١] من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال إن نبيهاً ظلمنى فى بنتى وانتزعها منى قسراً ، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم ، فقالوا له أخرج الجارية ويحك ، فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا لا ـ والله ولا شُخب لِقحة ، فأخرجها إليهم وهو يقول :

راح صحبى ولم أحيى القتَـولا لم أُودعـهُـمُ وداعـاً جمـيلا
إذ أجـد الفضـولَ أن يمنعوهـا قد أرانـى ولا أخـافُ الـفـضـولا
لا تخـالى أنى عشيةَ راحَ الـركـ ـب هنـتـم علىّ أن لا يزولا

وذكر أبياتاً أخر غيره . وقد قيل : إنما سمى هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا ؛ من نصر المظلوم على ظالمه . وكان الداعى إليه ثلاثة من أشرافهم ؛ اسم كل واحد منهم فضل وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، هذا قول ابن قتيبة . وقال غيره : الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة [٢] ، والفضل بن قضاعة . وقد أورد السهيلى هذا رحمه الله .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش إلى حلف ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جُدعان لشرفه وسنّه . وكان حلفهم عنده بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب وبنـو أسـد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ـ إلا كانوا معه ، وكانوا على من ظَلمه حتى يرد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلفَ ـ حلفَ الفضول .

قال محمد بن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قُنفذ التيمى ، أنه سمع

---

(١) أى يمشون إليه ويسرعون إلى نجدته .
(٢) فى بعض النسخ : والفضل بن وداعة .

طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أُحب أنّ لى به حمر النعم ولو أدْعى به فى الإسلام لأجبت » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادى الليثى ، أن محمد بن إبـراهيم بن الحارث التيمى ، حدثه أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب ، وبين الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان ـ والوليد يومئذ أمير المدينة ، أمّره عمه معاوية بن أبى سفيان ـ منازعة فى مال كان بينهما بذى المَروة ، فكأن الوليد تحامل على الحسين فى حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفنّى من حقى ، أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله ﷺ ، ثم لأدعوَنّ بحلف الفضول . قال : فقال عبد الله بن الزبير ـ وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال ـ وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه حتى يُنصَف من حقه أو نموت جميعاً . قال : فبلغت المِسوَر بن مخرمة بن نوفل الزهرى فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عُبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ بن عتبة أنصف الحسينَ من حقه حتى رضى .

فصـــــل
فى تزويجه ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال على مالها مُضارَبة . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها ؛ من صدق حَديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجراً إلى الشام ، وتُعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار ـ مع غلام لها يقال له مَيسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذاك ، وخرج معه غلامُها مَيسرة حتى نزل الشام ، فنزل رسول الله ﷺ فى ظِلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطّلع الراهب إلى مَيسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحـرم ، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبىّ . ثم باع رسول الله ﷺ سلعته ـ يعنى تجارته ـ التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى . ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعـه مَيسرة ، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى مَلَكين يُظلانه من الشمس ، وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً ، وحَدّثها مَيسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال الملائكة

إياه ، وكانت خديجة امرأةً حازمة شريفة لبيبةً ، مع ما أراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها مَيسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له - فيما يزعمون - يا بن عم ! إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [1] فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه . وكانت أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا ؛ كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حَمزةُ حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام [2] . قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله ﷺ ولَدَه كلَّهم إلا إبراهيم : القاسمَ - وكان به يكنى - والطّيب ، والطاهر ، وزينب ، ورُقيّة ، وأم كُلثوم ، وفاطمة . قال ابن هشام . أكبر بنيه القاسم . ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

قال البيهقى عن الحاكم : قرأت بخط أبى بكر بن أبى خيثمة ، حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله . وبلغت خديجة خمساً وستين سنة ، ويقال خمسين وهو أصح . وقال غيره : بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ، ثم مات بعد النبوة ، وقيل مات وهو رضيع ، فقال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً فى الجنة يستكمل رضاعه » ، والمعروف أن هذا فى حق إبراهيم . وقال يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم عن ابن عباس قال : ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية . وقال الزبير بن بكار : عبد الله - هو الطيب وهو الطاهر ؛ سمى بذلك لأنه ولد بعد النبوة . قال ابن إسحاق : فأما القاسم والطيب الطاهر - فماتوا قبل البعثة . وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن فى الإسلام وهاجرن معه ﷺ . قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية التى أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية من كورة أَنْصِنا [3]

---

(١) السطة : قال السهيلى : هى من الوسط ؛ وهو من أوصاف المدح والتفضيل .

(٢) قيل : إن الذى أنكح خديجة - عمها عمرو بن أسد ، والذى نهض مع رسول الله هو عمه أبو طالب .

(٣) مدينة أزلية من نواحى الصعيد بشرقى النيل .

وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام فى باب مفرد لذلك فى آخر السيرة إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

قال ابن هشام : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثنى غير واحد من أهل العلم ، منهم أبو عمرو المدنى . وقال يعقوب بن سفيان : كتبت عن إبراهيم بن المنذر ، حدثنى عمر بن أبى بكر المؤملى ، حدثنى غير واحد : أن عمرو بن أسد زَوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبنى الكعبة . وهكذا نقل البيهقى عن الحاكم : أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة ، وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين ، وقيل خمساً وعشرين سنة .

وقال البيهقى : [باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن عبد الله ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا عمرو بن أبى يحيى بن سعيد القرشى عن جده سعيد عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » . فقال له أصحابه وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط » . رواه البخارى عن أحمد بن محمد المكى عن عمرو بن يحيى . ثم روى البيهقى من طريق الربيع بن بدر ـ وهو ضعيف ـ عن أبى الزبير عن جابر . قال : قال رسول الله ﷺ : « آجرت نفسى من خديجة سفرتين بقلوص » .

وروى البيهقى من طريق حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عمار بن أبى عمار عن ابن عباس : أن أبا خديجة زوج رسول الله ﷺ وهو ـ أظنه قال ـ سكران . ثم قال البيهقى : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، قال حدثنى إبراهيم بن المنذر ، حدثنى عمر بن أبى بكر المؤملى ، حدثنى عبد الله بن أبى عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبى القاسم ـ مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ أن عبد الله بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها ؛ إنى كنت له ترباً ، وكنت له إلفاً وخِدنا ، وإنى خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم ، حتى إذا كنا بالحَزْورة [1] أجزنا على أخت خديجة وهى جالسة على أَدَم [2] تبيعها ،

---

(١) الحزورة ـ كقسورة : الرابية الصغيرة .

(٢) الأدم ـ محركة : التمر البرنى .

فنادتنى فانصرفت إليها ، ووقف لى رسول الله ﷺ فقالت أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة ؟ قال عمار فرجعت إليه فأخبرته فقال : « بلى لعمرى » ، فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصفرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقى خمراً ، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانته وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة ، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال : ما هذه الحلة ؟ وما هذه الصفرة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التى كانت قد كلمت عماراً : هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك ، فذبحناها حين زوجته خديجة ، فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحِجر . وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاءوه فكلموه ، فقال أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليه قال : إن كنت زوجته فسبيل ذاك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته .

وقد ذكر الزهرى فى سيره : أنا أباها زوجها منه وهو سكران ، وذكر نحو ما تقدم ، حكاه السهيلى . قال المؤملى : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها منه ، وهذا هو الذى رجحه السهيلى ، وحكان عن ابن عباس وعائشة . قالت : وكان خويلد مات قبل الفجار ، وهو الذى نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ، ثم رأى تبع فى منامه ما روعه ، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه . وذكر ابن إسحاق فى آخر السيرة : أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذى زوجها رسول الله ﷺ فالله أعلم .

فصــــــل
فيما كان بين خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل بشأنه ﷺ

قال ابن إسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لوَرقة بن نَوفل بن أسَد بن عبد العزى بن قصى ـ وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تَتبع الكتب وعَلم من عِلم الناس ـ ما ذكر لها غلامُها من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظلانه ؛ فقال ورَقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإن محمداً لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبىّ يُنتظر هذا زمانه ـ أو كما قال ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول : حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لجِجتُ وكنتُ فى الذكر لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النّشيجا
ووصفٍ من خديجةَ بعد وصفٍ ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكّتين على رجائى ... حديثكِ أن أرى منه خروجا
بما خَبرتنا من قول قَسّ ... من الرهبانِ أكره أن يعوجا
بأنّ محمداً سيسودُ قوماً ... ويَخصِم من يكون له حجيجا
ويُظهر فى البلاد ضياءَ نور ... يُقيم به البريةَ أن تموجا
فَيلقى مَن يحاربُه خَساراً ... ويَلقى من يُسالمه فلُوجا
فياليتى إذا ما كان ذاكم ... شهدتُ وكنتُ أولهم وُلوجا
وُلوجاً فى الذى كَرِهَتْ قريشٌ ... ولو عَجّت بمكّتِها عجيجا
أُرَجّى بالذى كرهوا جميعاً ... إلى ذى العرش إن سَفَلوا عُروجا
وهل أمر السّفالة غيرُ كفر ... بمن يختار من سَمَك البروجا
فإن يَبْقَوْا وأَبقَ تكن أمورٌ ... يَضِجُّ الكافرون لها ضجيجا
وإنْ أَهلكْ فكلُّ فتىً سيلقى ... من الأقدار مُتلفةً خروجا

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه :

أتُبكر أم أنت العشية رائح ... وفى الصدر من إضمارك الحزنُ قادحُ
لفُرقةِ قومٍ لا أُحِبُّ فراقَهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازحُ
وأخبار صدقٍ خبّرت عن محمدٍ ... يخبرها عنه إذا غاب ناصحُ
أتاك الذى وجهت يا خير حرة ... بِغَوْرٍ وبالنجدَيْن حيث الصحاصحُ
إلى سوق بُصرى فى الركاب التى غدت ... وهنّ من الأحمال قُعْصٌ دوالحُ [1]
فيخبرنا عن كل خير بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتحُ
بأن ابنَ عبد الله أحمدَ مرسلٌ ... إلى كلِ من ضمتْ عليه الأباطحُ
وظنى به أن سوف يُبْعَثُ صادقاً ... كما أرسل العبدانِ هودٌ وصالحُ
وموسى وإبراهيمُ حتى يُرَى له ... بهاءٌ ومنشورٌ من الذكر واضحُ
ويَتْبَعهُ حَيا لؤى وغالب ... شبابهم والأشيبونَ الجحاجحُ
فإن أبقَ حتى يدركَ الناسُ دهرَهُ ... فإنِّى به مستبشرُ الوُدِّ فارحُ

---

(١) القعوص : التى تضرب حالبها وتمنع الدرة . ودلح : مشى بحمله منقبض الخطو لثقله .

وإلا فإنِّى يا خديجةُ فاعلمى عن ارضك فى الأرض العريضة سائحُ

وزاد الأموى :

فَمُتَّبِع دينَ الذي أَسَّسَ البنا وكان له فضلٌ على الناس راجحُ
وأسس بُنياناً بمكة ثابتاً تلألأ فيه بالظلام المصابحُ
مَثاباً لأفناء القبائل كلِّها تخب إليه اليَعْمُلاتُ الطلائحُ
حراجيجُ أمثالُ القداح مِن السرى يَعلقُ فى أرساغهن السرايحُ

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلى فى روضه :

لقد نصحت لأقوامٍ وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحدُ
لا تعبدُنَّ إلهاً غير خالقِكم فإن دَعَوْكُمْ فقولوا بيننا حددُ
سبحان ذى العرشِ سبحاناً يدوم له وقبلَنا سبح الجوديُّ والجمدُ
مُسَخَّرٌ كل ما تحت السماء له لا ينبغى أن يناوى ملكَهُ أحدُ
لا شىء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودَى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خَلَدُوا
ولا سلَيمان إذ تجرى الرياح به والجن والإنس فيما بينها مردُ
أين الملوك التى كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفدُ ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

ثم قال : هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة ، قال : وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبى الصلت .

قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يستشهد فى بعض الأحيان بشىء من هذه الأبيات ، والله أعلم .

---

(١) الحراجيج . جمع حرجيج ، وهى الناقة الطويلة .

فصـــل
فى تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقى بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة . والمشهور أن بناء قريش الكعبة كان بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين . ثم شرع البيهقى فى ذكر بناء الكعبة فى زمن إبراهيم كما قدمنا فى قصته ، وأورد حديث ابن عباس المتقدم فى صحيح البخارى ، وذكر ما ورد من الإسرائيليات فى بنائه فى زمن آدم . ولا يصح ذلك ؛ فإن ظاهر القرآن يقتضى أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه ، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرفة فى سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى : ﴿ **إن أولَ بيتٍ وُضع للناسِ للذى ببكةَ مباركاً وهدًى للعالمين . فيه آياتٌ بيناتٌ مقام إبراهيمَ ومن دخله كان آمنا ، وللهِ على الناسِ حجُّ البيتِ من استطاع إليه سبيلا** ﴾ [1] .

وثبت فى الصحيحين عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم ، وأن المسجد الأقصى أسسه إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام . وفى الصحيحين : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة » ، وقال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ، حدثنا أحمد بن مهران ، حدثنا عبد الله ، حدثنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : كان البيت قبل الأرض بألفى سنة ، ﴿ **وإذا الأرضُ مُدَّتْ** ﴾ [2] قال من تحته مدت . قال وقد تابعه منصور عن مجاهد .

قلت : وهذا غريب جداً ، وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك ، وكان فيهما إسرائيليات يحدث منها ، وفيهما منكرات وغرائب .

ثم قال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله البغدادى ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبو صالح

---

(١) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ٣ سورة الانشقاق .

الجهنى ، حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى أجابه الماء ، فنودى من تحته حسبك يا آدم ، فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ؛ وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » . قال البيهقى : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً . قلت : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت ، والله أعلم .

وقال الربيع : أنبأنا الشافعى ، أنبأنا سفيان عن ابن أبى لبيد عن محمد بن كعب القرظى ـ أو غيره ـ قال : حج آدم فلقيته الملائكة ، فقالوا بر نسكك يا آدم ؛ لقد حججنا قبلك بألفى عام . وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، حدثنى بقية ـ أو قال ثقة ـ من أهل المدينة ، عن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبى إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح . قلت : وقد قدمنا حجهما إليه . والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثَمَّ بناء ، والله أعلم .

ثم أورد البيهقى حديث ابن عباس المتقدم فى قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو فى صحيح البخارى . ثم روى البيهقى من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل علياً عن قوله تعالى : **﴿إن أولَ بيتٍ وُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين﴾** . أهو أول بيت بنى فى الأرض؟ قال لا ـ ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . وإن شئت نبأتك كيف بناؤه ؛ إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض ، فضاق به ذرعا ، فأرسل إليه السكينة وهى ريح خجوج لها رأسان ، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، ثم تطوقت [1] فى موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم حتى بلغ مكان الحجر ، فقال لابنه أبغنى حجراً ، فالتمس حجراً حتى أتاه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب فى مكانه ، فقال لأبيه : من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لا يتكل على بنائك ؛ جاء به جبريل من السماء فأتماه . قال : فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب .

---

(١) وروى : تطوت كتطوى الحية .

فلمـا أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ؛ فقالوا : نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم ، فقضى بينهما أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم . وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام ـ كلهم عن سماك بن حرب ـ عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبى طالب قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب ، فدخل رسول الله ﷺ من باب بنى شيبة : فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثـوب فرفعـوه ، وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه . قال يعقوب بن سفيان : أخبرنى أصبغ بن فرج ، أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى إذا بنوها ، وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أى القبائل تلى رفعه ؟ فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة[1] فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعـطاه ناحية من الثـوب ، ثم ارتقى هو فرفعـوا إليه الركن ، فكان هو يضعه . فكان لا يزداد على السن إلا رضى ، حتى دعـوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى ، فطفقوا لا ينحـرون جزوراً إلا التمسـوه فيدعـو لهم فيهـا . وهـذا سياق حسن ، وهو من سير الزهرى ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة ، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله .

وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وغيرهم ، فالله أعلم . وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة . قلت : وكان الفجار وحلف الفضول فى سنة واحدة ؛ إذ كان عمر رسول الله ﷺ عشرين سنة . وهذا يؤيد ما قاله محمد بن إسحاق ، والله أعلم .

قال موسى بن عقبـة : وإنمـا حمـل قريشاً على بنائها ـ أن السيول كانت تأتى من فوقها ؛ من فوق الردم الذى صفـوه فخر به فخافوا أن يدخلها الماء . وكان رجل يقال له

---

(١) النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود .

مليح سرق طيب الكعبة ، فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا ، فأعدا لذلك نفقة وعمالاً ، ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذى أرادوا . فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً ـ الوليد بن المغيرة ، فلما رأوا الذى فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك ، فلما أرادوا أن يأخذوا فى بنيانها أحضروا عمالهم ، فلم يقدر رجل منهم أن يمضى أمامه موضع قدم . فزعموا أنهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها ، فأشفقوا منها شفقة شديدة ، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا فى هلكة . وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم ، فلما سقط فى أيديهم والتبس عليهم أمرهم ـ قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، فذكر ما كان من نصحه لهم ، وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا فى بنائها ، وأن يقتسموها أرباعاً ، وأن لا يدخلوا فى بنائها مالاً حراماً . وذكر أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الحية فى السماء وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل قال : ويقول بعض الناس إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقّفوها ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضماً فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتَسقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وُجد عنده الكنز دُويكاً مولى لبنى مَليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده ، وتَزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك . وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدّة لرجل من تجار الروم ، فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها . قال الأموى : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ، تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد ، سرحها قيصر مع باقوم الرومى إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس للحبشة ، فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة رجل قِبطى نجار ، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعضُ ما يصلحها . وكانت حَيّة تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم فتتشرق [1] على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَألّت وكشت [2] وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينما هى يوماً تتشرق على جدار الكعبة

---

(١) أى تقعد عند الشروق فى موضع الشمس ، وروى : فتشرف .

(٢) احزألت : أى رفعت رأسها وانضمت واستوفزت للوثوب . وكشت : أى صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض .

كما كانت تصنع ، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ما أردنا ؛ عندنا عامل رفيق وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

وحكى السهيلى : عن رزين ـ أن سارقاً دخل الكعبة فى أيام جرهم ليسرق كنزها ، فانهار البئر عليه ، حتى جاءوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه . ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كرأس الجدى ، وبطنها أبيض وظهرها أسود ، فأقامت فيها خمسمائة عام ، وهى التى ذكرها محمد بن إسحاق .

قال محمد بن إسحاق : فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ـ وقال ابن هشام عائذ بن عمران بن مخزوم ـ فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ! لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً . لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس . والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . ثم رجح ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو ، قال : وكان خال أبى النبى ﷺ وكان شريفاً ممدحاً .

وقال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً جَزّأت [1] الكعبة ؛ فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزُهرة . وما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم . وكـان ظهر الكعبة لبنى جُمَح وَسهم . وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد المعزّى ، ولبنى عدى بن كعب ـ وهو الحطيم . ثم إن الناس هابوا هدمها وفَرقوا منه ؛ فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إن لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين . فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ؛ فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا من هدمها . فأصبح الوليد غادياً على عمله ، فهدَم وهدَم الناس معه ، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ـ أساس إبراهيم عليه السلام ـ أفضَوا إلى حجارة خضر كالأسنمة [2] آخذ بعضها بعضاً . ووقع فى صحيح البخارى عن يزيد بن رومان ـ كأسنمة الإبل ، قال السهيلى : وأرى رواية السيرة كالألسنة وهماً ، والله أعلم .

---

(١) فى نسخة : تجزأت .

(٢) فى رواية : كالأسنة ـ جمع سنان .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض من يروى الحديث ، أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عَتلةً بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت [١] مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس . وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلا من قريش ، لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ عمد إلى حجر من الأساس الأول فرفعه ، وهو لا يدرى أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع [٢] بصر الرجل ، ونزا الحجر من يده فوقع فى موضعه ، وفزع الرجل والبناة . فلما ستر الحجر عنهم ما تحته إلى مكانه ، عادوا إلى بنيانهم وقالوا لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه .

قال ابن إسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا فى الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : أنا الله ذو بَكّة ، خلقتها يوم خلقت السموٰات والأرض ، وصورتُ الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حُنفاء ، لا تزول حتى يزول أخشباها ـ قال ابن هشام : يعنى جبلاها ـ مبارك لأهلها فى الماء واللبن .

قال ابن إسحاق : وحُدّثت أنهم وجدوا فى المقام كتاباً فيه : مكة بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاث سبل ، لا يحُلّها أولُ مِن أهلها . قال : وزعم ليث بن أبى سليم أنهم وجدوا حجراً فى الكعبة قبل مبعث النبى ﷺ بأربعين سنة ـ إن كان ما ذكر حقاً ـ مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة . تعملون السيئات وتجزون الحسنات ! أجل ، كما لا يجتنى من الشوك العنب .

وقال سعيد بن يحيى الأموى : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقى عن عبد الله بن بشر الزهرى ـ يرفع الحديث إلى النبى ﷺ ـ قال : « وجد فى المقام ثلاثة أصفح ؛ فى الصفح الأول : إنى أنا الله ذو بكة ، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها فى اللحم واللبن . وفى الصفح الثانى : إنى أنا الله ذو بَكة ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ؛ فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته . وفى الصفح الثالث : إنى أنا الله ذو بَكة ، خلقت الخير والشر وقدرته ، فطوبى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشر على يديه .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كلّ قبيلة تجمع

---

(١) يريد : اهتزت

(٢) أى تخطفه وتذهب به .

على حدة . ثم بَنوها حتى بلغ البناء موضع الرُّكن فاختصموا فيه ؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءةً دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لُؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة . فسموا « لعَقة الدم » . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً . ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا ؛ فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وكان عامئذ أسن قريش كلها ـ قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب [1] هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا . فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله ﷺ : « هلموا إلى ثوباً » ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ ـ الأمين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا ثابت ـ يعنى أبا يزيد ، حدثنا هلال ـ يعنى ابن حبان ، عن مجاهد عن مولاه ـ وهو السائب بن عبد الله ، أنه حدثه : أنه كان فيمن بنى الكعبة فى الجاهلية قال : وكان لى حجر ، أنا نحته أعبده من دون الله ، قال : وكنت أجىء باللبن الخاثر الذى آنفه على نفسى فأصبه عليه ، فيجىء الكلب فيلحسه ، ثم يشغر [2] فيبول عليه . قال : فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد ، فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل ، يكاد يتراءى منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش : نحن نضعه ، وقال آخرون نحن نضعه . فقالوا : اجعلوا بينكم حكما ، فقالوا : أول رجل يطلع من الفج . فجاء رسول الله ﷺ فقالوا : أتاكم الأمين ، فقالوا له : فوضعه فى ثوب ، ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو ﷺ .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانىَ عشرةَ ذراعاً . وكانت تُكسى القَبَاطِى [3] ، ثم كسيت بعد البرود . وأول من كساها الديباجَ الحجاج بن يوسف .

---

(١) قيل هو : باب بنى شيبة ، وكان يقال له فى الجاهلية : باب بنى عبد شمس ، ويقال له الآن : باب السلام .

(٢) قال فى القاموس : شغر الكلب : رفع إحدى رجليه بال أو لم يبل ـ أو فبال .

(٣) قال فى اللسان : القبطية ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر . وهى منسوبة إلى القبط ـ وهم جيل بمصر ـ على غير قياس ، والجمع قباطى .

قلت : وقد كانوا أخرجوا منها الحِجر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ حين قصرت بهم النفقة ، أى لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم . وجعلوا للكعبة بابا واحداً من ناحية الشرق ، وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا . وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألم ترَىْ أن قومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حِدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً غربياً ، وأدخلت فيها الحجر » . ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ ، وجاءت فى غاية البهاء والحسن والسناء ؛ كاملة على قواعد الخليل ؛ لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً ؛ يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر . فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير ، واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه ؛ فعمدوا إلى الحائط الشامى فحصوه وأخرجوا منه الحجر ، ورصوا حجارته فى أرض الكعبة فارتفع باباها ، وسدوا الغربى . واستمر الشرقى على ما كان عليه . فلما كان فى زمن المهدى ـ أو ابنه المنصور ـ استشار مالكا فى إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير ، فقال مالك رحمه الله : إنى أكره أن يتخذها الملوك ملعبة ، فتركها على ما هى عليه ، فهى إلى الآن كذلك .

وأما المسجد الحرام : فأول من أخر البيوت من حول الكعبة ـ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ اشتراها من أهلها وهدمها . فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه . فلما ولى ابن الزبير أحكم بنيانه وحسن جدرانه وأكثر أبوابه ، ولم يوسعه شيئاً آخر . فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد فى ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج . وكان الذى تولى ذلك بأمره ـ الحجاجُ بن يوسف . وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة فى ذلك فى تفسير سورة البقرة عند قوله : ﴿ **وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيل** ﴾ [1] ، وذكرنا ذلك مطولا مستقصى ، فمن شاء كتبه هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا ـ قال الزُّبير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبتُ لِما تصوَّبت العُقابُ ... إلى الثعبانِ وهى لها اضطرابُ
وقد كانت يكون لها كَشِيشٌ ... وأحياناً يكون لها وِثابُ

---

(١) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

إذا قمنـا إلى التـأسيس شَدّتْ ... تُهـيِّبُـنـا الـبـنـاءَ وقـد تُهـابُ
فلمـا أن خشينـا الـرِّجزَ جاءتْ ... عُقـابٌ تَتـلَئِـبُّ لهـا انـصبـابُ
فضـمّـتـهـا إلـيهـا ثم خلّتْ ... لنـا الـبـنـيانَ ليس له حِجـابُ
فقـمـنـا حاشـدين إلى بنـاءٍ ... لنـا منـه الـقـواعـدُ والـتـرابُ
غداةَ نَرفـع الـتـأسـيسَ منـه ... ولـيس على مُسَـوّينـا[١] ثيابُ
أعـزّ به الـمـليكُ بنـى لُؤَيٍّ ... فليس لأصـله منـهـم ذهـابُ
وقـد حَشـدت هناك بنو عديٍّ ... ومُـرَّةُ قد تقـدمـهـا كلابُ
فبـوّأنـا الـمـليكُ بذاك عزًّا ... وعـنـد الله يُلْتَـمَسُ الـثـوابُ

وقد قدمنا فى فصل ما كان الله يحوط به رسوله ﷺ من أقذار الجاهلية ، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة ، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه ، نهى عن خلع إزاره ، فأعاده إلى سيرته الأولى .

فصـــل [فى الحمـــس]

وذكر ابن إسحاق ماكانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحُمس ، وهو الشّدة فى الدين والصلابة ؛ وذلك لأنهم عظّموا الحرم تعظيماً زائداً ؛ بحيث التزموا بسببه أن لايخرجوا منه ليلة عرفة . وكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقُطّان بيت الله ، فكانوا لايقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام ، حتى لايخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة . وكانوا لايدخرون من اللبن أقِطّ[٢] ولا سمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون ـ إن استظلوا ـ إلاّ ببيت من أدَم . وكانوا يمنعون الحجيج والعمّار ـ ماداموا محرمين ـ أن يأكلوا إلا من طعام قريش ، ولا يطوفوا إلا فى ثياب قريش ، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحُمس ـ وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة ـ طاف عرياناً ، ولو كانت امرأة ، ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك ـ وضعت يدها على فرجها وتقول :

الـيومَ يبـدو بعَـضُـه أو كُلّه ... وبـعـد هذا الـيوم لا أُحـلّه[٣]

---

(١) ويروى : على مساوينا ثياب .
(٢) قال فى اللسان : الأقط ـ مثلثة : شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل .
(٣) فى ابن هشام : وما بدا منه فلا أحله .

فإن تكرّم أحد ممن يجد ثوب أحمسى ـ فطاف فى ثياب نفسه ـ فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللَّقى قال بعض الشعراء :

كفى حَزَنا كرّى علَيه كأنه ... لقًى بين أيدى الطائفين حريم

قال ابن إسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه ، فقال : ﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس** ﴾ أى جمهور العرب من عرفات ، ﴿ **واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [1] . وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقاً من الله له ، وأنزل الله عليه رداً عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس : ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . .** ﴾ [2] الآية . وقال زياد البكائى عن ابن إسحاق : ولا أدرى أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده .

كتاب مبعث رسول الله ﷺ وذكر شىء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : وكانت الأحبار من اليهود ، والكهان من النصارى ومن العرب ـ قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه ؛ لما تقارب زمانه . أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعمّا وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . قال الله تعالى : ﴿ **الذين يتّبعون الرسول النبى الأُمِّىَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ [3] الآية . وقال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسولُ اللهِ إليكم مُصدِّقاً لما بين يدىَّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ [4] ، وقال الله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رُحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل . . . .** ﴾ [5] الآية . وقال الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم**

---

(١) الآية : ١٩٩ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف .

(٣) الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٤) الآية : ٦ من سورة الصف .

(٥) آخر سورة الفتح .

مِن كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمِنُنَّ به ولتنصرُنَّه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [(١)]. وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنّه وليتبعُنّه » . يُعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه . وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : **﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك . . ﴾** [(٢)] الآية .

وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر ، سمعت أبا أمامة قال : قلت يارسول الله ! ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » . وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله . ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره ؛ فذكر دعوة إبراهيم الذى تنسب إليه العرب ، ثم بشرى عيسى الذى هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل كما تقدم وهذا يدل على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً .

أما فى الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام . كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عبد الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين » . وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت : يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » . تفرد بهن أحمد .

---

(١) الآية : ٨١ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٢٩ من سورة البقرة .

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين فى كتاب دلائل النبوة من حديث أبى هريرة فقال : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ـ يعنى أبا القاسم البغوى ـ حدثنا أبو همام الوليد ابن مسلم عن الأوزاعى ، حدثنى يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ ـ متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » . ورواه من وجه آخر عن الأوزاعى به ، وقال : « وآدم منجدل فى طينته » . وروى عن البغوى أيضاً عن أحمد بن المقدام عن بقية بن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى هريرة ـ مرفوعاً ـ فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح** ﴾ [1] ، قال رسول الله ﷺ : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » . ومن حديث أبى مزاحم عن قيس ابن الربيع عن جابر عن الشعبى عن ابن عباس ، قيل : يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع ؛ إذ كانت وهى لا تُحْجَب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولا تُلقى العرب لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ، فلما تقارَب أمرُ رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه ـ حُجِبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرُموا بالنجوم ، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدَث من أمر الله عز وجل . قال : وفى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **قل أوحى إلَيّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ [2] إلى آخر السورة . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى كتابنا التفسير ، وكذا قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قُضِى ولّوْا إلى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ [3] الآيات ، وقد ذكرنا تفسير ذلك كله هناك .

قال محمد بن إسحاق : حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس ـ أنه حدّث : أن أول العرب فَزِع للرمى بالنجوم حين رمى بها ـ هذا الحى من ثقيف ، وأنهم جاءوا

---

(١) الآية : ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآيتان : من أول سورة الجن .

(٣) الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ من سورة الأحقاف .

إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ـ أحد بنى عِلاج ، وكان أدهى العرب وأمكرها ، فقـالوا له : ياعمرو ! ألم تر ماحدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ؛ فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس فى معايشهم ـ هى التى يرمى بها ، فهو والله طى الدنيا ، وهلاك هذا الخلق ، وإن كانت نجوماً غيرها وهى ثابتة على حالها ـ فهذا لأمرٍ أراد الله به هذا الخلق ، فما هو ؟.

قال ابن إسحـاق : وحـدثنى بعض أهل العلم : أن امرأة من بنى سهم ـ يقال لها الغيطلة ـ كانت كاهنة فى الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلةً من الليالى ، فانقض تحتها ، ثم قال : أَدْر ما أَدْر ؛ يوم عَقْرٍ ونَحر ، فقالت قريش حين بلغها ذلك : ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شُعوب ما شُعوب ، تُصرع فيه كَعب لجنوب . فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن ، فانظروا ماهو؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأُحد بالشعب ، فعرفوا أنه كان الذى جاء به إلى صاحبته .

قال ابن إسحاق : وحدثنى على بن نافع الجرشى أن جَنْباً ـ بطنٌ من اليمن ـ كان لهم كاهن فى الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر فى العرب ، قالت له جَنْب : انـظُر لنا فى أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ، ثم قال : أيها الناس ! إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومُكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد فى جبله راجعاً من حيث جاء ، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب ، وقد أخرناها إلى هواتف الجان .

فصـــــل

[فى إنذار يهود برسول الله وقصة إسلام سلمان الفارسى]

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجال من يهود ، وكنّا أهلَ شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن ، نقتلكم معه قَتلَ عاد وإرَم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ ـ أَجَبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا به . فبادرناهم إليه ،

فآمنا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ (١) .

وقال ورقاء عن ابن أبى نجيح عن على الأزدى : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبى يحكم بيننا وبين الناس ، يستفتحون به ـ أى يستنصرون به ، رواه البيهقى . ثم روى من طريق عبد الملك بن هارون بن عنبرة عن أبيه عن جده عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس ، قال : كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه فى آخر الزمان ـ إلا نصرتنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . فلما بعث النبى ﷺ كفروا به ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** . . ﴾ الآية ، وروى عطية عن ابن عباس نحوه وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود ابن لَبيد عن سلَمة بن سلامة بن وَقش ـ وكان من أهل بدر ، قال : كان لنا جار من يَهود فى بنى عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذ من أَحْدث من فيه سنًا على فروة (٢) لى مضطجع فيها بفناء أهلى ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار . قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لايَرَون أنّ بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يافلانُ ! أو ترى هذا كائناً ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ؛ يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يُحلف به ، ولودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظَم تنور فى الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وأن ينجونّ من تلك النار غداً . فقالوا له ويحك يافلان ! فما آية ذلك ؟ قال نبى مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن . قالوا ومتى نراه ؟ قال : فنظر إلىّ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال : إن يَستنفد هذا الغلامُ عمرَه يدركه . قال سلمة : فوالله ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً . قال فقلنا له : ويحك يافلان ! ألست

---

(١) الآية : ٨٩ من سورة البقرة .

(٢) فى نسخة : على بـردة .

بالذى قلت لنا فيه ماقلت ؟ قال بلى ، ولكن ليس به . رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه البيهقى عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن كبير .

وروى أبو نعيم فى الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد ابن سلمة قال : لم يكن فى بنى عبد الأشهل إلا يهودى واحد يقال له يوشع ، فسمعته يقول - وإنى لغلام فى إزار - قد أظلكم خروج نبى يبعث من نحو هذا البيت ، ثم أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدقه . فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا ، ولم يُسلم حسداً وبغياً . وقد قدمنا حديث أبى سعيد عن أبيه فى أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته . وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ . ورواه الحاكم عن البيهقى بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه .

قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عُمر بن قَتادة عن شيخ من بنِى قريظة قال : قال لى : هل تدرى عمّ كان إسلام ثَعلبة بن سَعية وأُسَيد بن سَعية ، وأسعد بن عبيد - نفرٍ من بنى هدل ، إخوة بنى قريظة كانوا معهم فى جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم فى الإسلام . قال : قلت : لا ، قال : فإن رجلا من اليهود من أرض الشام يقال له « ابن الهَيِّبان » قدم علينا قبيل الإسلام بسنين ، فحلَّ بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قطّ لا يصلى الخمس أفضلَ منه ، فأقام عندنا ، فكنا إذا قَحط عنا المطر قلنا له : اخرج يابن الهيِّبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تُقدِّموا بين يدى مَخْرجكم صدقة ، فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر ، أو مدَّين من شعير . قال فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرتنا فيستسقى لنا ، فوالله مايبرح مجلسه حتى يمرّ السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث . قال ثم حضرته الوفاة عندنا : فلما عَرف أنه ميت قال : يامعشر يهود ! ماترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال قلنا : أنت أعلم . قال فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّف خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تُسبقُنّ إليه يامعشرَ يهود ؛ فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممّن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بنى قريظة ، قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداثاً : يابنى قريظة ! والله إنه لَلنّبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهَيِّبان ، قالوا ليس به . قالوا بلى ، والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قلت : وقد قدمنا فى قدوم تبّع اليمانى وهو أبو كرب تبّان أسعد إلى المدينة ومحاصرته

إياها ، وأنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود ، فقالا له : إنه لاسبيل لك عليها ؛ إنها مُهاجَر نبيّ يكون فى آخر الزمان ، فثناه ذلك عنها . وقد روى أبو نعيم فى الدلائل من طريق الوليد بن مسلم ، حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال : قال عبد الله بن سلام : إن الله لما أراد هدى زيد بن سعية ، قال زيد : لم يبق شىء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ـ إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة إسلافِه للنبى ﷺ مالاً فى ثمرة ، قال فلما حلَّ الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو فى جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : يامحمد ألا تقضينى حقى ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لَمُطل . قال فنظر إلىَّ عمر وعيناه يدوران فى وجهه كالفلك المستدير . ثم قال : ياعدو الله ! أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتفعل ما أرى ؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر ؛ أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة [1] ، اذهب به ياعمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر » . فأسلم زيد بن سعية رضى الله عنه . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وتوفى عام تبوك رحمه الله .

ثم ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ إسلام سلمان الفارسى رضى الله عنه وأرضاه فقال : حدثنى عاصم بن عمر بن قَتادة الأنصارى عن محمود بن لبِيد ، عن عبد الله بن عباس ، قال : حدثنى سلمان الفارسى ـ وأنا أسمع من فيه ـ قال : كنت رجلا فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جىّ ، وكان أبى دُهقان [2] قريته ، وكنت أحبَّ خلق الله إليه ، فلم يزل حبّه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قاطِن النار [3] التى يوقدها ، لايتركها تَخبو ساعة . قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال فشغل فى بنيان له يوماً فقال لى : يابنىّ ! إنى قد شُغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب إليها فاطّلعها ، وأمرنى فيها ببعض مايريد . ثم قال

---

(١) أى التتبع والتطلب ، والتبيع : الذى لك عليه مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أى ثائراً ولا مطالباً .

(٢) أى رئيسها . والدهقان : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٣) أى خادمها ، يقال : قطن فلاناً ـ خدمه فهو قاطن .

لى : ولا تحتَبس عنى فإنك إن احتبست عنى كنتَ أهمَّ إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى .

قال فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لاأدرى ما أَمْرُ الناس ؛ لحبس أبى إياى فى بيتـه . فلمـا سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبتُ فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه . فوالله مابرحتُهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله . فلما جئت قال أى بنى ! أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ماعهدته ؟ قال : قلت ياأبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى مارأيت من دينهم ، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال أى بنى ! ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ؛ قال : قلت كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قَدِم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام ، فجاءونى النصارى فأخبرونى بهم . فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى . قال : فلما أرادوا الرّجعة إلى بلادهم أخبـرونى بهم ، فألقيت الحـديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشـام . فلمـا قدمتُهـا قلت : من أفضـل أهـل هذا الدين علماً ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة . قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك فأصلى معك . قال : ادخُل ، فدخلت معه ، فكان رجُلَ سَوْء ؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبعَ قِلال من ذهب ووِرق ، قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع . ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه ، فقلت : لهم : إن هذا كان رجل سَوْء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً . قال : فقالوا لى وما علمك بذلك ؟ قال : فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه ، قالوا فدلّنا قال : فأريتهم موضعَه فاستخرجوا سَبع قِلال مملوءة ذهباً وورِقاً ، فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبداً ، قال : فصلبوه ورجَموه بالحجارة . وجاءوا برجلَ بآخر فوضعوه مكانه .

قال سلمـان : فما رأيت رجلاً لايصلى الخمس أرَى أنه كان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ولا أداب ليلا ونهاراً منه . قال فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله . قال : فأقمت معه زماناً . ثم حضرته الوفاة فقلت له : إنى قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك مانرى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى به ؟ قال : أى بنى : والله ما أعلم اليوم أحداً على ماكنتُ عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب الموصل ؛ فقلت يافلان ! إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره ، فقال لى أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته خيرَ رجلٍ على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات . فلما حضرته الوفاة قلت له يافلان ! إن فلاناً أوصى بى إليك ، وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال يابنى والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجـلا بنَصِيبين [1] ، وهو فلان فالحق به . فلما مات وغيب لحقت بصاحب نَصِيبين فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحباى . فقال أقم عندى ، فأقمت عنده . فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله مالبث أن نزل به الموتُ ، فلما حُضِر قلت له يافلانُ ! إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه ، إلا رجل بعمُّورية من أرض الروم ، فإنه على مثل مانحن عليه ، فإن أحببت فَأْتِهِ فإنه على أمرنا .

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمّورية فأخبرته خبرى ، فقال أقم عندى . فأقمت عنـد خير رجـل على هَدى أصحابه وأمرهم . قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغُنَيمة ، قال ثم نزل به أمر الله ، فلما حُضِر قلت له يافلان ! إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال أى بنى ! والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى مبعوث بدين

---

(١) بلد كانت قاعدة ديار ربيعة ، والنسبة إليها ـ نصيبينى ونصيبى .

إبـراهيم ، يخـرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى الأرض بين حَرتين ، بينهما نخل ، به علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل : قال . ثم مات وغيب ، ومكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث .

ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغُنيمتى هذه ، قالـوا نعم ، فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولم يَحِقّ فى نفسى . فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قُريظة من المدينة ، فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ماهو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى لها فأقمت بها وبُعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ؛ لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرِّق . ثم هاجر إلى المدينة ؛ فوالله إنى لفى رأس عَذق لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يافلان ! قاتل الله بَنى قَيلة ؛ والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى .

قال سلمـان الفـارسى : فلما سمعتها أخذتنى الرِّعدة حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنـزلْت عن النخلة فجعلت أقـول لابن عمه ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدى فلَكمنى لكمة شديدة ، ثم قال مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك . قال : فقلت لاشىء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال : وقد كان عندى شىء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ ـ وهو بقباءَ ـ فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غُرباء ذوو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم . قال فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحـابـه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل ، فقلت فى نفسى : هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته فقلت له إنى قد رأيتك لاتأكل الصدقة وهذه هديَّة أكرمتك بها ، قال فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحـابه فأكلوا معه ، قال : فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان . قال : ثم جئت رسـول الله ﷺ وهو ببقيع الغَرقَد [١] قد تبع جِنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس فى

---

(١) البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والغرقد : شجر عظام . وبقيع الغرقد : مقبرة المدينة سمى بذلك لأنه كان منبته .

أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته ـ عرف أنى أستثبت فى شىء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى رسول الله ﷺ : « تَحوَّل » فتحوّلت بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابُه ، ثم شغل سلمانَ الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأحد .

قال سلمان : ثم قال لى رسول الله ﷺ : « كاتب ياسلمان » ، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفَقير [1] وأربعين أُوقية . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم » ، فأعانونى فى النخل ؛ الرجل بثلاثين وَديَّةً ، والرجل بعشرين وديَّة ، والرجل بخمس عشرة وديَّة ، والرجل بعشرة ، يُعين الرجل بقدر ماعنده ، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية . فقال لى رسول الله ﷺ : « اذهب ياسلمان ففقّر لها ، فإذا فرغت فأتنى أكن أنا أُضعُها بيدى » . قال : ففقّرت ، وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرتُه ، فخرج رسول الله ﷺ معى إليها . فجعلنا نقرب إليه الودِىّ ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده ، حتى فرغنا ، فوالذى نفس سلمان بيده ماماتت منها وِديّةٌ واحدة . فأدّيت النخل وبقى على المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة مِن ذهب من بعض المعادن ، فقال : « ما فعل الفارسىُّ المكاتب ؟ » قال فدعيت له فقال : « خُذ هذه فأدّها مما عليك ياسلمان » . قال قلت : وأين تقع هذه مما علىّ يارسول الله ؟ قال : « خُذها فإن الله سيؤدى بها عنك » . قال فأخذتها فوزنت لهم منها ـ والذى نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقّهم وعتقَ سلمان . فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندقَ حرًّا ، ثم لم يفتنى معه مَشهد .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال : لما قلت وأين تقع هذه من الذى علىَّ يارسول الله ؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلّبها على لسانه ، ثم قال : « خذها فأوفهم منها » . فأخذتها فأوفيتهم منها حقّهم كله ـ أربعين أوقيـة .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، حدثنى من لا أتهم عن عُمَر بن عبد العزيز بن مروان قال : حُدّثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ ـ حين

---

(١) فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها والجمع فقر بضمتين .

أخبره خبره - إن صاحب عمورية [١] قال له : آئتِ كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رَجلاً بين غيضتين [٢] ، يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذَوُو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شُفِى ، فاسأله عن هذا الدين الذى تبتغى فهو يخبرك عنه . قال سلمان : فخرجت حتى جئت حيث وُصف لى ، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغَيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم لايدعو لمريض إلا شُفى ، وغلبونى عليه فلم أخلُص إليه ، حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل - إلا منكبه . قال : فتناولته فقال من هذا ؟ والتفت إلىّ ، قال : قلت يرحمك الله ! أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم ، قال : إنك لتسأل عن شىء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبى يبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه ، ثم دخل . قال : فقال رسول الله ﷺ لسلمان : « لئن كنت صدقتنى ياسلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم » . هكذا وقع فى هذه الرواية ، وفيها رجل متهم - وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة ، وقد قيل إنه الحسن ابن عمارة . ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضى الله عنه . قوله : « لئن كنت صدقتنى ياسلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم » - غريب جداً بل منكر ؛ فإن الفترة أقل ما قيل فيها إنها أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة سنة بالشمسية ، وسلمان أكثر ما قيل - إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة . وحكى العباس بن يزيد البحرانى إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة ، واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم . والظاهر أنه قال : لقد لقيت وصىّ عيسى ابن مريم ، فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلى : الرجل المتهم - هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف ، وإن صح لم يكن فيه نكارة ؛ لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعدما رفع ، فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب ، فأخبرهما أنه لم يقتل ، وبعث الحواريين بعد ذلك قال : وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ، ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويتزوج حينئذ امرأة من بنى جذام . وإذا مات دفن فى حجرة روضة رسول الله ﷺ .

---

(١) عمورية - مشددة الميم : بلد من بلاد الروم .

(٢) قال فى القاموس : الغيضة - بالفتح : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

وقد روى البيهقى فى كتاب : [دلائل النبوة] قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق كما تقدم ، ورواها أيضاً عن الحاكم عن الأصم عن يحيى ابن أبى طالب : حدثنا على بن عاصم حدثنا حاتم بن أبى صفرة عن سماك بن حرب عن يزيد بن صوحان : أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه ، فذكر قصة طويلة . وذكر أنه كان من رَامَهُرمُز [١] ، وكان له أخ أكبر منه غنى ، وكان سلمان فقيراً فى كنف أخيه ، وأن ابن دُهقانها كان صاحباً له ، وكان يختلف معه إلى معلم لهم ، وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من النصارى فى كهف لهم ، فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم . فقال له : إنك غلام وأخشى أن تنم عليهم فيقتلهم أبى ، فالتزم له أن لايكون منه شىء يكرهه ، فذهب به معه فإذا هم ستة - أو سبعة - كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة ؛ يصومون النهار ويقومون الليل ، يأكلون الشجر وما وجدوا فذكروا عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات . وقالوا له : ياغلام إن لك رباً ، وإن لك معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً ، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة ، لايرضى الله بما يصنعون وليسوا على دينه .

ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام إليهم ، ثم لزمهم سلمان بالكلية ، ثم أجلاهم ملك تلك البلاد - وهو أبو ذلك الغلام الذى صحبه سلمان إليهم - عن أرضه ، واحتبس الملك ابنه عنده ، وعرض سلمان دينهم على أخيه الذى هو أكبر منه ، فقال إنى مشتغل بنفسى فى طلب المعيشة ، فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ، ثم أرادوا أن يتركونى عندهم فأبيت إلا صحبتهم ، فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال ، فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم ، واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عنى فيثنون علىّ خيراً . وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، وذكر الرسل وما أيدوا به ، وذكر عيسى ابن مريم وأنه كان عبد الله ورسوله ، وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر .

ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه ، قال : فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد ، فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم ، فمكث على ذلك مدة طويلة . ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه ، قال : فكان أينما يمشى

---

(١) بلد بخوز ستان .

يلتفت إلىّ ويقبل علىّ ، فيعظنى ويخبرنى أن لى رباً ، وأن بين يدى جنة وناراً وحساباً ، ويعلمنى ويذكرنى نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد . قال : فمما يقول لى : ياسلمان ! إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من تِهامة [1] ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهذا زمانه الذى يخرج فيه قد تقارب ، فأما أنا فإنى شيخ كبير ولا أحسبنى أدركه ، فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه ، قلت له : وإن أمرنى بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال : وإن أمرك ؛ فإن الحق فيما يجىء به ورضى الرحمن فيما قال .

ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس ، وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا ، ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه ، فتركه سلمان حيناً آخرمما قال ليستريح ، فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك ، ثم خرجا من بيت المقدس ، فسأله مقعد فقال : ياعبد الله ! سألتك حين وصلت فلم تعطنى شيئاً ، وها أنا أسألك ، فنظر فلم يجد أحداً ، فأخذ بيده وقال : قم باسم الله ، فقام وليس به بأس ولا قَلَبة [2] كأنما نشط من عقال . فقال لى ياعبد الله ! احمل علىَّ متاعى حتى أذهب إلى أهلى فأبشرهم ، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ، ولم أدر أين ذهب ، وكلما سألت عنه قوماً قالوا أمامك ، حتى لقينى ركب من العرب من بنى كلب فسألتهم ، فلما سمعوا لغتى أناخ رجل منهم بعيره ، فحملنى خلفه حتى أتوا بى بلادهم فباعونى ، فاشترتنى امرأة من الأنصار ، فجعلتنى فى حائط لها وقدم رسول الله ﷺ .

ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه ، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة ، فلما رآه آمن من ساعته ، وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذى جرى له . قال : فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فأعتقه ، قال : ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال : لا خير فيهم . قال : فوقع فى نفسى من أولئك الذين صحبتهم ، ومن ذلك الرجل الصالح الذى كان معى ببيت المقدس ، فدخلنى من ذلك أمر عظيم ، حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون** ﴾ [3] ، فدعانى رسول الله ﷺ فجئت وأنا خائف ،

---

(١) تهامة ـ بالكسر : مكة المكرمة .

(٢) القلبة ـ محركة : داء وتعب من علة .

(٣) الآية : ٨٢ من سورة المائدة .

فجلست بين يديه فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون . . .** ﴾ الآيات ، ثم قال : « ياسلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى ـ كانوا مسلمين » ، فقلت : يارسول الله ! والذى بعثك بالحق لهو أمرنى باتباعك ، فقلت له : فإن أمرنى بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال نعم فاتركه ، فإن الحق وما يرضى الله فيما يأمرك . وفى هذا السياق غرابة كثيرة ، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق . وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخارى فى صحيحه ؛ من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمى عن أبيه ، عن أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى : أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب ـ أى من معلم إلى معلم ، ومربٍّ إلى مثله ـ والله أعلم .

قال السهيلى : تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد ، فالله أعلم . وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة ، وفى بعضها أن اسم سيدته التى كاتبته ـ « حلبسة » فالله أعلم .

ذكر أخبـــار غريبة فى ذلك

قال أبو نعيم فى الدلائل : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكريا الغلابى ، حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبى السوية المنقرى ، حدثنا عباد ابن كسيب عن أبيه عن أبى عتوارة الخزاعى عن سعير بن سوادة العامرى ، قال : كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحى ، أركب لها الصعب والذلول ، لا أبقى من البلاد مسرحاً أرجو ربحاً فى متجر إلا أتيته ، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كُبة [1] الموسم ودهماء العرب ، فدخلت مكة بليل مسدف [2] فأقمت حتى تعرى عنى قميص الليل ، فرفعت رأسى فإذا قباب مسامتة شعف الجبال ، مضروبة بأنطاع [3] الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق ، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون : ألا عجلوا ألا عجلوا ، وإذا رجل على نشز من الأرض ، ينادى : ياوفد الله ! ميلوا إلى الغذاء : وأُنيسان على مدرجة يقول : ياوفد الله ! من طعم فليرح إلى العشاء ، فجهرنى ما رأيت ، فأقبلت أريد عميد القوم ، فعرف رجل الذى بى فقال أمامك ، وإذا شيخ كأن فى خديه الأساريع ، وكأن

---

(١) الكبة بالفتح والضم : الزحام .

(٢) أى مظلم . والسدفة ويضم : الظلمة . والأسدف : الأسود .

(٣) جمع نطع ، وهو ماظهر من أعلى الغار فيه آثار .

الشعرى توقد من جبينه ، قد لاث على رأسه عمامة سوداء ، قد أبرز من ملائها جمة فينانة كأنها سماسم - قال فى بعض الروايات : تحته كرسى سماسم [١] - ومن دونها نمرقة ، بيده قضيب متخصر به ، حوله مشايخ جلس نواكس الأذقان ، ما منهم أحد يفيض بكلمة ، وقد كان نمى إلىَّ خبر من أخبار الشام أن النبى الأمى هذا أوان نجومه ، فلما رأيته ظننته ذلك . فقلت السلام عليك يارسول الله ، فقال : مه مه - كلا . وكأن قد وليتنى إياه ، فقلت من هذا الشيخ ؟ فقالوا هذا أبو نضلة ، هذا هاشم بن عبد مناف ، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد ، لامجد آل جفنة - يعنى ملوك عرب الشام من غسان ، كان يقال لهم آل جفنة - وهذه الوظيفة التى حكاها عن هاشم - هى الرفادة ، يعنى إطعام الحجيج زمن الموسم .

وقال أبو نعيم : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا محمد بن أحمد بن أبى يحيى ، حدثنا سعيد بن عثمان ، حدثنا على بن قتيبة الخرسانى ، حدثنا خالد بن إلياس عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى الجهم عن أبيه عن جده ، قال : سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال : بينا أنا نائم فى الحجر إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً ؛ فأتيت كاهنة قريش وعلىّ مِطرف خَزّ وجمتى تضرب منكبى ، فلما نظرت إلىّ عرفت فى وجهى التغيير - وأنا يومئذ سيد قومى - فقالت : مابال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شىء ؟ فقلت لها بلى ، وكان لايكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ، ولم أفعل لأنى كبير قومى ، فجلست فقلت : إنى رأيت الليلة - وأنا نائم فى الحجر - كأن شجرة تنبت قد نال رأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظما ونوراً وارتفاعاً ؛ ساعة تخفى وساعة تزهر ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنَوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم . فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً ، فمنعنى الشاب ، فقلت لمن النصيب ؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها ، فانتبهت مذعوراً فزعاً فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ، ويدين له

---

(١) المراد بسماسم الأولى : عيدان السمسم : وبالثانية : خشب أسود كالأبنوس .

الناس . ثم قال ـ يعنى عبد الطلب ـ لأبى طالب : لعلك تكون هذه المولود ، قال فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله ﷺ وبعد ما بعث . ثم قال : كانت الشجرة والله أعلم ـ أبا القاسم الأمين ، فيقال لأبى طالب ألا تؤمن ؟ فيقول السبة والعار .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن زكريا الغلابى خدثنا العباس بن بكار الضبى ، حدثنا أبو بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال العباس : خرجت فى تجارة إلى اليمن فى ركب ـ منهم أبو سفيان بن حرب ـ فقدمت اليمن ، فكنت أصنع يوماً طعاماً وأنصرف بأبى سفيان وبالنفر ، ويصنع أبو سفيان يوماً ويفعل مثل ذلك ، فقال لى فى يومى الذى كنت أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتى وترسل إلىّ غداءك ؟ قلت نعم . فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إليه الغداء . فلما تغدى القوم قاموا واحتبسنى . فقال : هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله ؟ فقلت أىّ بنى أخى ؟ فقال أبو سفيان : إياى تكتم ؟ وأى بنى أخيك ينبغى أن يقول هذا إلا رجل واحد ؟ قلت وأيهم على ذلك ؟ قال : هو محمد ابن عبد الله ، فقلت قد فعل ؟ قال بلى قد فعل . وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبى سفيان فيه : أخبرك أن محمداً قام بالأبطح [1] فقال : « أنا رسول أدعوكم إلى الله عز وجل » . فقال العباس قلت : أجده يا أبا حنظلة صادقاً . فقال : مهلا يا أبا الفضل ، فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ؛ إنى لأخشى أن يكون علىّ ضير من هذا الحديث يابنى عبد المطلب ، إنه والله مابرحت قريش تزعم أن لكم هِنةً وهِنةً ، كل واحدة منهما غاية . لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟ قلت نعم قد سمعت ، قال فهذه والله شؤمتكم ، قلت فلعلها يمنتنا .

قال : فما كان بعد ذلك إلا ليالى حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن ، فنشأ ذلك فى مجالس اليمن ، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود ، فقال له اليهودى ما هذا الخبر ؟ بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال ، قال أبو سفيان : صدقوا وأنا عمه ، فقال اليهودى أخو أبيه ؟ قال نعم ! قال فحدثنى عنه ، قال لاتسألنى ، ما أحب أن يدعى هذا الأمر أبداً ، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه ، فرأى اليهود أنه لايغمس عليه ولا يحب أن يعيبه . فقال اليهودى : ليس به بأس على اليهود وتوراة موسى . قال العباس : فنادانى الحبر فجئت ، فخرجت حتى

---

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، والجمع أباطح وبطاح وبطائح .

جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر ، فقلت للحبر : بلغنى أنك سألت ابن عمى عن رجل منا زعم أنه رسول الله وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمه ولكن ابن عمه ، وأنا عمه وأخو أبيه ، قال أخو أبيه ؟ قلت أخو أبيه فأقبل على أبى سفيان فقال صدق ؟ قال نعم صدق فقلت سلنى فإن كذبت فليرد علىّ . فأقبل علىّ فقال : نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قلت لا وإلـه عبد المطلب ، ولا كذب ولا خان ، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين ، قال فهل كتب بيده ؟ قال العباس : فظننت أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها . ثم ذكرت مكان أبى سفيان يكذبنى ويرد علىَّ ، فقلت لايكتب . فوثب الحبر ونزل رداؤه وقال : ذُبِحت يهود ، وقُتِلت يهودُ .

قال العباس : فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان : يا أبا الفضل ، إن اليهود تفزع من ابن أخيك ، قلت قد رأيت ما رأيت ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ؟ فإن كان حقاً كنت قد سبقت ، وإن كان باطلا فمعك غيرك من أكفائك ، قال لا أومن به حتى أرى الخيـل فى كَداء [1] ، قلت ما تقول ؟ قال كلمة جاءت على فمى ، إلا أنى أعلم أن الله لايترك خيلا تطلع من كَداء . قال العباس : فلما استفتح رسول الله ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كَداء ـ قلت يا أبا سفيان ! تذكر الكلمة ؟ قال إى والله إنى لذاكرها ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق ، وإن كان فى رجاله من هو متكلم فيه ، والله أعلم .

وقد تقدم ما ذكرناه فى قصة أبى سفيان مع أمية بن أبى الصلت ، وهو شبيه بهذا الباب ، وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور . وسيأتى أيضاً قصة أبى سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله ﷺ وأحواله ، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته . وقال له : كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ولئن كان ما تقول حقاً ليملكن موضع قدمى هاتين . وكذلك وقع ، ولله الحمد والمنة .

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب ، فأكثر وأطنب وأحسن وأطيب ، رحمه الله ورضى عنه .

---

(١) كداء ـ كسماء : جبل بأعلى مكة دخل النبى ﷺ مكة منه عند الفتح .

قصـــة عمرو بن مرة الجهنـــى

قال الطبرانى : حدثنا على بن إبراهيم الخزاعى الأهوازى ، حدثنا عبد الله بن داود ابن دلهـاث بن إسمـاعيل بن عبـد الله بن شريح بن ياسـر بن سويد ، صاحب رسول الله ﷺ ، حدثنا أبى عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل : أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه : أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهنى قال : خرجت حاجاً فى جماعة من قومى فى الجاهلية ، فرأيت فى نومى ـ وأنا بمكة ـ نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبـل يثـرب ، وأشعـر جهينـة . فسمعت صوتـاً بين النـور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة أخرى ، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول : ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً فقلت لقومى : والله ليحدثن لهذا الحى من قريش حدث وأخبرتهم بما رأيت ، فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنى رجل فقال : إن نبيا يقال له أحمد قد بعث ، فأتيته فأخبرته بما رأيت ، فقال : « ياعمرو بن مرة ، أنا النبى المـرسـل إلى العباد كافة ؛ أدعوهـم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثنى عشر شهراً ؛ فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . فآمن ياعمرو يؤمنك الله من هول جهنم » ، فقلت أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنك رسول الله ، آمنت بما جئت من حلال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام . ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم ، وكان أبى سادناً له فقمت إليه فكسرته ، ثم لحقت بالنبى ﷺ وأنا أقول :

شَهِـدتُ بأن اللهَ حق وأننـى ... لآلـهـةِ الأحجـارِ أولُ تاركِ
وشَمـرتُ عن ساقِ الإزارِ مُهـاجـراً ... إليكَ أجُـوبُ القفرَ بعـد الـدَّكـادِكِ
لأصحـابِ خيرِ النـاسِ نفسـاً ووالداً ... رسـولِ مليكِ النـاسِ فوق الحبـائكِ

فقال النبى ﷺ : « مرحباً بك ياعمرو بن مرة » فقلت يارسول الله ابعثنى إلى قومى لعل الله يمنُّ عليهم بى كما من علىّ بك . فبعثنى إليهم ، وقال : « عليك بالرفق والقول السديد ، ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » . فذكر أنه أتى قومه ، فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسـول الله ﷺ فأسلمـوا كلهم ـ إلا رجـلا واحداً منهم ، وأنه وفد بهم إلى رسول الله ﷺ ، فرحب بهم وحياهم . وكتب لهم كتـابـاً هذه نسختـه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الله على لسان رسوله ﷺ ، بكتاب صادق ، وحق ناطق مع عمرو

ابن مرة الجهنى لجهينة بن زيد ؛ إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، تزرعون نباته وتشربون صافيه ، على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا صلاة الخمس ، وفى التبيعة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة [١] وشهد على نبينا ﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس ابن شماس » . وذكر شعراً قاله عمرو بن مرة فى ذلك كما هو مبسوط فى المسند الكبير ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [٢] ، قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بنى آدم يوم قال : (**ألست بربكم ؟**) ـ أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً ، وأكد مع هؤلاء الخمسة أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى كتاب : [دلائل النبوة] ـ من طرق عن الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنا يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، سئل النبى ﷺ : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » ، وهكذا رواه الترمذى من طريق الوليد بن مسلم . وقال حسن غريب من حديث أبى هريرة ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبى ، حدثنا أبو جعفر النفيلى حدثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحى . قال : قال عمر : يارسول الله ، متى جعلت نبياً ؟ قال : « وآدم منجدل [٣] فى الطين » ، ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفى عن الشعبى عن ابن عباس قال : قيل يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى الحديث الذى أوردناه فى قصة آدم ـ حين استخرج الله من صلبه ذريته ـ خص الأنبياء بنور بين أعينهم . والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله . وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم ،

---

(١) اللبقة . كذا فى الأصل ، ولعله يريد أنه لايؤخذ فى الصدقة كرائم الأموال .

(٢) الآية : ٧ من سورة الأحزاب .

(٣) أى ملقى وساقط . يقال جدله فانجدل : صرعه على الجدالة وهى الأرض .

وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره وفى هذا المعنى ـ الحديث الذى قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ؛ دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين » . ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدى ، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح ، وزاد « إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام » . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، إسناده جيد أيضاً . وهكذا رواه إبراهيم بن طهمان وحماد ابن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به . ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلى عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة الفجر ، قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه [دلائل النبوة] : حدثنا أبو عمرو بن حمدان ، حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ [1] ـ قال : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » . ثم رواه من طريق هشام بن عمار بن بقية عن سعيد بن نسير عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة مرفوعاً مثله . وقد رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة وشيبان عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله وهذا أثبت وأصح ، والله أعلم .

وهذا إخبار عن التنويه بذكره فى الملأ الأعلى ، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح ؛ لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السمٰوات والأرض لامحالة ، فلم يبق إلا هذا الذى ذكرناه من الإعلام به فى الملأ الأعلى ، والله أعلم .

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة الحديث

---

(١) الآية : ٧ من سورة الأحزاب .

المتفق عليه : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » ، وزاد أبو نعيم فى آخره : فكان ﷺ آخرهم فى البعث وبه ختمت النبوة . وهو السابق يوم القيامة ؛ لأنه أول مكتوب فى النبوة والعهد ، ثم قال : ففى هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم . ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ماسبق فى علمه وقضائه من بعثته له فى آخر الزمان ، وهذا الكلام يوافق ماذكرناه ولله الحمد .

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - وفيه كلام - عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك - رفعت رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً - لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ قد سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » قال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه ، قال أأقررْتم وأخذتم على ذلكم إصْرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [1] قال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد ﷺ وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، [وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه] [2] وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته فى سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء ، وإعلام لهم ومنهم برسالته فى آخر الزمان ، وأنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين . وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره ، وجلى مجده ومولده وبلده إبراهيم الخليل ، فى قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك**

---

(١) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

ويعلمهم الكتاب والحِكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل ، أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء ، ولهذا قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج ـ يعني ابن فضالة ـ حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال : قلت يانبى الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » . تفرد به الإمام أحمد ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

وروى الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب المولد من طريق بقية ، عن صفوان ابن عمرو عن حجر بن حجر عن أبى مريق ، أن أعرابياً قال : يارسول الله ! أى شىء كان أول أمر نبوتك ؟ فقال : « أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم » ، ورأت أم رسول الله ﷺ فى منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام . وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار : حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حبلت كأنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام » . إسناده جيداً أيضاً . وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى ، وأنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوة ، ولله الحمد والمنة .

ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام ، وكان فتحها صلحاً فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى بيانه . وقد قدمها رسول الله ﷺ مرتين : فى صحبة عمه أبى طالب وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وكانت عندها قصة بحيرا الراهب كما بيناه . والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة فى تجارة لها . وبها مبرك الناقة التى يقال لها ناقة رسول الله ﷺ ، بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر ، ثم نقل وبنى عليه مسجد مشهور اليوم وهى المدينة التى أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التى خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ فى قوله : « تخرج نار من أرض الحجاز تضىء لها أعناق الإبل ببصرى » . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : **﴿ الذين يتبعون الرسول النبىَّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم**

---

(١) الآيـة : ١٢٩ من سورة البقرة .

فى التـوراة والإنجيـل ، يأمـرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [١] .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى صخر العقيلى ، حدثنى رجـل من الأعراب قال : جلبت جَلوبة [٢] إلّى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعنّ منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ؛ يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأحسن الفتيان وأجملهم . فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجدنى فى كتابك ذا صفتى ومخرجى ؟ » فقال برأسه هكذا ـ أى لا ، فقال ابنه : إى والذى أنزل التوراة ؛ إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودى عن أخيكم » ، ثم تولى كفنه والصلاة عليه . هذا إسناد جيد ، وله شواهد فى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا عبد الواحد بن غياث ـ أبو بحر ـ حدثنا عبد العزيز ابن مسلم ، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الصلتان بن عاصم ، وذكر أن خاله قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل ، فإذا يهودى عليه قميص وسراويل ونعلان . قال : فجعل النبى ﷺ يكلمه وهو يقول : يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « أتشهد أنى رسول الله ؟ » ، قال لا . قال رسول الله ﷺ : « أتقرأ التوراة ؟ » ، قال نعم ، قال : « أتقرأ الإنجيل » ، قال نعم . قال : « والقرآن ؟ » قال : لا ، ولو تشاء قرأتـه . فقال النبى ﷺ : « فيما تقرأ التوراة والإنجيل أتجدنى نبياً ؟ » قال : إنا نجد نعتك ومخرجك ، فلما خرجت رجونا أن تكون فينا ، فلما رأيناك عرفناك أنك لست به . قال رسول الله ﷺ : « ولم يايهودى ؟ » قال : إنا نجده مكتوباً ؛ يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً ، فقال رسول الله ﷺ « إن أمتى لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً » هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه ، ولم يخرجوه .

وقال محمد بن إسحاق ، عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبى هريرة قال : أتى رسـول الله ﷺ : [يهود] فقال : أخرجوا أعلمكم » ، فقالوا عبد الله بن صوريا [٣] ،

---

(١) الآيـة : ١٥٧ من سورة الأعراف .
(٢) الجلوبة : ذكور الإبل ، أو التى يحمل عليها متاع القوم ـ الجمع والواحد سواء .
(٣) كان من الأحبار المشهورين ، أسلم ثم كفر .

فخلا به رسول الله ﷺ ، فناشده بدينه ، وما أنعم الله به عليهم ، وأطعمهم من المن والسلوى ، وظللهم به من الغمام : « أتعلمنى رسول الله » قال : اللهم نعم . وإن القوم ليعرفون ما أعرف ، وإن صفتك ونعتك لمبين فى التوراة ، ولكنهم حسدوك . قال : « فما يمنعك أنت ؟ » قال أكره خلاف قومى ، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم .

وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر . « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى ، ألا إن الله قال لكم يامعشر يهود وأهل التوراة ، وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم : إن محمداً رسول الله ﴿ **والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما** ﴾ [1] ، وإنى أنشدكم بالله وبالذى أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله ـ إلا أخبرتمونا ؛ هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغى ، وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه ﷺ » .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب المبتدأ عن سعيد بن بشري ، عن قتادة عن كعب الأحبار . وروى غيره عن وهب بن منبه : أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بنى إسرائيل بسبع سنين ، رأى فى المنام رؤيا عظيمة هالته ، فجمع الكهنة والحزّار [2] ، وسألهم عن رؤياه تلك ، فقال ليقصها الملك حتى نُخبره بتأويلها ، فقال : إنى نسيتها ، وإن لم تخبرونى بها إلى ثلاثة أيام ـ قتلتكم عن آخركم . فذهبوا خائفين وجلين من وعيده ، فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو فى سجنه ، فقال للسجان : اذهب إليه فقل له إن هاهنا رجلا عنده علم رؤياك وتأويلها ، فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له ، فقال له ما منعك من السجود لى ؟ فقال :

---

(١) آخر سورة الفتح .

(٢) الحزار : جمع حازر ، وهو الذى يقدر بالحدس والتخمين . والحزر : التقدير والخرص .

إن الله آتانى علماً وعلمنى وأمرنى أن لا أسجد لغيره ، فقال له بختنصر : إنى أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود ، فأخبرنى عن رؤياى . قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء ، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس ، وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار ، فبينا أنت تنظر إليه - وقد أعجبك حسنه وإحكام صنعته - قذفه الله بحجر من السماء ، فوقع على قمة رأسه حتى طحنه ، واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره ، حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض - لم يقدروا على ذلك . ونظرت إلى الحجر الذى قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها ، فصرت لا ترى إلا الحجر والسماء ، فقال له بختنصر : صدقت ؛ هذه الرؤيا التى رأيتها فما تأويلها ؟ فقال دانيال : أما الصنم فأمم مختلفة فى أول الزمان وفى وسطه وفى آخره ، وأما الحجر الذى قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم فى آخر الزمان فيظهره عليها ، فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان ، كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ، ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها ، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ، ويهدى به أهل الضلالة ، ويعلم به الأميين ، ويقوى به الضعفة ، ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين . وذكر تمام القصة فى إطلاق بختنصر بنى إسرائيل على يدى دانيال غليه السلام .

وذكر الواقدى بأسانيده عن المغيرة بن شعبة فى قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية ، وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبى سفيان صخر بن حرب . وذكر أنه سأل أساقفة النصارى فى الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك ، وهى قطعة طويلة ذكرها الحافظ أبو نعيم فى الدلائل . وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ بمدارس اليهود فقال لهم : « يا معشر اليهود أسلموا ، فوالذى نفسى بيده إنكم لتجدون صفتى فى كتبكم » الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود . حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرنى عن صفات رسول الله ﷺ فى التوراة ، فقال أجل . والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن : ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ [1] ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ،

---

(١) الآية : ٤٥ من سورة الأحزاب .

سميتـك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يعتمر به الملة العوجاء ؛ بأن يقولوا لا إلـه إلا الله ، يفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا . ورواه البخارى عن محمد بن سنان العوفى عن فليح به .

ورواه أيضاً عن عبد الله ـ قيل ابن رجاء ، وقيل ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال بن علوية ، ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء ، وزاد : قال عطاء فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً . وقال فى البيوع : وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ، قال الحـافظ أبو بكر البيهقى ، أخبرناه أبو الحسين بن المفضل القطان حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام أنه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ ؛ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبـدى ورسـولى ، سميتـه المتـوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجـزى السيئة بمثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ؛ بأن يشهدوا أن لا إلـه إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفا . وقال عطاء بن يسار : وأخبرنى الليثى أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام .

قلت : وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه ، ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر ، مع أنـه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، وكان يحدث عنهما كثيراً ، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب ، فهى عندهم أعم من التى أنزلها الله على موسى ، وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث . وقال يونس عن محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن ثابت بن شرحبيل عن ابن أبى أوفى ، عن أم الـدرداء قالت : قلت لكعب الأحبـار : كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ فى التـوراة ؟ قال : نجـده محمـد رسـول الله ، اسمـه المتـوكـل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، وقد أعطى المفاتيح ؛ فيبصر الله به أعيناً عوراء ، ويسمع آذاناً وقراً ، ويقيم به ألسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله واحد لا شريك له ، يعين به المظلوم ويمنعه . وقد روى عن كعب من غير هذا الوجه . وروى البيهقى عن الحاكم عن أبى الـوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان : حدثنا عتبة بن مكرم ، حدثنا أبو قطن

عمرو بن الهيثم ، حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن أبى هريرة ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ [1] . قال : نودوا يا أمة محمد ! استجبت لكم قبل أن تدعونى ، وأعطيتكم قبل أن تسألونى .

وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود فى الزبور : يا داود إنه سيأتى من بعدك نبى اسمه أحمد ومحمد ، صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبنى أبداً ، وقد غفرت له ـ قبل أن يعصينى ـ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة ، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وفرضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتونى يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء ـ إلى أن قال : يا داود إنى فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها .

والعلم بأنه موجود فى كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة . وقد دل على ذلك آيات كثيرة فى الكتاب العزيز تكلمنا عليها فى مواضعها ولله الحمد . فمن ذلك قوله : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا** ﴾ [4] أى إن كان وعدنا ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شىء ، وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ [5] . وفى قصة النجاشى وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتى ـ شواهد كثيرة لهذا المعنى ، ولله الحمد والمنة .

وذكرنا فى تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه ؛ من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته ، وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته ؛ فى قصة موسى وشعيا وإرمياء ودانيال

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة القصص .

(٢) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة القصص .

(٣) الآية : ١٤٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الإسراء .

(٥) الآية : ٨٣ من سورة المائـدة .

وغيرهم . وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بنى إسرائيل وخاتمهم عيسى ابن مريم : أنه قام فى بنى إسرائيل خطيباً قائلاً لهم : ﴿ **إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ (١) وفى الإنجيل البشارة بالفارقليط ، والمراد محمد ﷺ . وروى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « مكتوب فى الإنجيل ؛ لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا فيض البجلى ، حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : « جد فى أمرى واسمع وأطع يا بن الطاهرة البكر البتول (٢) ، أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين ، فإياى فاعبد ، فبين لأهل سوران بالسريانية ، بلغ من بين يديك أنى أنا الحق القائم الذى لا أزول ، صدقوا بالنبى الأمى العربى صاحب الجمل والمدرعة والعمامة - وهى التاج ، والنعلين ، والهراوة - وهى القضيب ، الجعد الرأس الصلت الجبين ، المقرون الحاجبين ، الأنجل العينين ، الأهدب الأشفار ، الأدعج العينين ، الأقنى الأنف ، الواضح الخدين ، الكث اللحية ، عرقه فى وجهه كاللؤلؤ ، ريح المسك ينضح منه ، كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن الذهب يجرى فى تراقيه . له شعرات من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب ، ليس فى بطنه شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا جاء مع الناس غمرهم ، وإذا مشى كأنما ينقلع من الصخر ويتحدر من صبب ، ذى النسل القليل » - وكأنه أراد الذكور من صلبه - هكذا رواه البيهقى فى دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان .

وروى البيهقى عن عثمان بن الحكم بن رافع بن سنان ، حدثنى بعض عمومتى وآبائى : أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها فى الجاهلية ، حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها ، مكتوب فيها : باسم الله وقوله الحق وقول الظالمين فى تباب ، وهذا الذكر لأمة تأتى فى آخر الزمان ، ليبلون أطرافهم ويوترون على أوساطهم ، ويخوضون البحور إلى أعدائهم ، فيهم صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، وفى عاد ما أهلكوا بالريح ، وفى ثمود ما أهلكوا

---

(١) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٢) البتول من النساء : العذراء المنقطعة من الأزواج ، وقيل المنقطعة إلى الله عن الدنيا .

بالصيحة : باسم الله وقوله الحق وقول الظالمين فى تباب . ثم ذكر قصة أخرى . قال فعجب رسول الله ﷺ لما قرأت عليه فيها .

وذكرنا عند قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ [(١)] ـ قصة هشام بن العاص الأموى ، حين بعثه الصديق فى سرية إلى هرقل يدعوه إلى الله عز وجل . فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء فى رُقعة من آدم إلى محمد ، صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين ـ على النعت والشكل الذى كانوا عليه . ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له ، ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها . قال فقلنا له : من أين لك هذه الصورة ؟ فقال : إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين ، فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسى قد طابت بالخروج من ملكى ، وأنى كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا . فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم . رواه الحاكم بطوله ، فليكتب هاهنا من التفسير . ورواه البيهقى فى دلائل النبوة .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن إسحاق ، قال وحدثنى يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال : قدمت برقيق من عند النجاشى أعطانيهم فقالوا لى : يا عمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا ، فمر أبو بكر فقلت أهو هذا ؟ قالوا : لا ، فمر علىّ فقلت أهو هذا ؟ قالوا : لا ، فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادونى : يا عمرو ، هذا رسول الله ﷺ ، فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد ، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم . وقد تقدم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله ﷺ فى شعر أسلفناه فى ترجمته فأغنى عن إعادته ، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليمانى حين حاصر أهل المدينة : إنها مهاجر نبى يكون فى آخر الزمان ، فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبى ﷺ .

---

(١) من الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف .

قصة سيف بن ذى يزن الحميرى وبشارته بالنبى الأمى

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب [هواتف الجان] : حدثنا على بن حرب ، حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم ، حدثنا عمرو بن بكر ـ هو ابن بكار القعنبى ـ عن أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى صالح عن عبد الله بن عباس ، قال : لما ظهر سيف بن ذى يزن ـ قال ابن المنذر واسمه النعمان بن قيس ـ على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين ، أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأتاه فيمن أتاه وفود قريش ، فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس أبى عبد الله ، وعبد الله بن جدعان ، وخويلد بن أسد ـ فى أناس من وجوه قريش ، فقدموا عليه صنعاء ، فإذا هو فى رأس غمدان الذى ذكره أمية بن أبى الصلت فى قوله :

واشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفعاً ... فى رأس غُمدان داراً منك مِحلالا

فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدى فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعاً صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعذبت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ؛ فى أكرم موطن وأطيب معدن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذى تخصب به البلاد ، ورأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد ، وسلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد من هم سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجك من كشف الكرب الذى قد فدحنا ، وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم . قال ابن أختنا ؟ قال نعم ، قال ادنُ ، فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلا ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلا ، وملكا ربحلا [١] ، يعطى عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

---

(١) الربحل : الكثير العطاء والعظيم الشأن من الناس .

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهة ، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : يا عبد المطلب ! إنى مفض إليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك طليعة ، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره ؛ إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا ـ خبراً عظيماً وخطراً جسيما ، وفيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سرّ وبرّ [1] ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟ قال إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ـ كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أبيت اللعن ـ لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه ـ لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سرورا . قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد . واسمه محمد ؛ يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه . ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ؛ يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض . يكسر الأوثان ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

فقال عبد المطلب : أيها الملك ! عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ؛ فهذا نجارى ، فهل الملك سار لى بإفصاح ؟ فقد أوضح لى بعض الإيضاح . فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب ـ إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب ، فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال : ارفع رأسك ، ثلج صدرك وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ فقال : أيها الملك ! كان لى ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ؛ فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ،

---

(١) يقال رجل بر وسر : أى يبر ويسر .

فهم فاعلون أو أبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه ـ لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق : أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

قال : ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء ، وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فأتنى ، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ؛ فإنه إلى نفاد ، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه ، فإذا قيل له متى ذلك ؟ قال : سيعلم ولو بعد حين . قال : وفى ذلك يقول أمية ابن عبد شمس :

جلبنا النُّصْحَ تحقبهُ المَطايا ... على أكوارِ أجمالٍ ونوق
مُقلفَةً مَراتِعُها تعالى ... إلى صنعاءَ من فج عميق [١]
تؤم بنا ابنَ ذى يزن وتغرى ... بذاتِ بطونِها ذم الطَّريقِ
وترعى من مخائله بروقاً ... مُواصِلَةَ الوميضِ إلى بُرُوقِ
فلما واصلتْ صنعاءَ حلتْ ... بدارِ المَلكِ والحسبِ العريقِ

وهذا رواه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل ، من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبى . ثم قال أبو نعيم : أخبرت عن أبى الحسن على بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف ابن ذى يزن ، وحدثنى أبى أبو يزن إبراهيم ، حدثنا عمى أحمد بن محمد أبو رجاء ـ به ، حدثنا عمى محمد بن عبد العزيز ، حدثنى عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذى يزن الحميرى قال : لما ظهر جدى سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وذكره بطوله .

وقال أبو بكر الخرائطى : حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسى ، حدثنا العلاء ابن الفضل بن أبى سوية ، أخبرنى أبى عن أبيه عبد الملك بن أبى سوية عن جده أبى

---

(١) هذا الشعر فى الأصول ، ولم يذكر فى الدلائل ولا فى غيره من المراجع .

سوية عن أبيه خليفة ، قال : سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت : كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبى عما سألتنى عنه ، فقال : خرجت رابع أربعة من بنى تميم أنا منهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم ، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد ، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن ـ ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان . فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات ، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : إن هذه لغة ما هى بلغة هذه البلاد ، فقلنا : نعم نحن قوم من مضر ، قال من أى المضريين ؟ قلنا من خِندف ، قال : أما إنه سيبعث وشيكاً نبى خاتم النبيين ، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا . فقلنا له ما اسمه ؟ قال : اسمه محمد . قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً ـ يعنى أن كل واحد منهم طمع فى أنّ يكون هذا النبى المبشر به ولده .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن أبى سعد ، حدثنا حازم بن عقال ابن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبى الحصين بن السموءل بن عاديا ، حدثنى جابر بن جدان بن جميع بن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموءل بن عاديا ، قال : لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ـ الوفاة ، اجتمع إليه قومه من غسان ، فقالوا : إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى ، وكنا نأمرك بالتزويج فى شبابك فتأبى ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين ، وليس لك ولد غير مالك ، فقال : لن يهلك هالك ترك مثل مالك ، إن الذى يخرج النار من الوثيمة [١] ـ قادر أن يجعل لمالك نسلاً ورجالاً بُسلا ، وكل إلى الموت . ثم أقبل على مالك وقال : أى بنى ! المنية ولا الدنية ، العقاب ولا العتاب ، التجلد ولا التلدّد [٢] ، القبر خير من الفقر ، إنه من قل ذل ، ومن كر فر ، من كرم الكريم ، الدفع عن الحريم . والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ؛ فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحسر ، ليس يثبت منهما الملك المتوج ، ولا اللئيم المُعلهَج [٣] ، سلم ليومك حياك ربك ، ثم أنشأ يقول :

شَهِدتُ السبايا يوم آل مُحَرِّق ... وأدرك أمرى صيحة اللهِ فى الحِجْرِ
فلمَ أرَ ذا مُلكٍ من الناس واحداً ... ولا سوقةً إلا إلى الموتِ والقبرِ

---

(١) الوثيمة : الحجارة ، يريد مايكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند .
(٢) تلدد : تلفت يميناً وشمالا وتحير متبلدا .
(٣) أى الأحمق .

فعلَ الذى أرْدَى ثموداً وجُرهماً ... سيعقبُ لى نسلاً على آخر الدهرِ
تقرُّ بهم من آل عمرو بن عامرٍ ... عيونٌ لدى الداعى إلى طلبَ الوترِ
فإن لم تك الأيامُ أبْلَيْنَ جدتى ... وشَيَّبْنَ رأسى والمشيبُ مع العمرِ
فإن لنا رباً علا فوق عرشه ... عليما بما يأتى من الخير والشرِّ
ألم يأتِ قومى أن لله دعوةً ... يفوزُ بها أهلُ السعادة والبرِّ ؟
إذا بُعث المبعوثُ من آلِ غالبٍ ... بمكةَ فيما بين مكة والحجرِ
هنالك فابغوا نصرَه ببلادكم ... بنى عامرٍ إن السعادةَ فى النصرِ

قال : ثم قضى من ساعته .

باب فى هواتف الجان وهو ما ألقته الجان على ألسنة الكهان ، ومسموعاً من الأوثان

[وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن ، فى البشارة بوجود رسول الله ﷺ : رسول ذكىّ ، يأتى إليه الوحى من قبل العلى . وسيأتى فى المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذ كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة ـ يعنى بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه مفصلا] (١) .

وقال البخارى : حدثنا يحيى بن سليمان الجعفى ، حدثنى ابن وهب ، حدثنى عمرو ـ هو محمد بن زيد أن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر قال : ما سمعت عمر يقول لشىء قط : إنى لأظنه كذا ـ إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال لقد أخطأ ظنى ـ أو إن هذا على دينه فى الجاهلية أو لقد كان كاهنهم ـ علىّ بالرجل ، فدعى به فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم أستقبل به رجل مُسلم . قال فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ، قال : كنت كاهنهم فى الجاهلية ، قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا فى السوق يوماً جاءتنى أعرف فيها الفزع . فقالت :

ألم تَرَ الجنَّ وإبلاسها (٢) ... ويأْسَها من بعد إنكاسِها ؟ (٣)
ولحوقَها بالقِلاصِ وأحلاسِها (٤)

---

(١) مابين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

(٢) إبلاسها : انكسارها وحزنها وتحيرها ، والإبلاسِ : الحيرة والسكون من الخوف والحزن .

(٣) أى ضعفها وذلها وإطراقها .

(٤) الحلس : ما ولى ظهر البعير والدابة من كساء رقيق تحت الرحل ، والبرذعة ، والسرج . والقلاص ـ جمع قلوص : وهى الناقة الشابة .

قال عمر : صدق . بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ـ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ـ يقول : يا جَليح [١] ، أمر نَجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إلـه إلا أنت ، فوثب القوم ، فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ثم نادى : يا جَليح أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إلـه إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبى . تفرد به البخارى .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدى ـ ويقال السدوسى ـ من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة . قال أبو حاتم وابن منده : روى عنه سعيد بن جبير ، وأبو جعفر محمد بن على ، وقال البخارى له صحبة . وهكذا ذكره فى أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعى الحافظ ، والدارقطنى وغيرهما . وقال الحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى : سواد بن قارب بالتخفيف . وقال عثمان الوقاصى عن محمّد بن كعب القرظى : كان من أشراف أهل اليمن ، ذكره أبو نعيم فى الدلائل . وقد روى حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخارى .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى من لا أتهم ، عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفان ، أنه حُدّث أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بينما هو جالس فى الناس فى مسجد رسول الله ﷺ ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد يريد عمر بن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لعلى شِركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً فى الجاهلية ـ فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال فهل كنت كاهناً فى الجاهلية ؟ فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خِلتَ فىّ واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليتَ ما وليتَ . فقال عمر : اللهم غفراً ، قد كنا فى الجاهلية على شر من هذا ؛ نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام . قال نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً فى الجاهلية . قال فأخبرنى ما جاء به صاحبك ؟ قال جاءنى قبل الإسلام بشهر أو شَيْعِهِ [٢] فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها من دينها ، ولُحوقها بالقِلاص وأحلاسها .

---

(١) قال شارح البخارى معناه : الوقح المكافح بالعداوة . قيل يحتمل أن يكون نادى رجلا بعينه ، أو أراد من كان بتلك الصفة .

(٢) أى دونه بقليل ، وشيع كل شىء ماهو له تبع .

قال ابن إسحاق : هذا الكلام سجع وليس بشعر . [قال عبد الله بن كعب] : فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : والله إني لعندَ وثَن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه أن يقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أشد منه ، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : يا ذريح [1] ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول لاإلـه إلا الله . قال ابن هشام : ويقال رجل يصيح ، بلسان فصيح ، يقول لاإلـه إلا الله . قال وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجنِّ وإبلاسِها ... وشَدِّها العيس بأحلاسها

تهوى إلى مكة تبغي الهدى ... ما مُؤمنو الجن كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي ، حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي ، قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس ، إذ مر به رجل ، فقيل يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال ومن هذا ؟ قالوا هذا سواد بن قارب ، الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ . قال فأرسل إليه عمر ، فقال له : أنت سواد بن قارب ؟ قال نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال فغضب ، وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر يا سبحان الله ! ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، فأخبرني ما أنبأك رَئِيّك بظهور رسول الله ﷺ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ؛ بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذ أتاني رئِيي فضربني برجله ، وقال قم يا سواد بن قارب ، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب ، يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها ... وشدِّها العِيسَ بأقتابها

تهوى إلى مكةَ تبغي الهُدَى ... ما صادقُ الجنِّ ككذَّابها

فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... ليس قُدَّامها كأذنابها

قال : قلت دعني أنام فإني أمسيت ناعساً . قال : فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله ، وقال قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) آل ذريح : بطن مشهور عند العرب .

عجبتُ للجنِّ وتخيارِها ... وشدّها العيسَ بأكوارِها
تهوى إلى مكةَ تبغى الهدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارِها
فارحل إلى الصفوة من هاشمٍ ... بين روابيها وأحجارِها

قال : قلت دعنى أنام ؛ فإنى أمسيت ناعساً ، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ؛ إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته . ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها ... وشدّها العيسَ بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما خَيّر الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رأسها

قال فقمت وقلت : قد امتحن الله قلبى ، فرحلت ناقتى ثم أتيت المدينة - يعنى مكة - فإذا رسول الله ﷺ فى أصحابه ، فدنوت فقلت : اسمع مقالتى يا رسول الله ، قال هات . فأنشأت أقول :

أتانى نجيىّ بعد هَدْءٍ ورَقْدَةٍ ... ولم يكُ فيما قد تلوتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُهُ كلَّ ليلةٍ ... أتاكَ رسولٌ من لُؤَىّ بن غالبَ
فشمّرتُ عن ذيلى الإزارَ ووسطتْ ... بى الذِّعلبُ الوَجْناءُ غُبْرَ السباسبَ
فأشهدُ أنّ الله لا شىءَ غيره ... وأنكَ مأمونٌ على كل غالبَ
وأنكَ أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله يا بن الأكرمين الأطايبَ
فَمُرْنا بما يأتيكَ يا خيرَ من مشى ... وإنْ كان فيما جاء شَيّبُ الذوائبَ
وكن لى شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ ... سواكَ بِمُغْنٍ عن سواد بن قاربَ

قال ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً ، حتى رؤى الفرح فى وجوههم . قال فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه ، وقال قد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ قال : أما منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله من الجن . ثم قال عمر : كنا يوماً فى حي من قريش يقال لهم آل ذريح ، وقد ذبحوا عجلا لهم والجزار يعالجه ، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل - ولا نرى شيئاً - قال : يا آل ذريح ! أمر نجيح ، صائح يصيح ، بلسان فصيح ، يشهد أن لا إله إلا الله ، وهذا منقطع من هذا الوجه ، ويشهد له رواية البخارى . وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل ، هو عمر بن الخطاب ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذى جمعه فى هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب ، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابى عن أبيه عن أبي جعفر محمد بن على ، قال : دخل سواد بن قارب السدوسى على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : نشدتك بالله يا سواد بن قارب ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟ فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتنى به ، قال سبحان الله يا سواد ! ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، والله يا سواد لقد بلغنى عنك حديث إنه لعجب من العجب ، قال إى والله يا أمير المؤمنين ! إنـه لعجب من العجب . قال فحـدثنيه ، قال : كنت كاهناً فى الجاهلية ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا أتانى نجيّ فضربنى برجله . ثم قال يا سواد اسمع أقل لك ، قلت هات ، قال :

عجـبـت للجـن وأنـجـاسـهـا ورحـلـهـا الـعـيس بأحـلاسـهـا
تهـوى إلى مكـة تبغى الهـدى ما مؤمـنـوهـا مثـل أرجـاسـهـا
فارحـل إلى الصفـوة من هاشم واسـم بعـينـيك إلـى رأسـهـا

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً ، فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله ، ثم قال لى : قم يا سواد بن قارب ، اسمع أقل لك ، قلت هات . قال :

عجـبـت للجـن وتـطلابـهـا وشـدهـا الـعـيس بأقـتـابـهـا
تهـوى إلى مكـة تبغى الهـدى ما صادق الـجـن ككـذابـهـا
فارحـل إلى الصفـوة من هاشم ليس الـمـقـاديم كأذنـابـهـا

قال : فحرك قوله منى شيئاً ونمت ، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، ثم قال يا سواد بن قارب ! أتعقل أم لا تعقل ؟ قلت وما ذاك ؟ قال ظهر بمكة نبى يدعو إلى عبادة ربه فالحق به ، اسمع أقل لك . قلت هات ، قال :

عجـبـت للجـن وتـنـفـارهـا ورحـلـهـا الـعـيس بأكـوارهـا
تهـوى إلى مكـة تبغى الهـدى ما مؤمـنـو الـجـن ككـفـارهـا
فارحـل إلى الصفـوة من هاشم بين روابـيـهـا وأحـجـارهـا

قال : فعلمت أن الله قد أراد بى خيراً فقمت إلى بردة لى ففتقتها ولبستها ووضعت رجلى فى غرز ركاب الناقة ، وأقبلت حتى انتهيت إلى النبى ﷺ فعرض علىّ الإسلام

فأسلمت ، وأخبرته الخبر فقال : « إذا اجتمعت المسلمون فأخبرهم » ، فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت :

أتـاني نجيي بعـد هدء ورقـدة ... ولـم يك فيمـا قد بلوت بكـاذب
ثلاث ليال قولـه كل ليلة ... أتـاك رسـول من لؤى بن غالـب
فشمرت عن ذيلى الإزار ووسطت ... بى الذعلب الوجناء غبر السباسب [1]
وأعـلم أن الله لا رب غيره ... وأنـك مأمـون على كل غائـب
وأنـك أدنـى الـمـرسلين وسيلة ... إلـى الله يا بن الأكـرمين الأطـايب
فمرنـا بمـا يأتيك يا خير مرسـل ... وإن كان فيمـا جئت شيب الذوائب [2]

قال فسر المسلمون بذلك ، فقال عمر : هل تحس اليوم منها بشيء ؟ قال أما إذ علمنى الله القرآن فلا . وقد رواه محمد بن السائب الكلبى عن أبيه عن عمر بن حفص ، قال : لما ورد سواد بن قارب على عمر قال : يا سواد بن قارب ! ما بقى من كهانتك ؟ فغضب وقال : ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا ، فلما رأى ما فى وجهه من الغضب ، قال : انظر سواد للذى كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم . ثم قال : يا سواد ، حدثنى حديثاً كنت أشتهى أسمعه منك ، قال نعم . بينا أنا فى إبل لى بالسراة ليلا وأنا نائم ، وكان لى نجيّى من الجن ، أتانى فضربنى برجله فقال لى قم يا سواد بن قارب ، فقـد ظهر بتهامة نبى يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فذكر القصة كما تقدم ، وزاد فى آخر الشعر :

وكن لى شفيعـاً يوم لا ذو قرابـة ... سواك بمـغـن عن سواد بن قارب [3]

فقال رسول الله ﷺ : « سر فى قومك وقل هذا الشعر فيهم » .

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربى عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبير قال : أخبرنى سواد بن قارب الأزدى ، قال : كنت نائماً على جبل من جبال السراة ، فأتانى آت فضربنى برجله ـ وذكر القصة أيضاً .

---

(١) الذعلب بالكسر : الناقة السريعة .

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة : وهى الناصية .

(٣) روى : بمغن فتيلا عن سواد بن قارب . وهذا البيت يذكره النحويون شاهداً على جر خبر « لا » النافية بالباء الزائدة على قلة .

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء عن أبى بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن البراء ، قال : قال سواد بن قارب : كنت نازلاً بالهند فجاءنى رئيى ذات ليلة فذكر القصة . وقال بعد إنشاد الشعر الأخير : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت يا سواد » .

وقال أبو نعيم فى كتاب [دلائل النبوة] : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن ، حدثنا على بن حرب ، حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد الله العمانى ، قال : كان منا رجل يقال له مازن بن العضوب ، يسدن صنما بقرية يقال لها « سمايا » من عمان ، وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة - وهم أخوال مازن . وأمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن حويص أحد بنى نمران ، قال مازن : فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة - وهى الذبيحة [1] - فسمعت صوتاً من الصنم يقول : يا مازن ! اسمع تسر ، ظهر خير وبطن شر ، بعث نبى من مضر ، بدين الله الأكبر ، فدع نحيتاً من حجر ، تسلم من حر سقر . قال ففزعت لذلك فزعاً شديداً . ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : أقبل إلىَّ أقبل ، تسمع ما لا تجهل ، هذا نبى مرسل ، جاء بحق منزل ، فآمن به كى تعدل ، عن حر نار تشعل ، وقودها الجندل . قال مازن : فقلت إن هذا لعجب ، وإن هذا لخير يراد بى . وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت ما الخبر وراءك ؟ فقال ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه : أجيبوا داعى الله ، فقلت : هذا نبأ ما سمعت ، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً ، وركبت راحلتى حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدرى للإسلام فأسلمت ، وقلت :

كسرتُ بأجرا جذاذاً وكان لنا ... ربًّا نطيفُ به ضلا بتضلال
فالهاشميُّ هدانا من ضلالتنا ... ولم يكن دينُه مِنِّى على بال
يا راكباً بَلِّغَنْ عَمْراً وإخوتَها ... إنى لمن قال ربى بأجرا قالى

يعنى بعمرو الصامت ، وإخوتها - حطامة . فقلت يا رسول الله ! إنى امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء ، وشرب الخمر ، وألحت علينا السنون ، فأذهبن الأموال ، وأهزلن السرارى ، وليس لى ولد ، فادعو الله أن يذهب عنى ما أجد ويأتينا بالحيا ، ويهب لى ولداً . فقال النبى ﷺ : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال

---

(١) شاة كانت تذبح فى رجب . أو ذبيحة تذبح للأصنام فيصب دمها على رأسها .

وبالإثم وبالعهر عفة ، وآته بالحيا وهب له ولداً » . قال فأذهب الله عنى ما أجد ، وأخصبت عمان ، وتزوجت أربع حرائر ، وحفظت شطر القرآن ، ووهب لى حيان بن مازن ، وأنشأ يقول :

إليكَ رسولَ اللهِ خبتْ مطيّتى ... تجوبُ الفيافى من عُمانَ إلى العرجِ
لتشفع لى ياخير من وطىء الحصى ... فيغفر لى ربى فأرجعَ بالفلجِ
إلى معشرٍ خالفتُ فى الله دينَهم ... فلا رأيهم رأيى ولا شَرْجُهم شَرْجى
وكنتُ امرأً بالخمرِ والعُهْرِ مُولعاً ... شبابىَ حتى آذن الجسمُ بالنهجِ
فبدّلنى بالخمرِ خوفاً وخشيةً ... وبالعهرِ إحصاناً فحصَّن لى فرجى
فأصبحتُ همّى فى الجهاد ونيَّتى ... فلله ما صومى ولله ما حَجِّى

قال : فلما أتيت قومى أنبونى وشتمونى ، وأمروا شاعراً لهم فهجانى ، فقلت إن رددت عليه فإنما أهجو نفسى . فرحلت عنهم فأتتنى منهم زلفة عظيمة وكنت القيم بأمورهم ، فقالوا يا بن عم ! عبنا عليك أمراً وكرهنا ذلك ، فإن أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به . فرجعت معهم وقلت :

لَبُغْضكم عندنا مُرٌّ مذاقتُه ... وبُغْضُنا عندكم يا قومَنا لَبنُ
لا يفطن الدهر إن بثت معائبكم ... وكلكم حين يثنى عيبنا فطنُ
شاعرنا مُفْحِمٌ عنكم وشاعركم ... فى حدبنا مُبْلِغٌ فى شَتْمِنا لَسِنُ
مافى القلوب عليكم فاعلموا وغر ... وفى قلوبكم البغضاء والإحَن

قال مازن : فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً .

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله قال : إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول الله ﷺ : أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن ، فجاء فى صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم ، فقالت له : لم لا تنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك ؟ وتخبرنا ونخبرك ؟ فقال لها : إنه قد بعث نبى بمكة ، حرم الزنا ومنع منا القرار .

وقال الواقدى : حدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهرى عن على بن الحسين . قال : إن أول خبر قدم المدينة عن رسول الله ﷺ : أن امرأة تدعى

« فاطمة » ، كان لها تابع ، فجاءها ذات يوم ، فقام على الجدار ، فقالت : ألا تنزل ؟ فقال : لا ، إنه قد بعث الرسول الذى حرم الزنا .

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان ، وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة ، ثم لما قدم عاتبته فقال : إنى جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا ، فعليك السلام .

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : قال عثمان ابن عفـان : خرجنا فى عير إلى الشام ـ قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ، فلما كنا بأفواه الشام ـ وبها كاهنة ـ فتعرضتنا ، فقالت : أتانى صاحبى فوقف على بابى ، فقلت ألا تدخل ؟ فقال لا سبيل إلى ذلك ، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق ، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة ، فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عز وجل .

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله الزهرى ، قال : كان الوحى يسمع ، فلما كان الإسلام منعوا . وكانت امرأة من بنى أسد يقال لها « سعيرة » ، لها تابع من الجن ، فلما رأى الوحى لا يستطاع ، أتاها فدخل فى صدرها فضج فى صدرها فذهب عقلها ، فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ، ومنع الرفاق ، وجاء أمر لا يطاق ، وأحمد حرم الزنا .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى ـ بمصر ـ حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عمن حدثه ، عن مرداس ابن قيس السدوسى قال : حضرت النبى ﷺ ـ وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه ـ فقلت : يا رسول الله ! قد كان عندنا فى ذلك شىء ! أخبرك أن جارية منا يقال لها « الخلصة » لم يعلم عليها إلا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت : يا معشر دوس ! العجب العجب لمـا أصـابنى ، هل علمتم إلا خيراً ؟ قلنا وما ذاك ؟ قالت إنى لفى غنمى إذ غشيتنى ظلمة ووجدت كبس [1] الرجل مع المرأة ، فقد خشيت أن أكون قد حبلت ، حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف [2] له أذنان كأذنى الكلب ، فمكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان ، إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : يا ويلة يا ويلة ، يا عولة يا عولة ، يا ويل غنم ، يا ويل فهم ، من قابس النار . الخيل والله وراء

---

(١) الكبس : طم الحفرة بالتراب ، والكابوس يكنى به عن البضع ، وكبس الرجل المرأة : فعل بها مرة .
(٢) الغضف ـ محركة : استرخاء فى الأذن .

العقبة ، فيهن فتيان حسان نجبة . قال فركبنا وأخذنا للأداة ، وقلنا يا ويلك ما ترى ؟ فقال [هل] من جارية طامث ؟ فقلنا ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا : هى والله عندى عفيفة الأم ، فقلنا فعجلها . فأتى بالجارية وطلع الجبل ، وقال للجارية : اطرحى ثوبك واخرجى فى وجوههم ، وقال للقوم اتبعوا أثرها ، وقال لرجل منا يقال له أحمد بن حابس : يا أحمد بن حابس ! عليك أول فارس ، فحمل أحمد فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم . قال فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه « ذا الخلصة » . وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول ، حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله ، قال لنا يوماً : يا معشر دوس ! نزلت بنو الحارث بن كعب ، فركبنا ، فقال لنا : أكدسوا الخيل كدساً ، أحشوا القوم رمساً ، أنفوهم غدية ، واشربوا الخمر عشية . قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا ، فرجعنا إليه فقلنا ما حالك ؟ وما الذى صنعت بنا ؟ فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه ، وانبرم غضبان حتى كاد أن ينفطر ، وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ، ومكثنا بعد ذلك حيناً . ثم دعانا فقال : هل لكم فى غزوة تهب لكم عزاً ؟ وتجعل لكم حرزاً ؟ ويكون فى أيديكم كنزاً ؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك ! فقال اركبوا فركبنا ، فقلنا ما تقول ؟ فقال بنو الحارث بن مسلمة ، ثم قال قفوا فوقفنا . ثم قال عليكم بفهم ، ثم قال ليس لكم فيهم دم ، عليكم بمضر هم أرباب خيل ونعم ، ثم قال : لا ، رهط دريد بن الصمة ، قليل العدد وفى الذمة ، ثم قال : لا ، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة ، وأسكنوها ضيعة عامر ابن صعصعة ، فليكن بهم الوقيعة . قال : فلقيناهم فهزمونا وفضحونا ، فرجعنا وقلنا : ويلك ماذا تصنع بنا ؟ قال ما أدرى ، كذبنى الذى كان يصدقنى . اسجنونى فى بيتى ثلاثاً ثم ائتونى ، ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثالثة ، ففتحنا عنه فإذا هو كأنه حجرة نار ، فقال : يا معشر دوس ! حُرِسَت السماء وخرج خير الأنبياء . قلنا أين ؟ قال بمكة وأنا ميت فادفنونى فى رأس جبل ، فإنى سوف أضطرم ناراً ، وإن تركتمونى كنت عليكم عاراً ، فإذا رأيتم اضطرامى وتلهبى فاقذفونى بثلاثة أحجار ، ثم قولوا مع كل حجر : باسمك اللهم فإنى أهدى وأطفى . قال : وإنه مات فاشتعل ناراً ، ففعلنا به ما أمر ، وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر : باسمك اللهم ، فخمد وطفى . وأقمنا حتى قدم علينا الحاج ، فأخبرونا بمبعثك يا رسول الله . غريب جداً .

وروى الواقدى عن أبيه عن ابن أبى ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلى عن أبيه ، قال : خرجنا فى عير لنا إلى الشام ، فلما كنا بين الزرقا ومعان قد عرسنا من الليل ، فإذا بفارس يقول ـ وهو بين السماء والأرض : أيها النيام ! هبوا فليس

هذا بحين رقاد ؛ قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد ، ففزعنا ونحن رفقة حزورة ، كلهم قد سمع بهذا ، فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش ، فى نبى قد خرج فيهم من بنى عبد المطلب اسمه أحمد . ذكره أبو نعيم . وقال الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى ـ بمصر ـ حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنى عبد الله بن العلا ، حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه : أن نفراً من قريش ؛ منهم ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الله بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن الحويرث ـ كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً ، كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ، ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه ، فدخلوا عليه فى الليل فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه إلى حاله ، فانقلب الثالثة ، فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك . فقال عثمان بن الحويرث : ماله قد أكثر التنكس ؟ إن هذا لأمر قد حدث ، وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ، فجعل عثمان يقول :

أيا صنمَ العيدِ الـذى صُفَّ حولَـهُ ... صنـاديدُ وفـدٍ من بعيـدٍ ومـن قُرْب
تنكَّستَ مغلوبـاً فمـا ذاكَ قُل لنـا ... أذاكَ سفيه أم تنكسـت للعتْـب ؟
فإن كان من ذنـب أتينـا فإنـنـا ... نَبُـوءُ بإقـرارٍ ونـلوى عن الـذنْب
وإن كنتَ مغلوبـاً ونُكِّسْتَ صاغِراً ... فمـا أنت فى الأوثـان بالسَّيِّد الـرَّبِّ

قال فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله ، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تَرَدَّى لمـولـودٍ أنـارتْ بنـورِهِ ... جميعُ فِجاجِ الأرضِ فى الشرق والغربِ
وخـرّت له الأوثـانُ طُرًّا وأرعـدتْ ... قلوبُ ملوكِ الأرض طرا من الـرعبِ
ونارُ جميع الفُرْسِ باخت وأظلمت ... وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكربِ
وصدّت عن الكهانِ بالغيب جنّها ... فلا مُخبـرٌ عنهـم بحـقٍّ ولا كذبِ
فيالقصى ارجعـوا عن ضلالكم ... وهُبُّـوا إلى الإسـلام والمنزل الرَّحْبِ

قال : فلمـا سمعـوا ذلـك خلصـوا نجيا ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، فقالوا أجل ، فقال لهم ورقة بن نوفل : تعلمون والله ما قومكم على

دين ، ولقد أخطأوا المحجة وتركوا دين إبراهيم ، ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ؟ ولا ينفع ولا يضر ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين . قال فخرجوا عند ذلك يضربون فى الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً . وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس ، ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب فى الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة ، فلقى بها راهباً عالماً فأخبره بالذى يطلب ، فقال له الراهب : إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية . فلما قال له ذلك ، رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه . وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبى ﷺ ، ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة ، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً وتقدم فى ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل له شاهد .

وقد قال الخرائطى : حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق ، حدثنا عمرو ابن عثمان ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز ، حدثنى محمد بن عبد العزيز عن الزهرى عن عبد الرحمن بن أنس السلمى عن العباس بن مرداس : أنه كان يمر فى لقاح له نصف النهار ، إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب ، عليه ثياب بياض مثل اللبن ، فقال : يا عباس بن مرداس ! ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها ، وأن الحرب تجرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذى نزل بالبر والتقوى ، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ، صاحب الناقة القصواء ؟ قال فرجعت مرعوباً قد راعنى ما رأيت وسمعت ، حتى جئت وثناً لنا يدعى الضِّمار ، وكنا نعبده ونُكلم من جوفه ، فكنست ما حوله ثم تمسحت به وقبلته ، فإذا صائح من جوفه يقول :

قل للقبائلِ من سليم كُلِّها ... هلك الضِّمار وفاز أهلُ المسجدِ
هلك الضِّمارَ وكان يُعْبَدُ مُدَّةً ... قبل الصلاة مع النبى محمدِ
إن الذى ورث النبوة والهُدَى ... بعد ابن مريم من قريش مهتدِ

قال فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومى ، فقصصت عليهم القصة ، وأخبرتهم الخبر ، وخرجت فى ثلاثمائة من قومى بنى حارثة إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة ، فدخلنا المسجد . فلما رآنى رسول الله ﷺ قال لى : « يا عباس كيف كان إسلامك » ؟ فقصصت عليه القصة . قال فسر بذلك وأسلمت أنا وقومى . ورواه الحافظ أبو نعيم فى الدلائل من حديث أبى بكر بن أبى عاصم عن عمرو بن عثمان به . ثم رواه أيضاً من

طريق الأصمعى ، حدثنى الوصافى عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعى عن العباس بن مرداس السلمى ، قال : أول إسلامى أن مرداساً أبى لما حضرته الوفاة ، أوصانى بصنم له يقال له « ضمار[1] » ، فجعلته فى بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة ، فلما ظهر النبى ﷺ سمعت صوتاً مرسلا فى جوف الليل راعنى ، فوثبت إلى ضمار مستغيثاً ، وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قل للقبيلة من سليم كلها ... هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
أودى ضَمارُ وكان يعبد مرة ... قبل الكتاب ، إلى النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال فكتمته الناس ، فلما رجع الناس من الأحزاب ، بينا أنا فى إبلى بطرف العقيق من ذات عرق راقداً ، سمعت صوتاً ، وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول : النور الذى وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء ، فى ديار إخوان بنى العنقاء ، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بَشِّر الجنَّ وإبلاسها ... أن وضعت المَطِىُّ أحلاسَها

قال فوثبت مذعوراً ، وعلمت أن محمداً مرسل ، فركبت فرسى واحتثثت السير حتى انتهيت إليه فبايعته ، ثم انصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار ، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه :

لَعَمْرُكَ ! إنى يوم أجعل جاهلاً ... ضماراً لرب العالمين مُشاركا
وتركى رسول الله والأوس حوله ... أولئك أنصارٌ له ما أولئكا
كتاركِ سهلِ الأرض والحَزْنِ يبتغى ... ليسلك فى وعث الأمور المسالكا
فآمنت بالله الذى أنا عبده ... وخالفت من أمسىَ يريد المهالكا
ووجهت وجهى نحو مكة قاصداً ... أبايع نبى الأكرمين المباركا
نبىٌّ أتانا بعد عيسى بناطقٍ ... من الحق فيه الفصل فيه كذلكا
أمين على القرآن أول شافع ... وأول مبعوث يجيب الملائكا
تلافى عرى الإسلام بعد انتقاضها ... فأحكمها حتى أقام المناسكا
عنيتُكَ يا خير البرية كلها ... توسطت فى الفرعين والمجد مالكا

---

(١) ضمار ـ كجذام ورقاش ، وهذا البناء لايكون إلا فى أسماء المؤنث وهو مبنى على الكسر .

وأنت المصَفّى من قريش إذا سمت　　على ضمرها تبقى القرون المباركا
إذا انتسب الحيان كعب ومالك　　وجدناك محضاً والنساء العواركا

قال الخرائطي : وحدثنا عبد الله بن محمد البلوى بمصر ، حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق ، حدثني شيخ من الأنصار يقال له عبد الله بن محمود من آل محمد بن مسلمة ، قال : بلغني أن رجالا من خثعم كانوا يقولون إن مما دعانا إلى الإسلام ، أنا كنا قوماً نعبد الأوثان ، فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا ، إذ أقبل نفر يتقاضون إليه ، يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم ، إذ هتف بهم هاتف يقول :

يأيها الناس ذوو الأجسام　　من بين أشياخ إلى غلام
ما أنتم وطائش الأحلام　　ومسند الحكم إلى الأصنام
أكلُّكم فى حيرة نيام　　أم لا تَرَوْنَ ما الذى أمامى
من ساطع يجلو دجى الظلام　　قد لاح للناظر من تهام
ذاك نبيٌّ سيد الأنام　　قد جاء بعد الكفر بالإسلام
أكرمه الرحمٰن من إمام　　ومن رسولٍ صادق الكلام
أعدل ذى حكم من الأحكام　　يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلات للأرحام　　ويزجر الناس عن الآثام
والرجس والأوثان والحرام　　من هاشم فى ذروة السنام
مستعلناً فى البلد الحرام

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه ، وآتينا النبى ﷺ فأسلمنا .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله البلوى ، حدثنا عمارة ، حدثنى عبيد الله بن العلاء ، حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير : أن رجلا من بنى تميم يقال له رافع ابن عمير - وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل ، وأهجمهم على هول ، وكانت العرب تسميه لذلك دُعموص [1] العرب لهدايته وجراءته على السير - فذكر عن بدء إسلامه قال : إنى لأسير برمل عالج ذات ليلة ، إذ غلبنى النوم ، فنزلت عن راحلتى

---

(١) الدعموص : الدخال فى الأمور الزوار للملوك ، ويقال : هو دعيميص هذا الأمر - أى عالم به .

وأنختها ، وتوسدت ذراعها ونمت ، وقد تعوذت قبل نومى فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادى من الجن من أن أوذى أو أهاج ، فرأيت من منامى رجلا شاباً يرصد ناقتى وبيده حربة يريد أن يضعها فى نحرها ، فانتبهت لذلك فزعاً ، فنظرت يميناً وشمالا فلم أر شيئاً ، فقلت هذا حلم . ثم عدت فغفوت فرأيت فى منامى مثل رؤياى الأولى ، فانتبهت فدرت حول ناقتى فلم أر شيئاً ، وإذا ناقتى ترعد . ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت ، فرأيت ناقتى تضطرب ، والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذى رأيت فى المنام بيده حربة ، ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول :

يا مالك بن مهلهل بن دثار ... مهلا فدًى لك مئزرى وإزارى
عن ناقة الإنسى لا تَعْرِضْ لها ... واخترْ بها ما شئتَ من أثوارى
ولقد بدا لى منك ما لم أحتسب ... ألا رَعَيْتَ قرابتى وذمارى ؟
تسمو إليه بحربة مسمومَة ... تَبًّا لفعلك يا أبا الغفار
لولا الحياء وأن أهلك جيرة ... لعلمتَ ما كشفت من أخبارى

قال فأجابه الشاب وهو يقول :

أأردت أن تعلو وتخفض ذكرنا ... فى غير مزرية أبا العيزار؟
ما كان فيهم سيدٌ فيما مضى ... إن الخيار همو بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يا معكبر إنما ... كان المجير مهلهل بن دثار

قال فبينما هما يتنازعان ، إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش ، فقال الشيخ للفتى : قم يابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جارى الإنسى ، فقام الفتى فأخذ منها ثورا وانصرف . ثم التفت إلىَّ الشيخ فقال يا هذا ! إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادى ، ولا تعذ بأحد من الجن ، فقد بطل أمرها ، قال : فقلت له ومن محمد هذا ؟ قال نبى عربى لا شرقى ولا غربى ، بعث يوم الاثنين . قلت وأين مسكنه ؟ قال يثرب ذات النخل . قال فركبت راحلتى حين برق لى الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة ، فرآنى رسول الله ﷺ فحدثنى بحديثى قبل أن أذكر له منه شيئاً ، ودعانى إلى الإسلام فأسلمت . قال سعيد بن جبير : وكنا نرى أنه هو الذى أنزل الله فيه : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ [1] . وروى الخرائطى من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن حماد بن أبى

---

(١) الآية : ٦ من سورة الجن .

حنيفة عن داود بن الحسين عن عكرمة عن ابن عباس عن على ، قال : إذا كنت بواد تخاف السبع ، فقل : أعوذ بدانيال والجب ، من شر الأسد . وروى البلوى عن عمارة ابن زيد عن إبراهيم بن سعيد عن محمد بن إسحاق : حدثنى يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عن ابن عباس ـ قصة قتال عليّ الجن بالبئر ذات العلم التى بالجحفة ، حين بعثه رسول الله ﷺ يستقى لهم الماء ، فأرادوا منه وقطعوا الدلو ، فنزل إليهم . وهى قصة مطولة منكرة جداً ، والله أعلم .

وقال الخرائطى : حدثنى أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقى وغيره : حدثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقى ، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج ، حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبى عن رجل قال : كنت فى مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبى ﷺ يتذاكرون على فضائل القرآن ؛ فقال بعضهم خواتيم سورة النحل ، وقال بعضهم سورة يسٓ ، وقال عليّ فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسى ؟ أما إنها سبعون كلمة فى كل كلمة بركة ، قال : وفى القوم عمرو بن معدى كرب لا يحير جواباً ، فقال أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر : حدثنا يا أبا ثور . قال : بينا أنا فى الجاهلية إذ جهدنى الجوع فأقحمت فرسى فى البرية ، فما أصبت إلا بيض النعام ، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربى فى خيمة ، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له ، فقلت له استأسر ثكلتك أمك ، فرفع رأسه إلىّ وقال : يا فتى ! إن أردت قرى فانزل ، وإن أردت معونة أعناك . فقلت له استأسر فقال :

عرضنا عليك النُّزُلَ منّا تَكُرُّماً   فلم تَرْعَوِى جهلا كفعل الأشائم
وجئتَ ببهتانٍ وزورٍ ودون ما   تمنيتَه بالبيض حز الغلاصم[1]

قال : ووثب إلىّ وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكأنى مثلت تحته . ثم قال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت : بل خل عنى ، قال فخلى عنى . ثم إن نفسى جاذبتنى بالمعاودة ، فقلت استأسر ثكلتك أمك ، فقال :

ببسم الله والرحمن فزنا   هنالك والرحيم به قهرنا
وما تغنى جلادة ذى حفاظ   إذا يومٌ لمعركة برزنا

ثم وثب لى وثبة كأنى مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خل عنى .

---

(١) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

فخلى عنى فانطلقت غير بعيد ، ثم قلت فى نفسى : يا عمرو ! أيقهرك هذا الشيخ ؟ والله للموت خير لك من الحياة ، فرجعت إليه فقلت له استأسر ثكلتك أمك ، فوثب إلى وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكأنى مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خل عنى . فقال هيهات ، يا جارية ائتينى بالمدية ، فأتته بالمدية فجز ناصيتى . وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته ، فكنت معه أخدمه مدة . ثم إنه قال : يا عمرو ! أريد أن تركب معى البرية وليس بى منك وجل ؛ فإنى ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق . قال فسرنا حتى أتينا واديا أشباً [١] مهولا مغولا ، فنادىٰ بأعلى صوته : بسم الله الرحمن الرحيم ، فلم يبق طير فى وكره إلا طار . ثم أعاد القول فلم يبق سبع فى مربضه إلا هرب ، ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشى قد خرج علينا من الوادى كالنخلة السحوق [٢] ، فقال لى يا عمرو ! إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم . قال فلما رأيتهما قد اتحدا ، قلت غلبه صاحبى باللات والعزى ، فلم يصنع الشيخ شيئاً ، فرجع إلىّ وقال : قد علمت أنك خالفت قولى ، قلت أجل ولست بعائد ، فقال إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم ، فقلت أجل . فلما رأيتهما قد اتحدا ، قلت غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم فاتكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق بطنه ، فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود ، ثم قال : يا عمرو ! هذا غشه وغله .

ثم قال : أتدرى من تلك الجارية ؟ قلت لا ، قال : تلك الفارعة بنت السليل الجرهمى من خيار الجن . وهؤلاء أهلها بنو عمها ، يغزونى منهم كل عام رجل ، ينصرنى الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال : قد رأيت ما كان منى إلى الحبشى ، وقد غلب على الجوع فائتنى بشىء آكله ، فأقحمت بفرسى البرية فما أصبت إلا بيض النعام ، فأتيته به فوجدته نائماً ، وإذا تحت رأسه شىء كهيئة الخشبة ، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر فى سبعة أشبار ، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين ، فاستوى على قفا ظهره وهو يقول : قاتلك الله ما أغدرك يا غدار ! قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت فلم أزل أضربه بسيفى حتى قطعته إرباً إربا . قال فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالغدر نلت أخا الإسلام عن كثب ... ما إن سمعت كذا فى سالف العَرَبِ

---

(١) أى به أشجار مختلطة ملتفة ، يقال : أشب الشجر كفرح : التف .

(٢) أى الطويلــة .

والعجم تأنف مما جئته كرماً ... تبًّا لما جئته فى السيد الأَرَبِ
إنى لأعجب أنى نلت قتلته ... أم كيف جازاك عند الذنب لم تُنَبِ ؟
قِرْمٌ عفا عنك مرات وقد علقتْ ... بالجسم منك يداه موضع العطَبِ
لو كنت آخذ فى الإسلام ما فعلوا ... فى الجاهلية أهل الشرك والصلبِ
إذاً لنالتك من عدلى مشطبة ... تدعو لذائقها بالويل والحربِ

قال : ثم ما كان حال الجارية ؟ قلت : ثم إنى أتيت الجارية ، فلما رأتنى قالت ما فعل الشيخ ؟ قلت قتله الحبشى ، فقالت كذبت بل قتلته أنت بغدرك . ثم أنشأت تقول :

يا عين جودى للفارس المغوار ... ثم جودى بواكفات غِزارِ
لا تملى البكاء إذ خانكِ الد ... هر بواف حقيقةٍ صبارِ
وتقىٍّ وذى وقار وحلم ... وعديل الفخار يوم الفخارِ
لهف نفسى على بقائك عمرو ... أسلمتْك الأعمارُ للأقدارِ
ولَعَمْرى لو لم ترمه بغدرٍ ... رُمْتَ لَيْثاً كصارم بتّارِ

قال : فأحفظنى قولها ، فاستللت سيفى ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر فى الخيمة أحداً ، فاستقت الماشية وجئت إلى أهلى ، وهذا أثر عجيب والظاهر أن الشيخ كان من الجان ، وكان ممن أسلم وتعلم القرآن ، وفيما تعلمه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان يتعوذ بها .

وقال الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى ، حدثنا عمارة بن زيد ، قال حدثنى عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة ، قالا : فلما دخلنا عليه قال لنا : أصدقائى أيها القرشيان ! هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه ، فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة ؟ قلنا نعم . قال فهل لكما علم به ما فعل ؟ قلنا تزوج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب ، تركها حاملا وخرج . قال فهل تعلمان ولد أم لا ؟ قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك ! أنى ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به ونعبده ، إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

ولد النبى فذلت الأملاك ... ونأى الضلال وأدبر الإشراك

ثم انتكس الصنم على وجهه . فقال زيد بن عمرو بن نفيل : عندى كخبره أيها

الملك . قال هات ، قال : أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه ، خرجت من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة ، حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابنى ؛ إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبى قبيس ، ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان ، وبطلت الأوثان ، ولد الأمين . ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب ، فرأيته قد جلل ما تحت السماء ، وسطع نور كاد أن يختطف بصرى ، وهالنى ما رأيت . وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة ، فسطع له نور أشرقت له تهامة ، وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها ، وأومأ إلى الأصنام التى كانت على الكعبة فسقطت كلها .

قال النجاشى : ويحكما ! أخبركما عما أصابنى ؛ إنى لنائم فى الليلة التى ذكرتما فى قبة وقت خلوتى ، إذ خرج على من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم ، المعتدى المجرم . وولد النبى الأمى ، المكى الحرمى . من أجابه سعد ، ومن أباه عتد . ثم دخل الأرض فغاب ، فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ، ورمت القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدى ، فسمع بذلك أهلى فجاءونى ، فقلت احجبوا عنى الحبشة فحجبوهم عنى ، ثم أطلق عن لسانى ورجلى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى فى قصة المولد ، رؤيا كسرى فى سقوط أربع عشرة شرفة من إيوانه وخمود نيرانه ، ورؤيا موبذانه . وتفسير سطيح لذلك على يدى عبد المسيح [١] .

وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه فى ترجمة الحارث بن هانىء بن المدلج بن المقداد بن زَمْل بن عمرو العذرى عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذرى قال : كان لبنى عذرة صنم يقال له « صمام » . وكانوا يعظمونه ، وكان فى بنى هند بن حرام بن ضبه بن عبد بن كثير بن عذرة ، وكان سادنه رجلا يقال له طارق ، وكانوا يعترون [٢] عنده ، فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول : يا بنى هند بن حرام ! ظهر الحق وأودى صمام ، ودفع الشرك الإسلام . قال ففزعنا لذلك وهالنا ، فمكثنا

---

(١) قد مضت هذه القصة فى ميلاده ﷺ ، من هذا الجزء .

(٢) أى يذبحون .

أياماً . ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : يا طارق يا طارق ، بعث النبى الصادق ، بوحى ناطق ، صدع صادع بأرض تهامة ؛ لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع منى إلى يوم القيامة . قال زَمْل فوقع الصنم لوجهه . قال فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبى ﷺ مع نفر من قومى ، وأنشدته شعراً قلته :

إليكَ رسولَ الله أعملتُ نصها ... وكلَّفتُها حَزْناً وغَوْراً من الرمْلِ
لأنصرَ خيرَ الناس نصراً مؤزّراً ... وأعقِدُ حبلا من حبالكِ فى حبْلى
وأشهدَ أن الله لا شىءَ غيره ... أدين به ما أثقلت قدمى نعْلى

قال فأسلمت وبايعته . وأخبرنا بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن » . ثم قال : « يا معشر العرب ، إنى رسول الله إليكم وإلى الأنام كافة ، أدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأنى رسوله وعبده ، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من اثنى عشر شهراً ـ وهو شهر رمضان ، فمن أجابنى فله الجنة نُزلا ، ومن عصانى كانت النار له منقلبا » . قال فأسلمنا وعقد لنا لواء ، وكتب لنا كتاباً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لزَمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة ؛ إنى بعثته إلى قومه عامداً ، فمن أسلم ففى حزب الله ورسوله ، ومن أبى فله أمان شهرين ، شهد على بن أبى طالب ومحمد ابن مسلمة الأنصارى » . ثم قال ابن عساكر : غريب جداً .

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى مغازيه : حدثنى محمد بن سعيد ـ يعنى عمه ـ قال : قال محمد بن المنكدر : إنه ذكر لى عن ابن عباس قال : هتف هاتف من الجن على أبى قبيس فقال :

قبّح الله رأيكم آلَ فهر ... ما أدق العقول والأفهام
حين تعصى لمن يعيب عليها ... دينَ آبائها الحماة الكرام
حالف الجنَّ جنُّ بُصرى عليكم ... ورجالَ النخيل والآطام
يوشكُ الخيلُ أن تردْها تهادى ... تقتل القومَ فى حرام بهام
هل كريمٌ منكم له نفس حر ... ماجدُ الوالدين والأعمام
ضاربٌ ضربةً تكونُ نكالاً ... ورواحاً من كُرْبَةٍ واغتمام

قال ابن عباس : فأصبح هذا الشعر حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا شيطان يكلم الناس فى الأوثان يقال له مِسْعَر ، والله مخزيه » . فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نحن قتلنا في ثلاث مسْعَرا   إذ سفَّهَ الجنّ وسنَّ المنكرا
قَنَّعْتُه سيفاً حساماً مُشهرا   بِشَتْمِهِ نبيَّنا المطهرا

فقال رسول الله ﷺ : « هذا عفريت من الجن اسمه سمج ، آمن بى سميته عبد الله ، أخبرنى أنه فى طلبه ثلاثة أيام » ، فقال علىّ ؓ جزاه الله خيراً يا رسول الله .

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر ، حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبى حرب الصفار ، حدثنا عباس ابن الفرج الرياشى ، حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبى ثابت عن أبيه ، عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى حضرموت فى حاجة قبل الهجرة ، حتى إذا كنت فى بعض الطريق ساعة من الليل ـ سمعت هاتفاً يقول :

أبا عمروٍ تناوبَنى السهودُ   وراح النومُ وامتنع الهجودُ
لذكر عصابة سلفوا وبادوا   وكل الخلق قصرُهم يبيدُ
تولوا واردين إلى المنايا   حياضاً ليس منهلها الورودُ
مضوا لسبيلهم وبقيتُ خلفاً   وحيداً ليس يسعفنى وحيدُ
سُدًى لا أستطيع علاج أمر   إذا ما عالج الطفلُ الوليدُ
فلأياً ما بقيتُ إلى أناسٍ   وقد باتت بمَهْلكها ثمودُ
وعادُ والقرونُ بذى شَعوبٍ   سواءٌ كلُّهم إرَمٌ حصيدُ

قال ثم صاح به آخر : يا خرعب [1] ذهب بك العجب ؛ إن العجب كل العجب ، بين زهرة ويثرب . قال : وما ذاك يا شاحب [2] ؟ قال نبى السلام ، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام ، فأخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام . قال : ما هذا النبى المرسل والكتاب المنزل ، والأمى المفضل ؟ قال : رجل من ولد لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة . قال : هيهات ! فات عن هذا سنى ، وذهب عنه زمنى ، لقد رأيتنى والنضر بن كنانة نرمى غرضاً واحداً ، ونشرب حلباً بارداً ، ولقد خرجت به من دوحة فى غداة شبمة [3] ، وطلع مع الشمس وغرب معها ، يروى ما يسمع ويثبت ما يبصر . ولئن

---

(١) الخرعب : الطويل اللحيم .
(٢) شحب لونه : تغير من هزال أو جوع .
(٣) أى باردة .

كان هذا من ولده ؛ لقد سل السيف وذهب الخوف ، ودحض الزنا ، وهلك الربا . قال : فأخبرنى ما يكون ؟ قال : ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة ، والشدة والشجاعة ، إلا بقية فى خزاعة . وذهبت الضراء والبؤس والخلف المنفوس ، إلا بقية من الخزرج والأوس . وذهبت الخيلاء والفخر ، والنميمة والغدر ، إلا بقية فى بنى بكر - يعنى ابن هوازن . وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم ، إلا بقية فى خثعم . قال أخبرنى ما يكون ؟ قال إذا غلبت البرة ، وكظمت الحرة ، فاخرج من بلاد الهجرة . وإذا كف السلام . وقطعت الأرحام ، فاخرج من البلد الحرام . قال أخبرنى ما يكون ؟ قال : لولا أذن تسمع ، وعين تلمع ، لأخبرتك بما تفزع ، ثم قال :

لا منامٌ هَدَّأْتَهَ بنعيمٍ يا بن غَوْطٍ ولا صباحٌ أتانا

قال ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى ، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عَظاية [1] وثعبان ميتان . قال فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث . ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن على عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد ابن عبادة ، قال : لما بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة خرجت إلى حضرموت لبعض الحاج ، قال : فقضيت حاجتى ثم أقبلت ، حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت ، ففزعت من الليل بصائح يقول :

أبا عمرو تناوبنى السهود وراح النوم وانقطع الهجود

وذكر مثله بطوله .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن على ، حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا أبو غزية محمد بن موسى ، عن العطاف بن خالد الوصابى عن خالد بن سعيد عن أبيه قال : سمعت تميما الدارى يقول : كنت بالشام حين بعث النبى ﷺ ، فخرجت لبعض حاجتى فأدركنى الليل ، فقلت أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة . قال : فلما أخذت مضجعى إذا أنا بمناد ينادى - لا أراه - عُذ بالله ، فإن الجن لا تجير أحداً على الله ، فقلت : أيم الله ما تقول ؟ فقال قد خرج رسول الأميين ، رسول الله وصلينا خلفه بالحجون ، فأسلمنا واتبعناه ، وذهب كيد الجن ورميت بالشهب . فانطلق

---

(١) العظاية : دويبة كسام أبرص .

إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم . قال تميم : فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسألت راهباً وأخبرته الخبر ، فقال الراهب : قد صدقوك ؛ يخرج من الحرم ومهاجره الحرم ، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه . قال تميم : فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت .

وقال حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلى ، عن عبد الله بن ساعدة الهذلى عن أبيه قال : كنا عند صنمنا « سواع » ، وقد جلبنا إليه غنما لنا ، مائتى شاة قد أصابها جرب ، فأدنيناها منه لنطلب بركته ، فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادى : قد ذهب كيد الجن ، ورمينا بالشهب لنبى اسمه أحمد . قال : فقلت غويت والله ، فصدفت وجه غنمى منجداً إلى أهلى ، فرأيت رجلا فخبرنى بظهور النبى ﷺ . ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً . ثم قال : حدثنا عمر بن محمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن السندى حدثنا النضر بن سلمة ، حدثنا محمد بن مسلمة المخزومى ، حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفرى ـ من بنى سليم من ولد راشد بن عبد ربه ـ عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه ، قال : كان الصنم الذى يقال له « سُوَاع » بالمعلاة ، من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم ، فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع ، قال راشد : فألقيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع ، فإذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب ، من خروج نبى من بنى عبد المطلب ، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام ، وحرست السماء ورمينا بالشهب ، العجب كل العجب . ثم هتف صنم آخر من جوفه : ترك الضمار وكان يعبد ، خرج النبى أحمد ، يصلى الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام ، والبر والصلات للأرحام . ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إن الـذى وَرِثَ النُّبـوةَ والهُـدَى ... بعـد ابـن مريمَ من قريش مهتـدِ
نبـى أتـى يخـبـر بمـا سبقْ ... وبـمـا يكـون الـيوم حقـاً أو غدِ

قال راشد : فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله ، ويأكلان ما يهدى له ، ثم يعوجان عليه ببولهما ، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربٌّ يبـول الـثـعـلبـان برأسـه ... لقـد ذلّ من بالـت عليه الـثعـالِبُ

وذلك عند مخرج النبى ﷺ ، ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به ، فخرج راشد حتى أتى النبى ﷺ المدينة ومعه كلب له ، واسم راشد يومئذ ظالم ، واسم كلبه راشد ، فقال النبى ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال ظالم . قال : « فما اسم كلبك ؟ » قال راشد ،

قال : « اسمك راشد ، واسم كلبك ظالم » . وضحك النبى ﷺ ، وبايع النبى ﷺ وأقام بمكة معه . ثم طلب من رسول الله ﷺ : قطيعة بوهاط [1] ـ ووصفها له ـ فأقطعه رسول الله ﷺ بالمعلاة من وهاط شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له : « فرغها فى أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها » ـ ففعل ، فجعل الماء معيناً يجرى إلى اليوم فغرس عليها النخل . ويقال إن وهاط كلها تشرب منه ، فسماها الناس ماء الرسول ﷺ . وأهل وهاط يغتسلون بها ، وبلغت رمية راشد الركب الذى يقال له ركب الحجر ، وغدا راشد على سواع فكسره .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عَلى بن إبراهيم الخزاعى الأهوازى ، حدثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن مسرع بن ياسر ابن سويد صاحب رسول الله ﷺ ؛ حدثنا أبى عن أبيه دلهاث عن أبيه إسماعيل ، أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر ، أن أباه ياسر حدثه عن عمرو بن مرة الجهنى ، أنه كان يحدث قال : خرجت حاجاً فى جماعة من قومى فى الجاهلية ، فرأيت فى المنام ـ وأنا بمكة ـ نوراً ساطعاً من الكعبة ، حتى أضاء فى جبل يثرب وأشعر جهينة ، فسمعت صوتاً فى النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء . ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، فسمعت صوتاً فى النور وهو يقول : ظهر الإسلام وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً ، فقلت لقومى : والله ليحدثن فى هذا الحى من قريش حدث ، وأخبرتهم بما رأيت . فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلا يقال له أحمد قد بعث ، فأتيته فأخبرته بما رأيت ، فقال : « يا عمرو بن مرة ! إنى لمرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر من اثنى عشر شهراً ـ وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار ، فآمن يا عمرو بن مرة يؤمنك الله من نار جهنم » . فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام ، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به ، وكان لنا صنم وكان أبى سادناً له ، فقمت إليه فكسرته ، ثم لحقت النبى ﷺ وأنا أقول :

---

(١) الوهط : المكان المطمئن من الأرض المستوى ، ينبت فيه العضاه والسمر والطلح ، والجمع وهاط وأوهاط .

شَهِدت بأنّ اللهَ حقٌّ وأنّني ... لآلهةِ الأحجارِ أولُ تاركِ
فشمّرتُ عن ساقي إزارَ مُهاجرٍ ... إليكَ أدبُّ الغَوْرَ بعدَ الدكادكِ
لأصحبَ خيرَ الناسِ نفساً ووالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ

فقال النبى ﷺ : « مرحباً بك يا عمرو بن مرة » ، فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ! ابعث بى إلى قومى ، لعل الله أن يمن بى عليهم كما مَنّ بك علىّ ؛ فبعثنى إليهم وقال : « عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » . فأتيت قومى فقلت لهم : يا بنى رفاعة ثم يا بنى جهينة ، إنى رسول من رسول الله إليكم ، أدعوكم إلى الجنة ، وأحذركم النار ، وآمركم بحقن الدماء ، وصلة الأرحام وعبادة الله ، ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ـ شهر من اثنى عشر شهراً ؛ فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . يا معشر جهينة ، إن الله ـ وله الحمد ـ جعلكم خيار من أنتم منه ، وبغض إليكم فى جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث ـ لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه ـ والترات فى الشهر الحرام فأجيبوا هذا النبى المرسل ﷺ من بنى لؤى بن غالب ، تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة سارعوا سارعوا فى ذلك يكون لكم فضيلة عند الله . فأجابوا إلا رجلا منهم قام فقال : يا عمرو بن مرة ! أَمَرَّ الله عليك عيشك ، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ، ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا ، إلى ما يدعو هذا القرشى من أهل تهامة ؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة ، ثم أنشأ يقول :

إن ابنَ مرةَ قد أتى بمقالةٍ ... ليستْ مقالةَ من يريدُ صَلاحا
إنى لأحْسَبُ قولَهُ وفعالَهُ ... يوماً وإن طال الزمانُ رَباحا
أتُسَفِّهُ الأشياخَ ممن قد مضى ... من رام ذلك لا أصاب فلاحا

فقال عمرو بن مرة : الكاذب منى ومنك أمر الله عيشه ، وأبكم لسانه ، وأكمه بصره . قال عمرو بن مرة : والله ما مات حتى سقط فوه ، وكان لا يجد طعم الطعام ، وعمى وخرس . وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبى ﷺ ، فرحب بهم وحياهم ، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله ؛ بكتاب صادق ، وحق ناطق ، مع عمرو بن مرة الجهنى ـ لجهينة ابن زيد ، إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، ترعون نباته وتشربون صافيه ؛ على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وفى التبعة والصريمة شاتان إن اجتمعتا ، وإن تفرقتا فشاة شاة . ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة » .

وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضى الله عنهم . وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

ألم تَرَ أن الله أظهـر دينَـهُ ... وبـين برهـانَ الـقُـرانِ لعـامـرِ
كتـابٌ من الـرحْمن نورٌ لجمْعِنـا ... وأحـلافِـنـا فى كلِّ بادٍ وحـاضرِ
إلى خيرِ من يمشى على الأرض كلها ... وأفضلِهـا عنـد اعتكـار الصرائـرِ
أطـعنـا رسـولَ الله لما تقـطّعتْ ... بطونُ الأعـادى بالـظبى والخـواطرِ
فنحن قبيلٌ قد بُنى المجـد حولنـا ... إذا اجتلبت فى الحـرب هامُ الأكابـرِ
بنـو الحـرب نفريهـا بأيدٍ طويلةٍ ... وبـيضٍ تلالا فى أكُـفِّ المـغـاورِ
ترى حولَـه الأنصـارَ تحمى أميرَهم ... بسُمْـرِ العـوالى والصفـاح البـواتـرِ
إذا الحـرب دارت عند كل عظيمةٍ ... ودارت رَحـاهـا بالـليوثِ الهـواصرِ
تبلّج منـه الـلون وازداد وجهـه ... كمثـل ضياءِ البـدر بين الـزواهـرِ

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه : حدثنا عبد الله ، حدثنا أبو عبد الله ، حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبى ، حدثنى شيخ من جهينة قال : مرض منا رجل مرضاً شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره ، فأغمى عليه ثم فتح عينيه وأفاق ، فقال أحفرتم لى ؟ قالوا نعم ، قال : فما فعل الفُصَل ـ وهو ابن عم له ـ قلنا صالح مر آنفاً يسأل عنك ، قال أما إنه يوشك أن يجعل فى حفرتى ، إنه أتانى آت حين أغمى علىّ فقال : أبك هبل ؟ أما ترى حفرتك تنتثل [1] ، وأمك قد كادت تثكل ؟ أرأيتك إن حولناها عنك بالمحول ، ثم ملأناها بالجندل ، وقذفنا فيها الفُصَل ، الذى مضى فأجزأك ، وظن أن لن يفعل . أتشكر لربك وتصل ، وتدع دين من أشرك وضل ؟ قال : قلت نعم . قال قم قد برئت . قال فبرىء الرجـل ، ومات الفصل فجعل فى حفرته . قال الجهينى : فرأيت الجهينى بعد ذلك يصلى ويسب الأوثان ويقع فيها .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله قال : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مجلس يتحدثون عن الجن ، فقال خريم بن فاتك الأسدى : ألا أحدثك كيف كان إسلامى ؟ قال بلى ، قال إنى يوماً فى طلب ذود [2] لى أنا منها على أثر تنصب وتصعد ، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتى ، وقلت أعوذ بعظيم هذه البلدة ، أعوذ برئيس هذا الوادى ، فإذا بهاتف يهتف بى :

---

(١) أى يستخرج ترابها .

(٢) الذود من الإبل : مابين الثلاث إلى العشر ، إلا يكون حالا من الإناث .

ويحك ، عُذْ بالله ذى الجلالِ　　والمجد والعَلْياء والإِفْضالِ
ثُمَّ آتْلُ آياتٍ من الأنفالِ　　وَوَحِّدِ الله ولا تُبالى

قال فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسي فقلت :

يأيها الهاتفُ ما تقولُ　　أَرُشْدٌ عندك أم تضليل ؟
بَيِّن - هداك الله - ما الحويل

قال فقال :

هذا رسول الله ذو الخيرات　　بيثربَ يدعو إلى النَّجاةِ
يأمر بالبر وبالصلاةِ　　ويزعُ الناسَ عن الهَنات

قال قلت له : والله لا أبرح حتى آتيه وأومن به ، فنصبت رجلى فى غرز راحلتى وقلت :

أرشِدْنى أرشدْنى هُدِيتا　　لاجعتَ ما عشتَ ولا عَرِيتا
ولا برحتَ سيّداً مقيتا　　لا تُؤثر الخيرَ الذى أُتيتا
على جميعِ الجنِّ ما بقيتا

فقال :

صاحبَكَ الله وأدّى رَحْلَكا　　وعَظَّمَ الأَجْرَ وعافا نَفْسَكا
آمن به أفلجَ ربى حقَّكا　　وانصره نصراً عزيزاً نَصركا

قال : قلت من أنت عافاك الله ، حتى أخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال أنا ملك بن ملك ، وأنا نقيبه على جن نصيبين . وكفيت إبلك حتى أضمها إلى أهلك إن شاء الله قال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس أرسال إلى المسجد ، والنبى ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس ، فقلت أنيخ على باب المسجد حتى يصلى ، وأدخل عليه فأسلم ، وأخبره عن إسلامى ، فلما أنخت خرج إلىّ أبو ذر فقال : مرحباً وأهلاً وسهلاً ، قد بلغنا إسلامك ، فادخل فصل ، ففعلت . ثم جئت رسول الله ﷺ فأخبرنى بإسلامى . فقلت الحمد لله ، قال : « أما إن صاحبك قد وفى لك وهو أهل ذلك ، وأدى إبلك إلى أهلك » .

وقد رواه الطبرانى فى ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قائلا : حدثنا الحسين ابن إسحق اليسيرى ، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامى ، حدثنا عبد الله بن موسى الإسكندرى ، حدثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة

قال : قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ! ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامى ؟ قال : بلى ! فذكره ، غير أنه قال : فخرج إلىَّ أبو بكر الصديق فقال : ادخل فقد بلغنا إسلامك ، فقلت لا أحسن الطهور فعلمنى ، فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ كأنه البدر وهو يقول : « ما من مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة » . فقال لى عمر : لتأتينى على هذا ببينة أو لأنكلن بك ، فشهد لى شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته . ثم رواه عن محمد بن عثمان ابن أبى شيبة عن محمد بن تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك : حدثنى بحديث يعجبنى ، فذكر مثل السياق الأول سواء .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشى الدمشقى ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، حدثنا إسماعيل ابن عياش عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى عن عبد الله بن الديلمى قال : أتى رجل ابن عباس فقال : بلغنا أنك تذكر سطيحاً تزعم أن الله خلقه ، ولم يخلق من بنى آدم شيئاً يشبهه ؟ قال : قال نعم ، إن الله خلق سطيحاً الغسانى لحماً على وضم [1] ، ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفان . وكان يطوى من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب ، ولم يكن فيه شىء يتحرك إلا لسانه ، فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتى به مكة ، فخرج إليه أربعة من قريش : عبد شمس ، وهاشم ـ ابنا عبد مناف ابن قصى ، والأحوص بن فهر ، وعقيل بن أبى وقاص ، فانتموا إلى غير نسبهم ، وقالوا نحن أناس من جمح أتيناك ، بلغنا قدومك ، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا . وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية ، وصعدة [2] ردينية ، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا ، هل يراها سطيح أم لا . فقال : يا عقيل ناولنى يدك ، فناوله يده فقال : يا عقيل والعالم الخفية ، والغافر الخطية ، والذمة الوفية ، والكعبة المبنية ـ إنك للجائى بالهدية ، الصفيحة الهندية ، والصعدة الردينية . قالوا صدقت يا سطيح . فقال : والآتى بالفرح ، وقوس قزح ، وسائر الفرح ، واللطيم المنبطح ، والنخل والرطب والبلح ـ إن الغـراب حيث مرّ سنح ، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح ، وأن نسبهم من قريش ذى

---

(١) الوضم : كل مايوقى به اللحم من الأرض ؛ من خشب وحصير ونحوهما .

(٢) الصعدة : القناة تنبت المستوية كذلك . والصفيحة : السيف العريض .

البطح . قالوا : صدقت يا سطيح ، نحن أهل البيت الحرام ، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك . فأخبرنا عما يكون فى زماننا هذا ، وما يكون بعده ، فلعل أن يكون عندك فى ذلك علم ، قال : الآن صدقتم ، خذوا منى ومن إلهام الله إياى .

أنتم يا معشر العرب فى زمان الهرم ، سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ، فيكسرون الصنم ويبلغون الردم ، ويقتلون العجم ، ويطلبون الغنم . قالوا : يا سطيح فمن يكون أولئك ؟ فقال لهم : والبيت ذى الأركان ، والأمن والسكان لينشأن من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان ، وينكرون عبادة الشيطان ، ويوحدون الرحمن ، وينشرون دين الديان ، يشرفون البنيان ، ويستفتون الفتيان . قالوا يا سطيح من نسل من يكون أولئك ؟ قال : وأشرف الأشراف ، والمفضى للأشراف ، والمزعزع الأحقاف ، والمضعف الأضعاف ، لينشؤن الآلاف من عبد شمس وعبد مناف ، نشوءاً فيه اختلاف . قالوا : يا سوءتاه يا سطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ! ومن أى بلد يخرج أولئك ؟ فقال : والباقى الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذى البلد ، فتى يهدى إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ من عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله محموداً ، من الأرض مفقوداً ، وفى السماء مشهوداً .

ثم يلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، فى رد الحقوق لا خرق ولا نزق . ثم يلى أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، ويترك قول العنيف ، قد ضاف المضيف ، وأحكم التحنيف . ثم يلى أمره داعياً لأمره مجربا ، فتجتمع له جموعاً وعصبا ، فيقتلونه نقمة عليه وغضبا ، فيؤخذ الشيخ فيذبح إرباً ، فيقوم به رجال خطبا . ثم يلى أمره الناصر ، يخلط الرأى برأى المناكر ، يظهر فى الأرض العساكر . ثم يلى بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده ، ويأخذ المال ويأكل وحده ، ويكثر المال بعقبه من بعده ، ثم يلى من بعده عدة ملوك ، لا شك الدم فيهم مسفوك ، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطى الدُّرنوك . ثم يلى من بعده عِظَيرّ يقصى الحق ويدنى مصر ، يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً ، ثم يلى قصير القامة ، بظهره علامة يموت موتاً وسلامة . ثم يلى ، قليلا ، باكر ، يترك الملك بائر ، يلى أخوه بسنته سابر ، يختص بالأموال والمنابر . ثم يلى من بعده أهوج ، صاحب دنيا ونعيم مخلج ، يتشاوره معاشره وذووه ، ينهضون إليه يخلعونه ، يأخذ الملك ويقتلونه . ثم يلى أمره من بعده السابع ، يترك الملك محلا ضائع ، بنوه فى ملكه كالمشوه جامع . عند ذلك يطمع فى الملك كل عريان ، ويلى أمره اللهفان ، يرضى

نزاراً جمع قحطان ، إذا التقيا بدمشق جمعان ، بين بنيان ولبنان ، يصنف اليمن يومئذ صنفان : صنف المشورة وصنف المخذول . لا ترى إلا حباء محلول ، وأسيراً مغلول ، بين القراب والخيول ، عند ذلك تخرب المنازل ، وتسلب الأرامل وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل ، وتطلب الخلافة وائل ، فتغضب نزار ، فتدنى العبيد والأشرار ، وتقصى الأمثال والأخيار ، وتغلو الأسعار فى صفر الأصفار . يقتل كل حياً منه ، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار ، تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار ، تظهر الأخيار ، فلا ينفعهم نوم ولا قرار ، حتى يدخل مصراً من الأمصار ، فيدركه القضاء والأقدار . ثم يجىء الرماة ، تلف مشاة ، لقتل الكماة وأسر الحماة ، وتهلك الغواة ، هنالك يدرك فى أعلى المياه . ثم يبور الدين ، وتقلب الأمور ، وتكفر الزبور ، وتقطع الجسور ، فلا يفلت إلا من كان فى جزائر البحور ، ثم تبور الحبوب ، وتظهر الأعاريب ، ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب ، فى زمان عصيب ، لو كان للقوم حيا ، وما تغنى المنى . قالوا : ثم ماذا يا سطيح ؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطَن ، يذهب الله على رأسه الفتن .

وهذا أثر غريب كتباه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم . وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة بن نصر ملك اليمن ، وكيف بشر بوجود رسول الله ﷺ ، وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبد المسيح ، حين أرسله ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . وذلك ليلة مولد الذى نسخ بشريعته سائر الأديان .

تم بحمد الله تعالى المجلد الأول من كتاب البداية والنهاية ويليه انشاء الله المجلد الثانى وأوله باب : (كيفية بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ) أعان الله على إتمامه . .

* * *

وكان الفراغ من طبع المجلد بمطابع **دار الغد العربى** مساء يوم الأربعاء الموافق ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤١١ هجرية الموافق الثانى من يناير سنة ١٩٩١ ميلادية . .

مدير عام المطابع
حمدان جعفر

﴿ الكمـــال لله وحـــده ﴾

نعـم « الكمال للّه وحده » فبرغم حرصنا الشديد على مراجعة النص مراجعة دقيقة ، إلا إنه قد وقعت بعض الاخطاء التى لاتغيب عن فطنة القارىء الكريم . . ونورد فيما يلى الصواب والخطأ الذى وقع فى هذا المجلد . . وبالله التوفيــق . .

صفحة	سطر	الخطــــأ	الصواب
٢٨	١٦	وهو الذى سخر لكم البحر	وهو الذى سخر البحر
٧٩	٤	وقال قرينـــه	قال قرينـــه
٨١	٣	أنه هـــو	إنه هـــو
٨٦	٢ ، ٢١	لأملئـــن	لأمـــلأن
٨٦	٢١	وكلا منها رغدا حيث شئتما	فكلا من حيث شئتما
٩٢	٢٩	وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم	وقلنا اهبطوا بعضكم
٩٣	٥	نفس الخطأ السابق	
١٣١	٢٥	ثم أغرقنا الآخرين وقال رب	الآخرين) ، (وقال نوح رب
١٣٩	١٣	ما أنزل اللـــه	ما نزل اللـــه
١٤٠	١٣	وأما عـــاد	فأما عـــاد
١٤٥	١٢	قم فهينـــم	ثم فهيّـــم
١٤٦	١٤	فســـألتى	فســـألتنى
١٥٠	٣٠	فيأخذكم عذاب عظيـــم	فيأخذكم عذاب يوم عظيم
١٥٢	٢٨	نفس خطـــأ ص ١٥٠	
١٥٤	٣	ونبئهم إن الماء	ونبئهم أن المـاء
١٥٥	١	إذ انبعثت أشقاها	إذ انبعث أشقاها
١٨٤	١٧	ذرتـــى	ذريتـــى
٢٠٠	٢١	أئنكـــم	إنكـــم
٢٠١	٨	ولا تخزونى	ولا تخـــزون
٢٠٢	٢	وإن ربك لهم العزيز الرحيم	وإن ربك لهو العزيز الرحيم
٢٠٢	٢٠	سورة الانشـــقاق	سورة القمـــر
٢٠٣	٢١	ولقد تركناها آيـة	ولقد تركنا منها آية
٢٠٨	٢٥	ذلكم خير لكـــن	ذلكم خير لكـــم

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢١٤	١	إنى عامل فسوف تعلمون	إنى عامل سوف تعلمون
٢١٦	١٢	وقال الملأ من قومه	وقال الملأ الذين كفروا من قومه
٢٦١	٢٤	كان المسبحين	كان من المسبحين
٣٢٦	١١	فأخذتهم الرجفة	فأخذتكم الرجفة
٣٤٨	١٠	وما كان المنتصرين	وما كان من المنتصرين

فهـــرس المجلد الأول

من كتاب البداية والنهاية للإمام الحافظ أبى الفداء إســـماعيل بن كثير

أولا : فهرست الجزء الأول

ثانيا : فهرس الجزء الثانى

